التاريخ السياسى للجمهورية الرومانية

الجزء الأول

منذ نشأة روما حتى عام ١٣٣ ق.م.

الأستاذ الدكتور

محمد السيد محمد عبد الغنى

أستاذ التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

٢٠٠٦



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

صدق الله العظيم

(طه: ٢٥-٢٨)

إهـــــداء

إلي روح أمى الطيبة
دعــــاء بالرحمــــة والمغفـــرة
فى الذكرى السنوية الأولي لوفاتها

شكر وتقدير

للزملاء الشباب فى قسم الجغرافيا
د. إيمان محمود رمزى
د. محمد عبد القادر راشد
لمعاونتهما لي فى إنجاز خرائط هذا الكتاب

محتويات الكتاب

مقدمة

منذ فترة ليست بالقصيرة وأنا أفكر جدياً فى إصدار مؤلف شامل عن تـاريخ الرومان حتى نهاية العصر الجمهورى ولطالما وعدت طلابى بذلك وأجلـت التنفـيذ مراراً وتكراراً. وسبب التأجيل هو إشفاقى من هذه المهمة التى تحتاج إلى وقت وجهد وتفرغ شبه تام من أجل إنجاز مؤلف متميز لـه بصمة ويصلح ليكون مرجعاً مقبولاً وليس مجرد كتاب تدريسى. كما لم أكن أملك ترف الوقت والتفرغ فقد كنت مشغولاً بمهام بحثية وتدريسية وإشراف علمـى وأنجـزت الكثير من الأبحاث بفضل من الله وشاركت فى العديد من المؤتمرات والأنشطة والإشراف العلمى والتحكيم. ووجدت نفسى تواقة الآن للـتخفف نسـبياً مـن الأبحاث فى الجزئيات المختلفة وتخصيص وقت أكبر لإنجـاز مؤلفـات علمـية وتدريسـية فـى مجال اختصاصى وهو التاريخ والحضارة اليونانية والرومانية. ونظراً لأن المهمة شاقة وطويلة وتستغرق وقـتا طويلا –إن كان فى العمر بقية– فقد آثرت أن أبدأ بالمقرر الذى أقوم بتدريسه حالياً عن تاريخ روما فى العصر الجمهورى ثم أستكمل بقية السلسلة إن شاء الله.

ولما كان تاريخ روما منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الجمهورى عام ٤٤ ق.م. طويلاً وممتداً على مدى عدة قرون (العصر الجمهورى وحده يمتد على مدى أربعة قرون ونصف) فكرت أن أصدر هذا المؤلف على مرحلتين: المرحلة الأولى هى الطبعة الحالية (الجزء الأول) الذى يضم تاريخ الرومان حـتى سنة ١٣٣ ق.م. الحاسمة فى التوسعات الرومانية شرق وغرب البحر

المتوســط والــتى شــهدت تدمير نومانتيا العنيدة فى أسبانيا وتحول مملكة برجامون فى آسيا الصغرى إلى ولاية رومانية بعد وفاة آخر ملوكها أتالوس الثالــث الــذى توفى بغير وريث يخلفه. وأشرع بعد ذلك بإذن الله فى كتابة المــرحلة الأخــيرة من تاريخ الجمهورية الرومانية فى مجلد مستقل. فهذه المرحلة الأخيرة معقدة ومهمة إذ شهدت ثورة على بعض الأوضاع المترتبة علــى الفــتوحات الرومانية الجديدة والتى أدت إلى فجوة واسعة بين طبقات المجتمع الرومانى نتيجة لزيادة نفوذ وثراء الطبقات العليا من الأرستقراطيين والنــبلاء علــى حساب العامة. كما أن هذه المرحلة شهدت بروز زعامات فــردية رومانية مثيرة تجاوزت شرعية الدستور الرومانى فى أحيان عديدة والتف حولهم الأنصار والمؤيدون ، وحدثت بينهم صراعات دامية أدت إلى ســقوط الجمهوريــة فى نهاية المطاف عام ٤٤ ق.م. هذه الفترة امتدت من ثــورة الأخويــن جراكوس – الأشراف – على أبناء طبقتهم لانتزاع حقوق مهضــومة لأبناء العامة – وهى الثورة التى بدأت عام ١٣٣ ق.م. كذلك – وحــتى مقــتل يوليوس قيصر آخر زعماء الجمهورية الرومانية ، وهو من عائلــة أرســتقراطية عريقة وزعيم الحزب الشعبى فى روما فى آن واحد ! وكان ذلك فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق.م.

وسأقتصر فى هذا المؤلف بجزئيه على التاريخ السياسى للرومان فى تلــك المرحلة وهى فترة غنية بالأحداث وتثير الكثير من التساؤلات وتطرح العديــد مــن القضايا الخلافية، ولذلك فإنها تحتاج عملاً مستقلاً. أما التاريخ الحضــارى للــرومان فــى تلك الفترة ذاتها فيحتاج مؤلفاً آخر لا يقل أهمية

وعمقـــا، وأرجو الله أن يمنحنى الوقت والصحة وصفاء الذهن لاستكمال هذه المهام العلمية التى أضعها فى مقدمة أولوياتى.

أرجو أن يكون عملى هذا نافعاً ومفيداً لطلاب العلم وقد حرصت فيه على توخى الدقة والرجوع إلى المصادر والمراجع الحديثة المتاحة. عموماً هى محاولة جادة لتحقيق هدف علمى نبيل طالما راودنى، وأختم بقول الله عز وجل : " نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " صدق الله العظيم

(يوسف ٧٦)

محمد عبد الغنى

الاسكندرية فى ١٥ أكتوبر ٢٠٠٥

الباب الأول

أسس وركائز التاريخ الرومانى

مقدمة إلى العصر الجمهورى

الفصل الأول

جغرافية شبه الجزيرة الإيطالية

وأثرها على تاريخها وحضارتها القديمة

جغرافية شبه الجزيرة الإيطالية

وأثرها على تاريخها وحضارتها القديمة

من الطبيعى عندما ندرس تاريخ اية أمة — قديماً او حديثاً — ان نبدأ بالتعرف على موقعها الجغرافى وتقسيماتها التضاريسية والمناخية والسكانية وثرواتها الطبيعية . إن الهدف من هذه المقدمة الجغرافية بعناصرها المتعددة هو أن نرصد بدقة وعن كثب مدى تاثير هذه العناصر على الأحداث التاريخية فى تلك الأمة - سواء فى صورة أفعال أو ردود افعال - وان نعرف معادلات التركيبة السكانية ونتائجها ، وأن نضع فى الاعتبار طبيعة موقع الحدث وهو ما يعطى عمقاً ابعد فى فهمه وتحليله .

إذا نظرنا إلى خريطة شبه الجزيرة الإيطالية المرفقة لوجدنا أنها اشبه بساق بشرية قدمها فى الجنوب الغربى وكعبها فى الجنوب الشرقى ، وتتوسط حوض البحر المتوسط من جهة الشمال ، وتكاد تقسم هذا الحوض إلى نصفين غربى وشرقى ، وبذلك تتميز إيطاليا بموقعها المتوسط فى حوض البحر المتوسط ، ولنستعرض الآن تقسيم الأقاليم الإيطالية من الشمال إلى الجنوب .

- وادى نهر البو :

هو سهل فسيح فى شمال إيطاليا تطوقه من الشمال سلسلة جبال الألب التى تمتد من البحر الأدرياتى شرقاً قرب تريستا حتى اقصى الشمال الغربى لإيطاليا قرب نيس على الريفيرا الفرنسية . وعبر هذا السهل يجرى نهر البو - اعظم انهار إيطاليا - الذى ينبع من جبال الألب فى أقصى الغرب ويسير - بعد أن تغذيه روافد كثيرة تنبع من جبال الألب فى عدة

مواقع - نحو الشرق حتى يصب فى البحر الأدرياتيكى شرقاً . وكانت مياه نهر البو وروافده تحمل الكثير من الرواسب الطميية من جبال الألب وترسبها فى وادى البو مما أسهم فى خصوبة التربة باستمرار .

وفضلاً عن خصوبة التربة فقد تمتعت المنطقة بوفرة المياه وغزارتها طوال العام ، وهكذا توفر لوادى اليو فى شمال إيطاليا أهم مقومات الازدهار الزراعى من وفرة الماء وخصوبة التربة ، ورغم ذلك فإن استزراع المنطقة لم يكن فى أول أمره بالشىء اليسير نظراً لوجود الغابات والمستنقعات فى أماكن وجنبات عديدة من هذا السهل ، ولكن جهوداً بشرية هائلة ومضنية ومستمرة جعلت بالإمكان زراعة الوادى وتعميره حتى أصبح من المناطق الغنية فى إيطاليا .

نتيجة لما سبق أصبح وادى البو مطمعاً لسكان وقبائل المناطق المجاورة التى تقطن جبال الألب أو تعيش فى المناطق الواقعة خلفها شمالاً او غرباً ، وفى ظروف تاريخية عديدة ومناسبات مختلفة كانت هناك إغارات من خارج المنطقة على حوض البو وسهوله وأطماع ومحاولات استقرار واستيطان فبه. وكانت دوافع تلك الإغارات والهجمات والاستيطان إما ظروف اقتصادية صعبة لدى المغيرين جعلتهم يطمعون فى ثروات تلك المنطقة الغنية أو صراعات بين القبائل والأعراق الواقعة خلف جبال الألب فى حوض الدانوب الأوسط وحوض الراين يكون البقاء فيها للأقوى، مما يضطر الطرف الأضعف إلى الرحيل والبحث عن أماكن أخرى كان منها - فى مرحلة ما فى أوائل القرن الرابع ق. م. - وادى البو .

ومن الجدير بالذكر أن جبال الألب لم تكن - كما قد يتصور البعض - ذلك الحاجز المنيع الذى يحمى سهل نهر البو من هجمات القبائل المغيرة وراءها . إن هذه الجبال تضم العديد من الممرات التى تيسر عبور تلك الجبال ، كما أن روافد نهرى الراين والرون وراء تلك الجبال كانت

تسهل الوصول إلى ممرات جبال الألب. كما كانت جبال الألب فى شمال غرب إيطاليا تنفرج عن ممر يسهل عن طريقه الوصول إلى سهل البو فى شمال إيطاليا .

- *بقية أرجاء إيطاليا (جنوب وادى البو) :*

تمتد الساق الإيطالية فى وسط حوض البحر المتوسط من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وتقع بين البحر التيرانى غرباً والبحر الأدرياتيكى شرقاً وتمتد من الشمال إلى الجنوب لمسافة حوالى ألف كيلو متر فى حين لا يزيد عرضها فى أى موقع عن مائتى كيلو متر. وتخترق شبه الجزيرة الإيطالية جنوب البو من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال الأبنين وكأنها تمثل عمودها الفقرى حسب وصف المؤرخ تيتوس ليفيوس XXXVI.15 . هذه الجبال تبدأ من الطرف الجنوبى الغربى من جبال الألب فى شمال غرب إيطاليا وتمتد شرقاً فى صورة قوس مفرطح تقريباً ثم تهبط جنوباً حتى أقصى جنوب شبه الجزيرة مع ميل نحو الشواطئ الشرقية. ترتب على ذلك أن ضاقت **السهول الشرقية** الإيطالية واصبحت محصورة بين مرتفعات الابنين الشرقية العالية وبين البحر الأدرياتيكى فى شريط ساحلى ضيق لا يتسع إلا عند منطقة أبوليا فى الجنوب الشرقى حيث يوجد سهل متسع به مراعى خصبة وغنية . وأبرز مناطق هذا الشريط الساحلى الشرقى الضيق من الشمال إلى الجنوب هى **أومبريا وبيكينوم وأبوليا** ، أما كعب الساق الإيطالية فى أقصى الجنوب الشرقى فتسمى منطقة **كالابريا** . كما تجرى فى هذا الشريط الضيق بعض المجارى المائية القصيرة مثل نه **الروبيكون** شمال أوميريا ونهر **أوفيدوس** فى منطقة أبوليا الجنوبية .

أما عن **طبيعة السواحل الإيطالية** عموماً والتى يبلغ طولها أكثر من ٣٠٠٠ كيلو متر - والسواحل الشرقية خصوصاً - فقد كانت - على

عكس سواحل بلاد اليونان - قليلة التعاريج وشبه مستقيمة وتفتقر إلى الخلجان والموانئ الطبيعية الصالحة للملاحة . ويكفى أن نذكر أنه على امتداد الساحل الشرقى لإيطاليا بأكمله لا نجد إلا ميناءً واحداً جيداً صالحاً للملاحة هو ميناء **برينديزي** Brundisium فى أقصى الجنوب فى منطقة كالابريا. هذا الموقع للشريط الساحلى الضيق فى شرق إيطاليا المحصور بين جبال الابنين وبحر الأدرياتيك ، وكذلك الموارد الفقيرة المحدودة لهذا الشريط سواء من حيث التربة أو قلة المياه وعدم وجود موانى صالحة للملاحة جعل مشاركته فى أحداث التاريخ الرومانى القديمة متواضعة فى كثير من الفترات .

والآن نتجه إلى الشاطئ الغربى أو بالأحرى **السهول الغربية** لإيطاليا . كان من نتيجة انحناء وميل جبال الابنين قبالة وعلى امتداد السواحل الشرقية الإيطالية من الشمال إلى الجنوب أن أصبحت السهول الغربية الإيطالية متسعة وفسيحة بالمقارنة بالشريط الساحلى الضيق فى الشرق . وقد نجم عن ذلك وجود ثلاثة سهول فسيحة تمتد من الشمال إلى الجنوب هى سهول إتروريا (مهد الحضارة الإتروسكية القديمة فى إيطاليا) **ولاتيوم** (الإقليم الذى تنتمى إليه روما والموطن الأول للغة اللاتينية قبل انتشارها) ثم **كامبانيا** فى الجنوب الغربى (وبه عدة مدن شهيرة ضمت هجرات سكانية مبكرة من بلاد الإغريق مثل **كابوا ونابولى** ، كما تقع به مدينة **بومبيى** التى غطتها وحفظت آثارها القديمة حمم بركان لفيزوف المجاور منذ عام ٧٩م) . ونظراً لاتساع تلك السهول نسبياً فإن ذلك ساعد على انحدار أنهار أطول نسبياً ولكنها سريعة الجريان والانحدار تنبع من جبال الإبنين شرقاً وتنحدر غرباً لتصب فى البحر التيرانى إلى الغرب من إيطاليا ، ولعل من أبرز وأشهر هذه الأنهار نهر **الأرنوس** فى منطقة إتروريا ونهر **التيبر** الذى تقع مدينة روما العظيمة عليه قرب مصبه فى البحر التيرانى. وقد تميزت هذه السهول الغربية الإيطالية بخصوبة تربتها

ووفرة مياهها من هذه الأنهار ومن الأمطار الغزيرة التى تسقط على هذه السهول فى فصل الشتاء قادمة مع الرياح الغربية من المحيط الأطلسى. هذا الموقع الطبيعى والتربة الخصبة والمياه الوفيرة جعلت سهول غرب إيطاليا وفيرة الخيرات والثروات ، ومهداً لأشهر الحضارات الإيطالية القديمة قبل نشأة روما وهى الحضارة الإترسكية ، ومكاناً ترنو إليه عيون وأفئدة المهاجرين القادمين من الأصقاع الشرقية مثل الإغريق والفينيقيين . كما جعلتها فى نهاية المطاف مطمعاً للجيران من الفقراء الذين يقطنون فوق جبال الإبنين المجاورة شرقاً حين تضيق بهم سبل الرزق أو تقسو عليهم الطبيعة الخشنة فى منطقتهم .

ورغم أن السواحل الإيطالية بصفة عامة قليلة التعاريج فقيرة فى الموانئ الصالحة للملاحة إلا أن **السواحل الغربية** الإيطالية تعد نسبياً أوفر حظاً وأحسن حالاً من هذه الناحية . لقد توفر لهذه السهول بعض الموانئ الجيدة فى خليج نابولى مثل **نابولى** و**كوماى** وكذلك فى خليج جنوة فى الشمال مثل **جنوة** و**لونا** ، كما تكوّن عند مصب نهر التيبر قرب روما - نتيجة لترسيبات النهر هناك - ميناء شهير هو ميناء **أوستيا** الذى صار ميناء روما، ولكن كثرة ترسيب النهر هناك اضطر الإمبراطور كلاوديوس (٤١ — ٥٤م.) إلى نقل الميناء عدة كيلومترات إلى الشمال من الموقع القديم.

هذه العوامل العديدة التى ذكرناها بخصوص السهول الغربية الإيطالية جعلت منها محور وأساس أشهر الحضارات الإيطالية القديمة قبل ظهور روما وهى **الحضارة الإتروسكية** ، ثم جعلت روما - بعد ظهورها وازدهارها وتوحيدها لشبه الجزيرة الإيطالية - تعطى أولوية قصوى **للاتجاه نحو غرب البحر المتوسط** فى طموحاتها التوسعية والسياسية والاقتصادية ، بل وفى مدها الحضارى والثقافى. ولعل **أبلغ دليل على ذلك**

أن رومـا التى نشأ نظامها الجمهورى عام ٥٠٩ ق. م. لم تتجه إلى شرق البحر المتوسـط لتتوسع فيه وتحاول السيطرة عليه إلا مع بدايات القرن الثانى ق. م. حـين كانـت قـد أكملـت سـيطرتها تقريـباً عـلى غـرب البحر المتوسط وضـمنت هيمنـتها عليـه بـلا مـنازع بعـد تحطيـم قوة منافستها الرئيسية هناك وهى دولة قرطاجة .

وبعـد أن استعرضـنا الظـروف الجغرافيـة والطبيعيـة لأقاليـم شرق ثم غـرب لإيطاليـا ننـتقل الآن للحديث عن ظروف منطقة **جبال الابنين** التى أشـرنا إلى أنهـا تشبـه العمـود الفقـرى لإيطاليا من الشمال إلى الجنوب . وقد كانـت هـذه الجبال تشكل حاجزاً طبيعياً يفصل بين أقاليم غرب إيطاليا وشـرقها ، ونظـراً لظـروفها الطبيعـية والمناخـية القاسـية وفقـر مواردهـا بالمقارنـة بالسهول المجاورة - لا سيما الغربـية منها - إذ اعتمد سكانها على قطـع الأشـجار مـن الغابـات وعـلى رعى الماشية والأغنام ، فإن هذه الظروف القاسـية انعكسـت عـلى طـباع سكانها الذين كانوا محاربين أشداء شرسين يغـيرون عـلى جيرانهـم المـتعمين فـى السـهول الغربـية لنهـب بعـض خيراتهم كـلما قسـت علـيهم الطبـيعة وكشرت عن أنيابها . **ومن أبرز القبائل** من سـكان جـبال الأبـنين الذيـن سـببوا صـداعاً مزمـناً لسكان السـهول الغربية الإيطالـية - ولـروما حـين بـدأت تبسـط سـيطرتها عـلى جيرانهـا فـى لاتيوم وكمبانـيا - قـبائل **السابين** و**الأيكوى** و**الهيرنـيكى** و**الفولسكى** فى مناطق الأبنين المقابلة لإقليم لاتيوم ، وقبائل **السمنيين** الشرسة المقاتلة التى تقطن إقليـم **سامنيوم** الواقعـة فـى الجـزء الجنوبى من جبال الأبنين قبالة سهول كمبانـيا. وحتى بعد أن تدين السيطرة والهيمنة لروما على كافة أرجاء إيطاليا نجد سكان تلك الجبال يتحينون أى فرصة ضعف أو ومأزق سياسى أو عسكرى لـروما للإنقـلاب علـيها والإنضـمام لخصـومها او لهذا أو ذاك من زعمائها المتناحرين حتى أواخر عصر الجمهورية فى القرن الأول ق. م.

ومن الجدير بالذكر أن سلسلة جبال الابنين تتفرع من جبال الألب فى شمال غرب إيطاليا **عند جنوة** وتمتد جنوباً فشرقاً مكونة الحد الجنوبى لسهل البو (الذى اصبح يعرف لاحقاً بالغالة القريبة *Gallia Cisalpina*) ، وفى هذه المنطقة فإن جبال الابنين تكون متوسطة الارتفاع ويتراوح ارتفاعها ما بين ٩٠٠ - ١٢٠٠ متر . وحين تصل إلى **قرب اريمنيوم** شرقاً تتجه جنوباً مع ميل نحو الشرق حتى تكاد تحاذى ساحل الأدرياتيك شرقاً ، وتزداد ارتفاعاتها حتى تصل فى وسط الأبنين إلى **٢٩٢١ متراً**. ثم حين تقترب من إقليم لوكانيا فى الجنوب تنخفض ارتفاعاتها مرة اخرى وتنحرف غرباً لتشغل تقريباً معظم جنوب غرب إيطاليا . ولا ينبغى تصور أن جبال الأبنين تشكل سلسلة متصلة لا تنقطع ، بل أنها تتألف من كتل جبلية متشابكة تتفاوت فى اتساعها تتخللها بعض الممرات والوديان الخصيبة الصالحة للزراعة أو الرعى. ولابد من التنويه بأن **جبال الأبنين هى التى تغذى معظم الأنهار الإيطالية المتوسطة والصغيرة** (كالتيبر والأرنوس وليريس والروبيكون وأوفيدوس) بالمياه ، ولكن بكميات متفاوتة حسب مقدار الأمطار التى تسقط عليها والثلوج التى تتراكم على قممها شتاءً وتذوب صيفاً .

ثم ننتقل اخيراً إلى **جنوب غرب إيطاليا** لنجد منطقة **لوكانيا** الجبلية وامتدادها فى القدم الإيطالية فى منطقة **بروتيوم**. وقد سكن هذه المنطقة من جنوب إيطاليا - وغيرها من المناطق بالقرب منها - **أعداد كبيرة من المهاجرين الإغريق** منذ أواخر القرن الثامن حتى القرن الخامس ق. م. بالإضافة إلى **سكانها الأصليين من الإيطاليين**. هذا الموقف خلق قدراً من الصراع بين السكان الإيطاليين والعناصر الإغريقية الأصل مما حدا بروما إلى التدخل إلى جانب هذا الطرف أو ذاك حسب مصالحها .

ونـوه - اخيراً ولـيس آخـراً - أن كـلمة **إيطاليا** ربمـا كـانـت تعنـى "ارض العجـول " (ربمـا حُرّفـت عـن كـلمة *Vitelia* المـاخوذة عـن الكـلمة اللاتينية *Vitulus* بمعنى " عجل ") . ويبـدو أن التسمية أطلقت فى الأصل عـلى النصـف الجـنوبى مـن القـدم الإيطالـية فـى أقصـى الجـنوب الغـربى . وبحلـول عـام ٤٥٠ ق. م. أصبحت تعنـى كـل المنطقة الواقعة جنوب غرب شبه الجزيرة التى سكنها لاحقاً البروتيي (بروتيوم) ، وضمت إليها لوكانيا بحلـول عـام ٤٠٠ ق. م. وبحلـول القـرن الثالـث ق. م. صـارت كـلمة إيطاليا تعـنى كـل شبه الجزيرة الإيطالية الواقعة جنوب ليجوريا والغالة القريبة فى حوض نهر البو. وبعد موت يوليوس قيصر فى ٤٤ ق. م. أصبحت الغالة القريبة كذلك جزءاً من إيطاليا .

أمـا إذا انتقلنـا إلى **مـناخ إيطاليا** فإنـه عـلى وجـه العمـوم مـناخ البـحر المتوسـط الـذى يتسـم بأنـه حـار جـاف صيفاً ودافئ ممطر شتاءً ، ولكن مع بعـض الـتفاوت بـين مـناطقها المخـتلفة بسـبب الامـتداد الجغـرافى الكـبير لإيطالـيا مـن الشـمال إلى الجـنوب واخـتلاف الظـروف الطبيعـية - كمـا أوضـحنا - بـين شـرق إيطالـيا وغـربها ، وكذلـك تـبعاً لارتفـاع المكـان أو انخفاضـه عـن مستوى سـطح البـحر . فشمال إيطاليا أقرب إلى مناخ وسط أوروبا حيث تشتد البرودة شتاءً وتتميز فيه الفصول الأربعة تميزاً واضحاً . أمـا الجـنوب والغـرب الإيطـالى فهمـا أكـثر مطـراً شـتاءً وأكـثر اعـتدالاً بفضل المؤثرات الدافئة الآتية من المحيط الأطلسى . أما الشرق فمحروم من تلك المؤثـرات الدافـئة وأكـثر تعرضاً للـرياح البـاردة الـتى تهـب عليـه من شرق أوروبا. وهكذا نجد السواحل الغربية والجنوبية من إيطاليا هى أقرب الأقاليم الإيطالية لمناخ البحر المتوسط التقليدى .

أما عن **الثروة الطبيعية** فى إيطاليا فقد اشتهرت إيطاليا منذ العصور القديمـة بالـزراعة وتربـية الحـيوانات. وقـد اشـتهرت سـهولها - لا سـيما

الشمالية والغربية - بإنتاج **الحبوب** مثل القمح والشعير والذرة وبعض أنواع البقول. كما ازدهرت فى إيطاليا - وخصوصاً منذ القرن الثانى ق. م. - زراعة أشجار **الكروم والزيتون** على حساب زراعة الحبو ب، وهو ما سيفرز نتائج سياسية واجتماعية خطيرة سنراها فيما بعد. كما انتشرت - بعد فتوحات روما فى شرق البحر المتوسط - زراعة **أنواع أخرى من الفاكهة** استقدمت من الشرق كالتفاح والكمثرى. كما كانت إيطاليا غنية **بالغابات** ، خصوصاً فوق وعلى سفوح جبال الألب والابنين وفى وادى البو ووادى التيبر وروافده فى جنوب إتروريا وإقليم لاتيوم. وقد أتاحت الثروة الخشبية من الغابات الإيطالية الفرصة لاستخدامات متعددة لها فى مجالات البناء وصناعة الأثاث وبناء السفن. ولكن بمرور الوقت واستمرار قطع الأخشاب من تلك الغابات قلت ثروة إيطاليا من الغابات نسبياً وحلت المراعى الغنية محل المساحة المقطوعة من الغابات .

أما عن **الثروة المعدنية** فى إيطاليا فقد كانت فقيرة نسبياً. فلم يوجد بإيطاليا سوى بعض مناجم **النحاس** فى الأقاليم الشمالية فى ليجوريا وإتروريا، وكانت هناك كميات كبيرة من **خام الحديد** فى إقليم إتروريا وجزيرة إلبا المقابلة له ، وهذا ما ساعد على سد حاجة إيطاليا من هذين المعدنين . كما توفرت فى أرجاء إيطاليا أنواع **أحجار البناء** - بما فيها الرخام الممتاز - من المحاجر الإيطالية ، كما كانت أقاليم إتروريا ولاتيوم غنية **بالصلصال** الذى تصنع منه أنواع من الاجر والقرميد والأوانى الفخارية.

هكذا رأينا قدراً من المعلومات الجغرافية عن شبه الجزيرة الإيطالية يتيح لنا فهماً أعمق لما سيتلو من أحداث تاريخية ، أما عن **الجزر الكبرى** المحيطة بشبه الجزيرة الإيطالية مثل **صقلية وكورسيكا وساردينيا** فليس هنا مجال الحديث عنها. فهذه الجزر لم تكن وثيقة الصلة بشبه

الجزيـرة الإيطالية فى العصور القديمة ، وشهدت هجرات قادمة من الشرق مـن الفينيقـيين ثـم الإغـريق ممـن اسـتوطنوا تلـك الجزر . ولذلك فإن من الأنسب الحديث عن تلك الجزر فى المرحلة التى بدات تلعب فيها دوراً مؤثـراً فـى الـتاريخ الرومانى خلال الحرب البونية الأولى (٢٦٤ — ٢٤١ ق. م.) وفـى أعقابها. حيث دارت معظم احداث تلك الحرب على ارض صقلية وحولها، وانـتهى الصراع فيها بين روما وقرطاجة بانتصار روما فى نهاية المطاف وضم صقلية (٤٢ ق. م.) ثم بعد ذلك كورسيكا وساردينيا (٢٣٨ ق. م.) كولايات رومانـية بما فـى تلك الجـزر مـن مسـتوطنات ومـدن فينيقـية وإغريقـية ، باسـتثناء مملكـة سـيراكيوز فـى صـقلية الـتى احتفظت باستقلالها ولكن مع الالتزام بالولاء للرومان .

واخيراً نخلص - فيما يتعلق بشبه الجزيرة الإيطالية ذاتها - إلى بعض الحقـائق المترتـبة عـلى تكويـنها الجغـرافى الطبـيعى والمـناخى والبشـرى نوجزها فيما يلى :

(١) ان وجود روما فى موقع متوسط من شبه الجزيرة الإيطالية ساعدها - إلى جانب عوامل اخرى - فى بسط سيطرتها على المدى الطويل(حوالى قرنين ونصف) على أرجاء إيطاليا وإقامة اول وحدة إيطالية فى التاريخ القديـم بـزعامة رومـا حـوالى عـام ٢٦٥ ق. م. كمـا أن موقـع إيطالـيا المتوسـط فـى حـوض الـبحر المتوسـط مكّن رومـا - بعـد السـيطرة عـلى إيطالـيا - مـن التوسـع غـرباً ثـم شـرقاً فـى حـوض الـبحر المتوسط حتى صارت إمبراطورية شاسعة المساحة مع أواخر القرن الثانى ق. م. وعلى مـدى القـرن الأول ق. م. حـتى سـقوط الجمهوريـة عـام ٤٤ ق. م. وهـو التوسـع الـذى جعـل الكـتاب الـرومان يُطلقـون عـلى الـبحر المتوسـط فـى كتاباتهم تعبير " مجرنا *Mare nostrum* " .

(٢) أن تحقيق الوحدة الإيطالية تحت زعامة روما لم يكن أمراً يسيراً او سهل المنال بسبب العوائق الجغرافية الطبيعية - فضلاً عن المقاومة الشرسة العنيدة أحياناً - ولذلك استغرقت تلك المهمة ردحاً من الزمن ومجهوداً هائلاً . فمن ناحية العوائق الجغرافية الطبيعية راينا كيف كانت جبال الإبنين الوعرة فاصلاً جغرافياً بين شرق إيطاليا وغربها وكذلك بين شمالها وجنوبها ، فضلاً عن خطورة سكان هذه الجبال وشراستهم ، وعلى راسهم السمنيون. كما لم يكن هناك نهر واحد طويل يربط إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها مثل نهر النيل بالنسبة للحضارة المصرية القديمة أو نهرى دجلة والفرات بالنسبة لحضارات وادى الرافدين، بل كانت أنهار إيطاليا - باستثناء نهر البو فى الشمال - أنهاراً قصيرة سريعة الجريان وتتفرع من جبال الابنين غرباً أو شرقاً لتجرى فى مساحات محددة من شبه الجزيرة .

وهكذا فإن عوامل الفصل بين الأقاليم الإيطالية القديمة كانت أكبر من عوامل الوصل. ولكن الإرادة الرومانية الصلبة وحسن التخطيط والتنظيم جعل روما تتغلب على تلك العوائق الطبيعية بإنجاز بشرى ضخم يتمثل فى شبكة الطرق الضخمة التى أقامها الرومان بين روما وكافة المدن والأقاليم الإيطالية، بل وبين روما وبقية أرجاء ولايات الدولة الرومانية خارج إيطاليا. وعلى هذا سار المثل الشائع حتى يومنا هذا "كل الطرق تؤدى إلى روما *Omnes Viae ad Romam* ". وعلى هذه الطرق سارت الحملات العسكرية الرومانية والقوات الرومانية والحليفة ، كما سارت قوافل التجارة بين أرجاء الإمبراطورية الرومانية فترة طويلة من الزمن.

الفصل الثانى

مراكز الحضارة والعمران القديمة

فى إيطاليا قبل ظهور روما

مراكز الحضارة والعمران القديمة فى إيطاليا

قبل ظهور روما

يُنسب التاريخ الرومانى فى كافة مراحله منذ العصر الملكى مروراً بفترة الجمهورية الرومانية وحتى الإمبراطورية الرومانية إلى مدينة بعينها فى شبه الجزيرة الإيطالية وهى " روما ". وهذا الأمر يحمل دلالة واضحة لا تخطئها العين ولا الإدراك وهى أن روما ورجالاتها ومؤسساتها هى التى لعبت الدور المحورى والحاسم فى قيادة وحكم وسياسة تلك الدولة والأمة والإمبراطورية المتنامية فى كافة مراحلها التاريخية الممتدة التى سنتطرق إليها بالتفصيل فيما بعد. ولكن هل يعنى هذا أن روما " وحدها " هى التى أمسكت بخيوط تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية القديم وتحكمت فى مقدراتها بحيث اختزلت تاريخ إيطاليا كلها فى تاريخ روما؟.

لا يمكن القول بذلك على إطلاقه لسببين :

أولهما : أن هناك بعض الملامح والقرائن الأثرية المتفرقة. من أرجاء عديدة فى إيطاليا تكشف النقاب عن وجود حضارات غابرة فى تلك المناطق قبل نشأة روما . وقد كان لتلك الحضارات وجود ونشاط عمرانى تظهر لنا مخلفاته الباقية القليلة بعضاً من ملامحه الباهتة التى أثارت جدلاً بين علماء الآثار. وسنشير هنا فى عجالة إلى أهم تلك القرائن .

ثانيهما: أنه حتى فى المراحل التاريخية اللاحقة حين تأسست روما وأقامت نظاماً ملكياً (امتد على الأرجح فيما بين ٧٥٣-٥٠٩ ق.م. حسب الروايات الرومانية التقليدية) لم تنعم تلك المملكة الرومانية فى

أواخر مراحلها بالهدوء والسلام بل تعرضت لغزو من قبل جيرانها الشماليين من الإتروريين (الإتروسكيين) تخلصت روما منه مع نهاية الملكية وقيام الجمهورية كما سنرى . وحتى عندما قويت شوكة روما خلال المرحلة المبكرة من تاريخ روما الجمهورى (٥٠٩-٢٦٥ ق.م.) والتى انتهت بتوحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت لواء روما لم يكن هذا بالأمر الهين أو اليسير. لقد خاضت روما خلال تلك الفترة سلسلة من الصراعات العنيفة الشرسة ضد جيرانها الإيطاليين ومُنيت بعدد من الهزائم والإخفاقات الخطيرة أحياناً، ولولا الإرادة الرومانية القوية التى لا تلين والتى كبحت جماح تلك الشعوب لما تحقق هذا الإنجاز الرومانى الكبير. لقد ضربت روما مثلاً فى قوة الإرادة والصمود والإصرار على تحقيق الهدف مهما تكن الصعوبات على الرغم من أن سياستها نحو جيرانها كانت تتسم بنزعة عدوانية توسعية أملتها - فى البداية - ظروف قهرية دفاعية تتمثل فى شراسة بعض هؤلاء الجيران ومحاولاتهم التعدى على روما.

وحتى بعد أن أخضعت روما جيرانها الإيطاليين جميعاً لسيادتها مع حلول عام ٢٦٥ق.م. لم يكن هذا الخضوع هادئاً ولا مستقراً ، بل كان - فى بعض المناطق الإيطالية الثائرة التى ظلت دوماً شوكة فى جنب روما - كالجمر تحت الرماد. لقد كانت بعض الشعوب الإيطالية التى خضعت لروما كرهاً وبحد السيف - مثل مناطق الغالة وإتروريا وسامنيوم - تتحين فرص كبوات أو نكسات روما من حين لآخر لتتمرد عليها وتنضم إلى صفوف أعدائها وذلك حتى أواخر العصر الجمهورى كما سنرى .

نعود الآن لنلقى بعض الضوء الخافت - بحكم ندرة المصادر - على بعض عناصر الحضارات المبكرة الغابرة التى ظهرت فى مناطق متفرقة من إيطاليا. مرت إيطاليا بسلسلة من الهجرات قبل أن تتشكل الملامح الاساسية لشخصية سكانها القدماء . تتبع علماء حضارات ما قبل التاريخ مراحل ظهور الإنسان المبكر فى إيطاليا، وهم يعتقدون أن الإنسان العاقل *Homo - Sapiens* ظهر فى إيطاليا منذ خمسين ألف سنة قبل الميلاد عندما ذاب الجليد وبدأ الدفء. ثم مرّ هذا الإنسان بفترات العصر الحجرى القديم، وقد كشف علماء الآثار فى إيطاليا عن بقايا من الهياكل العظمية فى صقلية وشمال إيطاليا. ولم يترك إنسان تلك الفترة من مخلفات سوى بعض أسلحة وأدوات من حجر الصوان، واستمرت حياته على هذا النحو حتى ظهرت ملامح حياة جديدة أطلق عليها " العصر الحجرى الحديث" . ويحدد العلماء عمر هذه المرحلة بالفترة ما بين ٥٠٠٠- ٢٠٠٠ق.م.)، وتعد هذه المرحلة استمراراً للعصر الحجرى القديم حيث استمر الإنسان فى إيطاليا وحوض البحر المتوسط ووسط أوروبا فى استخدام الحجر ولكن - هذه المرة - بعد شحذه وتهذيبه. وقد ظهر فى إيطاليا عنصر سكانى أطلق عليه العلماء "رجل البحر المتوسط"، ويعتقد العلماء أنه دخل إلى إيطاليا من شمال أفريقيا عبر صقلية ومالطة، كما دخل إلى إسبانيا عن طريق مضيق جبل طارق ثم اجتاح سواحل إسبانيا وفرنسا ووصل إلى شمال إيطاليا. وقد عاش هؤلاء على جمع الثمار وصيد الحيوانات رغم معرفتهم بالزراعة والرعى، وأقاموا فى أكواخ وكهوف واستخدموا بعض الأوانى الفخارية والأسلحة الحجرية .

ويأتى بعد العصر الحجرى الحديث عصر النحاس أو عصر البرونز الذى يمتد على مدى الألف الثانى ق.م. (٢٠٠٠- ١٠٠٠ق.م.) وأهم حضاراته فى إيطاليا : (أ) حضارة البالافيتى *Palafitte* : وهؤلاء ينتمون إلى العنصر الهندو- أوروبى واندفعوا جنوبا عبر منافذ جبال الألب فى شمال إيطاليا

واستقروا فى السهول الإيطالية الغربية. وكان هؤلاء المهاجرون الجدد يتحدثون لغة هندو - أوربية ويعرفون النحاس ويستخدمونه فى أدواتهم وأسلحتهم، وكانوا يمارسون صيد السمك من البحيرات وصيد الحيوانات البرية ويسكنون أكواخاً مقامة على ركائز خشبية وسط البحيرات. وكانوا يقومون بحرق موتاهم ويحتفظون برفاتهم فى جرار فخارية وهو ما يرجح عدم اعتقادهم فى البعث بعد الموت[1] . (ب) حضارة التزامارا حوالى ١٥٠٠ ق.م.: وقد ظهرت فى سهل "بو " فى شمال إيطاليا، وتعتبر امتدادا لسكان وسط أوروبا عبر جبال الألب. وقد سكن هؤلاء السهول وبنوا أكواخهم كذلك على ركائز خشبية، وقد أطلق العلماء المحدثون على حضارتهم أسم *Terramara* بمعنى " الأرض الخصبة السوداء" حسب اللهجة المحلية لأهل المنطقة (فى الأصل *terra marna*) وذلك فى إشارة إلى جودة أراضى تلك المنطقة فى شمال إيطاليا . أما عن اقتصادهم فقد ارتكز على قنص الحيوانات البرية ورعى الماشية والأغنام والزراعة، كما أن هناك قرائن تشير إلى صلات تجارية لهم عبر جبال الألب وبحر الأدرياتيك. وفى التعدين كان أهل تلك الحضارة يقومون باستخراج واستخدام النحاس. وكان سكان التزا مارا يحرقون كذلك جثث موتاهم. ويشار إلى حضارتهم أحيانا باسم حضارة الابنين *Apenine Culture*[2].

وفى الجزء الأخير من عصر البرونز (١٥٠٠-١١٠٠ق.م.) نرى الموكينيين الإغريق وقد وصلوا بتجارتهم إلى الشواطئ الإيطالية غرباً وأقاموا لهم مستوطنات هناك . وقد سبق الموكينيين إلى معرفة إيطاليا أهل كريت وجزر بحر إيجه . وقد توغل النفوذ والتأثير الموكينى فى إيطاليا حتى أقصى الغرب الإيطالى، بل أنه يبرز بوضوح فى جزيرتى صقلية وسردينيا اللتين كانتا من أهم المناطق التى ظهرت فيها معالم الحضارة الموكينية خلال عصر النحاس والبرونز . ويبرز هذا التأثير جلياً فى بقايا القلاع والأبراج والأسوار الضخمة التى تماثل نظائرها فى الحضارة الموكينية.

ومما لا شك فيه أن هذه التأثيرات انتقلت إلى هناك من خلال النشاط التجارى والبحرى القادم من مناطق الحضارة الموكينية فى جنوب بلاد اليونان .

ثم ننتقل تدريجيا من عصر النحاس والبرونز إلى عصر الحديد وهو العصر الذى شاع فيه استخدام معدن الحديد. هذا التحول تم فى إيطاليا حوالى عام ١٠٠٠ق.م. حيث انتقل إليها الحديد من مناطق الشرق الأدنى التى كانت أول من عرفته وتم ذلك الانتقال عبر البلقان وجنوب إيطاليا .

أما عن أبرز حضارات ومراكز العمران فى إيطاليا من عصر الحديد فإنها على النحو التالى :

- حضارة "فيللا نوفا" وتشتق اسمها من ضيعة فيللانوفا القريبة من بولونيا فى شمال شرق إيطاليا والتى جرت فيها فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى حفائر للكشف عن الدفعة الأولى من مقابر وجبانات عديدة من العصر الحديدى فى عدة مقاطعات فى شمال شرق إيطاليا مثل بولونيا وفاينزا وفورلى ورافنا . ولكن مسمى حضارة " الفيللانوفا" لم ينطبق فقط على هذه المجموعة من الجبانات من القرن التاسع ق.م. فصاعدا وإنما كذلك على الجبانات المعاصرة لها الواقعة إلى الجنوب من جبال الابنين (فى شمال غرب إيطاليا) حول بعض المراكز التى لم تكن ماهولة بالسكان فى عصر الحديد ولكنها ستصبح لاحقاً مدناً إترورية عظيمة الشان . كما أن ظاهرة حضارة الـ " فيللانوفا " تمتد جنوباً إلى بعض المناطق فى إقليم كامبانيا .

وتتسم حضارة الفيللانوفا سواء شمال أو جنوب الابنين بحرق رفات الموتى ووضعها فى أوانى مخروطية الشكل مخصصة لهذا الغرض ذات زخرفة غائرة ويعتقد العلماء أنه لم يكن هناك شعب أو جماعة عرقية يمكن أن نطلق عليها " الفيللانوفيين " بحيث يمكن معه القول بأن

الإتـروريين (الإتروسـكيين) قـد حلوا محلهم فـيما بعد أو غزوهم. ويمكن القـول - فـى واقـع الأمـر - أن السـكان المحلـيين أصـحاب تلـك الحضـارة الفيللانوفـية مـن القـرنين التاسـع والـثامن ق.م. فى إقليم إتروريا يمكن أن يطلـق عليهم بثقة "الإتروسكيون" فى مرحلة عصر الحديد، وأنهم كانوا فـى موقـع المستقبل للـتأثيرات الآتـية إلى شواطئ ساحل البحر التيرانى (فى غـرب إيطاليا) مـن العالم الخارجى. وقد بدأت هذه التأثيرات فى القدوم إلى إيطاليا فى النصف الأول من القرن الثامن ق.م. حيث كان التجار الإغريق وغيرهـم- قـبل إقامـة السـوق الـتجارى *emporion* الخـاص بـأهل جزيـرة يوبويـا الإغـريق عـلى جزيـرة بيثـيكو سـاى القريـبة من نابولى فى جنوب غـرب إيطاليـا- حريصـين عـلى ارتـياد واستكشاف مـوارد وثـروات المنطقة الغنـية بالمعـادن فـى شمـال غـرب إتروريا. وفى جنوب إتروريا فإن الانتقال مـن الحضـارة الفيللانوفـية إلى المؤثـرات الشـرقية ومـنها إلى الإتروسـكية اكـتمل مـع بدايـة القـرن السابع ق.م. وبحلول ذلك الوقت كذلك كانت هناك قرائن لا بأس بها على وجود صلات تجارية وحضارية ومبادلات عبر الأبنين لاسيما بين فيي وبولونيا (بونونيا).

ولكـن مـن سـوء الحظ أن معرفتنا بالحضارة الفيللانوفيـة مستقاة إلى حـد كـبير مـن شـواهد جـنائزية. مـن هـذه القـرائن يمكـن أن نستنتج أن الاقتصـاد الفيـليلانوفى كـان قائمـاً على الزراعة وتربية القطعان والصيد والقـنص، كمـا تـدل شـكائم (لجامـات) الخـيول الكـثيرة فـى المقابـر عـلى اسـتخدام موسـع للخيول. وبحلول منتصف القـرن الثامن ق.م. على الأقل فـإن النوعـية الجيـدة مـن الفخار ومـن البرونـز تـبرهن على أن إنتاجهما قد أصبح فى أيدى حرفيين متمرسين[٣] .

ثـم نـأتى للحديـث عـن الإتروسـكيين، وقـد سـبق أن نوهنـا قبل قليل أنهم - من زاوية عالم الآثار وحسب افتراض أحد العلماء[٤] - السكان المحليون

لحضارة الفيللانوفا المحلية بين نهرى الأرنو والتيبر فى شمال غرب إيطاليا الذين ازدهرت أحوالهم على مدى القرنين التاسع والثامن ق.م. من خلال اهتمام العالم الخارجى (خاصة من التجار الإغريق) بالثروات المعدنية فى منطقتهم، ثم تمكنوا خلال القرن السابع ق.م. من اقتناء سلع الرفاهية وأدوات الزينة من شرق البحر المتوسط كما يتجلى فى طرز مقابر أمرائهم. وقد ثار جدل بين المؤرخين القدماء حول أصول الإتروسكيين إذ يرى هيرودوت حوالى منتصف القرن الخامس ق.م. أنهم وفدوا من ليديا فى آسيا الصغرى(*Herodotus I.* 94) ، أما المؤرخ اليونانى ديونيسيوس الهاليكارناسى من النصف الثانى من القرن الأول ق.م. فقد أبرز أوجه الاختلاف بين لغة الإتروسكيين والليديين وخلص إلى القول بأن الإتروسكيين لا بد أنهم من أصول إيطالية محلية (*Dionys. Hal., I.* 26- 30) وقد أيد بعض العلماء الرأى الأخير من أن الحضارة الإتروسكية حضارة إيطالية محلية وكان آخر هؤلاء العلماء *D.Briquel*[(٥)] الذى أوضح أن الرواية الشهيرة عند هيرودوت عن خروج الليديين - تحت وطأة المجاعة- بقيادة تيرسنوس ابن آتيس ملك ليديا من ليديا إلى إيطاليا هى رواية سياسية مفبركة عن عمد تمت صياغتها فى محيط متاغرق فى بلاط سارديس عاصمة ليديا فى أوائل القرن السادس ق.م. وجدير بالذكر أن هيرودوت نفسه لا يؤمن على الرواية بل يشير إلى أنها ما ذكره الليديون . وجدير بالذكر أن المؤرخين الإغريق يطلقون اسم الـ " تيرسينوى *Tyrsenoi* أو الـ " تيرينوى *Tyrrhenoi* - نسبة إلى تيرينوس ابن آتيس - على الإتروسكيين ، أما مسمى الإتروسكيين *Etrusci* أو التوسكيين *Tusci* فقد أطلقه الرومان على جيرانهم فى الشمال الغربى .

ومن الجدير بالتنويه أن التواصل فى الإستيطان وفى الثقافة الأساسية للقرنين الثامن والسابع ق.م. فى المراكز الفيللانوفية

الإتروسكية السائدة صاحبه تطورات كبرى فى المجتمع وفى الانتاج الفنى. إن مقابرهم الغنية بالزخارف والأثاث التى اشتهروا بها تظهر تأثيرات إغريقية وشرقية وتبدو على المسرح بصورة فجائية مما يوحى بوصول عنصر ثقافى وحضارى جديد. ويبدو أن ديانة هذا العنصر الجديد وعلم الفلك لديه يتضمن عناصر شرقية. كما أن هناك آلافاً من النقوش المكتوبة بالأبجدية اليونانية - معظمها من شواهد القبور- تؤرخ بالفترة من القرن السابع ق.م. حتى عصر الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م. - ١٤م.) ولكن لغتها تبدو خارجة عن إطار اللغات الهندو - أوربية ولا ترتبط مباشرة بأية لغة معروفة، وبقيت إلى حد كبير طلاسم تستعصى على التفسير على الرغم من أن صوتياتها وبُنيتها الصرفية مفهومة. كما تحتوى المقابر الإتروسكية التى تتخذ شكل منازل - فضلاً عما سبق - على رسومات حائطية تبين المدفونين فى المقبرة فى ممارستهم لنواحى حياتهم اليومية وهم على قيد الحياة، وكذلك على منحوتات تعج بالحيوية وصوراً شخصية للمتوفى تتسم بالواقعية. كما كانت مشغولاتهم المعدنية متميزة وتصدر على نطاق واسع. إن ذئبة الكابيتول (التى ترضع ريموس ورومولوس) رمز روما ، والخيميرا (الوحش الأسطورى الإغريقى الذى ينفث النار وله رأس أسد وجسد ماعز وذيل حية) الموجودة فى أريتيوم (أريزو) هى من مشغولات البرونز الإتروسكى .

وقد اشتهر الإترוريون فى العالم القديم بتقنين كل جانب من جوانب حياتهم العامة والخاصة من خلال مجموعة من القوانين ذات الصيغة الدينية المستمدة من الدين، وعرفت هذه القوانين بالنظم الإتروسكية *Etrusca disciplina* . كما اكتسبوا سمعة خاصة ومهارة متميزة فى العرافة والتنبؤ من خلال إمعان النظر فى أحشاء حيوانات الأضحيات، وخصوصاً كبد تلك الأضحيات. وقد كانت روما القديمة تدين بدين كبير فى فن العرافة والتنبؤ وغيره من الأمور كالعمارة

والهندسة للإتروريين . وقد أفصح عن هذه الحقيقة أحد كبار الساسة الرومان من النصف الأول من القرن الثانى ق.م. وهو ماركوس بوركيوس كاتو (الرقيب) الذى اعتبرهم سادة إيطاليا بأسرها تقريباً. وكان الإتروسكيون يعتبرون من الناحية التاريخية والفنية أهم الشعوب المحلية (القومية) فى إيطاليا قبل ظهور روما . ومما يدل على تلك الأهمية لإتروريا والإتروسكيين أن الإمبراطور الرومانى كلاوديوس (٤١-٥٤ م.) قد كتب عن حضارة الإتروسكيين مؤلفاً ضخماً من عشرين مجلداً حسب أقوال المؤرخين الرومان اللاحقين [٦] .

مراجع الفصل الثانى

(١) سيد الناصرى ، تاريخ وحضارة الرومان، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ص ٤٨ ؛ إبراهيم نصحى ، تاريخ الرومان ، مكتبة الأنجلو ، الطبعة الثانية ١٩٨٣ ، الجزء الأول، ص ٣٢- ٣٣.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول حضارة التّرامارا أنظر :

- *G. Saflund, Le Terremare*, 1939.

ومناقشة لما جاء عنده قام بها :

C.F.C. Hawkes and E. Stiassny in JRS 1940, *pp.*89 *ff.*

وانظر كذلك :

- *L. Barfield, Northern Italy before Rome*, 1971, *pp.* 90 *ff.*
- A. Ammerman, Preistoria alpina, 1975, 1ff.
- *J. M. Coles and A.F. Harding, The Bronze Age in Europe*, 1979, 167 *ff.*

(٣) لمزيد من التفاصيل عن تلك الحضارة أنظر :

- *M.A.Fugazzola Delpino, La culturavillanoviana* (1984, *Villa Giulia museum, Rome).*
- *G. Bartoloni, La cultura villanoviana*, 1989.
- *D. Ridgway, The First Western Greeks*, 1992.

(4) *M. Pallottino, The Etruscans*, 2[nd]. 1975.

---------------- , *Etruscologia* , 7[th] ed. 1984.

---------------, *A History of Earliest Italy*, 1991, *translated from Italian origin in* 1984.

(5) *D. Briquel, L'origine lydienne des Etrusques*, 1991.

(٦) للمزيد من المعلومات عن الإتروسكيين وحضارتهم وتوسعهم ثم انكماش سيادتهم انظر :

إبراهيم نصحى ، تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ق.م.
(الجزء الأول) ، مكتبة الإنجلو المصرية-القاهرة-الطبعة الثالثة ١٩٨٣-
ص ص ٤٥ - ٥٩.

الفصل الثالث

مصادر التاريخ الرومانى فى العصر الجمهوري

مصادر التاريخ الرومانى فى العصر الجمهورى

من المهم عند دراسة تاريخ اية أمة من الأمم أن نعرف المصادر التى استقينا منها المعلومات موضوع الدراسة ، كما أن من المهم أن نعرف قيمة كل مصدر من هذه المصادر ومدى نصيبه من الدقة والمصداقية والموضوعية. والمصدر هو تلك المادة التى تعين المؤرخ على التعرف على ظروف واحداث ذلك العصر الذى يدرسه سواء كانت هذه المادة أثرية مادية من بقايا ما خلفه إنسان ذلك العصر من آثار واطلال تدل عليه ، أو مادة مكتوبة كتبها مؤرخون ومفكرون وأدباء وتسمى بالمصادر الأدبية . أو جاءت فى ضوء ووثائق كما هو الحال فى شكل الأوامر والمراسيم الصادرة من الحكام أو والعقود والشكاوى والالتماسات وغيرها من الوثائق الرسمية التى تربط بين الحكام والمحكومين أو بين أفراد الشعب بعضهم وبعض وتسمى بالمصادر الوثائقية. والمصادر سواء كانت مادية أو مكتوبة (ادبية أو وثائقية) تكون إما معاصرة للحدث أو الفترة التى تتحدث عنها أو لاحقة بفترة زمنية معقولة ، وكلما كان المصدر أقرب زمنياً إلى الحدث الذى يتناوله كلما كان أدعى إلى الوثوق بصحة ما جاء به بعد تحليله ونقده نقداً علمياً ، وكلما ابتعد عن زمن وقوع الحدث تطرق الشك إلى دقة ومصداقية ما جاء به .

وإذا ما طبقنا ذلك على تاريخ الرومان المبكر من القرن الثامن ق. م. حتى اواخر القرن الرابع ق. م. تقريباً لوجدنا أن مصادرنا المعاصرة أو القريبة من زمن احداث تلك الفترة جد فقيرة ومتواضعة ، وان معظم ما وصلنا عنها قد ورد فى مصادر لاحقة. غير أننا لابد أن نشير - رغم ذلك - إلى أنواع المصادر التاريخية التى لابد أنها كانت متاحة خلال النصف الأول من عصر الجمهورية حتى منتصف القرن الثالث ق. م. والتى ظل بعضها باقياً حتى أواخر عصر الجمهورية. واستفاد منه المؤرخون من أواخر القرن

الثالث ق. م. وحتى نهاية عصر الجمهورية الرومانية وأوائل عصر الإمبراطورية فى أواخر القرن الأول ق. م. ولكن قبل أن نتطرق إلى الحديث عن أنواع تلك المصادر التاريخية من الفترة المبكرة من العصر الجمهورى والتى استفاد منها المؤرخون اللاحقون، دعنا نقسم فترات التاريخ الرومانى فى أطر زمنية محددة وواسعة إلى حد ما، بحيث تضع حدوداً واضحة لكل مرحلة من مراحل تاريخ روما القديم على النحو الآتى:

- *العصر الملكى* : ويبدأ فى عرف الرومان منذ عام ٧٥٣ق. م. وهو التاريخ التقليدى المتواتر بينهم لنشأة مدينة روما (وهو ما سنناقشه بقدر من التفصيل لاحقاً) وحتى عام ٥٠٩ق. م. وهو التاريخ التقليدى لسقوط الحكم الملكى وقيام الحكم الجمهورى فى روما، أى أن العصر الملكى استمر ما يقرب من قرنين ونصف حسب تقدير المؤرخين والكتاب الرومان اللاحقين.

- *العصر الجمهورى* : وهو يستمر من عام ٥٠٩ق. م. عام قيام الجمهورية وحتى ١٥ مارس من عام ٤٤ق. م. وهو تاريخ اغتيال يوليوس قيصر آخر زعماء الجمهورية الرومانية. وتنقسم الفترة الجمهورية التى تزيد على أربعة قرون ونصف إلى ثلاثة مراحل رئيسية كالآتى:

(أ) فترة **العصر الجمهورى المبكر** الذى شهد تطور ونضج وتبلور مؤسسات الحكم الجمهورى التشريعية والتنفيذية، والصراع بين طبقات المجتمع الرومانى من عامة وأشراف بغية اكتساب العامة بعض الحقوق والمميزات وانتزاعها من براثن الأشراف، وأخيراً الكفاح الشرس الذى خاضته روما فى أول الأمر للدفاع عن كيانها واستقلالها ثم للتوسع على حساب جيرانها اللاتين والإيطاليين حتى تمكنت فى النهاية من

إخضاع شبه الجزيرة الإيطالية بالكامل لسيادتها وسيطرتها. وقد استمرت هذه المرحلة من ٥٠٩ إلى ٢٦٥ ق. م.

(ب) فترة **التوسع الرومانى فى أرجاء البحر المتوسط** غرباً ثم شرقاً وقد امتدت هذه المرحلة فيما بين ٢٦٤ إلى ١٣٣ ق. م. وبدأت هذه المرحلة بشن حرب ضروس ضد أكبر منافسيها فى غرب البحر المتوسط وهى جمهورية قرطاجة فى شمال أفريقيا ثم فى أسبانيا فى حربين شهيرتين هما "الحرب البونية الأولى" من ٢٦٤ إلى ٢٤١ ق. م. والحرب البونية الثانية من ٢١٨ إلى ٢٠٢ ق.م. وقد انتهت الحرب بانتصار روما فى نهاية المطاف رغم ما تعرضت له من هزائم ونكسات خطيرة وموجعة فى بعض المراحل والمعارك ، ولكن انتهى هذا الصراع بسيطرة روما على غربى البحر المتوسط مع نهاية القرن الثالث ق. م. وعلى مدى القرن الثانى ق. م. توجهت روما بقوتها وسيطرتها لإخضاع الممالك الهيللنستية المتناحرة التى تمخضت عن الإمبراطورية الشاسعة التى أقامها الإسكندر الأكبر فى شرق البحر المتوسط وغرب آسيا. ونجحت روما فى إتمام معظم هذه المهمة مع حلول عام ١٣٣ ق. م. حين خضعت معظم الممالك الهيللنستية الكبرى لسطوة ونفوذ روما التى استطاعت أن تخضع بعض هذه الممالك بالقوة العسكرية الساحقة ، وأن ترهب البعض الآخر بحيث يسير فى فلك النفوذ الرومانى وهو صاغر ومغمض العينين أمام قوة جبارة لا قبل له بمحاربتها ، وقد رأى العواقب الوخيمة لتلك المجابهة غير المتكافئة فى أحداث الأمس القريب والبعيد .

(جـ) **عصر الثورة** أو **عصر الزعامات الرومانية** وهى مرحلة امتدت على مدى القرن الأخير من الجمهورية تقريباً من ١٣٣ إلى ٤٤ ق. م. هذه المرحلة أعقبت مرحلة التوسع والامتداد الإمبراطورى لروما من مدينة أقامت الحكم الجمهورى إلى دولة مركزية كبرى فى إيطاليا تقودها

روما ، إلى إمبراطورية كبيرة (من حيث الاتساع والنفوذ وليس من حيث نظام الحكم) تحت زعامة نفس تلك المدينة العتيدة وهنا دخلت روما مرحلة غطرسة القوة وجبروتها وإفسادها : فقد انهالت عليها الثروة والسطوة من كل حدب وصوب وتركت آثارها الإيجابية والسلبية على الحياة والمجتمع والنفوس فى روما. فقد اتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء حيث ازداد الأغنياء غنى وثروة ونشب الفقر مخالبه بقسوة فى الأجساد الواهنة لفقراء الرومان. لقد ولى عصر الفضائل الرومانية من بساطة وتضحية من اجل الوطن وإيثاره على النفس والولد والتزام صارم بأهداب الدستور الرومانى إلى غرق فى الملذات والرشوة والفساد والسعى وراء المصالح الشخصية والأمجاد الذاتية وخرق للدستور والقوانين الرومانية العتيدة فى كل حين وصراع دام. بين العامة والأشراف سالت فيه دماء الرومان على أيدى بعضهم البعض وقد ولد هذا الموقف المثير وفجّر طاقات الغضب والضيق المكبوتة من قبل العامة وجعلهم يلتفون حول الزعامات التى حملت لواء قضيتهم وتعاطفت معها. هؤلاء الزعماء لم يكونوا كلهم بين أبناء العامة بل أن أول من حمل على عاتقه قضية العامة وكافح فى سبيلها وقدم روحه قرباناً لها وهما الأخوان تيبريوس وجايوس جراكوس (١٣٣- ١٢٢ ق. م.) كانا من أبناء الأشراف - أباً وأماً - وتحمساً لقضية العامة والمبادئ الديمقراطية ، كما أن آخر من حمل هذا اللواء فى العصر الجمهورى وصار معبود العامة ومعشوق الجماهير فى آخر عصر الجمهورية وهو يوليوس قيصر ، كان من أكبر العائلات الارستقراطية فى روما ، ودفع حياته كذلك ثمناً لتحديه لارستقراطية الرومان ودفاعه عن مصالح العامة .

إن معلوماتنا التاريخية عن تلك المراحل من تاريخ الجمهورية الرومانية لا تبدأ فى الظهور المنظم إلا مع النصف الثانى من القرن الثالث

ق. م. وكذلك على مدى القرن الثانى ق. م. وتكثر وتنهال فى القرن الأول ق. م. هذا يعنى أن جُلّ معلوماتنا عن العصر الجمهورى المبكر - ناهيك عن العصر الملكى- قد وردت إلينا من مصادر لاحقة، خصوصاً من القرنين الثانى والأول ق. م. ولكن السؤال المنطقى الذى يفرض نفسه هو : هل بدأت الكتابة التاريخية عند الرومان هكذا فجأة فى أواخر القرن الثالث ق. م. ثم استمرت فى التطور بعد ذلك؟ وإذا كان الأمر كذلك فإلى أى المصادر استند مؤرخو القرنين الثانى والأول ق. م. فى حديثهم عن الفترة أو المرحلة المبكرة من العصر الجمهورى، بل وعن أحداث العصر الملكى؟

إن ما بين أيدينا من كتابات المؤرخين عن احداث التاريخ الرومانى يثبت أن الكتابة التاريخية الأدبية عند الرومان قد خطت خطواتها الأولى فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثانى ق. م. كما يتضح أن تلك الكتابة التاريخية الرومانية المبكرة قد بدأت باللغة اليونانية إلى أن تطور النثر اللاتينى وأصبح يستخدم فى هذا الغرض لاحقاً كما سنرى فيما بعد. ولكن من المنطقى أن تكون هناك مصادر سابقة على ذلك التاريخ دونت فيها أحداث الفترات السابقة واتخذ منها المؤرخون اللاحقون دليلاً ومرشداً فى سرد أحداث الفترات السابقة. ورغم أن معظم هذه المصادر القديمة التى استعان بها المؤرخون خلال القرنين الثانى والأول ق. م. قد هلكت الآن ولم يبق لنا منها إلا ما ندر فإن قدراً لا بأس به منها لابد أنه توافر وكان متاحاً للمؤرخين اللاحقين لهم مباشرة كما ورد فى إشاراتهم .

ولعل ابرز تلك المصادر من العصر الجمهورى المبكر كانت على النحو الآتى :

- إن أقدم ما أتيح لنا من كتابات ووثائق التاريخ الرومانى هو بقايا نقش من القرن السادس ق. م. عثر عليه مع بدايات القرن الماضى تحت

ارضية الفوروم (السوق العامة) الرومانى وعُرف باسم **الحجر الأسود** *lapis niger* حيث كتب على لوحة من البازلت الأسود . وقد دُونت على هذا الحجر طقوس احتفالية مقترنة بالمذبح القديم الذى اكتشف هذا الحجر المنقوش بجواره .. ويشبه هذا النقش فى طريقة كتابته شواهد القبور أو احد معالم الطريق الإرشادية الحجرية ، وهو ما يعطى الانطباع بانه كان مرسوماً خاصاً ببعض الطقوس الدينية امر احد ملوك روما بتثبيته . وهذه النقطة الأخيرة هى أهم ما فى موضوع هذا النقش المبكر إذ يظهر من بين الكلمات المقروئة فى هذا النقش كلمة *rex* اى "ملك" مما يقطع بنسبة هذا النقش إلى العصر الملكى. هذا الأمر يعطينا دلالة واضحة بأن ملوك روما كانوا يامرون بنقش وإعلان المراسيم الهامة التى تخص الناس فى دينهم ودنياهم حتى يكون الناس على بينة بما يجرى فى مملكتهم. ومن الجدير بالذكر حول هذا النقش أن سطوره قد كتبت بطريقة راسية تبادلية (اى أن سطراً يبدا من اعلى لأسفل والذى يليه من أسفل لأعلى وهكذا) ، ويغطى النقش الجوانب الأربعة من الحجر الأسود وهو ما يُصّعب قراءته أو يجعلها مستحيلة .

- ويأتى بعد ذلك ما يسمى **بقوانين الألواح الإثنى عشر** من حوالى منتصف القرن الخامس ق. م. فى بدايات الجمهورية الرومانية الوليدة. فقد اصر عامة الرومان على نشر القوانين المعمول بها فى روما - حيث لم تكن منشورة من قبل ولا يعرفها بصورة واضحة سوى الأشراف القائمين على السلطتين التشريعية والتنفيذية - وقد رضخ الأشراف لضغوط العامة فى هذا الصدد وقاموا بنشر تلك القوانين على إثنى عشر لوحاً من البرونز فى السوق العامة. ويبدو أن هذه القوانين قد ظلت قائمة فى مكانها - أو ظلت معمولاً بها - لعدة قرون ، إذ يحفظ لنا الكتاب الرومان من أواخر عصر الجمهورية (شيسرون وآخرون من بعده) مقتطفات كبيرة من تلك

القوانين التى تلقى الضوء على جوانب عديدة من حياة الرومان فى عصر الجمهورية المبكر

- ومن المصادر الأخرى الهامة التى ربما اعانت المؤرخين والكتاب اللاحقين على تسجيل أحداث التاريخ الرومانى المبكر **قرارات مجلس السناتو** *Senatus consulta* . ويروى المؤرخ تيتوس ليفيوس (سنتحدث عنه لاحقا) انه منذ عام ٤٤٩ ق. م. كانت نسخ من قرارات السناتو تسلم إلى الإيديليس (مساعدى ترابنة العامة) لإيداعها فى معبد كيريس Ceres (ربة الأرض) على تل الأفنتين (*Livius III.* 55. 13). ونعلم انه فى القرنين الأخيرين من حكم الجمهورية كانت نسخ هذه القرارات تحفظ فى دار السجلات العامة فى معبد الإله ساتورنوس كما كان يحفظ فى نفس المعبد القرارات التى كانت تصدر عن الجمعية القبلية التى تعتبر المعقل الرئيسى لطبقة العامة والتى صارت اعتباراً من عام ٢٨٧ ق. م. المؤسسة التشريعية الثانية بجانب مجلس السناتو. وكانت قرارات السناتو وكذلك قرارات الجمعية القبلية *acta populi* هى التى تسير دفة الحياة الرومانية فى كافة نواحى الحياة اليومية الداخلية والخارجية.

ولكن ينبغى التنويه إلى ان كاتباً معروفاً مثل شيشرون يشير إلى إهمال شان الوثائق المودعة فى دور السجلات العامة (*Cicero, De Legibus, III.* 66) وهو ما يوحى بفقدان وضياع الكثير منها ، وان استعانة الكتاب اللاحقين بها كانت غير دقيقة وتعتمد على الذاكرة أكثر من النص فى كثير من الأحيان .

- ومن المصادر التى لابد أن المؤرخين اللاحقين استعانوا بها - فضلاً عن قرارات المجالس التشريعية المشار إليها أعلاه- **سجلات وقوائم شاغلى**

مناصب السلطة التنفيذية العليا وكذلك **سجلات كبار الكهنة** الرومان إن أهم قوائم وسجلات كبار شاغلى المناصب هى بطبيعة الحال **سجلات القناصل** السنوية حيث اعتاد الرومان تاريخ أحداثهم بسنوات حكم القناصل ويندرج ذلك على الأحداث العامة والخاصة. ومن خلال الأعمال الأدبية اللاحقة أمكن تجميع قائمة كاملة بالقناصل *fasti consulares* الذين تولوا هذا المنصب الرفيع من بداية عصر الجمهورية. ولكن هذه القائمة التجميعية من المصادر اللاحقة يمكن ان يكون بها بعض الخلط أو عدم الثقة خصوصاً بالنسبة للفترة المبكرة من الجمهورية - خاصة قبل بداية القرن الثالث ق. م. - حيث لم تتوافر سجلات رسمية دقيقة قبل عام ٣٠٠ ق. م. ولكن ينبغى أن نذكر ان أجزاء كبيرة من سجل بأسماء القناصل لا يزال منقوشاً منذ أوائل عهد الامبراطور أغسطس عام ١٨ / ١٧ ق. م. على جدران المقر الرسمى للكاهن الأعظم *(Regia)* فى الفوروم الرومانى. وقد نقشت هذه الأسماء على احد الأقواس وبها أسماء كثير ممن شغلوا منصب القنصلية من بداية الجمهورية حتى تاريخ النقش عام ١٨/ ١٧ ق. م. وهى وثيقة متاخرة ولاحقة لابد أنها اعتمدت إلى حد كبير - لا سيما بصدد الفترة المبكرة - على ما تم تجميعه من الكتابات الأدبية اللاحقة ، وقد عُرفت هذه القائمة بال " *Fasti Capitolini* " .

- ومن بين المصادر التى اعتمد عليها الكتاب الرومان كثيراً **سجلات وقوائم الإحصاء** *Tabulae censorum* وهى القوائم التى كانت تتضمن بيانات إحصائية دقيقة عن أعداد المواطنين الرومان وأنسابهم وأملاكهم وكل ما يتعلق بحياتهم العامة وعلاقتهم بالدولة. وهى قوائم كان يعدها الموظفون المسئولون عن الإحصاء والرقابة *(Censores)* ويراجعونها ويحدثون بياناتها أولاً بأول ويصدرونها كل خمس سنوات (سيأتى بيان ذلك فيما بعد). ولكن قوائم الإحصاء قبل عام ٣٠٠ ق. م. تظل كذلك محل شك ولا يمكن الاعتماد عليها بلا تدقيق .

- ويأتى بعد ذلك من المصادر الرومانية القديمة التى اعتمد المؤرخون الرومان على بياناتها **سجلات أو حوليات كبار الكهنة** والتى كان يطلق عليها "الحوليات العظمى *Annales Maximi*" أو " سجلات الكهنة *Tabulae Pontificum* " وقد كان منصب "الكاهن الأعظم *Pontifex Maximus* " هو المنصب الدينى الرفيع منذ بداية عهد الجمهورية المنوط به تنظيم أمور الطقوس والشعائر الدينية وتحديد أيام الأعياد الدينية والأيام التى تنعقد فيها المحاكم. وقد كان يرد فى هذه الحوليات أو السجلات - فضلاً عن تلك الأمور - الأحداث الهامة ذات الصبغة الدينية التى وقعت فى عام شغل هذا الكاهن أو ذاك المنصب. ومن أمثلة هذه الحوادث التى يربطها الكهنة بالدين والآلهة ورضاها أو سخطها حدوث المجاعات وكسوف الشمس وخسوف القمر وفيضان الأنهار ووقوع البراكين أو الزلازل، وكذلك الانتصارات أو الهزائم التى تحل بالرومان، وإقامة المعابد. ومما يجدر ذكره أن الكاهن الأكبر عن عام ١٢٥ ق. م. موكيوس سكايڤولا قد كلف أحد المصنفين بإعداد كتاب يضم حوليات وسجلات الكهنة. ويروى أن هذا المؤلف قد خرج فى ثمانين جزءاً. وقد نقل المؤرخ تيتوس ليڤيوس والكاتب الموسوعى شيشرون وغيرهم عدداً من الغرائب السنوية والظواهر الطبيعية التى وردت فى حوليات الكهنة. ولكن أقدمها لا يعود إلى ما قبل بداية القرن الثالث ق. م.

- وبخلاف هذه الوثائق الرسمية التى أخذ عنها الكتاب والمؤرخون الرومان اللاحقون - وهى وثائق تتفاوت فى قيمتها ومصداقيتها قبل نهاية القرن الثالث ق. م. وبعده - لم يكن أمام هؤلاء المؤرخين لسد الفجوات والثغرات المتبقية من الفترات المبكرة من الجمهورية والعصر الملكى سوى اللجوء إلى **الأساطير الشفهية المتواترة** فى صورة فولكلور شعبى وكذلك **سجلات الأسر الشريفة** عن انجازات أسلافها

ومن الطبيعي ان نمتلئ الأساطير وروايات التراث الشعبى عند الرومان بالكثير والكثير من المبالغات بل والخرافات التى يجنح بها الخيال الشعبى وهى مبالغات وقصص تتغير ويدخل عليها تعديلات من حين لآخر لتلائم الأحداث الجديدة المتغيرة. وهكذا فإن رحلة أساطير وحكايات التراث الشعبى الرومانى من القرن السابع وحتى القرن الأول ق. م. دخل عليها الكثير من التعديلات حتى وصل نسيج الأسطورة إلى الصورة التى وصلنا عليها. ولكن أياً كان الحال فلا ينبغى أن ننظر إلى تلك الأساطير باستخفاف على أنها حكايات خرافية لا تستحق عناء البحث والاهتمام. إن تلك الأساطير تمثل - رغم المبالغات والخرافات أحياناً - وعاءً يحتوى على الكثير من المضامين والإشارات التاريخية التى لا تخطئها عين المؤرخ الحصيف والمدقق والتى صاغها صانعوا ومروجو تلك الأساطير فى العالم القديم لتنطبع فى ذاكرة المتلقى وعقله.

كما أن تلك الأساطير تعج بقدر وافر من الرموز التى تبرز رؤية صانعى تلك الأساطير - وكذلك الشعب الذى راجت بينه تلك الأساطير وانفعل بها وتفاعل معها- نحو الكثير من أمور العقيدة والأخلاق والقيم السائدة فى معظم امور حياتهم الدنيوية والدينية. إن الدراسة المتعمقة لتلك الأساطير وعدم الاكتفاء بإطارها السردى وحكاياتها المثيرة تجعلنا نتفهم طريقة تفكير وحياة هؤلاء الناس ونظرتهم إلى الحياة والعالم والطبيعة، وبذلك نتفهم ونحسن تفسير افعالهم ونتوقع ردود افعالهم. ولسوف نرى مثلاً على ذلك عند الحديث عن اسطورة نشاة روما عندما نتناول هذا الأمر فى الفصل التالى المتعلق بنشاة روما بين الأسطورة والتاريخ والعصر الملكى فى روما القديمة.

اما عن **سجلات الأسر الشريفة** التى تمجد أسلافها وتحيى ذكراهم فكان من الممكن أن تكون مصدراً جيداً للمعلومات للمؤرخين اللاحقين من

أواخـر القـرن الثالث حتى اواخر القرن الأول ق. م. ولكن ما يعيب ذلك المصدر هو ميل كثير من الناس - كطبيعة بشرية - إلى المبالغة والتهويل فيما يتعلق بإنجازاتهم وأمجاد أسلافهم بغرض التفاخر والمباهاة. قد يبدأ الحديث عن أمجاد هؤلاء الأسلاف موضوعياً إلى حد ما عقب وفاتهم مباشرة بغرض تخليد ذكراهم وذلك بسبب وجود معاصرين لهم ربما ينقضون ما قد يرد من مبالغات وتضخيم. ولكن بمرور الوقت وموت المعاصرين وطغيان أحداث جديدة على الأحداث القديمة تحدث تعديلات بل مبالغات وربما أكاذيب على الرواية القديمة. ولذلك كلما بعد العهد واتسعت الشقة الزمنية بين الأسلاف الغابرين والأحفاد المتفاخرين كلما توقعنا ضعفاً فى الرواية ومبالغة فى تضخيم الأمجاد أو اختلاق إنجازات مزعومة .

كما أنه فى مرحلة لاحقة من تاريخ الجمهورية أصبحت بعض عائلات العامة من الأثرياء ، نتيجة لأعمال التجارة المربحة فى إيطاليا وخارجها خصوصاً فى الولايات الرومانية. وقد انفتح المجال أمام قلة نادرة منهم للوصول إلى مناصب الحكم والسلطة التشريعية مع الأشراف. وقد أراد هؤلاء أن "يصنعوا" لأنفسهم ولعائلاتهم تاريخاً وأمجاداً مختلقة او مبالغاً فيها للتشبه بالأسر الشريفة.

وهكذا فإن سجلات أسر الأشراف وأثرياء العامة لا تخلو من مبالغات - فى أضعف الإيمان - أو اختلاق أمور ومنجزات وامجاد فيها ظل من الحقيقة أو تخلو تماماً من الحقيقة.

والآن ننتقل إلى الجانب الآخر من موضوع المصادر وهو جانب **"الكتابة التاريخية"** أو بالأحرى تسجيل الوقائع التاريخية بطريقة منهجية من قبل بعض المؤرخين. لقد سبق ان ذكرنا أن تلك الكتابة التاريخية بدأت فى الظهور عند الرومان فى أواخر القرن الثالث وأوائل الثانى ق. م.

ولكن **الشعر** الذى يتضمن بعض الوقائع التاريخية كان أسبق سبباً إلى الظهور ، ومن الأشكال الشعرية التى تضمنت ذلك **الملاحم**. وقد دخلت الملحمة إلى الأدب اللاتينى فى أول أمرها فى القرن الثالث ق. م. حين قام الكاتب **ليڤيوس أندرونيكوس** الذى كان على الأرجح من إغريق تارنتوم وأخذ أسيراً فى روما بعد سقوط المدينة فى يد الرومان وعاش ما بين ٢٨٤ ق. م. تقريباً و ٢٠٤ ق. م. - بترجمة ملحمة **الأوديسية لهوميروس** إلى اللاتينية فى الوزن الساتورنينى. وقد ظلت ترجمة أندرونيكوس للأوديسية إلى اللاتينية كتاباً مدرسياً مقرراً لأكثر من قرنين[1]. وقد تبقى لنا من هذه الترجمة ستة وأربعون بيتاً. ونذكر أنه قدم كذلك عروضاً مسرحية تراجيدية وكوميدية مأخوذة عن التراث اليونانى كان أولها عام ٢٤٠ ق. م. فى الاحتفالات والألعاب الرومانية بمناسبة نهاية الحرب البونية الأولى - وأدخل العقدة إلى الأعمال المسرحية الرومانية التى كانت من قبل خالية من عقدة أو حبكة العمل المسرحى. ورغم أن شيشرون يعتبر أعمال أندرونيكوس عتيقة ولا تستحق القراءة إلا أنه يعتبرها ذات أهمية كبيرة من الناحية التاريخية[2]. ويمكن الزعم بأن أندرونيكوس هو بمثابة الأب للأدب اللاتينى ، وأنه هو الذى أدخل إلى الأدب الرومانى الملحمة والأدب المسرحى والشعر الغنائى الإغريقى .

والشاعر الرومانى الثانى من القرن الثالث ق. م. هو **جنايوس نايڤيوس** (حوالى ٢٧٠ إلى أوائل القرن الثانى ق. م. فى العقد الأول منه) الذى كان شاعراً مسرحياً وملحمياً من إقليم كامبانيا. وقد شارك نايڤيوس فى المراحل الأخيرة من الحرب البونية الأولى (٢٦٤ - ٢٤١ ق. م.) بين روما وقرطاجة وبدأ فى إخراج مسرحياته عام ٢٣٥ ق. م. وقد كان

نـايڤـيوس أول شـاعر رومـانى يكتـب عـن موضـوعات مـاخوذة عن ال

الـرومانى فـى تـراجـيدياته ، بالإضـافة إلى كتابـته فـى موضـوعات وأفكار مـاخوذة عـن أعمـال أصـلية يونـانـية. وهـناك إشارة إلى أن حـرية نـايڤيوس وصـراحتـه الجريـئة فـى التعـبير عـن أفكـاره قـد اسـتفزت بعضـاً مـن علية القـوم فـى رومـا وجلبـت علـيه المشـاكل. ففـى احـد أبياته المسرحية يقول مـثلاً عـن عائلـة آل ماركيللوس الأرستقراطية الشهيرة فى روما "إن القدر هـو الـذى جعـل مـن آل ماركـيللوس قناصـل فـى رومـا" (أى القـدر والحظ ولـيس الكفـاءة). ويـبدو أنه قـد نفى من جراء هذا الموقف إذ يقال أنه توفى فـى أوتـيكا فـى شمـال أفريقـيا ، ويعزى إليه أنه هو الذى كتب شاهد قبره بنفسه وقال فيه أن اللغة اللاتينية ماتت بموته[٣].

ولكـن أهـم مؤلفـات نـايڤـيوس هـو كـتابه **"الحـرب البونـية"** الـذى كتـبه فـى شيخوخته فى الوزن الساتورنينى العتيق الذى سبق أن كتب بـه لـيڤـيوس أندرونـيكوس ، وقد قسم المصنفون اللاحقون هذا الكتاب إلى سبعة أجزاء . ولكن لم يتبق لنا من هذا المؤلف إلا نحواً من ستين بيتاً[٤] .

أمـا ثالـث هؤلاء الشعراء وأعظمهم وأكثرهم تنوعاً فهو **كوينتوس إينـيوس**(٢٣٩ - ١٦٩ ق. م.) الذى ولد فى روديآى فى إقليم كالابريا جنوب شرق إيطاليا. ولما كانت تلك المنطقة تضم خليطاً من العناصر السكانية فقـد كـان إينـيوس يـتحدث اليونانـية والأوسـكانية فضـلاً عن اللاتينية. ويـبدو أنـه كـان فـى سـاردينيا يؤدى الخدمة العسكرية حين التقى هناك بكاتو الأكبر (سنذكره لاحقاً) الذى كان يؤدى الخدمة كمسئول مالى (كوايستور) هـناك عام ٢٠٤ ق. م. وقد اصطحب كاتو إينيوس إلى روما . وهـناك اكتسـب اينـيوس سمعـة وذاع صـيته ككاتـب مسـرحى ومـنح

المواطنة الرومانية ، وعاش حياة بسيطة فوق تل الأفنتين وتفرغ للتدريس والكتابة. ويروى شيشرون أنه (اينيوس) ارتبط بعلاقات مع بعض صفوة القوم فى روما وعلى رأسهم سكيبيو الإفريقى.

وفى خلال هذه الفترة (العقد الأول من القرن الثانى ق. م.) بدأ فى كتابة مؤلفه "**الحوليات** *Annales* " التى شكلت - مع مسرحياته التراجيدية - أهم مؤلفاته، كما كانت له بعض الكتابات فى الكوميديا وبعض القصائد الأخرى ذات النزعة الفلسفية والنقدية والاحتفالية. أما عن أشهر مؤلفاته وهى "الحوليات"[٥] فهى قصيدة ملحمية مؤلفة من ثمانية عشر كتاباً وظل إينيوس يؤلفها ويكملها حتى أواخر حياته حين وافته المنية عام ١٦٩ ق.م. ، ولم يتبق لنا من هذا المؤلف الضخم سوى حوالى ستمائة بيت تشير إلى الإطار العام للعمل. والجديد فى أمرها أنها لم تكتب بالوزن الساتورنينى العتيق الذى كتب به كل من اندرونيكوس ونايڤيوس، بل بالوزن السداسى وهو الوزن الذى كتبت به الملاحم اليونانية. وتمثل الحوليات تاريخ روما منذ عهد أينياس مروراً بفترة العصر الملكى والعصر الجمهورى حتى الحروب التى اندلعت فى عصر الشاعر، كما تتضمن سلسلة من الأوصاف لكبار ومشاهير الشخصيات الرومانية. وفى هذا العمل حذفت الحرب البونية الأولى على اعتبار أن نايڤيوس قد عالجها. إن تصوير الأحداث عند إينيوس يُعد نوعاً من الذاكرة الحية ، إذ أنه من خلال قراءة إينيوس كان تلاميذ المدارس الرومانية يتلقون معلوماتهم عن الأبطال من أسلافهم وعن الفضائل الرومانية. وقد تأثر به من الكتاب الرومان اللاحقين تأثراً كبيراً كل من لوكريتيوس وڤرجيل ، كما أعجب به شيشرون واقتبس منه ، وظل

اينيوس موضع إعجاب وتقدير النقاد الرومان لفترة طويلة جداً. وقد ذاع عنه أنه كتب شاهد قبره الشهير على النحو الآتى :

أرجو ألا يكرّمنى أحد بذرف الدموع ولا بحضور جنازتى وهو ينتحب. تسالون عن السبب فأجيب: لأننى مازلت أحيا وأطير عبر أفواه البشر .

nemo me lacrumis decoret neu funera fletu faxit. Cur?
Volito vivo' per ora virum.

هذا عن الأدب اللاتينى المبكر وما تضمنته كتاباته من إشارات إلى أحداث تاريخية. أما عن **"الكتابة التاريخية"** كلون واضح المعالم من ألوان **النثر اللاتينى** فإنها تبدأ مع بدايات القرن الثانى ق. م. وقد كتب أقدم المؤرخين الرومان - الذين يعتبر **فابيوس بيكتور** أشهرهم - باللغة اليونانية وليس اللاتينية وذلك لسببين: **الأول :** انهم أرادوا تمجيد روما وإبراز عراقتها وتبرير سياستها ونظام حكمها للعالم الهيللينستى فى شرق المتوسط الذى بدأت روما فى الاتجاه إليه ومحاولة إخضاعه فى ذلك الوقت - بعد أن فرغت من إخضاع غرب البحر المتوسط لسلطانها بعد انتصار روما الحاسم على قرطاجة فى موقعة زاما عام ٢٠٢ ق. م. - ولكى تتفاهم روما مع ممالك العالم الهيللينستى الذى يتحدث اليونانية كان لابد من الكتابة باليونانية. **وثانيها:** أن النثر اللاتينى لم يكن قد تطور بعد إلى الدرجة التى تجعل منه وسيطاً أدبياً ملائماً .

أما عن **فابيوس بيكتور**(١) - أشهر المؤرخين الرومان المبكرين - فقد كان أحد أعضاء مجلس السناتو الرومانى وخاض غمار الحرب البونية الثانية (٢١٨ - ٢٠٢ ق. م.) وأرسل لاستشارة وحى الإله أبوللو فى معبد ديلفى ببلاد اليونان عقب هزيمة الرومان فى موقعة " كاناى " عام ٢١٦ ق. م. أمام القائد القرطاجى الشهير هانيبعل. وقد كتب فابيوس بيكتور

تاريخاً لروما منذ نشأتها - عام ٧٤٨ ق. م حسب تقديره - وحتى عصره هو فى أواخر القرن الثالث وأوائل الثانى ق. م. ولم يتبق لنا من مؤلفه سوى شذرات بسيطة وردت فى صورة اقتباسات عند المؤرخين اللاحقين وخاصة بوليبيوس وليڤيوس اللذين أشارا إليه واستخدماه مما يدل على أنه كان مصدر ثقة. ويبدو أنه اعتمد فى كتابته على سجلات الكهنة وقوائم كبار شاغلى المناصب الرومان ولا سيما القناصل .

ومن الجدير بالإشارة والذكر هنا أن فابيوس بيكتور لم يكن الوحيد من المؤرخين الرومان الذين كتبوا باليونانية فى تلك الفترة وإن كان أبرزهم. فقد كان هناك ممن يُطلق عليهم **"مؤرخو طبقة السناتو"** من مرحلة النصف الأول من القرن الثانى ق. م. - بالإضافة إليه - كينكيوس اليمنتوس وبوستوميوس البينوس وجايوس أكيليوس ممن واصلوا نهج فابيوس بيكتور وساروا على درب الكتابة التاريخية الهللينستية بميراثها التقليدى باللغة اليونانية .

ولكن إذا كان تيار التأغرق وانتشار الثقافة الهيللينسية واللغة اليونانية قد أثر فى شرائح عديدة من المثقفين الرومان وجعلهم يتخذون منها دليلاً على الثقافة الحقة فإن تياراً آخر محافظاً وقف فى وجه الزحف الثقافى الإغريقى وقاومه بضراوة ونادى بضرورة الحفاظ على الهوية الرومانية واللغة اللاتينية. ومن أبرز أمثلة ذلك التيار المحافظ الكاتب والسياسى الرومانى الشهير **" كاتو الأكبر "** أو **كاتو الرقيب** الذى عاش ما بين ٢٣٤ - ١٤٩ ق. م. وشغل منصب القنصلية عام ١٩٥ ومن بعده منصب الكنسور (الرقيب) عام ١٨٤ ق. م. واشتهر فيه بتشدده البالغ ومحاربته للغزو الثقافى اليونانى وهجومه على أسرة " سكيبو " الارستقراطية العريقة التى شجعت الثقافة اليونانية.

وما يعنينا هنا من أمر كاتو الرقيب هو كتاباته[7] - لا سيما التاريخية منها - وقد كتبها بطبيعة الحال باللغة اللاتينية حسبما رأينا من خلفيته السابقة. وأبرز مؤلفاته هو مؤلف **"الأصول *Origines*"** والذى تناول فيه أساطير نشأة وبداية روما وغيرها من المدن الإيطالية وتاريخ الحروب القريبة من عصره. وهذا المؤلف المفقود يُعد أول عمل من نوعه فى اللغة اللاتينية ، وفضلاً عن كونه حافزاً على دراسة التاريخ الرومانى فإنه أرسى الأساس للإسلوب النثرى اللاتينى. وله كذلك مؤلف آخر بعنوان **"عن الزراعة"** "*De re rustica* أو *De agri cultura*" ، وقد تبقى لنا جزء كبير منه يتعلق بزراعة الكروم والزيتون والفاكهة وتربية الماشية ، وكذلك يتضمن الأقوال المأثورة التى تستند إلى تجاربه الشخصية فضلاً عن الصلوات والتعاويذ التى تندرج فيها .

ولكن رغم محاولات كاتو المستميتة فى الدفاع عن الهوية الرومانية والتصدى لتغلغل الثقافة اليونانية فإن زحف الأخيرة استمر بلا هوادة .

ومن المؤرخين البارزين الذين ساهموا مساهمة فعالة فى كتابة التاريخ الرومانى فى العصر الجمهورى المؤرخ اليونانى الشهير **"بوليبيوس"**[8] من القرن الثانى ق. م. وتعد كتابة بوليبيوس استمراراً لتغلغل تيار التأغرق والثقافة الهيللينية فى روما ودليلاً كذلك - فى المقابل - على مدى ما وصلت إليه روما من قوة ونفوذ سياسى وعسكرى فى شرق البحر المتوسط خلال القرن الثانى ق. م.

ولد بوليبيوس فى منطقة أركاديا فى شبه جزيرة البيلوبونيز جنوب بلاد اليونان حوالى عام ٢٠٠ ق. م. وكان ابن أحد كبار قادة الحلف الآخى فى بلاد اليونان. وقد كان بوليبيوس أحد ضباط سلاح الفرسان فى هذا الحلف، وفى عام ١٦٩ ق. م. أصبح قائداً فى هذا السلاح *hipparchos* . وفى العام التالى ١٦٨ ق. م. تمكنت روما من إحراز نصر

ساحق على بيرسيوس ملك مقدونيا أقوى ممالك بلاد اليونان آنذاك، فقامت بعد ذلك بحل الأحلاف اليونانية ومن بينها الحلف الآخى ضمن حركة التطهير السياسى فى بلاد اليونان . وفى هذا الإطار قامت روما كذلك بإرسال ألف رهينة من الآخيين لضمان حسن نوايا الإغريق تجاه روما. وكان من بين هؤلاء الرهائن الآخيين فى روما مؤرخنا ذلك الضابط والقائد الشاب بوليبوس . وكان من حسن حظ بوليبيوس أن استضافته فى روما عائلة سكبيو الشهيرة بانفتاحها على الثقافة الهيللينية وحماسها لها. وقد ظل بوليبيوس فى روما حتى عام ١٥٠ق. م. حين عاد هؤلاء الرهائن من روما. واحتفظ بوليبيوس بعلاقات صداقة وطيدة مع احد كبار أعضاء عائلة سكبيو بالتبنى وهو **سكبيو أيميليانوس** الذى كلف عام ١٤٧ / ١٤٦ ق. م. بتدمير قرطاجة وذهب بوليبيوس برفقته فى هذه الحملة. كما لعب بوليبيوس دور الوسيط بين روما وبلاد اليونان (وطنه الأصلى) بعد تدمير كورنثه عام ١٤٦ ق. م. على يد روما محاولاً تخفيف حدة التوتر بين الطرفين ووضع قواعد وأسس الإدارة الرومانية الجديدة هناك. إن المعلومات عن حياة بوليبيوس فى العشرين عاماً الأخيرة من حياته قليلة جداً وربما كان منهمكاً فى كتابة مؤلفه الشهير **"التاريخ "** باللغة اليونانية .

لقد كرس بوليبيوس هذا العمل التاريخى لغرض أفصح عنه صراحة فى مقدمة العمل حين قال **"لكى أروى الوسائل ونظام الحكم الذى نجح الرومان من خلاله فى إخضاع كل العالم المأهول بالسكان تقريباً لحكمهم عبر أقل من ثلاثة وخمسين عاماً"** (من عام ٢٢٠ ق. م. مع بدايات الحرب البونية الثانية إلى عام ١٦٨ ق. م. ونهاية الحرب المقدونية الثالثة). ولتغطية تلك الأحداث بدأ بوليبيوس مؤلفه بعودة إلى الوراء وامتد تاريخه ليشمل الفترة التمهيدية منذ بداية الحرب البونية الأولى (٢٦٤ ق. م.) وجاوز الحرب المقدونية الثالثة ليصل إلى تدمير كل من قرطاجة

وكورنثة عام ١٤٦ ق. م. وقد تضمن مؤلفه **"التاريخ"** - فى صورته الموسعة هذه - **أربعين كتاباً** لم يصلنا منها كاملاً إلا **الكتب الخمسة الأولى** ، مع مقتطفات واقتباسات من بقية الكتب ، بعضها فى غاية الأهمية. ويحتوى الكتاب السادس على موجز عن الدستور الرومانى أيام بوليبيوس مع مقارنة بدساتير أثينا وطيبة وكريت واسبرطة وقرطاجة[٩] .

وقد كتب بوليبيوس عن تاريخ روما بحماسة وإعجاب[١٠] لأنه كره فى الإغريق والممالك الهيللينستية فى عصره ضعفها وتشرذمها ورأى النموذج الأمثل للقوة والنظام المحكم فى روما وفتوحاتها. ونسب بوليبيوس عظمة روما إلى كمال الدستور الرومانى الذى يتضمن توليفة من العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية. وكان مؤلف بوليبيوس موجهاً بصورة رئيسية إلى قرائه من الإغريق، وكذلك إلى الطبقة العليا المثقفة من الرومان فى عصره من العارفين باللغة اليونانية. وكان هدفه الرئيسى من كتابته أن يقدم الفائدة والنصح للمشتغلين بحقل السياسة وكذلك تعليم بقية قرائه كيفية مجابهة تصاريف القدر والتكيف معها من خلال أمثلة ونماذج حية. من هنا نجده يصف مؤلفه بأنه " تاريخ عملى واقعى *Pragmatike historia* " بمعنى أنه تاريخ واقعى يرصد أحداث الحرب والسياسة مع الابتعاد عن الأحداث العاطفية والإثارة. ومما يميز تاريخ بوليبيوس أنه لم يسجل تاريخاً مجتزئاً محدوداً بل كان تاريخاً عالمياً يغطى نطاقاً واسعاً وشاملاً لاستخلاص الأمثلة والعبر - من خلال الحقائق - التى يريد بوليبيوس توصيلها إلى قرائه وإبراز الدور البارز الذى لعبه القدر والحظ الذى خدم روما القوية. ولعل هذه النظرة من بوليبيوس تتفق مع ما ذكره الشاعر والكاتب الرومانى تيرينتيوس (١٩٣ - ١٥٩ ق. م.) من أن " الحظ يحالف الأقوياء *Fortes fortuna iuvat* " .

وقد اكمل تاريخ بوليبيوس مؤرخ آخر موسوعى وعالم وفيلسوف يُدعى **بوسيدونيوس**(١١) ولد فى اباميا بسوريا ولكنه قضى معظم سُنى عمره (١٣٥-٥٠ ق.م.) فى جزيرة رودس ، وترأس المدرسة الفلسفية الرواقية فيها. كان بوسيدونيوس عالماً موسوعياً اوجز معارف العصر الهيللينستى ونقل بعضها إلى العالم الرومانى. وكفيلسوف وكان له تاثير هائل على تطور الفلسفة الرواقية ورأى فى الإمبراطورية الرومانية تجسيداً لوجهة النظر الرواقية القائلة بوجود صلة قربى تجمع البشرية قاطبة لأنه كان مزمعاً لتلك الإمبراطورية ان تشمل كافة شعوب العالم(عالم البحر المتوسط وهى المنطقة الماهولة ومهد معظم الحضارات القديمة).كما أدخل تعديلات ملحوظة على المعتقدات الرواقية السائدة فى عصره لعل من ابرزها انه لم بعد يعتقد بأن الفضيلة وحدها هى مصدر السعادة وأنه لابد أن يقترن بالفضيلة الكامنة فى النفوس خير الجسد وقوته لكى تكتمل السعادة،وهو ما يلقى هوى فى نفوس الرومان الذين جُبلوا على قوة وسلامة الجسد. اما كمؤرخ فإن بوسيدونيوس قد أكمل ما سبق أن بدأه بوليبيوس وكتب موسوعة تاريخية فى اثنين وخمسين كتاباً تغطى الفترة من ١٤٦ ق.م. بعد تدمير قرطاجة وكورنثة إلى ٨١ ق.م.عام ديكتاتورية سوللا. ورغم أن ما تبقى من هذه الموسوعة التاريخية لا يعدو أن يكون شذرات قليلة جداً إلا ان كتاباً لاحقين من أمثال ساللوستيوس وقيصر وتاكيتوس وبلوتارخ قد رجعوا إلى كتاباته واستفادوا منها بصورة أو باخرى. وكان بوسيدونيوس فى كتاباته فى التاريخ الرومانى لا يخفى ميله وانحيازه إلى الأشراف والنبلاء على حساب العامة ولذلك اتخذ موقفاً معادياً من الأخوين جراكوس زعماء الثورة الرومانية (١٣٣ - ١٢٢ ق.م.)وابدى بعد ذلك إعجاباً بالغاً بالقائد بومبى ويبدو أنه قد افرد له ملحقاً خاصاً فى نهاية مؤلفه التاريخى خصصه لبومبى وحروبه .

هذه الكتابات التاريخية الناضجة من جانب بوليبيوس (باليونانية) ثم من جانب كاتو الأكبر " الرقيب " (باللاتينية) لابد انها مهدت الطريق أمام كتابة حوليات منهجية منظمة للتاريخ الرومانى. لقد الهم مؤلف " كاتو الأكبر" **كتاب الحوليات القدماء** فى النصف الثانى من القرن الثانى ق. م. وأبرزهم **كاسيوس هيمينا وكالبورنيوس بيسو** إعادة صياغة منهجية للتاريخ الرومانى ، تعتمد هذه المرة على قرائن ومعلومات رومانية مستوحاة من سجلات الكهنة وسجلات القناصل. وقد أعقب ذلك - كما أسلفنا - نشر "الكاهن الأكبر" **موكيوس سكايڤولا** (كاهن عام ١٣٠ ق. م.) الحوليات العظمى بصورة معتمدة فى نحو ثمانين مجلداً تتناول تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى وقته.

وقد كان لهذا المؤلف الذى نشره موكيوس سكايڤولا أثره على الكتاب اللاحقين الذين اعتمدوا عليه ، إذ أنهم تبنوا **نفس إطاره التاريخى** ومالوا إلى تقليد منهجه فى **وصف الحوادث حسب وقوعها عاماً بعام**. وقاد على صياغة الشكل الأساسى لهذا المنهج الجديد مؤرخو أوائل القرن الأول ق. م. وعلى راسهم **ڤاليريوس أنتياس وكلاوديوس كوادريجاريوس** اللذان أرسيا فى روما النزعة الأخلاقية والأسلوب البلاغى فى كتابة التاريخ التى ترجع إلى أيسوكراتيس (خطيب أثينى من بلاد اليونان عاش من ٤٣٦ إلى ٣٣٨ ق. م.) وهو ذلك الأسلوب المقبول والمتبع عند المؤرخ تيتوس ليڤيوس. وإجمالاً يبدو **أن الرومان كانوا أكثر ولعاً بالمميزات الأدبية لمؤلفاتهم التاريخية** وكانوا يعطون ذلك **أسبقية على تقديم صورة دقيقة عما حدث بالفعل**. كما سنرى فى الأمثلة التالية من

كتاب ومؤرخى القرن الأول ق. م. سواء من كتب منهم باليونانية أو باللاتينية .

من بين المؤرخين الذين ظهروا خلال القرن الأول ق. م. المؤرخ وكاتب السيَر **كورنيليوس نيبوس**[٢] (حوالى ١٠٠ إلى حوالى ٢٥ ق.م.) ويُعد نيبوس أقدم من كتب السيَر باللغة اللاتينية ممن وصلتنا كتاباتهم. وموطن نيبوس الأصلى هو منطقة الغالة القريبة فى شمال إيطاليا - مثل الشاعر كاتوللوس - ولكن بحلول عام ٦٥ ق.م. كان له حضور وحركة مشهورة فى الدوائر الأدبية فى روما وكانت له مراسلات مع شيشرون السياسى والمفكر المعروف ، وكان من بين أصدقائه اتيكوس - صديق شيشرون الحميم - كما أهداه كاتوللوس أحد كتبه (أو إحدى قصائده) نظير **"جهده وعلمه"** فى كتابة تاريخ العالم القديم وهو المؤلف الذى أنجزه نيبوس فى ثلاثة كتب (وهو عمل مفقود لم يصلنا).

ومن بين **مؤلفات كورنيليوس نيبوس** مؤلفه **"عن مشاهير الشخصيات** *De Viris illustribus*" الذى كان يتألف من **ستة عشر مجلداً** ويضم نحواً من **أربعمائة شخصية**. وتم تصنيف شخصيات الكتاب حسب الفئة التى ينتمون إليها (هناك شواهد مؤكدة على القادة والمؤرخين) . ويضم المؤلف سير **شخصيات غير رومانية** جنباً إلى جنب مع **الرومان**. وقد نشر هذا المؤلف للمرة الأولى عام ٣٤ ق.م. قبل وفاة أتيكوس ثم نشر فى طبعة ثانية مزيدة قبل عام ٢٧ ق.م. ومن بين شخصيات هذا المؤلف لكورنيليوس نيبوس التى وصلتنا شخصيات الجزء المعنوَن "عن مشاهير القادة (العسكريين) الأجانب" "*De excellentibus ducibus exterarum gentium*"، فضلاً عن سير بعض المؤرخين الرومان الذين كتبوا باللاتينية مثل بوركيوس كاتو (الرقيب) واتيكوس. ومن بين هذه السيَر لهؤلاء

القادة الأجانب لدينا مثلاً سيرة **هاملكار برقة** وولده **هانيبعل** اللذين خاضا حروباً شرسة ضد روما فى الحربين البونية الأولى والبونية الثانية ، ويبلغ مجموع هؤلاء القادة الأجانب الذين بقيت سيرتهم التى تناولها نيبوس **تسع عشرة شخصية من الإغريق** فضلاً عن **شخصيات فينيقية** كما أسلفنا وشخصيات فارسية مثل القائد **داتاميس** .

أما عن مؤلفاته التى فُقدت تماماً ولم يصلنا سوى عناوينها فهناك ذلك **المؤلف التاريخى الشامل** *Chronica* الذى صدر فى **ثلاثة كتب** واشار إليه كاتوللوس فى إهدائه إحدى القصائد لنيبوس. وهناك مؤلف آخر بتناول **بعض الطرائف ومعلومات أخرى** صدر باسم *Exempla* **فى خمسة كتب** . وكذلك ضمن ما فُقد من كتابات نيبوس **سيَر تفصيلية** عن كل من **كاتو الأكبر وشيشرون** ، وكذلك **مؤلف فى الجغرافيا** اشار إليه بومبونيوس ميلا وبلينى الأكبر.

ويميل **أسلوب كورنيليوس** إلى إضفاء المديح والتقريظ على شخصياته التى اورد سيَرها ، وإلى تناول الجوانب الأخلاقية والسلوكية فى شخصياته اكثر من سرده للأحداث التاريخية التى شاركوا فيها. ولكن تناوله يفتقر احياناً إلى الدقة والتوازن والتحكم فى مادته. ولكنه يمدنا بمعلومات لا باس بها عن بيئة ابطاله، وإن كان يبدو أنه لم يرجع إلى المصادر التى أوردها بشكل مباشر إلا فيما ندر ولذلك يُعد من المؤرخين متوسطى أو محدودى القيمة إلى حد ما .

ويبدو أن كورنيليوس قد أخذ فكرة معالجة سيَر الشخصيات الأجنبية والرومانية من معاصره **"ماركوس ترنتيوس ڤارّو"** الشهير بـ **"ڤارّو"**(١٣) الذى قال عنه **كونتيليان** (مؤلف كتاب "تعاليم الخطابة") انه

"أعلم الرومان". عاش ڤارّو فى الفترة ١١٦- ٢٧ ق.م. وكان **عالماً موسوعياً** كتب فى العديد من الموضوعات ، فقد كان شاعراً وهجّاءً وعالماً بالتاريخ القديم ومشرّعاً وجغرافياً ونحوياً وعالماً ، كما كتب عن التعليم والفلسفة ، ويُقال أنه أنتج ما يزيد عن ستمائة مجلد فى مختلف الموضوعات، وأنه كان مزمعاً أن يتولى **رئاسة المكتبة العامة** التى كان يوليوس قيصر يفكر فى إنشائها فى روما عام ٤٧ ق.م. ، ويروى عنه أنه **مات والقلم فى يده**.

ما يعنينا هنا هو **ما أنتجه فى مجال الكتابة التاريخية** - ومعظمه مفقود للأسف ولم تصلنا منه سوى شذرات متفرقة - ويمكن تقديم صورة عنه على النحو التالى :

(١) مؤلف يُسمى **" السباعيات** *Hebdomades* " أو " الصور *Imagines* " ويقع فى **خمسة عشر كتاباً** ويتناول الحديث **عن (٧٠٠)سبعمائة شخصية** بارزة من **اليونان والرومان** مع صور شخصية (مرسومة) ملونة عن كل شخصية وملحق بها مقطوعة صغيرة من أبيات شعرية (ابيجراما). وكثير من معلوماتنا عن أعلام الشخصيات الرومانية فى الفترة الجنهورية - التى ظهرت فى الكتابات اللاحقة - يعود الفضل فيها فى نهاية المطاف إلى ڤارّو. وبمناسبة اسم هذا المؤلف أو **" السباعيات "** فيبدو أن الرقم سبعة كان يلعب دوراً هاماً فى ترتيب وتنظيم الأعمال وإن بدا لنا هذا الدور الآن غامضاً .

(٢) ومن بين مؤلفاته الأخرى المفقودة التى نتحسر على ضياعها :

(أ) هناك مؤلف بعنوان **" العاديات القديمة للبشر وللآلهة** *Antiquitates rerum humanarum et divinarum* " وهو موسوعة تاريخية تتألف

من ٤١ كتاباً وصدرت عام ٤٧ ق.م. وتتناول الكتب الخمسة وعشرون الأولى أحوال البشر من الرومان فى حين تعالج الكتب الستة عشر الأخيرة أمور الديانة الرومانية واهديت إلى يوليوس قيصر بوصفه قد شغل من قبل منصب الكاهن الأعظم.

(ب) ومؤلف آخر بعنوان "**دراسات *Disciplinae***" تناول فيه بالحديث الفنون أو العلوم العقلية أو *liberal arts* (تمييزاً لها عن العلوم المهنية أو التقنية) وهى النحو والجدل المنطقى والبلاغة والهندسة والحساب والفلك والموسيقى والطب والعمارة. وقد انقسمت هذه المجموعة من العلوم فى العصور الوسطى - مع استثناء الطب والعمارة - إلى **ثلاثية** من الفنون الحرة ***trivium*** تتكون من **النحو والبلاغة والمنطق** والتى تشكل الجزء التمهيدى من الفنون العقلية (الحرة) السبعة ثم تليها **رباعية** *quadrivium* من **الهندسة والحساب والفلك والموسيقى**.

وهذه السلسلة من الدراسات لڤارو موزعة فى تسعة كتب تغطى الفنون العقلية (الحرة) التسعة - حسب تقسيم ڤارو الذى اضاف لطب والعمارة للفنون السالفة الذكر - التى ينبغى أن يتمكن منها الرجل الحر كاساس لعلومه ومعارفه *artes liberales*.

(جـ) كما أن لڤارو سلسلة من **المحاورات** *Logistorici* المفقودة عن موضوعات شتى فى المجتمع الرومانى ... وقد صدرت هذه السلسلة من المحاورات فى **ستة وسبعين كتاباً** عام ٤٤ ق.م. ومن بين ما تناولت من موضوعات "**عن الأمة الرومانية** *De gente populi Romani*" و"**عن نمط حياة الشعب الرومانى** *De vita populi Romani*" عن تاريخ وأسلوب حياة المجتمع الرومانى. كما كتب "عن الحظ *De Fortuna*

" و"عن الثقافة *De Cultu*" واهدى بعض هذه المحاورات إلى اسم إحدى الشخصيات الرومانية البارزة فاهدى"عن الحظ "مثلاً لماريوس *Marius de fortuna* ، "وعن الثقافة" لكوريو *Curio de cultu* " .

ولكن إذا كان هذا هو الإرث الثقافى الموروث عن نمط الكتابة التاريخية من العصر الهيللينيستى الذى كان هدف وغاية مؤرخيه أن يكونوا اكثر إمتاعاً وبالتالى تتسع قاعدة قرائهم أكثر من سعيهم إلى تحرى الدقة فى الكتابة، فإن هناك من الكتاب الرومان من القرن الأول ق. م. من نهض ليتصدى لهذا التيار، وعلى راس هؤلاء المؤرخ ساللوستيوس والكاتب الموسوعى شيشرون.

عاش **ساللوستيوس** بين ٨٦ - ٣٥ ق. م. فى منطقة الريف السابينى وهو ينتمى لأسرة من العامة. وقد شغل فى عام ٥٢ ق. م. منصب تريبون (نقيب) العامة وكان مناوئاً لشيشرون. وقد انضم إلى يوليوس قيصر واصبح قائداً لإحدى الفرق عام ٤٩ وانتخب برايتور عام ٤٧ ق. م. ثم حاكما لولاية نوميديا عام ٤٦ ق. م. وكوّن ثروة كبيرة على حساب أهل الولاية واتهم بالابتزاز والثراء غير المشروع ولكن لم تتم إدانته. وقد كرس بقية حياته بعد اعتزال الحياة السياسية لكتابة مؤلفاته التاريخية عن **"حرب كاتيلينا"** و **"حرب يوجورثا"** و **" التواريخ "** عن الفترة من ٧٨ - ٦٧ ق. م. (الفترة التى أعقبت اعتزال سوللا الحياة السياسية). وقد تبقى لنا المؤلفان الأولان وشذرات من المؤلف الثالث.

وفيما يتعلق بالكتابة التاريخية لساللوستيوس[١٤] فقد أبدى فيها تفوقاً وتقدماً على من سبقوه من كتاب الحوليات سواء فى قدراته السردية أو منهاجه العلمى ، إذ يحاول دوماً أن يفسر أسباب الأحداث السياسية ودوافع تصرفات الأفراد. ولكن مما يؤخذ عليه أحياناً غموضه وعدم دقته فى التسلسل التاريخى وبعض المواقع الجغرافية فضلاً عن

نزعته المنحازة إلى طبقة العامة من الرومان وعدائه للأشراف والنبلاء ، وإن كان ذلك أمراً طبيعياً لرجل جديد *novus homo* "جذوره من طبقة العامة وارتقى درجات عليا في سلك المناصب الشرفية. وقد رسم شخصياته مثل **يوجورثا** و**كاتيلينا** و**ماريوس** و**سوللا** بحيوية بالغة ، واستمى معلوماته من عدة مصادر. وبالنسبة **لشخصية يوجورثا** - وهي أشهر ما كتب - فقد أخذ معلوماته عنها من عدد من المصادر من بينها **السيرة الذاتية للقائد سوللا** وتاريخ **"سيسنا"** (مؤرخ روماني وبرايتور في عام ٧٨ ق. م. كتب تاريخ الحقبة التي عاش فيها لكن هذا التاريخ فُقد) وجمع معلومات عن موضوع شخصيته وهو في أفريقيا وكانت لديه وثائق فينيقية مترجمة عن الموضوع .

أما عن أبرز النماذج التي اقتدى بها في كتابته التاريخية فهي المؤرخ اليوناني الأشهر **ثوكيديديس**[١٥] (من القرن الخامس ق. م.) وكاتو الأكبر. فمثل ثوكيديديس نجده يضفي حيوية على كتابته من خلال ذكر الخطب والرسائل ودراسة الشخصيات والاستطراد، كما تأثر بكاتو الأكبر في أسلوبه المختصر وغير المترابط الذي يرفض التوسع في الأسلوب البلاغي. ولم يكن فكره السياسي يتسم بالعمق ولكنه يعكس في جوهره نظرة أخلاقية رومانية مع التركيز على مفهوم الفضيلة (الشهامة) الروماني التقليدي *virtus* واتجاها تشاؤمياً تجاه فساد عصره. وهو يزودنا بنقطة البداية للعصر الجمهوري المتأخر ويؤرخ الانهيار الأخلاقي لروما منذ عودة قوات سوللا من الشرق إلى روما محملةً بالغنائم والأسلاب واستيلائها الدموي على روما .

وأهم سمات أسلوبه التي لاحظها النقاد القدماء هي استخدام المصطلحات العتيقة والإيجاز إلى درجة الغموض والسرعة في التناول

وضـرب أمـثلة مـن الـيونان واسـتخدام الأشـعار القصـيرة السـريعة (الابيجرامات) وكذلك استخدام مفردات مبتكرة احياناً .

أما عن **الكاتب والمفكر الموسوعى الشهير شيشرون** (ماركوس توليوس شيشـرون ١٠٦ - ٤٣ ق. م.) فـإن كـتاباته المدققـة فـى تـاريخ الفلسـفة والخطابـة قـد افاضت علينا قدراً كبيراً من المعلومات التاريخية التى يرى شيشـرون أنها تدخـل فـى نطاق عمـل الخطباء. وفضلاً عن هذه المميزات الفكـرية الراقـية الـتى تمـتع بهـا شيشـرون كمـثقف بـارز ومحامى ومفكر وفيلسـوف فقـد لعـب دوراً بـارزاً فـى مجـال السياسـة والحكـم فـى الدولـة الرومانـية فى الفترة الأخيرة من الجمهورية الرومانية حتى انهيارها عام ٤٤ ق. م. هـذه المشـاركة الفاعلـة مـن جانـب شيشـرون فـى مضـمار السياسـة الرومانـية يضـفى على كتاباته التاريخية قدراً كبيراً من الأهمية وتُعتبر كنـزاً من المعلومات لا سيما عن الجمهورية الرومانية المتأخرة .

وقـد كـتب شيشرون فى عـدد كـبير مـن الموضـوعات لاسيما فـى الخطابـة والـبلاغة والفلسـفة ذات الـنزعة الرواقـية والأخـلاق واللاهـوت القديـم مـا يضـيق المجـال عـن الإشـارة إلـيه هـنا فـى إطـار الحديـث عـنه كمـؤرخ معاصـر لفـترة غنـية بـالأحداث. ولعـل مـا يناسـب هـذه الجزئـية تمامـاً مـن كـتابات شيشـرون الموسوعية هو " خطابات"[١٦] شيشرون. لقد كانـت مراسـلات شيشـرون مـن الضخامة بحيث شغلت عدداً من المجلدات ويبلغ عددها نحواً من ثمانمائة (٨٠٠) رسالة تغطى الفترة من ٦٨ إلى ٤٣ ق. م. هـذه المراسلات الضخمة جعلت شيشرون معروفاً للكثيرين منا بصورة جوهـرية - ربمـا لسـوء حظـه حيـث غطـى ذلـك عـلى جوانـبه المعرفـية الموسـوعية الأخـرى - باعتـباره من اشهر كتبة الرسائل فى العالم القديم. ولما كلن شيشرون منغمساً - كما أسلفنا - فى شئون السياسة والحكم فى رومـا فـى تلـك الفـترة الحاسمـة والمحورية من تاريخها، ولما كانت مراسلاته

موجهة إلى أفراد متباينين غاية التباين فى آرائهم السياسية من كافة المشارب ، وكذلك إلى أفراد من أهل بيته فإنها تكتسب أهمية بالغة كمصدر وكنز معلومات لا يُقدر بثمن .

وقد بلغ من شهرة شيشرون الطاغية وقيمته الأدبية فى عصره أن أطلق البعض على فترة ازدهار شيشرون الأدبية والسياسية فى أواخر عصر الجمهورية وما تلاه (٧٠ - ٣٠ ق. م. تقريباً) **"عصر شيشرون"** فى الأدب اللاتينى. وكان من بين كتاب اللاتينية البارزين من تلك الرحلة - بخلاف شيشرون - لوكريتيوس وكاتوللوس من الشعراء، وفارّو الذى كان "أكثر الرومان علماً وثقافة" حسب قول الكاتب الرومانى الشهير كونتيليان. ويُذكر أنه ألف ما يزيد على (٦٠٠) ستمائة مجلد فى فروع المعرفة من عصره ، ولم يتبق منها إلا النذر اليسير كما سبق أن نوهنا إليه من قبل .

ومن القادة والساسة البارزين من العصر الجمهورى المتأخر الذين تركوا لنا بعض الوصف والتعليق على الأحداث التى شاركوا فيها وأسهموا فى صنعها القائد والسياسى الأشهر **يوليوس قيصر** (١٠٠ — ٤٤ق. م.) الذى تؤرخ نهاية الجمهورية الرومانية رسمياً بتاريخ اغتياله فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق. م. وبعيداً عن الحياة الحافلة والإسهام الفعال والدور البارز لقيصر فى الحياة السياسية الرومانية - وهو ما سنتناوله فى حينه - فقد ترك لنا قيصر بعضاً من المذكرات عن حروبه وفتوحاته[١٧] . ولعل أبرز مذكراته المسجلة وانطباعاته ترد فى مؤلفه عن **"حرب الغالة"** وفتوحاته فى بلاد الغال القديمة (فرنسا الحالية) وكذلك مؤلفه (الذى لم يكتمل) والمكون من ثلاثة كتب عن **الحرب الأهلية** بين القادة الرومان ، وهما وحدهما المؤلفان المتبقيان من بين كتاباته. وقد أطلق قيصر على مؤلفيه هذين اسم " تعليقات " (أى ملاحظات) :

- *Commentarii de Bello Gallico* .
- *Commentarii de Bello Civili* .

ويبدو أن قيصر تعمد أن يُطلق على مؤلفيه اسم " تعليقات " أو "مذكرات" ليوحى بأن ما يكتبه ليس تاريخاً وإنما هو تسجيل مجرد للأحداث بضمير الغائب ، وأن ما يكتبه رواية تاريخية وموضوعية. لقد أراد قيصر فى الواقع أن يخلق انطباعاً بأنه مجرد جندى بسيط يخوض حروباً ضرورية لمصلحة روما لكى يدحض اتهامات خصومه السياسيين أنه كان يقاتل من أجل مجد شخصى. ولكن على الرغم من هذا الغرض السياسى فإن "حرب الغالة" يُعد رواية معاصرة فريدة لحرب خارجية كتبها قائد رومانى فى لغة لاتينية سلسة ولا تتسم بالإطناب. وقد نشر هذا المؤلف كاملاً على الأرجح عام ٥١ ق. م. فى نهاية حرب الغالة بعد أن كان قيصر يرسل سنوياً تقارير فردية فى ختام كل عام عن إنجازاته فى الغالة خلال العام ثم جُمعت فى هذا الكتاب كاملة عام ٥١ ق. م. أما مذكراته عن " الحرب الأهلية " فقد كانت أقرب إلى منشور سياسى فحواه إن أعداءه وخصومه هم الذين أجبروه على خوض الحرب ضدهم ، ولكن ما يلطف من سرده هو تلك اللمسة الإنسانية أو ذلك الوميض من الروح التهكمية الساخرة. أما المؤلفات الأخرى المنسوبة إليه مثل "الحرب فى افريقيا *Bellum Africum*" "وحرب الاسكندرية *Bellum Alexandrinum*" و "الحرب الأسبانية *Bellum Hispaniense*" فقد كتبها على الأرجح أعضاء فى أركان حرب قيصر من كبار ضباطه .

ثم نأتى إلى مؤرخ رومانى عايش فى صباه المبكر المرحلة الأخيرة من الجمهورية الرومانية حتى سقوطها عام ٤٤ ق. م. ثم ذاع صيته فى بدايات العصر الإمبراطورى لا سيما فى ظل حكم أول الأباطرة أغسطس (٢٧ ق. م. - ١٤م). هذا المؤرخ هو **تيتوس ليڤيوس**(١٨) الذى عاش فى الفترة من ٥٩

ق.م. إلى ١٧م. وولد فى باتـﭬيوم (بادوا الحالية) فى شمال شرق إيطاليا ولم يرحل إلى روما ٤- على الأرجح - إلا فى مقتبل شبابه ، ولا نعرف الكثير عن تفاصيل حياته. ويبدو أن ليـﭬيوس لم يشغل مطلقاً أى منصب عام وإنما كرس حياته للأدب والتاريخ. وقد بدأ فى كتابة مؤلفه الضخم عن "تاريخ روما منذ نشأتها *Ab urbe condita libri*" عام ٢٩ ق. م. أو قبلها بقليل وتولى نشره تباعاً فى أجزاء متلاحقة متتابعة بعد ذلك طيلة حياته، وأضفى هذا العمل عليه شهرة ذائعة بمجرد ظهور أول أجزائه.

وقد كان ليـﭬيوس يقدم قراءات من مؤلفه فى روما واكتسب حظوة وصداقة الإمبراطور أغسطس مدى حياته التى امتدت إلى ما بعد وفاة الإمبراطور بثلاثة أعوام.

ويتألف هذا العمل التاريخى الكبير من ١٤٢ كتاباً ، وتتناول الكتب العشرون الأخيرة من هذا العمل أحداث معاصرة لليـﭬيوس منذ سنوات موت شيشرون عام ٤٣ ق. م. وقد كتب ليـﭬيوس منذ أوائل القرن الأول الميلادى موجزاً أو خلاصة (*Epitome*) لمؤلفه الكبير، ومن هذا الموجز للعمل قام بصياغة ملخصات لكل كتاب على حدة من الكتب التى يضمها العمل.

وما تبقى لنا من هذا المؤلف الضخم فهو على النحو الآتى :

من كتب العمل الأصلى : الكتب من ١-١٠ ، ٢١-٤٥ (الكتابان ٤١، ٤٣ ناقصان) وشذرة من الكتاب رقم ٩١ ، وأما موجز العمل *Epitome* فإنه فقد ولم يتبق منه سوى الأجزاء التى تغطى الكتب أرقام ٣٧ - ٤٠ و٤٨- ٥٥ وقد عثر عليها مدونة على إحدى البرديات من مصر خلال القرن العشرين. أما

ملخصـات *Periochae* كتـب العمـل الأصـلى فإنهـا بقيـت لـنـا جمـيعها باستثناء ملخص الكتابين ١٣٦ و١٣٧.

وتغطى الكتب مـن ١- ٥ الوصف الأسـطورى لتأسـيس مديـنة رومـا وفـترة الحكـم الملكـى ثـم العصر الجمهورى المبكر حتى غزو الغالة لروما عام ٣٩٠ ق. م. وتتـناول الكتـب ٦- ١٥ إخضـاع رومـا لإيطاليـا قبل اندلاع الصراع مـع قـرطاجة. أما الكتب ١٦- ٣٠ فتتناول الحربين البونيتين الأولى والثانية، وتتـناول الكتـب مـن ٣١- ٤٥ الحـروب مـع مقدونـيا وغيرهـا فـى شـرق البحر المتوسط حتى عام ١٦٧ ق. م. أما الكتب اللاحقة المفقودة بعد الكتاب ٤٥ فإن الكتـب ٤٦- ٧٠ تغطى الفـترة التالـية مـن بعـد عـام ١٦٧ ق. م. حـتى انـدلاع الحـرب بـين رومـا وحلفائهـا الإيطالـيين (٩٠- ٨٨ق.م) ، فـى حـين تتـناول الكتـب ٧١- ٩٠ الفـترة حـتى وفـاة الديكـتاتور سـوللا عام ٧٨. والكتب ٩١- ١٠٨ الفـترة حـتى حـروب الغالة التى خاضها يوليوس قيصر فى بلاد الغالة (٥٨- ٥١ ق. م.)، والكتب ١٠٩- ١١٦ حتى الحرب الأهلية بين قيصر وخصومه حتى اغتـيال قيصـر عـام ٤٤ق. م.، والكتـب ١١٧- ١٣٣ حـتى مـوت مـاركوس انطونـيوس وكليوباترا السابعة عام ٣٠ق. م. إثر موقعة أكتيوم البحرية عـام ٣١ق. م. الـتى انتصـر فـيها علـيهما أوكـتاڤـيـان خصـم وغـريم انطونيوس. وتتناول الكتب ١٣٤- ١٤٢ فترة حكم أغسطس (أوكتاڤيان) أول أباطرة الـرومان (٢٧ ق. م. - ١٤م) حـتى عـام ٩ ق. م. وقـد ظـل هـذا المؤلـف الضخم باقياً حتى فترة متأخرة من العصور القديمة، لكن العصور الوسطى لم يكن لديها من هذا المؤلف أكثر مما لدينا الآن .

وقـد استهل تيـتوس ليـڤـيوس مؤلفـه بمقدمة افتتاحية أوضح فيها **الغـرض مـن مؤلفه** ألا وهو تخليد منجزات الأمة التى تقود العالم (فى ذلك

الحين) ووصف الرجال ونمط الحياة الذى رفع روما إلى ذرى المجد والعظمة، ثم التدهور والانحطاط الأخلاقى الذى جلب لروما المشاكل والاضطرابات خلال القرن الأول ق. م. حتى يتعظ منها قراؤه ويخرجوا بدروس هامة. وهكذا كان الغرض من هذا المؤلف الضخم **أخلاقياً وتعليمياً**، وكانت أساليبه فى ذلك أشبه بمنهج الخطيب الإغريقى أيسقراط من القرن الرابع ق. م. الذى يتلخص فى أنه من واجب المؤرخ أن يذكر الحقائق وأن يكون متجرداً على أن يصوغ تلك الحقائق فى قالب أدبى محكم .

أما **عن المصادر** التى اعتمد عليها ليڤيوس فى كتابته فقد تمثلت فى كتاب الحوليات وبوليبيوس (فى كتبه من ٣١ إلى ٤٥عن الحروب مع مقدونيا والممالك الهللينستية)، كما أخذ فى كتبه الأخيرة عن بوسيدونيوس المؤرخ ورئيس مدرسة الفلسفة الرواقية فى رودس، كما كان من بين مصادره كتابات يوليوس قيصر ومذكرات الإمبراطور أغسطس. وقد اعتمد ليڤيوس بصورة أساسية على المؤلفات التاريخية المكتوبة، أما استفادته من السجلات الأصلية فكانت قليلة نسبياً. ويؤخذ عليه كذلك أنه لم يوجه نقداً لمادته المصدرية وإنما أخذها كما هى، وهذا يعنى أنه كان يفتقر إلى المنهج العلمى والعمق الذى كان يميز كتابة كل من ثوكيديديس الأثينى وبوليبيوس. كما كان ليڤيوس قليل الخبرة والدراية والفهم للأمور العسكرية والنظم السياسية وهو ما انعكس على وصفه للمعارك وجعله غير واقعى، كما أنه لم يأبه كثيراً بالأحوال الاقتصادية والحياة الإجتماعية فى روما القديمة وألقى عليها ضوءاً باهتاً. ولكن **ما يميز كتابته** هو وصفه الدرامى والحى والمثير للأحداث البارزة فى الحياة والتاريخ الرومانى بصورة تجعل تلك الأحداث

حية وخالدة فى ذاكرة الأجيال حتى وإن ابتعدت عن الواقعية بصورة أو باخرى. وكانت كتابة ليڤيوس النثرية تتسم بالفصاحة والوضوح والنظام وكانت متطورة بدرجة عالية وتعد إمتداداً لإسلوب شيشرون.

أما عن **موقف ليڤيوس من الأساطير**[١٩] المبكرة التى يرويها عن احداث التاريخ الرومانى المبكر فإنه لا يؤكد أو ينفى حظها من الصدق وإن كان ينوه أنها لا تتمتع بدرجة كبيرة من الأهمية. وهو يرى أن تلك الأساطير إن كانت غير حقيقية فهى تكاد تقترب من الحقيقة وتبرز تلك الجوانب من الشخصية الرومانية التى أدت إلى عظمة روما ومجدها الإمبراطورى وإلى خلق تقاليد رومانية حقيقية كان ليڤيوس يتمنى - فى العصر الأغسطى - أن يرجع الرومان إليها ويعملوا على إحيائها لتنقذهم من الإنحلال الأخلاقى والترف المفسد .

واستكمالاً لهذه المنظومة من المصادر التاريخية والأوربية عن العصر الجمهورى من الفترة الجمهورية أو بعدها بقليل نأتى إلى ذكر **أهم ملحمة شعرية نظمها شاعر رومانى قديم** عن تأسيس مدينة روما ومجدها القديم وهى **ملحمة " الإنيادة " للشاعر ڤيرجيليوس**[٢٠] .

ولد ڤيرجيليوس بالقرب من مانتوا (مانتوڤا) فى منطقة الغالة القريبة فى شمال إيطاليا عام ٧٠ ق. م. اى انه كان من أصول غالية (من قبائل الغالة). وقد تلقى تعليمه المبكر فى كريمونا وميديولانوم (ميلانو) فى شمال إيطاليا ثم أكمل تعليمه فى الفلسفة والبلاغة - فى روما ونابولى. وقد بدأ ڤيرجيل حياته الأدبية حوالى عام ٤٢ق. م. عندما

شرع فى تأليف مؤلفه " **الرعويات** " الذى نشر حوالى عام ٣٧ ق. م. وأصبح بعدها تحت الرعاية الأدبية لأوكتاڤيان ومستشاره وناصحه الأمير مايكيناس الذى كان رجلاً مستنيراً يرعى الأدب والأدباء من أمثال ڤيرجيل وهوراتيوس وبروبرتيوس وڤاريوس. ثم أمضى ڤيرجيليوس السنوات السبع اللاحقة ٣٧-٢٩ ق. م. فى كتابة مؤلفه **"الزراعيات"** وبعدها مباشرة شرع فى كتابة اخلد أعماله وهو **ملحمة "الإنيادة"** التى استغرقت كتابتها السنوات العشر الأخيرة من حياته (٢٩ -١٩ ق. م.). وفى العام الأخير من حياته قام برحلة إلى الشرق لزيارة بعض الأماكن التى وصفها فى أعماله، لكن داهمه المرض وهو فى ميجارا ببلاد اليونان فسارع بالعودة إلى إيطاليا لكنه توفى فى برنديزى فى جنوب شرق إيطاليا فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩ ق. م. ونقل جثمانه إلى نابولى حيث دفن خارجها وصار مدفنه هناك ضريحاً ومزاراً .

نعود الآن إلى مؤلفه الخالد ملحمة " **الإنيادة** " لنشير إلى أنها لم تكن قد اكتملت تماماً عند وفاة مؤلفها ڤيرجيليوس ، ويُروى أن ڤيرجيليوس كان قد أوصى صديقه ڤاريوس بإحراقها إذا توفى (ڤيرجيل) قبل عودته إلى إيطاليا، لكن الإمبراطور أغسطس أصدر أوامره بنشر ملحمة الشاعر الراحل بعد أن أدخل الناقدان الأديبان ڤاريوس وتوكا تعديلات طفيفة عليها. أما عن الملحمة ذاتها فهى قصيدة ملحمية من اثنى عشر كتاباً من الشعر الملحمى فى الوزن السداسى صاغها ڤيرجيليوس على مدى عشر سنوات بعد أن وضعت الحرب الأهلية بين انطونيوس وأوكتاڤيان أوزارها

فى موقعة اكتيوم عام ٣١ ق. م. التى رجحت كفة أوكتافيان ووطدت دعائم حكمه للإمبراطورية الرومانية منفرداً. إن الغرض من تلك الملحمة الشعرية اللاتينية الرائدة هو الاحتفال بنشأة روما وتطور ونمو الإمبراطورية الرومانية والمنجزات الى حققتها روما وحققها اغسطس. أراد ڤيرجيل فى ملحمته أن يمنح روما عراقة ويضرب بجذورها إلى الوراء فى أعماق التاريخ ويربطها - بصورة أو بأخرى - بالإغريق فى مرحلة مبكرة من تاريخهم خلال حرب طروادة. وربما استلهم ڤيرجيل ذلك من التراث الشعبى الفولكلورى الرومانى المتوارث عبر الأجيال وربما كان استجابة لهوى فى نفس راعيه العظيم الإمبراطور أغسطس الذى كان يرغب بالتأكيد فى إضفاء رونق وعراقة على بدايات وأصول روما التى وصلت إلى ذروة عظمتها فى عصره. من هنا فإن الأساس أو القاعدة التى ارتكزت عليها ملحمة الإنيادة هى أسطورة اينياس البطل الطروادى الذى تمكن من النجاة بعد سقوط طروادة فى أيدى الإغريق بعد خدعة حصان طروادة الشهيرة فى بدايات القرن الثانى عشر ق. م.

وبعد نجاة إينياس قام بطواف وتجوال فى أرجاء البحر المتوسط وفى نهاية المطاف أقام مستوطنة طروادية تدعى "لاڤينيوم" فى إقليم لاتيوم فى إيطاليا وسماها كذلك على اسم زوجته الإيطالية "لاڤينيا" التى صار اسمها "البا لونجا" فى عهد ابنه الطروادى يوليوس (جد ومؤسس عائلة وقبيلة يوليوس) وأخيراً أصبحت روما. ورغم أن الإطار العام لملحمة "الإنيادة" يحذو حذو الملاحم الهومرية اليونانية وتأثرها أحياناً بالدراما والتراجيدية الأتيكية (الأثينية) وملحمة " رحلة السفينة أرجو " لأبوللونيوس الرودى من مشاهير شعراء الاسكندرية القديمة إلا انها تأثرت

كذلك بشعراء روما الأقدميين مثل نايڤيوس وإينيوس . كما يتخللها مفاهيم رومانية وقيم رومانية وتاريخ رومانى. إن هذه الملحمة فى مستواها البسيط تمجد الشعب الرومانى والعائلات الكبرى من الرومان من خلال ن يل أسلافهم فى عصر بطال وكذلك مر ل إبرار الانتصارات الكبرى فى التاريخ الرومانى من منظور مستقبلى مأمول سيؤدى ويتوج فى نهاية المطاف بحكم الإمبراطور أغسطس. كما ان من بين الملامح البارزة فى الملحمة ظهور مفهوم إيطاليا كأمة موحدة واحدة والنظر إلى التاريخ الرومانى كإطار كامل متواصل منذ تأسيس المدينة حتى الوعد بالإمبراطورية.

ومن بين الأمور التى تكمن فى ثنايا هذه الملحمة هو المعتقدات الدينية التى تتسم بدرجة من العمق تفوق كثيراً منظومة الآلهة والإلهات فى الأسطورة. إذ تفوح منها رائحة التبجيل والتوقير للمعتقدات والطقوس القديمة، كما تنبعث من ثناياها أفكار فلسفية مأخوذة عن الإغريق وإن اصطبغت بإتجاهات رومانية رغم أن الملحمة تركز بأكملها على قصة إينياس الطروادى منذ خروجه من طروادة وطوافه بأرجاء كثيرة حتى وصوله فى نهاية المطاف إلى لاتيوم ، ومحاولة زواجه من ابنة ملكها لاتينوس المدعوة "لاڤينيا" ، وما اعترضه من صعوبات فى سبيل ذلك لا سيما من غريمه تورنوس الذى كان يرغب هو الآخر فى الزواج من "لاڤينيا" وتغلب إينياس عليه وقتله فى الكتاب الأخير من الإنيادة وفوزه بـ "لاڤينيا" .

ومن الجدير بالتنويه أنه على الرغم من اقتصار الملحمة على مغامرات وإنجازات الجد الأكبر للرومان أينياس الطروادى إلا أنها تشير فى

بعض ابياتها إلى منظور مستقبلى يتحدث - فى تصريح يتوارى فى ثياب التلميح - إلى مستقبل الأمة الرومانية التى لم تكن قد ولدت بعد. ففى الكتاب السادس من " الإنيادة " الذى قام فيه إينياس بزيارة للعالم السفلى بصحبة كاهنة وحى سيبيل فى كوماى التى أفصحت له عن بعض النبوءات نجد الأبيات التالية ٨٥١- ٨٥٣ وهى ذات مغزى عميق حول مصير روما :

أيها الرومانى : لينصب اهتمامك على قيادة الأمم. إن فضائلك المستقبلية هى أن تفرض وتبسط راية السلام ، وأن تكون نصيراً للمستضعفين ، وأن تسحق المتغطرسين :

Tu regere imperio populos Romane, memento; hae tibi erunt artes: pacisque imponere morem, Parcere subiectis, et debellare superbos.

والآن نتناول فى إيجاز المصادر التاريخية اللاحقة منذ أواخر العصر الجمهورى وحتى الإمبراطورية المتأخرة والفترة البيزنطية التى عالجت - بصورة جزئية أو كلية- تاريخ الرومان فى العصر الجمهورى. هذه المصادر كتبها مؤرخون مختلفون عاشوا فى أرجاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية المبكرة أو المتأخرة .

من أول هؤلاء المؤرخين **"ديودور الصقلى"**(٢١) الذى كتب فى الفترة ما بين ٦٠ و٣٠ ق.م. تاريخاً عالمياً أسماه **(المكتبة التاريخية** *Bibliothēkē historikē*) يتألف من **أربعين كتاباً** . وهو يتناول فى الكتب أرقام من ١٨ إلى ٤٠ الفترة التاريخية الواقعة **ما بين تولى خلفاء الاسكندر الأكبر الحكم** فى العالم الهيللينيستى بعد عام ٣٢٣ ق.م. **وحتى قنصلية يوليوس قيصر الأولى** عام ٥٩ق.م. ويشير فيها كثيراً إلى روما وأوضاعها وتدخلاتها فى شئون العالم الهيللينيستى خلال تلك الفترة. من هذه الكتب نجد أن الكتب

أرقام ١٨ - ٢٠ قد بقيت **لنا كاملة** أما الكتب من ٢١ - ٤٠ فقد وصلتنا **شذرات منها**.

ومن هؤلاء المؤرخين كذلك **"ديونيسيوس الهاليكارناسى"**[٢٢] الذى عاش فى روما لعدة سنوات اعتباراً من ٣٠ ق.م. وكان ديونيسيوس الهاليكارناسى **من المتحمسين حماساً عظيماً لروما** وعبر عن حماسه هذا فى **مؤلف من عشرين كتاباً** أسماه **"الآثار الرومانية"** (*Romāikē archaioiogia*) كتبه بلغته اليونانية. **وتبقى من هذا** المؤلف الكتب **من ١-٩ كاملة** بالإضافة **إلى أجزاء كبيرة من الكتابين ١٠ و١١**. وتشمل هذه الموسوعة **الأحداث من الفترة الأسطورية حتى اندلاع الحرب البونية الأولى عام ٢٦٤ ق.م**. وهى النقطة التى بدأ منها المؤرخ بوليبيوس كتابته للتاريخ الرومانى. لكن الأجزاء المتبقية من هذه الموسوعة **تقف عند عام ٤٤١ ق.م**. وهى عبارة عن عرض تفصيلى شاق ماخوذ عن كتاب الحوليات الرومان **ويمثل إضافة قيمة لما ورد عند تيتوس ليڤيوس** .

ويأتى بعد ذلك مؤرخ رومانى عاش فى ظل حكم الإمبراطور أغسطس ثم الإمبراطور تيبريوس وهو **ڤيليوس باتيركولوس**[٢٣] *Velleius Paterculus* (حوالى ١٩ ق.م. - ما بعد ٣٠م.). وقد أمضى باتيركولوس سنوات عديدة فى الخدمة العسكرية مع الفرق الرومانية فى بلاد الجرمان تحت قيادة تيبريوس (الإمبراطور تيبريوس لاحقاً) وشغل وظيفة كوايستور عام ٧م. ثم برايتور عام ١٥م.

وفيما يتعلق به كمؤرخ فقد كتب ڤيليوس باتيركولوس **مختصراً وافياً للتاريخ الرومانى منذ اقدم العصور حتى عام ٢٩م. فى كتابين : الأول ينتهى عند عام ١٤٦ق.م**. ولم يصلنا كاملاً بل فقد

معظمه . أما الثانى فيبدأ منذ تدمير قرطاجة عام ١٤٦ ق.م. والذى يعتبره باتيركولوس نقطة تحول فى التاريخ الرومانى ، مثله فى ذلك مثل ساللوستيوس . وفى الكتاب الثانى غطى باتيركولوس الفترة من ١٤٦ - ٥٩ ق.م. فى إيجاز شديد ثم ركز على يوليوس قيصر والإمبراطور أغسطس والإمبراطور تيبريوس الذين أفرد لهم - ولا سيما الإمبراطور تيبريوس - مساحة واسعة من مؤلفه. وقد اعترف ڤيليوس باتيركولوس أن ما كتبه قد جاء فى عجالة سريعة ووعد فى عدة مواضع من مؤلفه أن يفرد لموضوعه تاريخاً مفصلاً وهو ما لم يحدث.

وقد أبدى باتيركولوس فى مؤلفه انحيازاً واضحاً وحماساً كبيراً للبيت الإمبراطورى منذ عهد قيصر وصل إلى حد التزلف والرياء الفاضح لتيبريوس لدرجة أن كثيراً من مؤرخى القرن العشرين وعلمائه - وعلى رأسهم السير رونالد سيم - أسقطوا شهادة ڤيليوس باتيركولوس عن تيبريوس من حساباتهم ونظروا إليها باحتقار باعتباره مداح الإمبراطور[٢٤]. ومع ذلك فإن لمؤلفه قيمة فيما يتعلق ببعض الفقرات التى تتناول سير بعض الأشخاص مثل قيصر وبومبى ومايكناس ، وبطبيعة الحال تيبريوس . كما أنه أفرد فصولاً للحديث عن تطور الأدب اللاتينى حتى ازدهاره العظيم فى عهد أغسطس. ولكن يغلب على كتابته التاريخية التكلف والصنعة والأسلوب البلاغى .

ومن القرن الأول وبدايات القرن الثانى الميلادى يبرز كاتب السير والمؤرخ والفيلسوف الأخلاقى بلوتارخوس (حوالى عام ٤٦ - إلى حوالى ١٢٠ م.) الذى ولد وعاش معظم حياته فى خايرونية فى إقليم بؤوتيا ببلاد اليونان ، وكان ينحدر من أسرة ثرية ومثقفة. وقد درس بلوتارخ الفلسفة فى أثينا ، وقام بزيارة مصر وإيطاليا وحاضر ودرّس فى روما وكوّن

دائـرة واسـعة مـن الأصدقاء من المثقفين ومن ذوى النفوذ. وأمضى بلوتارخ السنوات الثلاثين الأخيرة من عمره ما بين خايرونيه وديلفى حيث كان يحظى بمواطنة المدينتين وقدم خدمات جليلة ومخلصة لكل منهما .

ويُعد بلوتارخ[٢٥] **من أكثر كتاب النثر القدماء جاذبية وإمتاعاً للقارئ** وكانت كتاباته **تتسم بالرشاقة والجاذبية والحيوية**. وما بقى لنا من مؤلفاته - أكثر من نصف ما كتب- يضم او يمكن أن يُصنف فى مجموعتين: (١) سلسلة من **سير المشاهير من الشخصيات اليونانية والرومانية** يبلغ عدده **خمسون سيرة**. وقد أطلق على هذه السلسلة اسم **"السير المتوازية"** *Paralleloi Bioi* وتتناول حياة بعض المشاهير الشخصيات الإغريقية، ويعقب الحديث عن تلك الشخصية الإغريقية تناول شخصية رومانية تتشابه فى عدد من جوانبها مع الشخصية الإغريقية السالف ذكرها ، ولذا سميت بـ"السير المتوازية". ويعقب تناول كل شخصيتين متماثلتين من الإغريق والرومان دراسة مقارنة موجزة لهما احياناً ، وتتكون السلسلة من ٢٣ حالة لشخصيتين متشابهتين فى السمات من الإغريق والرومان ، فضلاً عن أربع حالات منفردة لم تقارن بأحد . (٢) سلسلة أخرى تتألف **من ثمان وسبعين مقالة** متفرقة متنوعة فى **البلاغة وفلسفة الأخلاق**[٢٦]. وقد عُرفت هذه السلسلة باسمها اللاتينى *Moralia* رغم أن كل مؤلفات بلوتارخ مكتوبة **باليونانية**، وعنوان هذه السلسلة باليونانية هو *Ethica* .

إن ما يعنينا فى هذا المقام مباشرة هو مجموعة **"السير"** التى كتبها بلوتارخ - متوازية أو منفردة - ولاسيما ما يتعلق منها بالشخصيات الرومانية من العصر الجمهورى. لعل من أبرز تلك الشخصيات التى كتب عنها بلوتارخ من الرومان **كاتو الأكبر وماريوس وسوللا وكراسوس وبومبى وقيصر وكاتو الأصغر وشيشرون وماركوس انطونيوس**

وبروتوس. وفى بداية السلسلة كان قد تناول **رومولوس** ، كما تناول فى أجزاء أخرى الديكتاتور كاميللوس والقائد فلامينيوس والقائد **أيميلوس باولوس** والأخوين **تيبريوس وجايوس جراكوس**. وهى كلها شخصيات ذات تأثير بالغ فى تاريخ الرومان وتحظى بمكانة مرموقة ومؤثرة فى الوجدان الرومانى القديم وسنتناول دور كل منها فى حينه .

وفى كتابة هذه السير لم يكن **غرض** بلوتارخ هو عرض الأحداث السياسية المرتبطة بتلك الشخصيات المعنية بقدر ما كان **إبراز الجوانب الأخلاقية والسلوكية للشخصية**. من هنا اهتم بلوتارخ بأن يحدثنا عن مدى تعليم وثقافة الشخصية ومزاجها العام ويروى لنا مواقف وطرائف من حياة صاحب السيرة تلقى ضوءاً فاحصاً على جوانب وأبعاد الشخصية المعنية. ورغم أن بلوتارخ قد يبتعد إلى حد ما عن الحقيقة لكى يجسد مدى فضيلة أو رذيلة هذه الشخصية أو تلك إلا أن درجة الثقة بما أورد تعتمد على المصدر الذى اخذ عنه ، وهى أحياناً ما تكون **مصادر ذات قيمة عالية**. كما يتسم بلوتارخ **بالحيادية والتجرد إلى حد كبير** فى روايته عن شخصياته من إغريقية ورومانية فلا ينحاز إلى بنى جلدته من الإغريق أو يتباهى بأمجادهم الغابرة ولا يداهن أو ينافق سادة العصر الجديد من الرومان .

وتتجلى فى سير بلوتارخ - فضلاً عن المواقف والطرائف - العديد من **المواقف والأحداث التاريخية التى لا تنسى** مثل حصار القائد الرومانى ماركيللوس لسيراكيوز خلال الحرب البونية الثانية والقضاء على عالمها الشهير أرشميدس وإسقاط المدينة عام ٢١٢ ق.م. ، وانتصار القائد ماريوس على قبائل الكيمبرى الجرمانية، وانتصار يوليوس قيصر على بومبى عام ٤٨ ق.م. فى موقعة فارسالوس واغتياله بعد ذلك ، وإبحار كليوباترا فى

نهر كيدنوس (جنوب شرق آسيا الصغرى) فى مركبها الملكى الكبير لزيارة ماركوس انطونيوس فى طرسوس .

وقد استفاد وليم شكسبير كثيراً فى كتابته لمسرحيات التراث الكلاسيكى - لا سيما الرومانى - الثلاثة (يوليوس قيصر - انطونيو وكليوباترا - كاريولانوس) من أول ترجمة انجليزية لسير بلوتارخ والتى قام بها السير توماس نورث عام ١٥٧٩ والتى ترجمها ليس عن الأصل اليونانى بل عن ترجمة فرنسية للأصل اليونانى قام بها أميوت *Amyot* عام ١٥٥٩ .

ومن مؤرخى القرن الثانى الميلادى كذلك هناك **ابيانوس السكندرى**[٣٧] الذى ولد بالاسكندرية فى أواخر القرن الأول الميلادى ثم اكتسب المواطنة الرومانية ونزح إلى روما حيث زاول مهنة المحاماة. ثم نال وضعاً مرموقاً فى عهد الإمبراطور انطونينوس بيوس (١٣٨ - ١٦١م.) وتفرغ لكتابة **التاريخ الرومانى منذ العصر الملكى حتى عصر الإمبراطور تراجان فى أربعة وعشرين كتاباً**. وقد تبقى لنا من هذا المؤلف الكبير **تسعة كتب كاملة** (الكتب ٦-٩ ، و١١ - ١٧) لكن وصلنا **من الكتب أرقام ٨ ، ٩ أجزاء كبيرة** (وليس الكتابين بكاملهما). ولكن اكثر كتب ابيانوس التى وصلتنا قيمة وأهمية هى الكتب من ١٣- ١٧ التى تصف الحروب الأهلية ما بين عامى ١٤٦- ٧٠ ق.م. لأن أبيانوس هو المصدر الوحيد عنها ولولاه لفُقدت تماماً ، وهو ما يكسبها اهمية تاريخية لا سيما وانه بيّن مصادره عن تلك الفترة واجاد التصرف فيها بصياغة مستقلة .

ومن القرن الثانى الميلادى كذلك هناك مؤرخ رومانى يُدعى لوكيوس انايوس **فلوروس**[٣٨] يبدو انه كتب فى عصر الإمبراطور انطونيوس بيوس (١٣٨- ١٦١م.) على الأقل. وقد كتب مؤلفا بعنوان"موجز بكافة الحروب على مدى سبعمائة عام *Epitome bellorum*

omnium annorum DCC"، وهو عبارة عن **موجز بالتاريخ الرومانى حتى عصر الإمبراطور أغسطس مع التركيز على الحروب** مع افتراض أن أغسطس قد أنهى حالة الحرب ونشر السلام فى ربوع الإمبراطورية والعالم. ويصف البعض هذا المؤرخ بأنه **موجز مختصر لمؤلف تيتوس ليفيوس** رغم تباينه معه فى بعض الأمور. وقد اعتمد هذا المؤلف فى روايته كذلك على بعض من سبقوه من أمثال سالوستيوس وقيصر وفيرجيل ولوكانوس. وإسلوب فلوروس بلاغى يميل إلى مديح وإطراء الشعب الرومانى، ولكن يصل به الإيجاز احياناً إلى درجة الغموض .

وهناك مؤرخ آخر عاش ما بين عامى ١٥٠- ٢٣٥ م. هو المؤرخ الرومانى **ديو كاسيوس**[٣٩] الذى ولد أصلاً فى بيثنيا بشمال آسيا الصغرى. وقد شغل ديوكاسيوس منصب القنصلية مرتين فى حياته فى روما وتولى حكم ولايتى افريقيا ودلماتيا. وابرز مؤلفات هذا السياسى والمؤرخ **هو عمله الموسوعى عن تاريخ روما** (باللغة اليونانية فى **ثمانين كتاباً** تغطى الفترة من **وصول اينياس إلى إيطاليا حتى عام ٢٢٩م**. وقد تبقى لنا من هذه الموسوعة **الكتب من ٣٦ - ٥٤ كاملة** وهى تغطى الفترة التاريخية من ٦٨ إلى ١٠ق.م. (اى أواخر عصر الجمهورية وأوائل الإمبراطورية) كما تبقت الكتب **٥٥-٦٠ التى تغطى الفترة من ٩ق.م. إلى ٤٦م. ولكن فى صورة مختصرة**. كما تبقت أجزاء من الكتابين ٧٩-٨٠ تغطى أحداثاً من الأعوام ٢١٧-٢٢٠م. أما **بقية أجزاء تاريخه فيمكن أن نلملم شتاتها من الأوصاف الموجزة الواردة** عند **المؤرخين البيزنطيين** من القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد. ولكن رغم اهمية ديوكاسيوس كشاهد هام على بعض الأحداث التى عاصرها فى الفترة الإمبراطورية إلا أنه لا يعول عليه كثيراً فيما يتصل بمؤسسات ونظم العصر الجمهورى، ويغلب على كتابته الطابع البلاغى والخطابى .

وهـناك مـؤرخ مُختلف عـلى تاريخه فمن قائل بانه من القرن الثانى ومـن قـائل بانـه مـن القرن الثالث بل أن البعض - مثل المؤرخ رونالد سيم - ينسـبه للقـرن الـرابع الـميلادى: هـذا المـؤرخ هـو **جوسـتين**[٣٠] (مـاركوس يولـيانوس جوستينوس) الذى يكتسب أهميته من كونه مؤلف **المختصر اللاتيـنى لـ"الـتواريخ الـفيليـبة"** وهـو المؤلـف المفقـود لـلمؤرخ **رمبـيوس تـروجوس**. والأخير هـو كاتب من منطقة الغالة التربونية (جنوب فرنسا حاليًا) اكتسب المواطـنة الرومانـية، وعـاش فـى عصـر أغسطس وكتب مؤلفـات فـى عـلم الحـيوان وربـما كـذلـك عـلم الـنبات، كـما كـتـب فـى الـتاريخ "الـتواريخ الفيليبـية *Historiae Philippicae* ". وقـد فقـدت كـل أعمالـه ولم يُعـرف إلا من خلال مختصر جوستين عن "التواريخ الفيليبية" وقوائـم محـتوياته. ومـن خـلال هـذا المختصـر وقائمـة محـتوياته نعـلم أنه تـناول فـى الـبداية الشـرق الأدنـى القديـم وبلاد اليونان (الكتب من ١-٦) ثم مقدونـيا (الكتـب ٧-١٢) ثـم الممالك الهيللينستية حتى سقوطها فى قبضة رومـا (الكتـب ١٣-٤٠) وبعـد ذلـك تـناول تـاريخ البارثـيين حتى عام ٢٠ ق.م. (الكتـب ٤١-٤٢) ثـم الفـترة الملكـية أو العهـد الملكـى فـى رومـا ثـم تـاريخ الغالـة وأسبانيا حتى حروب أغسطس فى أسبانيا (الكتب ٤٣-٤٤).

ومـن **القـرن الـرابع الميلادى** كـان هـناك مـؤرخ ربـما كـان مـن بلاد الغالـة هـو **يوتروبـيوس**[٣١]. وقـد شـارك يوتـروبـيوس فـى حملة الإمبراطور جولـيان (المـرتد) عـلى بـلاد فـارس عـام ٣٦٣م. كـما كـان مشرفاً على دار السجلات *magister memoriae* فـى عهـد الإمـبراطور ڤالـنس (٣٦٤ - ٣٧٨م.)

وقـد نشـر يوتـروبـيوس **مسحاً موجزاً للتاريخ الرومانى** " *Breviarium ab urbe condita* " بـداه **مـنذ عهـد رومولوس وصولاً إلى الحـرب الأهلـية فى عهـد الديكـتاتور سـوللا (الكتـب ١-٥)** ثـم مـوت يولـيوس قيصـر (الكـتاب

السادس) ثم تاريخ الإمبراطورية حتى موت الإمبراطور جوفيان ٣٦٤م. (الكتب ٧-١٠).

وقد اعتمد فى كتابته عن العصر الجمهورى على موجز مؤلف ليفيوس. وعلى الرغم من ان مؤلف يوتروبيوس قصير وغير تفصيلى إلا انه متوازن ويتسم بحسن التقدير والتقييم والحياد. وقد ترجم هذا المؤلف إلى اليونانية عام ٣٨٠ على يد بايانيوس، واستفاد منه بعد ذلك جيروم (القديس) وأورسيوس.

والأخير فى الفقرة السابقة وهو أوروسيوس[٣٢] هو قس مسيحى شاب اتى إلى افريقيا من منطقة براجا *Braga* فى شمال غرب أسبانيا عام ٤١٤م. اى فى أوائل القرن الخامس الميلادى. وكان أوروسيوس على علاقة وطيدة بالقديس اغسطين الذى أوصاه بالارتحال إلى القديس جيروم فى بيت لحم فى فلسطين.

وبعد عودة أوروسيوس إلى أفريقيا وبتشجيع من القديس أغسطين كتب مؤلفاً من سبعة كتب بعنوان "تواريخ ضد الوثنيين" وتغطى الفترة من خلق العالم إلى تاريخ روما حتى عام ٤١٧م. وهو من المؤلفات الدفاعية التى كتبت بهدف الرد على مزاعم الوثنيين وحججهم بأن قدوم المسيحية كان نذير شؤم وجلب كارثة على العالم.

ولعل مصادرنا فى هذا الصدد تتوقف عند زوناراس[٣٣] وهو مؤرخ بيزنطى من القرن الثانى عشر الميلادى. وقد كان زوناراس موظفاً كبيراً فى البلاط الإمبراطورى، وفى إطار التقلبات السياسية المرتبطة بمؤامرة محاولة تنصيب آنا كومنينا إمبراطورة وفشل تلك المحاولة يبدو أن زوناراس أجبر على الاعتزال فى جزيرة نائية وتفرغ للكتابة. وأبرز

المجالات التى كتب فيها هى القانون البيزنطى ، وشروح وتعليقات على بعض القصائد ومصطلحات الشعر الدينى .

وفى مجال التاريخ **كتب زوناراس تاريخاً عالمياً** منذ **خلق الكون حتى عام ١١١٨م**. ولم يزعم زوناراس فى هذا الصدد بانه اكثر **من مُجمع لما** كتب قبله. **وقد اعتمد فى كتابة تاريخ الرومان** حتى تدمير قرطاجة عام ١٤٦ ق.م. على **مُقتطفات من كاتب السير بلوتارخوس** والكتب الإحدى والعشرين الأولى من **ديوكاسيوس** وهو مصدرنا الوحيد ذو الأهمية عنها. وقد اضطر لأن يحذف من مؤلفه تاريخ الفترة الأخيرة من الجمهورية لأنه لم يكن لديه كتب ديو كاسيوس الخاصة بتلك الفترة ، وأورد عنها فقط **مقتطفات من سير بلوتارخ عن بومبى وقيصر**. ولكن زوناراس تمكن من الاستفادة من كتب ديوكاسيوس ٤٤-٦٨ ويُعد هو وكسيفيلينوس أهم من استعاد لنا كتب ديو ٦١ -٦٨.

مراجع الفصل الثالث

(١) يذكر هوراتيوس من شعراء العصر الاغسطى (٦٥ - ٨ ق. م) أنه اعتاد أن يحفظ اوديسية أندرونيكوس عن ظهر قلب تحت التهديد بالضرب من قبل أوربيليوس النحوى (حوالى ١١٣ - إلى حوالى ١٧ ق. م.) ناظر المدرسة التى تعلم فيها هوراتيوس .

(٢) انظر شيشرون فى مؤلفه " بروتوس " أو " عن مشاهير الخطباء " .
Cicero, Brutus (De claris oratoribus) 71 .

(٣) ذكر ذلك عند أولوس جيليوس *Aulus Gellius* وهو مؤلف وكاتب لاتينى من القرن الثانى الميلادى (١٣٠ - ١٨٠) ألف كتاب " الليالى الاتيكية " فى عشرين مجلداً . انظر (*I.* 24 .2) .

(٤) لمزيد من التفاصيل حول نايڤيوس ومؤلفه عن " الحرب البونية "

انظر :

S. Mariotti, Il "Bellum Poenicum" e l' arte di Nevio (1955); *M. Barchies, Nevio epico* (1962).

(٥) عن إينيوس ومؤلفاته وتأثره راجع :
E. H. Warmington, Remains of Old Latin I *(revised ed.* 1956); *H. D. Jocelyn, The Tragedies of Ennius* (1967); *O. Skutsch, The "Annales" of Q. Ennius* (1985).

(6) F. Badian, Latin Historians, (1966).

(٧) انظر :

A. Astin, Cato the Censor (1978)

(8) *F. W. Walbank*, (1972), *Polybius;*

K. Sacks (1981), Polybius on the Writing of History.

(9) *G. A. Lehmann (1967), Untersuchungen zur historischen Glaubwürdigkeit des Polybios.*
K. Sacks (1981), Polybius on the Writing of History.

(10) *K. E. Petzold (1969), Studien zur Methode des Polybios und zu ihrer historischen Auswertung; K. Meister (1975) Historische Kritik bei Polybios; and in S. Hornblower (ed.) (1994), Greek Historiography, pp. 73 ff.*

(11) *K. Reinhardt (1921), Poseidonios;*
M. Laffranque (1964) Poseidonios d'Apamée;
I.G. Kidd (2 vols. 1988), Posidonius II. The Commentary.

(12) *J. Geiger (1985), Cornelius Nepos and Ancient Political Biography. Hist Einzelschr. 47.*

(13) *G. Boissier (1861), Étude sur la vie et les ouvrages del Varron; E. Rawson (1985), Intellectual Life in the Late Roman Republic.*

(14) *K. Buchner (1960), Sallust; D. C. Earl (1961), The Political Thought of Sallust; R. Syme (1964), Sallust.*

(15) *T. E. Scanlon (1980), The Influence of Thucydides on Sallust.*

(16) *E. Rawson, op. cit.; D.R. Shackleton Bailey (Edition) (1965 – 70): Cicero's Letters to Atticus; (1977) Ad Familiares; (1980) Ad Quintum fratrem and Ad Brutum.*

(17) *F. E. Adcock (1956), Caesar as Man of Letters; M. Gelzer (1963), Caesar als Historiker; Idem (1968, Oxford) Caesar: Politician and Statesman; M. Grant (1969) Julius Caesar; M. Rambaud (1953), L'Art de la Deformation Historique dans les "Commentaires" des Cesar.*

(18) *P. G. Walsh (1961), Livy, his Historical Aims and Methods; R. Bloch (1965), Tite – Live et les premiers Siècles de Rome; M. Mazza (1966), Storia e Ideologia in Tito Livio; T.Luce (1977),*

Livy, the Composition of his History; A. J. Woodman (1988), Rhetoric in Classical Historiography.

(19) I. Kajanto (1957), God and Fate in Livy.

(20) K. Quinn (1968), Virgil's Aeneid: A Critical Introduction; W. A. Camps (1969), Introduction to Virgil's Aeneid; R. D. Williams (1987), The Aeneid; K, W. Gransden (1990), Virgil. The Aeneid; G. Williams (1983), Techniques and Ideas in the Aeneid; P.R. Handie (1986), Virgil's Aeneid: Cosmos and Imperium; R.O.A.M.Lyne (1987), Further Voices in Virgil's Aeneid

(21) I. Plam (1955), über sprache und stil des Diodoros von sizilien; K.Meister (Diss. Munich, 1967), Die sizilische Geschichte bei Diodor; K. Sacks (1990), Diodorus Siculus and the First Century.

(22) S. F. Bonner (1939), The Literary treatises of Dionysius; E. Gabba (1991), Dionysius and the History of Archaic Rome.

(23) I. Lana (1952), V.P. o della propaganda; C. Kuntze (1985), Zur Darstellung des Kaisers Tiberius und seiner Zeit bei V.P.

(24) R. Syme (1984), Roman Papers 3, pp. 1090 – 1104 (mendacity / اعتياد الكذب).

(25) R. Hirzel (1912), Plutarch; C.P.Jones (1971), Plutarch and Rome; D.A. Russell (1972), Plutarch.

(26) D. Babut (1969), Plutarque et le Stoicisme; H.D.Betz (ed. 1987) plutarch's Ethical Writings and Early Christian Literature.

(27) E. Gabba (1956), Appiano e la storia delle guerre civili; A.M. Gowing (1992), The Triumviral Narratives of Appian and Cassius Dio.

(28) *F. Goodyear in Cambridge History of Classical Literature (CHCL)* 2, *PP.* 664 *ff.*, 898 *ff.* (1982), *Ed. E.J. Keney and W. V. Clausen (vol.*2 *on Latin Literature).*

(29) *F. Millar* (1964), *A Study of Cassius Dio; D. Fechner* (1986), *Untersuchungen zu Cassius Dios Sicht der romischen Republik.*
أنظر كذلك حاشية رقم ٢٧ أعلاه

(30) S. *Amantini* (1981), *Guistino: Storie Philippiche (Eng. Transl. By J. Yardley* 1994); *R. Syme Roman Papers* 7 *vols.* (1979 – 91), *vol.* 6, *p.* 358 *ff.*

(31) *A. Momigliano (ed.* 1963), *The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century, (Chapter* 4 *by. A. Momigliano); W. den Boer,* (1972), *Some Minor Roman Historians.*

(32) *Ed. M. P. Arnaud – Lindet (Budé* 1990 – 1); *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum (CSEL)* 18.

(33) *F. Millar* (1964), *A study of Cassius Dio* (حاشية ٢٩ أعلاه) , *pp.* 2 *ff. and* 195 *ff.; H. G. Beck,* (1959), *Kirche und theologische Literatur in Byzanz.*

الفصل الرابع

روما القديمة بين الأسطورة والحقيقة

العصر الملكى

روما القديمة بين الأسطورة والحقيقة - العصر الملكى (١)

كانت روما القديمة تقع على الضفة اليسرى من نهر التيبر وتبعد عن البحر نحو ٢٢ كيلومتراً (البحر الإترورى أو التيرانى إلى الغرب). وكانت تقع فى إقليم لاتيوم قرب تخومه الشمالية مع إقليم اتروريا. وتذكر الروايات القديمة أن المستوطنة الأصلية التى قامت عليها روما كانت على تل البلاتين وهو واحد من مجموعة من التلال المجاورة القريبة من نهر التيبر يتراوح ارتفاعها ما بين ٣٠ - ٥٠ متراً (١٠٠-١٦٠ قدماً). وتستطرد هذه الروايات لتتحدث عن توسع مستوطنة البلاتين لتضم المنطقة المعروفة بمنطقة الشعاب السبعة -Septimontium-. ولكن ينبغى أن نميز بوضوح بين تل البلاتين وتوسعه المعروف بالإسم السابق وبين التلال السبعة التى تالفت منها روما فى مرحلة لاحقة والتى كان تل البلاتين أحدها. هذه التلال السبعة هى تلال البلاتين والأفنتين والكابتولين والكايلين والإيسكولين والفرمينال والكورينيال. وكان يطلق على التلال الخمسة الأولى من هذه المجموعة لفظ montes اى "جبال" أو "قمم" فى حين عُرفت الاثنان الأخيران بلفظ colles اى "تلال" رغم أن فروق الارتفاع بينها لا توحى بذلك فهى متقاربة الارتفاعات .

وإذا ما عدنا للحديث عن نشأة وتاسيس روما القديمة وتاريخها المبكر اعتماداً على المؤرخين وغيرهم من الكتابات الأدبية لوجدنا ان معظم من كتبوا عن تلك الفترة المبكرة ممن بقيت كتاباتهم قائمة حتى الآن قد كتبوا بعد خمسمائة عام على الأقل من وقوع الأحداث كما راينا فى الفصل السابق. وعلى مدى تلك الفترة الزمنية الطويلة بعد وقوع الأحداث وروايتها لم يعد من السهل التمييز بين الحقيقة والأسطورة أو بين الواقع وما امتزج به من خيال فى تلك الأحداث. ولما كانت حضارة بلاد الإغريق

المجاورة أقدم وأعرق من المدينة والدولة الرومانية الوليدة فقد كانت هناك رغبة من جانب الرومان فى ربط جذورهم الأولى بأحداث وقعت على الجانب والإغريقى وهو ما يربط الرومان بتاريخ اليونان . **لذا فقد ربط الرومان جذورهم الأولى بالحدث الأشهر فى تاريخ اليونان فى العصر الموكينى وهوحرب اليونان ضد طروادة** فى شمال غرب آسيا الصغرى وتدميرهم لها فى أوائل القرن الثانى عشر ق.م. (١١٨٤ق.م.) وهو الحدث الذى تروى ملاحم هرميروس الشهيرة الإلياذة والأوديسية بعضاً من فقراته المؤثرة. وينسب الرومان أنفسهم إلى أحد الطرواديين الذين تمكنوا من مغادرة المدينة بعد أن دمرها الإغريق وهذا البطل الطروادى هو **أينياس** الذى تنسب إليه ملحمة الإنيادة الشهيرة للشاعر الرومانى **فرجيلليوس** كما أسلفنا. وتروى الملحمة قصة طواف أينياس الطروادى - بعد فراره من المدينة المدمرة - ورحلاته فى أرجاء البحر المتوسط برفقة أبيه انخيسيس وولده اسكانيوس حتى حط الرحال فى نهاية المطاف فى إقليم لاتيوم فى وسط إيطاليا قرب مصب نهر التيبر وتزوج من **لافينيا ابنة لاتينوس ملك لاتيوم** وأقام لها مدينة تحمل اسمها هى **"لافينيوم"**. ولكن ابن أينياس المدعو **أسكانيوس** ترك لافينيوم إلى **"ألبالونجا"** (المدينة الرئيسية فى الحلف اللاتينى) إلى الداخل قليلاً بعد لافينيوم حيث تعاقبت ذرية أينياس وولده أسكانيوس على حكم "البا لونجا".

وتواصلت هذه الذرية - حسبما تروى الأسطورة الرومانية- وكان آخر هذه السلسلة من ملوك "البا لونجا" **"أموليوس"** الذى أغتصب العرش من أخيه الملك الشرعى **"نوميتور"** ونفاه خارج "البا لونجا" .

عند هذا الحد من الأسطورة فى"البا لونجا" تبدأ **إرهاصات نشأة روماء** فقد قام الملك غير الشرعى"أموليوس" - الذى نفى أخاه نوميتور - بجعل الإبنة الوحيدة للملك المخلوع واسمها **"ريا سيلفيا"** كاهنة عذراء فى معبد

الربة "فيستا" ربة الموقد والعذرية ولا يحق لها الزواج . وذلك حتى لا تنجب من يمكن أن ينافسه على العرش بعد ذلك. ولكن فوجئ عمها الملك بعد حين بأنها حامل وأنها أنجبت ولدين توأم من **الإله "مارس" إله الحرب.** هذان الولدان هما **ريموس ورومولوس** وإزاء هذا الموقف المباغت قام الملك بحبس الأم "ريا سيلفيا" وأمر بالتخلص من الطفلين، فقام أحد الخدم بوضع الرضيعين فى صندوق وألقى به فى نهر التيبر ظانا بذلك أنه قد تخلص منهما وأخبر الملك بنهاية أمر الرضيعين .

لكن تمضى الأسطورة فتحدثنا عن مآل الصغيرين الذين كُتبت لهما النجاة حين رسى الصندوق الذى يضمهما على ضفاف التيبر وأبصرتهما ذئبة وقامت بإرضاعهما ثم عثر عليهما احد رعاة قطعان الملك ويُدعى **"فاوستولوس"** وقام هو وزوجته "أكا لارنتيا" بتربيتهما دون أن يعلم الملك بأمرهما. ولما شبا عن الطوق علما بأصلهما الملكى وأطاحا بالملك غير الشرعى "أموليوس" من على العرش وأعادا جدهما الملك المخلوع "نوميتور" إلى "ألبا لونجا". ثم قرر الأخوان ريموس ورومولوس إقامة مستوطنة فى نفس المكان الذى رسى فيه الصندوق الذى ضمهما رضيعين على ضفاف التيبر. والتاريخ المتواتر الذى أجمعت معظم المصادر الرومانية القديمة على أنه تاريخ نشأة تلك المدينة الوليدة التى سميت روما- نسبة إلى رومولوس- هو **عام ٧٥٣ق.م.** رغم وجود روايات أخرى مختلفة قليلاً . أما مكان النشأة الأصلى فهو **تل البلاتين** كما أسلفنا. وتروى الأسطورة أن الأخوين قدما قرابين للآلهة مع بداية الإعداد لإقامة المدينة فأوحت إشارات العرافة عن طريق الطيور بأن الآلهة قبلت قرابين رومولوس ولم تقبل قرابين ريموس وهوما يوحى بتفضيل الآلهة رومولوس على ريموس ليكون ملكاً على المدينة الوليدة. ولم يتقبل ريموس الأمر برحابة صدر بل أبدى ازدراءه لنتيجة العرافة من خلال القفز على بداية سور المدينة الوليدة مما جعل أخاه رومولوس أو أحداً من رفاقه يقوم بقتل

ريمـوس، **وسميـت المديـنة رومـا باسـم الأخ الآخـر رومولـوس.** وذكـر أن رومولوس قد وسع من نطاق مدينته الجديدة وشجع العبيد المحاربين، بل وحتى المجرمين على الإقامة فى المدينة الجديدة .

ولما كان مؤسسو المدينة الجديدة كلهم من الرجال وكانوا يبغون الحفاظ على كيان واستمرارية هذا الكيان فقد كانوا بحاجة إلى عنصر نسائى وهو ما أوحى لرومولوس ورفاقه باللجوء إلى خدعة لتحقيق هذا الغرض. نظم الرفاق من قاطنى المدينة الجديدة حفلاً وألعاباً Consualia احتفالاً بإنشاء مدينتهم ودعوا إليه جيرانهم من **قبائل "السابين"** المجاورة مع نسائهم وأطفالهم، وأثناء الحفل **قام شباب الرومان باختطاف بنات السابين** واتخذوا منهن زوجات عنوة. وقد أدى هذا الموقف إلى نشوب حرب بين الرومان والسابين، وكان يقود السابين فيها **"تيتوس تاتيوس"** الذى حاصر الكابتول الذى كان آنذاك القاعدة الأمامية للرومان. ويروى فى هذا الصدد أن فتاة تدعى **"تاربيا Tarpeia"** ابنة القائد الرومانى قد وعدت السابين بتسليم الحصن(قاعدة الكابيتول) لهم إن هم أعطوها "ما يحملونه على أذرعتهم اليسرى "أى القلائد الذهبية . وحين اندفع السابين إلى القلعة كافئوها على خيانتها بأن سحقوها تحت دروعهم التى كان يتقلدونها كذلك على أذرعتهم اليسرى . ولكن رواية أخرى تبرز "تاربيا" كبطلة مضحية وأنها كانت تتصد وتنوى الإستيلاء على دروع السابين كى تساعد الرومان. وقد ظل الرومان يسيطرون على تل البلاتين، وبعد مزيد من القتال ضد السابين توصل الرومان **إلى صلح مع السابين** توسطت بإبرامه بنات السابين المختطفات اللاتى صرن زوجات للرومان، ومن بعدها **عاش الرومان واستقروا جنباً إلى جنب مع السابين ، ونشأت بينهم قربى ومصاهرة.** وبعد ذلك اختفى رومولوس من على وجه الأرض مغلفاً فى غلالة من سحاب فى أثناء عاصفة رعدية وأعلن شهود تلك المعجزة ألوهيته وقدسيته على الفور .

هذه هى خلاصة أسطورة نشاة روما، وهى تعج بالأساطير والخيال وربما لا تخلو من بعض الحقائق. ولكن ينبغى أن ندرك أن **وظيفة الأسطورة فى العالم القديم** كانت بالغة الأهمية ولم تكن ترمى إلى مجرد الإمتاع والمؤانسة، بل كانت لها **وظائف دعائية** تحمل مضامين تاريخية ورسائل مباشرة وغير مباشرة. كما أن الأسطورة لم تكن كياناً ثابتاً لا يتبدل وإنما كانت بالأحرى **وعاءً يتسع لإضافة المستجدات التاريخية فى صورة رمزية** مليئة بالحيوية تروج لأفكار ومفاهيم ومعتقدات وطموحات الأمة صاحبة الأسطورة ، وكذلك علاقاتها بالآخرين من حولها .

إن حكاية البطل الطروادى أينياس لم تبرز فى"إلياذة" هوميروس التى تناولت حرب طروادة أو جانباً منها، إذ لم يصور أينياس كبطل مبرز وشهير على اعتبار أنه ينحدر من فرع أصغر من البيت الملكى الطروادى، ولكن الإله بوسيدون رب البحر عند الإغريق تنبأ له بأن يحكم هو وذريته الطرواديين [٣] ، ولكن أسطورة فراره - هو وأبوه وولده - من طروادة المدمرة تفاعلت وتطورت بعد هوميروس. ونجد عند **هيللانيكوس**- أحد كُتاب التاريخ المنثور logographer من القرن الخامس ق.م. - أول إشارة أدبية مؤكدة إلى عبور أينياس مضيق الهيليسبونت (الدردنيل) وقدومه إلى الغرب، وربما اشار كذلك إلى وجوده فى إيطاليا. ولكن ليس هناك شواهد من تلك الفترة تشير إلى أن الرومان قد نظروا إليه كمؤسس أول لمدينتهم، رغم أن هناك من **القرائن الفنية** ما يبين أن أينياس كان معروفاً **فى إقليم إتروريا** مع أواخر القرن السادس ق.م. ويتحدث المؤرخ اليونانى **تيمايوس** من القرن الرابع ق.م. عن **"لافينيوم"** باعتبارها أول مستوطنة اقامها ابينياس فى إيطاليا.

بعد ذلك فإن **روما سرعان ما طورت أسطورة أينياس كمؤسس للأمة الرومانية**، وربما كان هذا نابعاً من نزعة قومية رومانية أرادت أن تضفى عراقة على الرومان وتقرن تاريخهم بتاريخ العالم اليونانى. وحين شن الملك **بيروس ملك مملكة أبيروس** فى غرب اليونان هجومه على روما عام٢٨١ق.م. ليساعد مدينة "تارنتوم" فى حربها ضد روما (موضوع سندرسه لاحقاً فى إطار هذا المقرر) اعتبر نفسه **حفيد البطل الإغريقى أخيليوس** (بطل ملحمة الإلياذة لهوميروس) وأنه يشن حرباً ضد **مستوطنة أقامها الطرواديون** (روما). وقد اتخذت **قصة الأصل الطروادى لروما شكلها الكامل فى القرن الثالث ق. م.** حين تم تركيبها وتوليفها لتتواءم مع أسطورة تأسيس رومولوس لروما، وهذا التركيب والتوليف لم يكن هينا من ناحية التوفيق الزمنى بين البطلين (إينياس ورومولوس). وربما قام المؤرخ **فابيوس بيكتور** والشاعر **إينيوس** (انظر فصل المصادر) بملأ الفجوات الزمنية بين تاريخ سقوط طروادة ١١٨٤ق.م. وتاريخ إقامة رومولوس لروما عام ٧٥٣ ق.م. (وكلاهما تاريخ افتراضى يدور حوله جدل بين العلماء المعاصرين ولكنه تاريخ تقليدى متواتر فى المصادر القديمة). وربما قاما بملأ هذه الفجوات بأن جعلا الملوك من ذرية أينياس تحكم فى "ألبا لونجا" طيلة هذه المدة .

وهكذا فمن المؤكد أن قصة الأصل الطروادى لروما كانت قد ذاعت واستقرت خلال القرن الثالث ق.م. ، **ولذا كان طبيعياً جداً ومألوفاً أن يستوحيها فيرجيل فى القرن الأول ق.م.** ويجعلها موضوعاً لملحمته الشهيرة "الإنيادة". ومن المعروف أن عشيرة "يوليوس" الرومانية - التى ينتسب إليها القائد الرومانى الشهير وآخر قادة الجمهورية يوليوس قيصر- كانت ترجع نسبها وأصلها الأول إلى أينياس الطروادى وفينوس ربة الجمال عند الرومان، واستغلت هذه العشيرة هذا النسب لإضفاء نوع من العظمة والمجد السياسى لها. ولما كان أوكتافيان (الذى سيكتسب لاحقاً

لقب "اغسطس" ويصبح أول الأباطرة فى الأمبراطورية الرومانية من ٢٧ ق.م. إلى ١٤م.) ابناً بالتبنى ليوليوس قيصر، ولما كان فيرجيل هو شاعر البلاط عند أوكتافيان (اغسطس) فقد أعاد فى ملحمة الإنيادة خلق إينياس كبطل قوى وكجد للرومان ولعائلة يوليوس التى ينتمى إليها الأمبراطور الذى يعيش الشاعر فى كنفه وتحت رعايته .

إن فيرجيل يحاول أن يصور **فى أينياس السمات المبكرة الضاربة فى جذور الشخصية الرومانية باعتباره جد الرومان.** فهو يصوره كإنسان متفانى فى أداء واجبه Pius ومدركاً لمهمته الثقيلة كمؤسس لروما، ومنفذ مطيع لإرادة الآلهة، وكقائد مسئول لرعيته ورفاقه وكأب وابن مخلص .

وهكذا فإننا حين نعود إلى الرموز والمضامين والإشارات التاريخية التى تعج بها أسطورة نشأة روما فى رواياتها الأدبية العديدة- ولاسيما ملحمة الإنيادة - فإننا **نرى فى شخص أينياس - جد الرومان - ما أسلفنا من صفات أضفاها فرجيل هى فى الواقع سمات الشخصية الرومانية** وهو ما يريد الأدب الرومانى توصيله للمتلقى وهو يتحدث عن أينياس .

المضمون الثانى فى هذه القصة الأسطورية حول نشأة روما يتعلق بروملوس الجد المباشر للرومان الذى سميت المدينة "روما" باسمه واشتق الرومان نسبة اسمهم منها. الرسالة الأولى هى أن **رومولوس هو ابن إله الحرب "مارس"** الذى جامع العذراء "ريا سيلفيا" وانجبت منه التوام ريموس وروملوس. إن أبرز دلالات هذا الجزء من الأسطورة هو **أن وجود وبقاء العنصر الرومانى - ممثلاً فى الجد رومولوس- كان بمشيئة الآلهة** وكان قدراً مقدوراً ؛ فرغم محاولة مغتصب عرش" ألبا لونجا" أن يفرض العذرية القسرية على ابنة أخيه الملك الشرعى حتى لا تنجب من ينافسه على العرش شاءت إرادة الآلهة **أن** تلتقى الكاهنة العذراء بأحد الأرباب

وتنجب منه رغم إرادة عمها كما شاءت أن يبقى الرضيعان على قيد الحياة ويشبا عن الطوق عند الراعى فاوستولوس رغم كيد وتدبير الملك اموليوس الذى أمر بالخلاص منهما، وأن يقوم هذان الشابان بالإطاحة به ، وإعادة الأمور إلى نصابها. **والإشارة الأقوى أن يكون هذا الرب الذى جامعها وأنجبت منه هو إله الحرب "مارس"**، وإذا ما استعرضنا تاريخ الرومان على مدى هذا المقرر حتى نهاية العصر الجمهورى لوجدنا أن روما خاضت حروبا طاحنة وضروسة داخل إيطاليا وخارجها فى غرب وشرق البحر المتوسط. إن روما هذه الأمة المحاربة الجسورة التى حققت إنتصارات عديدة ومتلاحقة ولحقت بها بعض الإنكسارات تريد أن توجه - عبر هذه الجزئية فى الأسطورة - أنها أمة فطرت على القوة والصلابة والبأس، **ولاغرو فهم من نسل مارس إله الحرب**. إن هذا الشعار الدعائى الذى رفعه الرومان فى مواجهة أعدائهم فى الداخل والخارج بالإضافة إلى صلابتهم وقوة باسهم فى القتال ألقى فى روع الجميع -مع استثناءات قليلة سوف نراها- الرهبة إن لم يكن الذعر أحياناً من اسم روما. كما أن الإشارة إلى الزواج القسرى للرومان من بنات السابين يدل على مدى ما كان بين هذين الطرفين الجارين من عداوة فى أول الأمر ثم تحولت إلى تعايش ومصاهرة وقربى .

بعد هذه الأسطورة ودلالاتها المذكورة أعلاه فليس من المستبعد أن يكون بها بعض العناصر الحقيقية الواقعية وإن كانت محدودة.قلنا إن التاريخ التقليدى المتعارف عليه لنشاة وقيام روما هو ٧٥٣ق.م. كما أورد العلامة **الموسوعى "فارو"** فى القرن الأول ق.م. ويبدو أن هذا التاريخ قد ثبت فى يقين الرومان قرونا طويلة بعد ذلك. فقد **احتفل** الأمبراطور الرومانى- العربى الأصيل- **فيليب العربى (٢٤٤-٢٤٩م.) بعيد روما الألفى عام ٢٤٧م**. وهو ما يؤكد على تاريخ ٧٥٣ ق.م. التقليدى لنشاة روما. كما أن الراهب المسيحى **ديونيسيوس إكسيجووس (دينيس الصغير)** من

منطقة سكوثيا غرب البحر الأسود والذى عاش فى روما فى القرن السادس ق.م.- ادخل التقويم الميلادى واعتبر بدايته منذ **مولد السيد المسيح الذى اعتقد أنه بعد ٧٥٣ سنة من عام تأسيس مدينة روما .**

نعود الآن لنحاول استجلاء الحقيقة حول التاريخ الحقيقى والتطور الطبيعى لنشاة روما ونموها بعيداً عن عالم الأسطورة والخيال مهما كان تأثيره وسطوته. **تظهر الشواهد الأثرية المتاحة** الآن أن قرية أو أكثر قد أقيمت فوق تلال روما (بما فيها تل البالاتين) منذ نهاية عصر البرونز (حوالى عام ١٠٠٠ق.م). وكانت مثل هذه المجتمعات شبيهة بالمستوطنات الأخرى القائمة فوق التلال التى أمكن التعرف عليها فى أرجاء إقليم لاتيوم القديم Latium Vetus الذى تظهر فى مقابره شواهد على نمط مميز من الحضارة المادية. وفى المراحل المبكرة من هذه الحضارة فى القرنين العاشر والتاسع ق.م. كانت تلك المستوطنات صغيرة وتمثل قرى منعزلة تتألف من بضعة أكواخ مسقوفة بالقش. ولكن على مدى القرنين الثامن والسابع ق.م. اتسعت هذه القرى ونمت وأصبحت أكثر تعقيداً من الناحية الحضارية مع تطور تجارتها داخل ايطاليا وخارجها وأصبح لها علاقات مع العالم اليونانى وانتاج حرفى خاص ومميز، وفى ظل هذه الظروف برزت طبقة ثرية ارستقراطية.

وحين نتحدث عن طبقة ارستقراطية فى العصور القديمة فى مدينة مثل روما وبلد مثل إيطاليا تشكل الزراعة عماد اقتصاده فى المقام الأول لابد أن نحدد دعائم مثل تلك الأرستقراطية . إن أهم دعائم الإرستقراطية (وهى كلمة يونانية الأصل مركبة من مزيج من كلمتين وتعنى "حكم الصفوة") فى مثل هذا المجتمع ترتكز على عنصرين أساسيين هما :

(أ) النسب العريق الموغل فى القدم فى المكان المعنى (مدينة روما هنا). بمعنى أقدم من استقر فى هذا المكان من عائلات أو بالأحرى مؤسسو ذلك المجتمع.

(ب) ملكية مساحات كبيرة من اجود وأخصب الأراضى.

ولا شك فى ان العنصرين مرتبطان بصلة وثيقة ببعضهما البعض: فحين أتى الرواد الأوائل من العائلات إلى هذا المكان قادمين من أماكن أخرى - كان المكان بكراً والأراضى فضاءً ومتسعة فأمكن للقادمين الجدد ان يستولوا على مساحات كبيرة من اجود الأراضى. ولما جاء بعدهم قادمون احدث، صار طبيعياً أن يجدوا مساحات أقل من الأرض وذات خصوبة وموارد مياه أقل وهكذا. ومن هنا فقد فازت أقدم العائلات المؤسسة لذلك المجتمع بنصيب الأسد من الأرض والثروة والهيبة القائمة على عراقتهم فى المكان، وبذلك مثلوا الصفوة الأرستقراطية من أهل المكان.

اما من اتى بعدهم ليقطن المكان فقد تفاوتت حظوظهم من الثروة والمكانة الاجتماعية بين فئات متوسطة او فوق أو أدنى من المتوسطة أو فقيرة وشكل هذا الجمع الغفير - بعد فترة طويلة من البداية - عامة الناس من أهل ذلك المجتمع. ببساطة فإن الظروف قد أدت إلى انقسام المجتمع بصورة تلقائية إلى قلة مميزة من الصفوة الارستقراطية من رواد المكان ومؤسسيه من ذوى العراقة والثروة والهيبة، وإلى كثرة أو أغلبية من الناس الذين وفدوا إلى المكان فى أوقات لاحقة وتفاوتت حظوظهم من الثروة والمكانة نسبياً، ولكنهم كانوا - فى كل الأحوال - يمثلون طبقة أدنى من الصفوة المؤسسة التى استأثرت بمعظم الامتيازات، وأطلق على هؤلاء فى مجملهم مصطلح "العامة".

ويبدو أن **المجتمع الرومانى قد أخذ فى التطور التدريجى** على ضوء هذه التجمعات السكانية فى المكان من **مجتمع عشائرى** يرتكز على بضع عائلات معروفة ومحددة فى البداية إلى **مجتمع قبلى** حين كثرت أعداد المستوطنين وتحاورت مساكنهم فكوّنوا قبائل تنقسم بدورها إلى عشائر أو "أحياء" Curiae

ويبدو أن هذا التطور الاجتماعى فى روما استغرق فترة تناهز ثلاثة قرون أو قرنين ونصف على الأقل من بدايات القرن العاشر ق.م. - كما تظهر الحفائر الأثرية - وحتى حوالى منتصف القرن الثامن ق.م. أو عام ٧٥٣ ق.م. وهو التاريخ التقليدى التراثى "لنشأة" روما. إن "نشأة" روما **هنا لا تعنى** فى تقديرى- نشأتها **"كمجتمع عمرانى" أو كمدينة بل "ككيان سياسى"** له نظام حكم واضح ومتبلور **هو نظام الحكم الملكى المتطور عن النظام القبلى**.

معنى ذلك أنه **ليس هناك ثمة تناقض** بين **رأى علماء الآثار** حول نشأة روما فى القرن العاشر ق.م. وبين **ما ذكر فى المصادر الأدبية** والتراث الرومانى عن نشأتها عام ٧٥٣ ق.م. أو أواسط القرن الثامن ق.م. فرأى علماء الآثار يتحدث عن بدايات نشأة روما كمجتمع عمرانى أما التراث الأدبى الرومانى فيشير - على الأرجح - إلى بداية نشأة وظهور "نظام الحكم" الرومانى الناضج المتبلور بعد اجتياز المراحل البدائية من نظام عشائرى فقبلى إلى نظام ملكى.

وهنا حاول صناع الأسطورة بعد ذلك بفترة أن يضفوا قدراً من العراقة والقدسية وغيرها من الرسائل الدعائية- على نحو ما رأينا- على الوقائع الأصلية فاخترعوا قصة إينياس الطروادى والأصل الطرواوى لروما ونسجوا من الحوادث ما يوصل بين نسب رومولوس-مؤسس روما الأول وأول ملوكها حسب الأسطورة وجده العظيم أينياس

لكن دعنا الآن من كل هذا القصص الأسطورى الذى صاغه صياغة ممتعة ومثيرة كُتاب وشعراء البلاط الأغسطى فى أواخر القرن الأول ق.م. اعتماداً على ما تراكم لديهم من تراث أسطورى وفولكلورى متوافر منذ القرن الخامس ق.م! كما سبق أن أشرنا. ولنحاول أن نستجلى بعض الملامح عن ذلك العصر الملكى الذى ربما بدأ منذ منتصف القرن الثامن ق.م. من هذا الركام من "الحكى" التاريخى عند المؤرخ تيتوس ليفيوس والفلكلورى الأسطورى عند الشاعر فرجيليوس، مع التركيز على ما أورده المؤرخ تيتوس ليفيوس - مؤرخ البلاط الأغسطى- فى مؤلفه الشهير "منذ نشأة المدينة".

يتحدث ليفيوس عن **سبعة ملوك حكموا روما خلال الفترة من٧٥٣ ق.م. حتى عام ٥٠٩ ق.م. حين اطيح بالملكية** وحل محلها نظام جديد هو النظام الجمهورى. هؤلاء الملوك السبعة هم بالترتيب : "رومولوس" Romulus (٧٥٣-٧١٦) ثم "نوما بومبيليوس" Numa Pompilius (٧١٥-٦٧٣) ثم "تولوس هوستيليوس" Tullus Hostilius (٦٧٢-٦٤١) ثم "انكوس ماركيوس" Ancus Marcius(٦٤٠-٦١٧) ثم "تاركوينيوس بريسكوس" Tarquinius Priscus (٦١٦-٥٧٩) ثم "سيرفيوس توليوس" Servius Tullius (٥٧٨-٥٣٥) واخيراً "تاركوينيوس سوبربوس" Tarquinius Superbus (٥٣٤-٥١٠) .

ولنذكر فى عجالة أهم ما ورد عن كل ملك من هؤلاء الملوك :

بعد أن تخلص **"رومولوس"** من اخيه "ريموس" كما أسلفنا - بعد استياء الأخير من حكم العرافة الذى أشار بإسناد الملك لرومولوس-أصبح رومولوس أول ملوك روما منفرداً عام ٧٥٣ق.م ونذكر انه بعد أن تولى الحكم دعا جموع الرومان للاجتماع فى جمعية عمومية ومنحهم قوانين تنظم حياتهم، وكان يتولى حراسة الملك اثنا عشر من الحراس الشخصين

يحملون لقب lictores وكان كل منهم يحمل على كتفه حزمة fascis من القضبان أو العصى فى وسطها "بلطة" للدلالة على سلطة الملك فى جلد أو حتى قتل من يشاء ممن يتجاوزون الحد. كما كان له مائة من المستشارين من أبناء العائلات الأرستقراطية الأخرى العائلة الملكية، وكان هؤلاء بمثابة "الآباء" الروحيين لعائلاتهم وعشائرهم وقبائلهم. كانت هذه هى النواة المبكرة لمجلس الشيوخ الرومانى Senatus الذى كان المجلس الاستشارى للملك فى العصر الملكى ويتالف من صفوة الأرستقراطية الرومانية من زعماء القبائل والعشائر الذين يطلق عليهم اصطلاحا "الآباء" أو الـ Patres. وظلت ادوات الحكم هذه قائمة طيلة العصر الملكى.

وبعد الاختفاء الأسطورى الغامض لرومولوس حكم روما من بعده **"نوما بومبيليوس"** وهو حكيم من حكماء السابين - الذين تعايشوا مع الرومان بعد أن ربطتهم صلة القربى والمصاهرة كما أسلفنا - وكان متفقهاً وضليعاً فى القوانين وفى أمور الدنيا والدين والعقيدة. ويُذكر عنه أنه بنى معبداً للإله جانوس (يانوس) الذى يصور برأس ذات وجهين للخلف والأمام توضع على الداخل فى البوابات ذات الأقواس ليعبر عن نهايات شئ مضى وبدايات أمر جديد، فهو يمثل اليوم أو الاسبوع أو العام الجديد (من هنا اتخذ شهر يناير فى بداية العام اسمه من إسم الرب "يانوس"). وقد جرى العرف على أنه تُغلق بوابات معبد يانوس فى روما فى وقت السلم حين لا تشن حروب. وقد كان عهد نوما بومبيليوس عهد سلام وظلت بوابات معبد يانوس مغلقة طيلة عهده لأول وآخر مرة على مدى قرون عديدة فى التاريخ الرومانى... ويذكر تيتوس ليفيوس أن بوابات معبد جانوس لم تغلق بعد عصر الملك "نوما" سوى مرتين حتى أيام ليفيوس : الأولى بعد نهاية الحرب البونية الأولى عام ٢٤١ ق.م. والثانية

بعد موقعة اكتيوم عام ٣١ق.م. ويفاخر الإمبراطور اغسطس فى "نقش انقرة" الشهير من عصره (٢٧ق.م. - ١٤ م) بأن معبد يانوس قد اغلق فى ثلاث مناسبات على مدى عصره .

ويروى عن نوما انه زرع الخوف من الآلهة فى نفوس رعيته واهتم بامور العبادة والعقيدة وخصص كهنة لجوبيتر (كبير آلهة الرومان) ومارس (إله الحرب) وكويرينوس (كبير آلهة السابين - وإله الحرب عندهم) ، كما انه اختار كاهنات من العذارى للحفاظ على جذوة النار المقدسة الخاصة بالربة فيستا - ربة الموقد - مشتعلة .

وبعد وفاة الملك نوما اعتلى عرش روما ثالث ملوكها ويُدعى **"توللوس هوستيليوس"** وقد كان ملكاً محارباً جسوراً، وفاق رومولوس فى نزعته نحو الحرب والقتال. وربما اكتسب لقب هوستيليوس (المأخوذ من كلمة -hostis- اللاتينية التى تعنى "خصم او عدو") من تلك النزعة الحربية. ومن المأثور عنه فى التراث الرومانى انه شن حرباً على "ألبا لونجا" - المستوطنة الرئيسية فى إقليم لاتيوم التى حكمت فيها ذرية أينياس كما تروى الإنيادة حتى ما قبل تأسيس رومولوس لمدينة روما كما اسلفنا - ادت فى النهاية إلى تدمير "ألبا لونجا" وإسكان اهلها فى روما فوق تل كايليوس .

ويُذكر عن هذه الحرب بين المدينتين ان ملكى روما وألبا لونجا قد اتفقا ان يكون المعيار لإبراز تفوق اى من المدينتين ان تتم مبارزة بين ابطال من المدينتين بحيث يمثل كل مدينة ثلاثة إخوة اشقاء. وكان يمثل روما ثلاثة اشقاء من عائلة هوراتيوس Horatii ويمثل ألبا ثلاثة اشقاء من عائلة كورياتيوس Curiatii. وفى هذه المبارزة الحامية الوطيس جرح الأشقاء الثلاثة من "ألبا" فى حين قتل اثنان من الأشقاء الرومان الثلاثة ولكن تمكن الشقيق الثالث من عائلة هوراتيوس "من ان يصرع

الأشقاء الثلاثة الجرحى من "ألبا لونجا" ويحسم الأمر لصالح روما. واقيمت احتفالات نصر فى روما بهذه المناسبة، ولكن كدر صفوها ان اخت البطل المنتصر هوراتيوس ظلت تنوح وتنتحب وهى ترى شقيقها يرتدى معطف أحد الأشقاء الثلاثة القتلى من "ألبا" والسبب ان هذا المعطف كانت قد حاكته هى بنفسها لخطيبها الذى كان احد هؤلاء الإخوة من ألبا. وعليه قام شقيقها المنتصر بقتلها قائلاً " فليهلك كل من ينوح على اعداء روما" ، وقد عفا الرومان عنه بعد أن حاكموه بتهمة قتل اخته وذلك نظير بطولته ورفع اسم روما.

ورغم أن ميتوس Mettus زعيم ألبا كان قد وعد الملك تولوس هوستيليوس بأن يكون حليفاً وعوناً له بعد المبارزة الشهيرة إلا انه حنث بوعده فقام الملك توللوس بقتله ودمر "البالونجا" وجلب سكانها إلى روما واسكنهم تل كايليوس .

أما الملك التالى (الرابع) فهو **انكوس ماركيوس** وهو من السابين واشتهر بميله للسلام. لذلك شن اللاتين غارات على الرومان وتحرشوا بحدودهم مما أدى إلى نشوب حرب انتصر فيها الملك انكوس الذى لم يفزع من القتال لحماية شعبه رغم ميله للسلم. وقد غزا انكوس مدن لاتيوم الواقعة بين روما والبحر ومنح رجالاتها البارزين المواطنة الرومانية وسمح لمن يرغب منهم بالاقامة فى روما فوق تل الأفنتين. وبعد حكم دام أربعة وعشرون عاماً. سيخلف انكوس بعد وفاته ملك من اصل إترورى هو تاركوينيوس بريسكوس .

ففى عهد حكم الملك انكوس ماركيوس وفد إلى روما واستقر بها نبيل إترورى من مدينة تاركوينى Tarquinii الإترورية يُدعى لوكيوس **تاركوينوس هو وزوجته تاناكويل** واستقرا بها، وكان النبيل الإترورى شجاعاً متوقد الحماس. وفى روما ذاع صيت الوافد

الجديد وانتشر اسمه نظير كرمه وسخائه ولباقته وصار معروفا للملك انكوس الذى جعل منه وصياً على اولاده. **ولما توفى الملك انكوس خلفه تاركوينيوس بريسكوس ("بريسكوس" فى اللاتينية تعنى الأكبر تمييزا له عن الملك السابع من ملوك روما الذى يحمل هو أيضا اسم تاركوينيوس)** .

وقد قام **بريسكوس بغزو عدد من المدن اللاتينية**، وحين فرغ من الحرب اقام معبداً لجوبيتر فوق تل الكابيتول ثم شرع فى بناء حلقة كبرى Circus Maximus للسباقات والألعاب وكان يخطط لإنشاء اعمال اخرى ولكنه اغتيل على يد رجلين شرسين من الرعاة استاجرهما لهذا الغرض ابناء الملك السابق انكوس ماركيوس الذين اغضبهم استيلاؤه على العرش من دونهم وتقريبه وتفضيله لرجل يُدعى"سرفيوس توليوس" اعتبره ابناء الملك السابق عبداً .

ويحكى ان زوجة تاركوينيوس بريسكوس - وكانت بارعة فى امور العرافة وتفسير الأحلام قد تنبأت لسرفيوس توليوس فى طفولته بانه من ذوى الكرامات والمعجزات وقامت بتنشئته وتربيته كما لو كان ابنها، وهكذا نشأ فى القصر الملكى وخطب ابنة الملك. وبعد اغتيال الملك تاركوينيوس اخبرت زوجته الرعية بان زوجها فى حالة إغماء لا أكثر وامرتهم بإطاعة اوامر سرفيوس توليوس ريثما يفيق الملك. ولكن حين شاع امر وفاة الملك اصبح توليوس خليفة له ونفى أبناء انكوس ماركيوس.

وحين تولى **سرفيوس توليوس** العرش احاط روما بخندق وسور، وهكذا ربط المدينة وتلالها فى سياج دفاعى مترابط ومتكامل. وقد اعتقد الرومان انه هو الذى قسم جموع الشعب إلى فئات وطبقات حسب مقدار الثروة وليس حسب العشائر كما كان الحال من قبل. وكان على قمة

هذا التقسيم حسب درجة الثراء الفرسان أو الخيالة equites وكانت ثروة الفرد منهم تؤهله لاقتناء فرس بعتاده الحربى، ثم يأتى بعد هذه الفئة خمس فئات بترتيب مقدار ثروة كل منهم ومدى العتاد والتسليح الذى ترشحه له، إذ كان على جميع أعضاء الفئة الأولى أن يزودوا أنفسهم بخودة ودرع واقى للصدر ودروع للسيقان ورمح وسيف وهكذا تقل درجة التسليح كلما تدرجنا بين هذه الفئات من أعلى إلى أسفل حتى نصل إلى الفئة الخامسة التى تسلح نفسها بالمقلاع والحجارة لا أكثر. وكان على هؤلاء أن ينضووا فى سلك الجندية والجيش متى تم استدعاؤهم لهذه المهمة. وكانت هناك فئة من الناس فى روما أدنى من الفئة الخامسة المذكورة أعلاه وهم من كان يُطلق عليهم Proletarii (المشتقة منها كلمة بروليتاريا أو الطبقة الدنيا لا سيما فى الفكر الماركسى) وهؤلاء كانوا فقراء بدرجة لا تمكنهم من المساهمة مع مجتمعهم بأى شئ سوى إنجاب الأطفال (الذرية أو الخلف Proles) وهؤلاء لا يقع على عاتقهم أى عبء تجاه الدولة

وقد قسمت كل فئة من هذه الفئات إلى "مئات centuriae وكانت المائة هى الوحدة الأساسية للجيش الرومانى .

كما يروى عن سرفيوس توليوس أنه أجرى إحصاءً لسكان روما أثبت من خلاله أن روما قد أصبحت قوة كبيرة متنامية. وأقام كذلك معبداً للربة "ديانا" ربة الصيد والعذرية (أرتميس عند اليونان) على تل الأفينيتين.

وكان الملك السابق تاركوينيوس بريسكوس قد ترك وراءه اثنين من الأبناء تزوجا من ابنتين للملك سرفيوس ولكن الزيجتين كانت غير متوافقتين حال إذ تزوج لوكيوس الابن العنيف الطباع من الابنة رقيقة الطباع للملك فى حين تزوج الابن الطيب الوديع أرونس من الابنة العنيفة

للملك توليوس وتدعى توليا. وأمام هذا الاختلاف فى الطباع تخلص الأقوياء من الضعفاء على الجانبين وبذلك خلا الجو للشاب العنيف لوكيوس تاركوينيوس الإبن (للملك السابق بنفس الإسم) و "توليا" الإبنة القوية للملك سرفيوس توليوس. وبعد أن تزوج لوكيوس تاركو ينيوس من "توليا" أخذت الأخيرة فى توبيخه ومعايرته بالجبن ثم أوعزت إليه أن يستولى على العرش ويقتل أباها الملك سرفيوس .

وقد فعل **لوكيوس تاركوينيوس** ما أوحت به إليه زوجته واعتلى عرش روما ولكن الناس سرعان ما نعتوه بلقب **"سوبربوس" Superbus** (أى المغرور أو المتغطرس) من جراء أفعاله العنيفة المتجبرة؛ فقد قام بقتل أعضاء السناتو الذين أبدوا تعاطفاً وميلاً للملك السابق سرفيوس كما تخلص بالقتل أو بالنفى ومصادرة الاملاك ممن شك فيهم أو أبغضهم من المواطنين. وكان يقوم بشن الحروب وإبرام اتفاقات السلام والمعاهدات والمحالفات وفق هواه ورغبته وكان يقوم بخرقها متى أراد. ورغم أنه قوى ورغم مكانة روما بين المدن اللاتينية إلا انه شوه هذا النجاح حين كان يرتكب أحط الأفعال وهو ما جعل الناس يكنون له الكراهية ولا يثقون به .

ويُروى عن تاركوينيوس سوبربوس أنه كان - ككل الإترورين- يعتقد فى الخرافات والشعوذة. ومما يروى عنه فى هذا الصدد أن سيدة عجوزاً اقتربت منه وعرضت عليه أن يشترى منها تسعة كتب تحتوى على نبؤات مقدسة من وحى كاهنة من كاهنات أبوللو (ممن يطلق عليهن **"سيبيل"**) فيها نبؤات تحذيرية مقدسة حصلت عليها من معبد وحى فى مدينة كوماى المستوطنة الإغريقية على الساحل الغربى من إيطاليا فى إقليم كامبانيا على بعد مائة ميل إلى الجنوب من روما. وقد عرضت السيدة العجوزعلى الملك الكتب التسعة بثمن معين ورفض الملك أن

يشتريها بذلك الثمن، فاحرقت ثلاثة كتب وعرضت عليه أن يشترى الكتب الستة الباقية بنفس الثمن الأول فرفض مرة ثانية. وهنا قامت كذلك بإحراق ثلاثة كتب أخرى وأصرت على أن يشترى منها الكتب الثلاثة الباقية بنفس السعر الأول. وأمام إصرارها رضخ الملك واشترى الكتب الثلاثة المتبقية بالسعر الذى عرض فى أول الأمر لشراء التسعة كتب فى أول الأمر واحتفظ بها تحت الحراسة فى معبد الإله جوبيتر على تل الكابيتول. ومنذ ذلك الحين فصاعداً جرى العرف فى روما على الرجوع إلى أمثال كتب النبوءات هذه وغيرها حينما يحدق خطر بالدولة.

وفى مناسبة أخرى عند تقديم الأضحيات فى أحد المعابد تسللت حية إلى مذبح القرابين والتهمت الأضحية المقدسة. وقد أراد الملك أن يعرف معنى هذه الحادثة فأرسل ولديه ومعهما ابن أخيه لوكيوس جونيوس- الذى كان يتظاهر بالغباء لكى يتفادى هواجس الملك وسوء ظنه ولذلك عرف بلقب "بروتوس Brutus" أى "الأبله" - إلى معبد وحى ديلفى فى بلاد اليونان ليعرف نبؤة أبوللو حول الموضوع. وكان نبؤة الوحى-وهى غالباً ما تكون رمزاً وغير مباشر- "سيتولى زمام السلطة فى روما من يقبل أمه أولاً من بينكم" وقد فهم بروتوس مغزى النبؤة ولذلك فإنه بمجرد أن وصل إلى ساحل إيطاليا تظاهر بانه قد تعثر وسقط على الأرض وقبّل ثرى وطنه الأم وبذلك حقق نبؤة وحى ويلفى. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً تولى القيادة وجمع حوله رجالاً مسلحين حشدهم ضد الملك. وبعد عودة الملك من إحدى المعارك الخارجية وجد أبواب روما موصدة فى وجهه هو وأسرته وأقسم الناس على الا يحكم فى روما ملك بعد ذلك، اعتباراً من عام ٥١٠ ق.م.

واصبح بروتوس وسبوريوس لوكريتيوس الذين لحقت بهما كثير من صنوف الأذى على يد تاركوينيوس المتجبر أول قنصلين فى روما عام ٥٠٩ ق.م. واطلق على بروتوس لقب "المحرر" لأنه جلب الحرية لروما .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن **مدينة اثينا فى بلاد اليونان** قد تخلصت من حكم الطغاة (ابناء بيزستيراتوس الطاغية) فى نفس العام الذى تخلصت فيه روما من آخر ملوكها تاركوينيوس سوبربوس (المتغطرس) عام ٥١٠ ق.م.

هذا ما تراكم فى الفلوكلور الرومانى وما تداوله الرومان وطوروه خلال العصر الجمهورى عن اصولهم المبكرة ومزجوا فيه الخيال بالحقيقة ، والصورة المثالية المرجوة بالواقع المجرد فى محاولة دؤوبة منهم لإعطاء صورة دعائية مليئة بالإثارة والتشويق تضفى عليهم فضائل يريدون ترسيخها فى ذهن المتلقى فى العصر الجمهورى واوائل الإمبراطورى على انها ضاربة الجذور فى الشخصية الرومانية المبكرة. لذلك لابد أن ننظر إلى هذه الروايات عن العصر الملكى التى صاغها المؤرخ تيتوس ليفيوس فى اواخر القرن الأول ق.م. - وأى بعد ما يزيد عن خمسة قرون على الأقل من الأحداث الأصلية - بقدر من الحذر والا ناخذها على علاتها كمسلمات او وقائع. **إن بعضاً من الروايات - أو دلالة الروايات - عن العصر الملكى تعكس - فى واقع الأ مر - إسقاطاً لأحداث أو محاولة لتاصيل امور ووقائع تمت فى العصر الجمهورى.**

فمن الأمور التى لا ناخذها على علاتها القول بأن روما أنشئت عام ٧٥٣ ق. م. وهو امر سبق أن ناقشناه من قبل ووصلنا إلى اقتراح مفاده أنه إن صدق هذا التاريخ الذى أورده العالم الموسوعى "فارو" فإنه يكون تاريخ نشأة نظام حكم ناضج ومتبلور كالنظام الملكى وليس تاريخ نشأة روما كتجمع عمرانى .

كما ينبغى أن **ننظر بحذر** كذلك إلى أنه على مدى فترة العصر الملكى التى امتدت نحو قرنين ونصف (٧٥٣-٥٠٩ق.م) حكم **روما سبعة ملوك فقط. ربما كانت فترة الحكم الملكى** فى روما **أقل من ذلك**، أو ربما كان **عدد الملوك أكبر من ذلك**، لاسيما وان هناك إشارات إلى **ملوك فى روما خارج القائمة المذكورة** أعلاه مثل **تيتوس تاتيوس** ملك السابين الذى حارب رومولوس ورفاقه ثم حكم مع رومولوس حكما مشتركاً فى روما ثم اغتيل بإيعاز من رومولوس ، كما أن هناك إشارة لملك آخر غامض يحمل اسم **"ماستارنا" الذى ربما** كان اسماً آخر للملك سرفيوس **توليوس** أو ربما كان ملكاً آخر غيره .

أما الملوك ذوى الأسماء الإترورية (الملك تاركوينيوس بريسكوس) (خامس الملوك) وابنه تاركوينيوس سوبربوس (سابع الملوك) فقد كان ينظر إليهم بوصفهم يمثلون التغلغل الأتروري وبسط هيمنة إقليم إتروريا على المدينة الصاعدة المتنامية القوة فى إقليم لاتيوم (روما). ولكن هناك من يرى بان **روما كان تضم سكاناً من أصول مختلفة مثل السابين** والإغريق وربما عدداً كبيراً من الأترورين فضلاً عن سكانها الأصليين. ومن هذا المنطلق يرى أصحاب هذا الرأى **أنه لم يكن هناك غزو إتروري بمعنى الكلمة لروما** أو أنها قد تحولت ذات يوم إلى "مدينة إترورية"، بل يؤكدون أنها احتفظت بسماتها وشخصيتها اللاتينية كما تثبت النقوش اللاتينية المبكرة التى تتزايد أعدادها، وإن كان هذا لاينفى تأثر روما بعلاقاتها مع العالم الخارجى لاسيما مع بلاد الإغريق والشرق الأدنى بالإضافة إلى علاقاتها بإقليمى إتروريا وكامبانيا فى إيطاليا .

ورغم أن كثيراً من الروايات المذكورة عن ملوك روما فى مؤلف ليفيوس ينبغى النظر إليها على أنها أحداث خيالية أو روايات من الفولكلور الشعبى المتوارث ، **ولكن بعضا من أحداثها على الأقل كان له سند من**

الحقيقة وارتكز على ذاكرة حقيقية لعناصر وأحداث بعينها. من ذلك على سبيل المثال الروايات التى تتحدث عن **غزو روما لتلال ألبا لونجا** والتى تنسب للملك الثالث **توللوس هوستيليوس ، ووادى التيبر الأدنى وهو ما يُعزى للملك الرابع أنكوس ماركيوس**. هذه الروايات تصف توسع الحدود الرومانية الذى لابد أنه قد وقع قبل نهاية القرن السادس ق.م. كما أن **تنظيم التقويم الرومانى ونظام الكهنوت والعبادات** وهو ما تنسبه الروايات الرومانية إلى الملك الثانى **نوما بومبيليوس** يمكن أن يؤرخ بقدر من الثقة بالقرن السادس ق.م. وربما قبله . كما أن الاعتقاد الذى يظهر فى ثنايا تلك الروايات من أن **الحكم الملكى الرومانى كان بالانتخاب وليس بالوراثة** لم يكن خيالاً محضاً ، بل وتدعمه بعض قرائن من العصر الملكى كما سنرى عند الحديث عن بعض الوظائف أو النظم فى العصر الجمهورى .

كما ان تقسيم روما فى عهدها المبكر إلى **ثلاث قبائل تنقسم إلى ثلاثين حياً Curiae يعود بلا ريب إلى العصر الملكى المبكر** قبل عهد سرفيوس توللیوس. اما إصلاح تقسيم المواطنين إلى فئات -وهو الأمر الذى يُعزى إلى الملك سرفيوس توليوس فى الروايات القديمة المتاحة- فإنه يعود إلى حوالى منتصف العصر الجمهورى، ولكن ربما كان هناك إصلاح اصلى ابسط يعود إلى القرن السادس ق.م قسم المواطنين حسب درجة قدرتهم على تسليح أنفسهم .

ويصور عصر ملوك روما الأخيرين ذوى الأصل الإترورى على أنه عصر الطغاة ممن **اغتصبوا العرش بطريقة غير شرعية ، ولكنهم اتبعوا أسلوباً فى الحكم قام على اجتذاب الناس إليهم مثلما فعل معاصروهم** من طغاة الإغريق فى أثينا (بيز ستراتوس وأولاده). كما تبنوا - مثلهم- **سياسة خارجية طموحة** وقاموا **على رعاية الفنون وشرعا فى مشروعات بنائية كبيرة وفخمة** . وربما كان ذلك ناجماً عن تأثيرات إغريقية

متوقعة على روما خلال القرن السادس ق.م. وتؤكد الشواهد الأثرية أن روما كانت بالفعل قوة قادرة فعالة ومدينة ذات طابع عالى فى القرن السادس ق.م، وقد شاع منذ فترة قريبة الحديث عن "روما العظيمة فى عصر آل تاركوينيوس ·La grande Roma dei Tarquini· ويقال أن تاركونيوس سوبربوس قد أقام " إمبراطورية صغيرة " فى لاتيوم ، وهو **أمر ربما وضع فى الحسبان** عندما أبرمت روما فى بداية العصر الجمهورى **أول اتفاقية لها مع قرطاجة** (أنظر بوليبيوس ٣/٢٢).

ويبدو جلياً مما ذكر أنه فى ظل نظام الحكم الملكى فى روما **كان الملك هو المهيمن على مقاليد الأمور والموجه الأوحد – فعلياً- لدفة الحكم فى روما**. فإذا كان الرومان قد اعتقدوا أن ملكهم الأول "رومولوس" هو من نسل "مارس" إله الحرب إذاً فإن شخص الملك لم يكن بشراً خالصاً بل أن فيه قبس من قدسية الآلهة وبالتالى فإن النظرة إلى الملكية الرومانية باعتبارها ملكية مقدسة أسهمت الآلهة فى إرساء دعائمها أمر وارد ومتوقع. على هذا الأساس ومن هذا المنطلق منح الملك - شأنه شأن كافة الأنظمة الملكية المقدسة فى العالم القديم - صلاحيات واسعة النطاق فى كافة من المجالات: فهو الحاكم المدنى الذى يتولى إدارة شئون الحكم فى المدينة سواء ما يتعلق منها بأمور الحياة اليومية الداخلية أو العلاقات الخارجية بين روما وجيرانها وله القول الفصل فى هذه الشئون. كما أنه القائد العسكرى الأعلى ذو السلطة العليا الذى يتخذ قرار الحرب ويتولى قيادة الجيوش، ومن أولى بذلك من ملك (أو ملوك) ينحدرون من نسل إله الحرب "مارس" ! كما كان يمثل السلطة التشريعية فى روما ، وفى تقديرى أن القانون الرومانى فى العصر الملكى تمثل فيما كان يُصدر عن الملك من مراسيم ملكية بل ربما تجاوز ذلك إلى اعتبار كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو أمر أو نهى بمثابة القانون النافذ المفعول الذى لا محيص عن تنفيذه فى حينه بل واعتباره سابقة قانونية يُقاس عليها فيما بعد.

كما كان يقوم بدور الكاهن الأعظم فى كافة أمور العبادات والطقوس والشئون الدينية فى المعابد وعلى رأس كافة الاحتفالات الدينية والأعياد فمن أجدر بالقيام بمثل هذه المهام ومن أقدر على استرضاء الآلهة من حاكم ينحدر من نسب إلهى حسب المعتقد الرومانى! خلاصة القول لقد كان الملك فى روما هو مصدر كافة السلطات الدينية والدنيوية ، المدنية والعسكرية والسياسية ، كما كان المشرع الرئيسى لمملكته والحكم فيما قد ينشب من منازعات بين رعيته إذا ما عجزت الأعراف السائدة عن الفصل فيها .

هل معنى ذلك أن الملك كان هو مبتدأ ومنتهى كافة أمور الحكم ومحور الحياة الرومانية وأنه كان الألف والياء ولا سلطان لأحد البتة سواه؟! يمكن الإجابة على هذا السؤال بنعم بدرجة كبيرة وإن تركت هامشاً محدوداً جداً من الحركة والسلطة لمن عداه. ومن عسى أن يكون سواه الذى يمكن أن يقترب من عرين السلطة ولو من الناحية الإسمية الشكلية ؟!

إن هذا الطرف الآخر لم يكن فرداً بعينه بل طائفة أو جماعة من علية القوم أو الصفوة هم **شيوخ القبائل الرومانية ورؤساء عشائرها** من أبناء الطبقة الأرستقراطية. هؤلاء كانوا يمثلون **المجلس الاستشارى الشرفى للملك الذين كانوا يتحلقون حول الملك وفى هذا شرف رفيع** وحظوة لهؤلاء. أما عن دورهم فقد كان استشارياً صرفاً ولم يكن ملزماً للملك بحال: فإذا طرحت بعض أمور الدولة وعنّ للملك أن يطرح بعضها للمداولة مع جلسائه من صفوة الأشراف ، كان أصحاب الرأى منهم يدلون بدلوهم فى الموضوعات المثارة. فإذا وجد برأى أحدهم قبولا لدى الملك تفضل فأخذ به ويصدر الأمر فى صورة مرسوم ملكى ينسب للملك وليس لصاحب الرأى ، وإذا لم يجد الملك فى أى من آرائهم ما يقتنع به نفذ

رأيه هو فى الأمر. أى أن رأى هذه الصفوة الأرستقراطية كان بمثابة خيار مطروح أمام الملك إن شاء أخذ به دون إلزام وإن شاء وضعه جانباً دون لوم أو تثريب من أى طرف كان .

ولكن مجرد الاقتراب من الملك والفوز بحظوته كان بالنسبة لهؤلاء شرفاً لا يعادله شرف أسبغ عليهم الكثير من الامتيازات وأضفى عليهم هيبةً ووقاراً فى مجتمعهم القبلى والعشائرى. لقد كان يُطلق على هذه الصفوة من شيوخ القبائل وزعماء العشائر مصطلح "الآباء Patres" لأنهم كانوا بمثابة الآباء الروحيين فى قبائلهم ومجتمعهم المحلى بين مواطنيهم. وقد منحهم قربهم من الملك سلطاناً عظيماً عُرف اصطلاحاً **"بسلطة الآباء" أو Imperium patruum** " بين مواطنيهم . هذا الوضع الاجتماعى المتميز لهذه الصفوة الأرستقراطية كان وضعاً وراثياً فى هذه الأسر والعائلات الشريفة ينتقل من الأب إلى الإبن إلى الحفيد. وهكذا تميزت هذه الشريحة الضئيلة العدد من الأشراف بوضع اجتماعى متميز عن بقية أقرانهم من أعضاء تلك القبائل والعشائر وتمتعوا بامتيازات كبيرة مادياً وأدبياً. هذه الصفوة من "الآباء" من زعماء القبائل والعشائر فى مجلسهم الاستشارى حول الملك شكلوا نواة وأساس **مجلس الشيوخ "السناتوس Senatus فى العصر الملكى**، وهو الهيئة التى سيقدر لها أن تلعب الدور المحورى الأساسى فى حكم وسياسة روما فى العصر الجمهورى.

أما بقية أبناء الشعب الرومانى من عامة الناس من غير أبناء العائلات الأرستقراطية - وهم السواد الأعظم من الشعب - فقد كانوا فى **موقع المتلقى لقرارات الملك** ومجلسه الاستشارى الذين يضعون هذه القرارات موضع التنفيذ فى كافة مناحى الحياة اليومية دون أدنى فرصة للتعليق أو التعقيب أو المراجعة. وواضح أن الشغل الشاغل لهذا السواد الأعظم من عامة الرومان من غير المنتمين للأسر الأرستقراطية الشريفة **كان أداء**

الأعمال والحرف التى لم يكن يقوم بها الأشراف من زراعة وتجارة وحرف وصناعات تخدم كافة نواحى الحياة اليومية. وهكذا يمكن أن نميز ثلاثة عناصر بارزة فى الحياة الرومانية فى العصر الملكى فى روما : (١) الملك بكل ما له من هيبة وسلطة مقدسة وصلاحيات شبه مطلقة. (٢) الأسر الأرستقراطية العريقة التى سكنت روما منذ البدايات المبكرة منذ أن كانت قرية أو بلدة صغيرة فاكتسبت عراقة وسمعة وحازت على مساحات كبيرة من أجود وأخصب الأراضى. هذه الأسرار العريقة المحدودة العدد مثلها فى مجلس الملك شيوخها وقادتها الذين أطلق عليهم "الآباء patres" الذين كانوا بمثابة مستشارين للملك فى مجلس السيناتوس Senatus. ورغم أن رأيهم كان استشاريا غير ملزم للملك إلا أنهم تمتعوا بحظوة كبيرة ونفوذ تمثل فى "سلطة الآباء imperium patrum ". هذا الوضع المتميز لهؤلاء "الآباء" انتقل بالتبعية لكافة أبناء هذه الأسرة الأرستقراطية الذين أطلق عليهم لقب " patricii " أى " المنحدرون من نسل الآباء" وهو ما يعنى **" الطبقة الأرستقراطية " أو " الأشراف "**. هذه الفئة المرفهة من ذوى الأيدى الناعمة اشتغلت بالسياسة والحكم ولو شكلياً فى العصر الملكى، ولكنها كانت على دراية كاملة - بحكم ارتباطهم الوثيق بالملوك- بكافة مجريات السياسة والشئون العامة فى روما واكتسبوا خبرة كبيرة فى تلك الأمور. (٣) أما كل من دون هؤلاء من بقية سكان روما فقد صنفوا على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم على أنهم يشكلون فئة **" العامة "**. هؤلاء أطلق عليهم اصطلاحاً لفظ " **Plebs** " وهى كلمة ربما كانت مأخوذة عن اللفظة الإغريقية plethos التى تعنى "الحشد، السواد الأعظم، الجماهير، عامة الناس". ولم يكن للعامة من أمور السياسة سوى السمع والطاعة والتنفيذ للقرارات الصادرة عن الملوك ومجالسهم الاستشارية دون أدنى مشاركة فعلية. لقد كان هؤلاء هم عصب الحياة الاقتصادية فى روما من زراعة لأراضى

الأشـراف الخصـبة الشاسـعة أو أراضـيهم المحـدودة نسـبياً، كمـا مارسـوا الـتجارة عـلى نطـاق واسـع وكـذلـك بقـية الحـرف الـيدوية اليومـية الـتى ترتكز عليها الحياة اليومية فى روما القديمة.

مراجع الفصل الرابع

(١) لن نتطرق فى هذا الفصل إلى ذكر عدد كبير من المراجع حيث ان مادته الأساسية مأخوذة أساساً عن :

١- المؤرخ تيتوس ليفيوس فى مؤلفه الشهير " منذ تأسيس المدينة" ولاسيما فى كتبه أرقام من ١ - ٥ والتى وصلتنا كاملة وتغطى الوصف الأسطورى لتاسيس مدينة روما وفترة الحكم الملكى ثم العصر الجمهورى المبكر حتى غزو الغالة لروما عام ٣٩٠ ق.م. كما نوهنا فى فصل المصادر.

٢- ملحمة الإنيادة للشاعر الشهير فيرجيليوس .

٣- ديونيسيوس الهاليكارناسى فى مؤلفه عن "الآثار الرومانية" .

ولعل من المراجع المختارة فى هذا الموضوع :

A. Alfoldi, Early Rome and the Latins (1965); R. M. Ogilivie, Commentary on Livy, Books 1–5 (1965); J. Bremmer and N. Horsfall (eds.), Roman Myth and Mythology, (1987); T. J. Cornell, CAH 72/2 (1989); M. Cristofani (ed.), La Grande Roma dei Tarquini (1990); E. Gabba, Dionysius and the History of Archaic Rome, (1993); M. Pallottino, Origini e stroria primitiv di Roma (1993).

(٢) ورد ذكر أينياس فى عدة مواضع من إلياذة هوميروس على النحو الآتى: Iliad II. 819 – 21 حيث جاء ذكره كما يلى :

" ومن بين الداردانيين (نسبة إلى داردانوس أحد أبناء زيوس من سيدة من البشر حسب الأساطير الإغريقية وصار ملكاً على طروادة.

وكان أثيراً لدى زيوس على كافة أولاده من نساء البشر، وقد أصبحت سلالته أحد القبائل أو الأعراق الطروادية) كان يتولى الزعامة والقيادة النبيل أينياس بن أنخيسيس الذى أنجبته الجميلة أفروديتى من أنخيسيس فى شعاب جبل إيدا حيث جامعت ربة رجلا من البشر"

- ثم يرد فى مواضع أخرى من الإلياذة (V. 467, 535) على أنه يأتى فى المرتبة الثانية بين أبطال طروادة بعد هيكتور بن بريام.

- وفى موضع آخر نجد بريام ملك طروادة لا يقدر أينياس حق قدره (XIII. 460 ff.) فعلى الرغم من شجاعته بين المحاربين فإن بريام لم يكن يقدره مثقال ذرة " (l. 461).

- وفى موضع آخر أنقذه الإله بوسيدون (رب البحار) من موت محقق على يد أخيليوس البطل الإغريقى وتنبأ له بأن يكون ملكاً على طروادة هو وذريته. "وفى نهاية المطاف فإن ابن كرونوس (زيوس) قد وصل إلى حد كراهية ذرية بريام، والآن فإن أينياس العظيم سيصبح ملكاً بين الطرواديين وكذلك سيصبح أولاد أولاده فى قادم الأيام". X X . 306 – 308، وانظر تلك الفقرة كاملة X X. 273 – 308.

الباب الثانى

روما فى العصر الجمهورى

المبكر ٥٠٩–٢٦٥ ق.م

الفصل الخامس

نظام الحكم فى روما (السلطة التنفيذية)

نظام الحكم فى روما

أ - السلطة التنفيذية

سلك الوظائف الشرفية *Cursus Honorum*

مقدمة:

سبق ان راينا كيف ضاق الرومان ذرعاً بملكهم الأخير تاركوينيوس سوبربوس (المتغطرس) وكيف حدث انقلاب ارستقراطى على حكمه قام به ابن اخيه الذى كان يتظاهر بالغباء " لوكيوس جونيوس" (الذى عُرف بلقب بروتوس *Brutus* أو " الأبله ") وزميله سبوريوس لوكريتيوس. إذ عاد الملك من إحدى معاركه الخارجية عام ٥١٠ ق.م. ليجد أبواب روما موصدة امامه هو وأسرته وليجد الناس فى روما قد اقسموا الا يحكمهم فى روما ملك بعد ذلك التاريخ، وليبدأ فى العام التالى ٥٠٩ ق.م. "نظام الحكم الجمهورى او *Res publica*" (وهى تعبير لاتينيى يعنى **الشأن العام" او " حكم الدولة أو الجمهورية")** .

وقد كان **جونيوس بروتوس** وزميله **سبوريوس لوكريتيوس** على رأس هذا النظام الجديد عام ٥٠٩ وشغلا منصب " **القنصل** " الذى حلّ محل حكم الملوك كما يروى ليفيوس .

إن هذه الرواية عن كيفية إسقاط الحكم الملكى فى روما القديمة هى **الرواية التقليدية** التى لاقت رواجا لدى معظم المؤرخين الحديثين رغم ظهور نظرية حديثة فى هذا الصدد تقول **بأن الحكم الملكى فى روما القديمة لم تتم الإطاحة به فى انقلاب مباغت بل أخذ يضمحل ويضعف**

تدريجياً إلى أن حل محله النظام الجمهورى الجديد. ولكن هناك من **الأدلة والشواهد القديمة ما يؤيد الرواية التقليدية المتعارف عليها**: فمثلاً **قوائم القناصل** *Fasti* التى تحتفظ بها عدد من المصادر القديمة (مع اختلافات طفيفة) الموثوق بها ترجع بداية نظام القنصلية (أى بداية الحكم الجمهورى) إلى أواخر القرن السادس ق.م. من هذه المصادر الموثوقة ال *Fasti Capitolini* التى تستند على أبحاث العلامة الموسوعى **فارو** الذى وضع بداية قائمة القناصل وبالتالى بداية الجمهورية عام ٥٠٩ ق.م. وعلى الرغم من بعض الأخطاء فى نظام تاريخ فارو فى بعض المواضع إلا أن المؤرخين المحدثين اتبعوه بصورة تقليدية، ورجحوه على غيره . ولعل مما يدعم هذا الاتجاه **بعض المصادر الإغريقية** المستقلة التى تؤكد تاريخ أواخر القرن السادس ق.م. بالنسبة لقيام الجمهورية الرومانية وسقوط الملكية. فقد وردت عند **ديونيسيوس الهاليكارناسى**(١) رواية عن **أريستوديموس المخنث طاغية كوماى** (إحدى المستوطنات اليونانية المبكرة على الساحل الغربى لإيطاليا فى شمال إقليم كامبانيا) وهى تشير إلى هزيمة قوات أحد ملوك الإترورين ويُدعى **لارس بورسينا** - حين حاول مهاجمة روما فى أوائل عصر الجمهورية - فى **موقعة تُدعى أريكيا سنة ٥٠٤ ق.م.** وقد تحقق النصر لروما على الإترورين فى هذه المعركة بمساعدة اللاتين وحلفائهم من مدينة كوماى. هذه الرواية ربما أخذها ديونيسيوس الهاليكارناسى عن **المؤرخ تيمايوس**(٢) الصقلى الذى ربما اخذها بدوره عن مصادر محلية فى كوماى. وقد أرخ تيمايوس هذا الحدث (موقعة اريكيا سنة ٥٠٤ ق.م.) **بالأوليمبياد التاسع والستين - ٥٠٤ ق.م.** وتحدث عن قيادة أريستوديموس المخنث لقوات كوماى فى تلك المعركة .

على أى حال فإنه فى ظل نظام الحكم الجمهورى الجديد كان جميع أهل روما الأحرار "مواطنين رومان *Cives Romani*" **يتمتعون - من**

الناحية النظرية - بالمساواة فى حقوق المواطنة. وقد ظلت " **المواطنة الرومانية** *Civitas Romana*" قاصرة على الأحرار من أهل روما - مع منح "بعض" حقوق تلك المواطنة من قبل الدولة الرومانية لبعض حلفائها المقربين - حتى بعد فترة طويلة من توحيد روما لكل شبه الجزيرة الإيطالية تحت قيادتها عام ٢٦٥ق.م. وقد أثار هذا الوضع ثائرة بقية الإيطاليين فهبوا مطالبين بمنحهم " المواطنة الرومانية"كاملة أسوة بالرومان وذلك فيما سُمى بـ "**ثورة الحلفاء الإيطاليين**" التى امتدت من **عام ٩٠ وانتهت عام ٨٨ق.م.** بعد حرب حقيقية وشرسة من جانب الإيطاليين ضد روما- واضطر الرومان فى نهايتها لأن **يسبغوا المواطنة الرومانية على كل الأحرار من أهل إيطاليا** حقناً للدماء التى سالت بغزارة فى تلك الحرب الأهلية ، كما سنرى فى حينه . وبعد نحو ثلاثة قرون بالتمام والكمال سنجد الأمبراطور الرومانى "**كاراكللا" يمنح المواطنة الرومانية " لكافة سكان الإمبراطورية الرومانية من الأحرار** - ما عدا المستسلمين - فيما عرف بـ " **الدستور الأنطونينى** " عام ٢١٢م .

لنعد ثانية إلى " المواطنة الرومانية " المبكرة فى أوائل عصر الجمهورية الرومانية لنرى أنه على الرغم من تمتع كل أهل روما من الأحرار بها على قدم المساواة من الناحية النظرية فإن الواقع العملى المطبق على الأرض كان يخالف هذا الشعار البراق . إذ لم تكن المواطنة الرومانية تتسم بالمساواة فى الحقوق والواجبات بل كان هناك **تفاوت كبير فى امتيازات من يتمتعون بها حسب وضعهم الاجتماعى** منذ بواكير نشأة روما فى العصر الملكى وما قبله . فقد ظلت الارستقراطية الرومانية من أبناء **الأشراف** *patricii* تحتكر السلطة والنفوذ وجانباً كبيراً من الثروة فى العصر الجمهورى. بل لقد مهدت الظروف الجديدة الطريق أمام هؤلاء الأشراف لتبوأ سدة الحكم دون منازع والسيطرة الفعلية

والفاعلة على مقدرات النظام الجديد بصورة شبه مطلقة مع **دور هامشى للغاية لطبقة "العامة *Plebs*" فيما يتصل بحكم وإدارة الدولة .**

فبعد الإطاحة بحكم الملوك عام ٥١٠ ق.م. والبدء بالحكم الجمهورى فى العام التالى ٥٠٩ من ذا الذى كان بإمكانه أن يسوس أمور الدولة فى ظل هذه المعطيات الجديدة المتمثلة فى الفراغ السياسى النسبى بعد الخلاص من الأسرة الملكية الحاكمة ؟ هل يقوم بهذا الدور جماهير العامة فى روما صاحبة المصلحة الكبرى فى هذا التغيير ، لا سيما وأن الحكم الجديد كان يمثل "شانا عاما *res publica*" ؟ ربما كان ذلك أمراً منطقياً يتفق إلى حد ما مع حسابات الواقع الجديد، ولكن **كان يحول دون ذلك ويقف عائقا أمام تحويله إلى واقع اعتباران هامان :**

أولاً : انه لم يكن لطبقة العامة *Plebs* أى رصيد من الخبرة والدراية بشئون السياسة والحكم وكانوا بعيدين طيلة العصر الملكى - كما سبق أن رأينا - عن هذا الدور تماماً ولم يكن لهم فيه من إسهام إلا تنفيذ إرادة الملوك دون أدنى تعقيب أو تعليق أو فهم لدوافع وخلفيات تلك القرارات ناهيك عن المساهمة فى صنعها . لقد كان العامة منصرفين تماماً لتسيير عجلة الحياة العملية والاقتصاد الرومانى من زراعة وتجارة وحرف يدوية وخدمات جسدية، وكانت تلك هى حدود عالمهم . فكيف يؤتى بهم هكذا فجاة للعب دور لا يدرون عن كنهه شيئاً ؟ إن الأمر - على هذا النحو - يصبح مغامرة غير مأمونة العواقب بل ومحفوفة بكل المكاره والمخاطر لا سيما فى تلك اللحظات الحاسمة والفارقة ، لحظات تغيير النظام والتحول لنظام جديد لم يثبت قدميه بعد .

ثانياً : أن العمل السياسى وممارسة شئون السياسة والحكم كانت فى روما - منذ العهد الملكى - قاصرةً على فئة الصفوة والكبار سواء من

العائلات الملكية أو الارستقراطية. لقد كان دور وقدر ووظيفة هذه الصفوة - بحكم موقعها - أن تحكم وتدير شئون الأمة .

ما يعنيني واود أن أوضحه هنا أن هذه **الصفوة الحاكمة لم تكن تتقاضى أجوراً أو رواتب أو مكافآت نظير ما تؤديه** من عمل فى إدارة شئون الدولة : فهم أثرياء ميسورون يملكون مساحات كبيرة من أجود الأراضى التى يزرعها لهم مزارعون مأجورون من عامة الرومان، أى أنهم ليسوا بحاجة لاجور أو رواتب وأنهم يقومون بهذا العمل الهام تطوعاً وهو عمل أضفى عليهم قيمة فوق قيمتهم الاجتماعية المرموقة . وقد استمر هذا التقليد فى العصر الجمهورى إذ استمرت هذه الوظائف غير مأجورة ويتقلدها الصفوة من أبناء الأرستقراطية الغنية الذين ليسوا بحاجة إلى مال بل إلى مزيد من السلطة والجاه . **وكان منطقياً - فى أول الأمر - الا يطالب أبناء العامة الكادحين باعتلاء هذه المناصب** للافتقار إلى الخبرة بها - كما أسلفنا- ولأنهم لا يستطيعون أن يهدروا وقتهم فى **أداء عمل لا يجنون من ورائه أى عائد مادى** يعينهم على أعباء الحياة ، ولذا انصرفوا إلى أعمالهم وحرفهم يعينهم على اعباء الحياة ، ولذا انصرفوا إلى أعمالهم وحرفهم التى يقتاتون منها عيشهم.

وبقدر ما كان افتقار أبناء العامة *Plebs* إلى الخبرة السياسية والدراية بإدارة شئون الدولة والثروة اللازمة التى تغنيهم وتكفل لهم الاستقرار المادى وتجعل بإمكانهم تحمل أعباء تلك المناصب العليا غير المأجورة بل والصرف عليها من جيوبهم أحياناً بقدر ما كان **رصيد "الأشراف"** *patricii* **من هذين العنصرين (الخبرة والثروة) هائلاً مما يرجح كفائتهم بجدارة لشغل مناصب السلطة والحكم والتشريع** . لهذه الأسباب أطلق على مناصب السلطة التنفيذية الكبرى فى روما مسمى "سلك

الوظائف الشرفية *Cursus Honorum*" لكونها حكراً على الأشراف ولأنها وظائف شرفية غير ماجورة رغم اهميتها البالغة كما سنرى.

هذا الوضع دفع بارستقراطية الأشراف إلى صدارة الحكم والسلطة اكثر فاكثر وابقى على دور العامة هامشياً فى هذه الناحية ومنصرفا إلى إعاشة المجتمع وتدبير احتياجاته الاقتصادية والمعيشية. فبعد اختفاء الحكم الملكى اصبحت السلطة والحكم فعلياً فى يد الأشراف سواءً فى مناصب السلطة التنفيذية او مجالس السلطة التشريعية. فلم يعد دور هذه الفئة المشاركة الشكلية البروتوكولية فى شئون الحكم من خلال دورهم كمستشارين للملوك فى العصر الملكى ، بل أن الظروف الجديدة جعلت منهم الطبقة الحاكمة الفعلية بغير منازع. وهكذا فإنه من جهة **"الحقوق السياسية" تمتع الأشراف" بها كاملة غير منقوصة** من دورهم فى التصويت والترشح لمناصب السلطة العليا وحدهم (المنافسة كلها محصورة بين اعضاء منهم) إلى اعتلاء هذه المناصب فيما بينهم بالتناوب . **اما " العامة "** فلم يكن حظهم من كل هذه الحقوق سوى حق واحد لاغير وهو حق التصويت واختيار من يرغبون من "الأشراف" ! لتلك المناصب والمجالس دون أن يكون لهم هم - رسمياً وقانونياً - أى حق فى الترشح لأى منصب او عضوية مجلس تشريعي.

اما عن **"الحقوق المدنية "** مثل حقوق الملكية والتجارة والزواج والمعاملات الحرة جميعها **فرغم للمساواة النظرية** بين كافة المواطنين الرومان إلا أن **ظروف الأشراف وإمكاناتهم المادية خلقت لهم افضلية كبيرة وتميزاً على من عداهم** من بقية الرومان . فهم أهل الثروة والثراء من الأرض الخصبة ذات المساحات الممتدة التى يزرعها المزارعون الأجراء من العامة، وهكذا فرغم التساوى فى حق المواطنة إلا أن هذا الوضع أفرز طبقة من أصحاب الأعمال واخرى من العاملين لديهم. ورغم أن هذا الأمر

لم يكن القاعدة التى يقاس عليها وانه كان هناك **أصحاب أملاك من بين العامة** من ملاك الأرض إلا أن **ملكياتهم كانت محدودة** بالضرورة ولا تقارن بأملاك الأشراف لا فى الجودة ولا فى المساحة. **ولكن ترك مجال التجارة والأعمال والحرف والصناعات بدرجة كبيرة مفتوحاً أمام أبناء العامة** إما بسبب عدم تفرغ الاشراف لهذه الأمور مثل مجال التجارة والأعمال الذى يحتاج وقتاً وجهداً وفكراً ، ومن أين للأشراف بكل هذا وهم منغمسون فى شئون السياسة والقيادة ؟ ، أو بسبب استنكاف هؤلاء من القيام بحرف لا تناسب وضعهم الاجتماعى كالحرف الخدمية أو الصناعية. ورغم أن مجال التجارة والأعمال سيعود على شريحة من أبناء العامة **بمكاسب مادية كبيرة** ربما تضعهم فى مصاف الأشراف من حيث الثروة على الأقل إلا أن أصولهم وانسابهم ستظل حائلاً - إلى حين - يعوقهم عن الإندماج فى الطبقة الحاكمة، فهم- رغم مستجدات الثروة والغنى- من العامة الذين لا يجوز لهم الولوج إلى عالم السياسة والحكم الذى كان حكراً - لفترة طويلة من العصر الجمهورى المبكر - على الأشراف . بل والأغرب من ذلك أن العرف الرومانى المبكر - بل وحتى القوانين عند نشرها- كان يحظر تزاوج الأشراف من العامة أو العكس .

وهكذا فإنه حتى فى مجال "الحقوق المدنية " **تفوق الأشراف تفوقاً ظاهراً على العامة** وشكلوا كياناً مغلقاً متميزاً محدود العدد هائل الامتيازات يصعب اختراقه إلا بشق الأنفس من جانب العامة ، وهو ما سيحاولونه وما سنراه .

هذا هو الوضع على صعيد " المواطنة الرومانية " بين مواطنى روما من اشراف وعامة، ولكن الأمر لن يقتصر على فئة المواطنين بل سيمتد - بعد فتوحات روما وبسط سلطانها على بقية أرجاء إيطاليا- إلى فئة أخرى أكثر عددا وأوسع انتشاراً هى فئة الحلفاء"*Socii* **أو حلفاء روما** ". فقد

نجم عن فتوحات الرومان فى إيطاليا وانتصاراتهم على جيرانهم الإيطاليين أن منح الرومان هذه المجتمعات المحلية فى أرجاء إيطاليا نوعاً من **الإستقلال النظرى أو الشكلى** ، أما حقيقة الأمر وجوهره فهى أن **هؤلاء الإيطاليين صاروا " رعايا " للدولة الرومانية**. وقد نظم هذه العلاقة بين الطرفين (الرومان وبقية الإيطاليين) **معاهدات تحالف** ابرمت بين الشعوب الإيطالية - كل على حدة - وروما. **وتفاوتت شروط وامتيازات التحالف** من حالة إلى اخرى حسب كيفية هذا التحالف وهل تم طواعية بين هذا الشعب الإيطالى أو ذاك أم تم كرهاً بعد أن اخضعتهم روما بحد السيف. ومع نهاية الحروب البونية (فى أواخر القرن الثالث ق.م. كما سنرى) كان هناك **ما يزيد على ١٥٠ (مائة وخمسين) معاهدة تحالف منفصلة** مبرمة بين روما من جهة وبقية حلفائها من الشعوب الإيطالية من جهة اخرى. وعلى الرغم من أن معاهدات التحالف *Foedera* بين روما وبعض حلفائها المميزين كانت تنص على شراكة عسكرية بين الطرفين إلا أن هؤلاء الحلفاء كانوا **مجبرين**- فى واقع الأمر - على مد يد العون للرومان بإرسال كتائب من قواتهم لتحارب جنباً إلى جنب مع الفرق *Legiones* الرومانية، وكان يُطلق على **قوات الحلفاء هذه** *auxilia*.

وكان يُنص على هذه الالتزامات من جانب الحلفاء فى وثيقة كان يُطلق عليها *Formula togatorum* **(أى قائمة من يرتدون العباءة أو الزى الرومانى)** ، ولا نعرف عن مثل هذه الوثيقة سوى القليل ولكن يبدو أنها كانت تحدد عدد القوات الذى كان على كل جماعة من الحلفاء الإيطاليين المساهمة به مع الرومان وقت الحاجة. وعلى مدى القرنين الثالث والثانى ق.م. كانت **الجيوش الرومانية تضم دائماً نسبة كبيرة من قوات الحلفاء** تتراوح ما بين **النصف إلى الثلثين**. وفى مقابل هذه المساهمات العسكرية من جانب حلفاء روما كانت روما تضمن **أمنهم وسلامتهم** وتعطيهم **نصيباً من غنائم فتوحاتها** - لاسيما الحق فى

المشاركة فى توزيع الأراضى والمستوطنات. وربما يفسر هذا إلى حد كبير سبب الولاء الملحوظ من جانب هؤلاء الحلفاء لروما حتى فى أوقات الشدائد.

ولكن طرأ **تغير على هذه العلاقة فى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م.** حينما توقف مد الإستيطان الرومانى وأصبحت الخيرات الآتية من جراء التوسع الإمبراطورى الرومانى - ممثلة فى التدفق المستمر للضرائب الآتية من الولايات - حكراً على روما وحدها من دونهم. وقد حاول بعض **المصلحين الرومان** (من أمثال الأخوين تيبريوس وجايوس جراكوس من ١٣٣-١٢٢ق.م.) **منح حقوق المواطنة الرومانية لهؤلاء الحلفاء ولكن باءت جهودهم بالفشل** ودفعوا ثمناً باهظاً لمحاولتهم الثورية فى هذا المجال وغيره كما سنرى. وحين فاض الكيل بهؤلاء الحلفاء من التمييز بينهم وبين الرومان عبّروا عن هذا الاستياء فى صورة ثورة عارمة سميت بـ " **الحرب ضد الحلفاء** *bellum sociale* " فى الفترة من ٩٠ - ٨٩ ق.م. وانتهت عام ٨٨ ق.م. حين تنازل الرومان **ومنحوا " المواطنة الرومانية "** لكافة حلفائهم الإيطاليين، ومن بعدها **أصبحت كل إيطاليا** إلى الجنوب من حوض نهر "بو" - **موحدة ويجمع بين كافة أرجائها رابطة " المواطنة الرومانية "** .

بعد هذه **المقدمة الضرورية** عن **أوضاع المجتمع الرومانى فى العصر الجمهورى المبكر** وسيطرة طبقة الاشراف على مقاليد السلطة والحكم فى روما نأتى الآن لتوصيف **نظام الحكم الرومانى الجديد مع** النظام الجمهورى. ومن المعلوم أن نظام الحكم فى أى مجتمع - قديم أو حديث - يرتكز دوماً على "سلطة تشريعية " تصدر القوانين التى تنظم حياة المجتمع فى كافة نواحيها ومجالاتها، و "سلطة تنفيذية " تقوم على التنفيذ الواجب لهذه القوانين لتسير عجلة الحياة اليومية الرومانية -

داخلياً وخارجياً - فى سلاسة ويسر فى كافة مجالات الحياة . وقد يكون من المنطقى أن نبدأ " بالسلطة التشريعية" التى تسن القوانين بعد فحص وتمحيص ومداولات معمقة ثم تدفع بها - بعد أن تصوغها صياغة محكمة - إلى حيز التطبيق لترى النور حيث يقوم بمتابعة ذلك التطبيق والتنفيذ رجال " السلطة التنفيذية" من كبار شاغلى المناصب كل فى اختصاصه. ولكن لما كانت عملية التشريع قد ظلت فى أيدى أولئك الرجال من علية القوم من شيوخ القبائل وزعماء الأحياء والعشائر من الآباء *patres* الذين كانوا يشكلون المجلس الاستشارى للملك أو " مجلس الشيوخ *senatus*" - مع تغير ملموس فى طبيعة دورهم من مجرد هيئة استشارية إلى هيئة تشريعية فاعلة وملزمة- صار لزاما علينا أن نبدأ بالتغير الجوهرى الذى طرأ على وجه الحياة الرومانية فى **"السلطة التنفيذية"** . فبعد أن **كان الملك هو المتحكم الأوحد تقريباً** فى كافة أمور السلطة والحكم **طرأ تغير جوهرى على نمط السلطة التنفيذية** وتوزعت المسئوليات والاختصاصات - تدريجيا - حتى وصلنا إلى نظام تنفيذى مُحكم أنجز الكثير للدولة الرومانية .

سنبدأ بالحديث عن "السلطة التنفيذية " فى ظل النظام الجديد ونرتبها - تدريجيا وزمنيا - من أعلى إلى أدنى ونرى ما أدخل عليها من تطورات أملاها التطبيق وما صاحبه من رؤية فاحصة للاحتياجات كما أملته الضرورة العملية الملحة فى أحيان اخرى . لنبدأ أولاً بالمنصب الذى حلّ فى روما محل منصب الملك بما له من سلطة وجبروت . هذا المنصب الجديد هو منصب "القنصل *Consul*" .

١ – منصب القنصلية[٣] *Consules* .

يروى التراث الرومانى - كما أسلفنا - انه بمجرد وضع نهاية لنظام الحكم الملكى بطرد " تاركوينيوس سوبربوس " عام ٥١٠ ق.م. حل محله فى العالم التالى مباشرة ٥٠٩ ق.م. حاكمان يحمل كل منهما لقب قنصل وكان القنصلان عن ذلك العام الأول من النظام الجديد هما " جونيوس بروتوس" و " سبوريوس لوكريتيوس". وبعد ذلك جرى العرف على أن ينتخب **إثنان من القناصل كل عام** على مدى معظم - إن لم يكن كل - فترات الحكم الجمهورى ، وكان يتم انتخاب القناصل سنوياً بواسطة **الجمعية المئوية** *Comitia Centuriata* (أنظر الجمعيات التشريعية أو السلطة التشريعية فيما بعد) فى اجتماع يعقد سنويا لهذا الغرض ويدعو إليه القنصل أو من يقوم مقامه من أصحاب السلطة القنصلية- فى أوقات الطوارئ الاستثنائية. **وقبل عام ١٥٣ ق.م. كان عام القنصلية يبدأ يوم ١٥ مارس** من كل عام **وبعده أصبح عام القنصلية يبدأ فى أول يناير** من كل عام[٤] .

ومع النظام الجديد **انتقلت إلى الحكام الجدد (القناصل) معظم سلطات وصلاحيات الملوك السابقين** (مثل حق القيادة العسكرية العليا وحق دعوة الجمعيات التشريعية وعلى رأسها السناتو للانعقاد ومعظم الصلاحيات السياسية والمدنية والقضائية التى كان يتمتع بها الملوك). ولم يتبق شئ من صلاحيات الملوك لم يُسند إلى القنصلين سوى **المهام الدينية المرتبطة بالطقوس والشعائر** والاحتفالات حيث أسندت هذه المهام إلى منصب دينى رفيع يُطلق عليه "الكاهن الأعظم"*pontifex maximus*" ، وكاهن آخر يليه فى الترتيب ويُطلق عليه "ملك الشعائر" أو *rex sacrorum* وكان كلاهما من الأشراف فى فترة الجمهورية المبكرة. ولم يكن يقلص من صلاحيات القناصل الواسعة إلا **مبدأ الثنائية** فى الحكم

وقصر المدة التى لم تكن تتجاوز العام بأى حال ، هذا بالإضافة إلى **رقابة مجلس السناتوس** على أداء القنصلين طيلة فترة شغلهما المنصب .

وقد اكتسب القناصل هذه الصلاحيات الواسعة بحكم **سلطان الإمبريوم** *imperium* " (ويعنى القيادة العليا للدولة والتى تتضمن القيادة العسكرية العليا، وحق تفسير وتنفيذ القوانين بما فيها تطبيق عقوبة الإعدام). وكان يُنظر إلى أصحاب المناصب العليا الذين يحملون هذا السلطان على أنهم يمثلون المجتمع ككل فى كافة المعاملات: فهم يصدرون الأوامر ويفرضون الطاعة والنظام. وكان يرمز إلى هذا السلطان الرفيع للقناصل **شارة السلطة العليا** المسماة باللاتينية *fasces*(٥) التى يحملها حراس كبار شاغلى المناصب ممن يتمتعون بسلطة الأمبريوم، وكان يطلق على هؤلاء الحراس **لقب** *lictores*. وكان عدد هؤلاء الحراس يتفاوت حسب أهمية صاحب المنصب الذى يتولونه مرافقته وحراسته، وكان عددهم فى حالة القنصل اثنى عشر مرافقاً ، وكانت مهمتهم السير فى طابور واحد للإعلان عن قدوم القنصل وإفساح الطريق له وإخلائه من الناس ما عدا عذارى وكاهنات ربة العذرية والموقد فيستا. وكان هؤلاء الحراس المرافقون للقنصل يحملون شارة السلطة العليا *(fasces)* على كتفهم الأيسر، وترمز هذه الشارة إلى حق القنصل فى ممارسة السلطة والسيادة على المجتمع. وبالإضافة إلى حزمة القضبان التى يضمها سير من الجلد الأحمر والتى ترمز إلى سلطات القنصل داخل حدود روما والتى لم يكن من بينها حق إصدار قرارات الإعدام، فإنه إذا تخطى حدود روما إلى خارجها أو كان على رأس جيش أضيفت البلطة إلى حزمة القضبان لترمز إلى حق القنصل فى إصدار أحكام الإعدام على غير الرومان وقتل أعدائهم .

ولم يكن يحق لمن تولى منصب القنصلية (لمدة العام المحددة) أن يرشح نفسه لهذا المنصب الرفيع لدورة أخرى **إلا بعد مضى عشر سنوات** على الأقل على توليه هذا المنصب من قبل حتى لا يُتاح لأحد استغلال سلطته ونفوذه - أو حتى سمعته الحسنة فى حالة الأداء الجيد فى عام قنصليته - فى التأثير على مشاعر أو عواطف أو مصالح الناخبين، ولكى يكون فوزه بالمنصب عن جدارة واستحقاق وسمعة راسخة وليس إرتباطاً بظروف وقتية طارئة. وهكذا اتسمت القنصلية **بسمتين راسختين** على مدى العصر الجمهورى - فى الأغلب الأعم- **وهما الثنائية** حتى لا يستأثر شخص بالرأى فى أمور الدولة الحساسة ويكون عرضة لإصدار قرارات خاطئة أو معيبة، **وتحديد المدة بعام واحد** غير قابل للمد أو التجديد حتى لا يستغل صاحب المنصب طول المدة فى التمكين لنفسه ولمصالحه الخاصة.

أما **عن كيفية أداء القنصلين لمهام منصبهما** على مدى العام فإنهما- **فى أوقات السلم وداخل المدينة** - كان يقومان بتقسيم العمل فيما بينهما بالتناوب شهريا بحيث تصدر القرارات باسم احدهما بعد أخذ موافقة زميله الآخر ، ولكن إذا ما أبدى أحدهما إعتراضه *intercessio* على رأى زميله- ونادراً ما حدث ذلك - فلا يُنفذ القرار لأنه لابد من موافقة القنصلين عليه. وكان من حق القنصلين فى السلطان المخوّل لهما داخل حدود المدينة *imperium domi* **إجبار المواطنين المتقاعسين - على تنفيذ وإطاعة ما يصدرانه** من أوامر ومراسيم من خلال توقيع العقوبات عليهم ، وكان يُطلق على هذا الحق للقناصل *coercitio* . ولكن مثل هذا الحق للقناصل **لم يكن حقاً مطلقاً** لا يُرد بل كان من الممكن **نقضه والطعن فيه** والاستئناف ضده *provocatio* أمام ترابنة العامة أو الجمعية القبلية إن هو جاوز حدود المعقول والمقبول . وهناك قانون صدر عام ٣٠٠ ق.م. يسمى قانون فاليريوس *Lex Valeria* اعتبر تغاضى شاغل المنصب الرفيع من حاملى سلطان الإمبريوم عن قرار النقض الصادر بحق قراره جريمة

جنائية. **اما فى ميادين القتال** فقد كان القنصلان يتناوبان القيادة العليا للجيش **بمعدل يوم لكل منهما** يليه زميله فى اليوم التالى، وكانت سلطتهما فى ميدان القتال غير مقيدة وتتيح لهما قدراً كبيراً من حرية الحركة والقدرة على إصدار أدق القرارات لخدمة ظروف المعركة. فقد كان من حقهما بمقتضى هذا السلطان العسكرى *imperium militiae* إصدار احكام الإعدام كما ترمز البلطة التى تضاف إلى حزمة القضبان فى شارة السلطة العليا *fasces* الخاصة بهما.

وكان **من بين مميزات ثنائية السلطة فى النظام القنصلى** أنه فى حالة **وفاة أو تنحى احد القنصلين** قبل نهاية عام القنصلية كان على زميله الآخر أن يجرى انتخاباً من اجل اختيار قنصل آخر ليملأ الفراغ الناجم عن المنصب الشاغر ، **وكان "القنصل البديل"** الذى ينتخب لسد هذا الفراغ يطلق عليه *suffectus* اى "البديل". وفى حالة **وفاة القنصلين أو تركهما المنصب** لأى سبب من الأسباب كان **الأمر يعود مرة أخرى إلى أعضاء السناتو من الأشراف** الذين كانوا **يختارون احد اعضاء السناتو من القناصل السابقين** - الذين كانوا ينضمون تلقائياً إلى عضوية السناتو مدى الحياة بعد ترك القنصلية - ليحكم مؤقتاً بدلاً من القنصلين المتوفين وكان يطلق عليه لقب *interrex* . وكان الأمر يستدعى أحياناً تعيين اكثر من واحد **من الأشراف** من القناصل السابقين لتولى هذا المنصب الاستثنائى، وكان كل واحد من هؤلاء الـ *interreges* يتولى المنصب **لمدة خمسة أيام، وكانت المهمة الرئيسية** لهؤلاء هى **الإشراف على انتخاب واحد أو اثنين** من القناصل الجدد البدلاء *consules suffecti* لاستكمال المدة المتبقية من العام.

اخيراً وليس آخراً فمن الجدير بالذكر أن ننوه بأن **تاريخ الأحداث فى الدولة الرومانية فى العصر الجمهورى كان يتم بسنوات حكم**

القناصل كان يقال أن هذا الحدث أو ذاك **قد وقع " فى عام قنصلية ... و ..... "** وبالرجوع إلى قوائم ترتيب سنوات حكم القناصل يمكن تحديد ذلك العام بدقة. وغنى عن البيان الآن أن تحديد عام قنصلية أحد القناصل كان أمراً ميسوراً نسبياً لأن القنصل لم يكن يتجاوز عام القنصية - من حيث المبدأ - ولو بيوم واحد. **الاستثناء أو شبه الاستثناء الوحيد** لهذه القاعدة أو هذا المبدأ هو حين يكون القناصل فى ميدان القتال فى أواخر عام قنصليتهم وظلت المعركة محتدمة ومستمرة وانتهت المدة القانونية للقنصلية رسمياً . فى هذه الحالة **كان يسمح لهؤلاء القناصل السابقين** من العام السابق **بالاستمرار فى قيادة الجيش وإدارة المعركة**- بحكم دراستهما وخبرتهما بميدان القتال — وفى هذه الحالة يظل سلطان " الإمبريوم " (حق القيادة العليا) ممنوحاً لهما بحكم كونهما " **قناصل سابقين** *proconsules* ". ومما لاشك فيه أن الهدف من هذا الإجراء **كان لحماية أمن الدولة ومصالحها العليا دون الإخلال بالقانون** حيث كانت تجرى الانتخابات فى روما فى موعدها ويتولى القنصلان الجديدان مهامهما فى المدينة فى الموعد المحدد دون إبطاء .

(ب) ولكن رغم بقاء منصب القنصلية على رأس هرم السلطة التنفيذية فى روما طيلة العصر الجمهورى فإن هذه القاعدة المرعية كانت تؤكدها - من حين لآخر - بعض الاستثناءات الطارئة . **من هذه الاستثناءات طويلة المدى - توقف العمل بنظام حكم القناصل على مدى فترة تقترب من الثمانين عاماً من ٤٤٤ إلى ٣٦٧ ق.م.** فى هذه الفترة المذكورة واجهت روما عدة أزمات وتحديات طارئة ومتلاحقة وشديدة الوطأة فى الصراعات مع جيرانها القريبين والبعيدين وانفتحت عليها أبواب الجحيم واتسعت جبهات القتال فى اختبارات قاسية كادت تعصف بالكيان الرومانى فى بعض المواقف (سنتابع فى فصل لاحق تفاصيل هذه التطورات الخطيرة والمثيرة). فى هذا الموقف العصيب الذى تداعت فيه على

الجمهورية الشابة كثير من القوى التى تريد أن تكسر شركتها بل وتقتلعها من جذورها - إن امكن - **وانفتحت جبهات القتال بلا ضابط أو رابط لم يعد القنصلان وحدهما يكفيان** لمواجهة هذا السيل العرم من الأعداء . وأمام هذه الضرورة الملحة **استبدل الرومان بالنظام القنصلى نظاماً آخر** يتمثل فى تولى لجان أو هيئات من القادة والضباط العسكريين لتتولى القيادة والمناصب التنفيذية فى الدولة الرومانية. هذه اللجان- التى كانت اعدادها تتزايد كلما اقتضت الضرورة واتسع حجم المعارك والمخاطر - كانت تتكون من أعضاء يطلق عليهم **"الترابنة العسكريين من ذوى السلطة القنصلية"** أو *tribuni militum consulari potestate* " .

وهذه اللجان **التى حلت محل القناصل وتمتعت بكامل سلطتهم**[٧] كانت تسيّر امور الحياة فى المدينة فى كافة نواحيها، وكان بعضها الآخر يتولى زمام القيادة العسكرية العليا على جبهات القتال. **وحين خفت حدة المعارك** وتقلصت جبهات القتال - مع ما صاحب ذلك من **تطورات على مستوى الصراع الداخلى بين العامة والأشراف- عاد العمل بنظام القنصلية من جديد ضمن** مجموعة من القرارات تبناها مجلس السناتو - بعد معارضة طويلة وشديدة - عام ٣٦٧ق.م ضمن ما سُمّى "بقوانين **سيكستيوس وليكينيوس"** التى سمحت للعامة بالترشح لسلك الوظائف الشرفية لمن كان لديه من بينهم الثروة الكافية والرغبة والقدرة على خوض المنافسات الانتخابية .

(جـ) وإذا كانت " لجان الترابنة العسكريين من ذوى السلطة القنصلية" قد حلت محل الحكم القنصلى على مدى ما يقرب من ثمانين عام متصلة فى الفترة المذكورة فإن هناك **منصباً استثنائياً آخر فى غاية الأهمية والخطورة كان يحل محل القناصل من حين لآخر** ولكن لم يكن ذلك يتم إلا **فى الظروف البالغة الدقة والحساسية أى فى حالات الطوارئ القصوى**، هذا المنصب الاستثنائى والحساس هو منصب الـ " **ديكتاتور**

وإذا كـان لقـب "ديكـتاتور" - اللاتيـنى الأصـل والـذى يعـنى " *Dictator* حرفـياً " مـنْ يمـلى إرادتـه عـلى الآخـرين " مـن فعـل (*are*) *dicto* بمعـنى "يقول مرارًا" أو " يُملى " والمأخوذ أصلاً من فعل (*ere*) *dico* بمعنى "يقول" - **قـد اكتسـب فـى لغـات العـالم الحديـثة ومـن بيـنها العربـية سمعة سيئة** لكونه يعتبر عن حاكم استولى على السلطة الشرعية عنوة وبالقوة وبغير سند قانونى ، وبطش بمعارضيه وألغى الديمقراطية والرأى الآخر، وجعل مـن رأيه وحده دون سواه القول الفصل فى كافة الأمور، وتمسك بأهداب الحكم والسلطة وعض عليها بالنواجز والأنياب حتى الرمق الأخير فإن **هذا المنصب الاستثنائى الرومانى الخطير لم يكن كذلك على الإطلاق**. وتفسير ذلـك أنـه فـى الظـروف الاعتـيادية - بـل وحـتى الخطـيرة - كـان القناصل يسيّرون أمـور الدولة على نحو ما أسلفنا أعلاه ، ولكن **حين يعجز القناصل عـن مواجهـة موقـف بعيـنه** سـواءً كـان ذلـك الموقـف عسـكرياً علـى جبهة القـتال أو داخلـيًا فـى صـورة صراع داخلى عنيف بين طوائف المجتمع ينذر بشـبح حـرب أهلـية أو أزمـة اقتصادية طاحنـة أو غير ذلك من الأمور الملحة **يُسـند الأمـر مـن قـبل المجتمع إلى شـخص يتمـتع بسـلطان مطلـق** لمواجهـة الموقف العصيب. ويُعرف هذا المنصب اصطلاحًا بلقب "**ديكتاتور**".

فـى العـادة **كـان مجلـس السـناتوس** (المجلـس التشـريعى الأعـلى) هو الـذى **يـتخذ هـذا القـرار** بتعـيين الديكتاتور **ويفوض القنصل** (أو من يقوم مقامـه مـن حاملى سلطة الإمبريوم) **بإعلان هذا القرار الخطير للناس**، رغم أن ليفـيوس يخبرنا (22.8) فى إحدى المناسبات أن الديكتاتور كويـنتوس فابـيوس ماكسـيموس (فابيوس المعطل *Cunctator*) قد اختير ديكتاتورًا عـام ٢١٧ ق.م. فـى بدايـات الحـرب البونـية الثانـية (٢١٨ - ٢٠٢ق.م) فـى "الجمعـية المئوية ". وإذا كانـت هـناك بعض القيود القانونية على سلطان القناصل حتى لا يتحول إلى سلطان مطلق بغير رقيب (مثل حق الاعتراض

intercessio والنقض *provocatio* من جانب رميله فى القنصلية وترابنة العامة والجمعية القبلية فضلاً عن رقابة مجلس السناتوس) **فإن الديكتاتور قد تمتع بحق إصدار ما يشاء من قرارات دون أدنى اعتراض أو نقض من أى طرف** كما يخبرنا بذلك ليفيوس فى أكثر من موضع (8.33.8; 27.6.5) . معنى ذلك أن الديكتاتور كان يُمنح من قبل السناتو "**سلطة عليا مطلقة أو** *imperium infintum* "_غير مقيدة. وبالتالى أعلى maius من سلطة القناصل على علو شأنها . بل وفوق ذلك فإن الديكتاتور كان هو المنصب الوحيد من بين المناصب الرومانية المخول بإصدار أحكام الإعدام داخل روما ضد من يشاء وهو ما تمثل فى إضافة البلطة إلى " شارة السلطة العليا fasces "الخاصة به والتى كان يحملها حراسة ومرافقوه *lictores* الأربعة والعشرين، وفى هذا أكبر دليل على مدى ما تمتع به شاغل هذا المنصب من سلطات استثنائية للغاية بصورة غير مسبوقة .

ولكن ألا يخشى من أن تتحول مثل هذه السلطات المطلقة إلى سلاح فى يد الديكتاتور الرومانى **قد يسىء استغلاله** ضد بنى وطنه؟ لقد تحوط الرومان لأنفسهم أمام مغريات ومفاسد السلطة المطلقة وما قد ينجم عنها من موبقات **واتخذ هذا التحوط جوانب أخلاقية وقانونية صارمة**. إن المواقف العصيبة الحرجة التى لم تكن تترك للرومان خيارًا آخر سوى اللجوء إلى آخر ورقة متاحة لديهم فى نهاية المطاف - بعد استنفار كافة السبل والوسائل الأخرى - وهى اختيار " ديكتاتور " لمجابهة هذا الموقف الاستثنائى لابد أنها علمتهم **الدقة المتناهية فى اختيار مثل تلك الشخصيات** بصورة ملائمة **ووضع ضوابط صارمة** تحول دون استيلاء مثل هؤلاء على السلطة. فمن **حيث الدقة المتناهية فى الاختيار** يمكن للمرء أن يتصور مجتمعًا صغيراً نسبياً كالمجتمع الرومانى فى العصر الجمهورى

المبكر تكون فيه الكفاءات والخبرات المتميزة فى كافة المجالات معلومة للجميع ولا سيما للصفوة من رجال السناتو. من هذه الكفاءات كان يُنتخب شاغلو المناصب العليا من ذوى الطموح للحكم والإدارة، ومنهم من كان عازفاً عن الشهرة والأضواء ولكن قدره وكفايته معلومة للجميع. وفى المواقف الحرجة كان السناتو يطرح هذه الكفاءات والخبرات النادرة من هؤلاء وأولئك ومن يحظ بالأغلبية من حيث الكفاءة والتجرد والانحياز لمصلحة الوطن العليا يقع عليه هذا الاختيار التكليفى الذى لا مناص من قبوله لإنقاذ الوطن. لقد كان هذا الاختيار تكليفاً أكثر من كونه تشريفاً ، وكان بعض هؤلاء يعيشون حياة بسيطة فى مزارعهم البعيدة عن صخب الحياة فى المدينة وكان مبعوثو السناتو "يسافرون" إليهم فى مزارعهم القصية لإبلاغهم بتكليف السناتو لهم بأداء مهام كبيرة لصالح الوطن. ها هو شيشرون يضرب لنا مثلاً على ذلك فى مؤلفه **"عن الشيخوخة"** Cicero, De Senectute 16.55-56 فيقول :

" فى الأيام الخالية كان أعضاء السناتو يعيشون فى مزارعهم... إن المبعوث الذى أرسل إلى لوكيوس كوينكتوس كينكيناتوس ليبلغه بأنه قد عُيّن ديكتاتوراً وجده يحرث حقله .... كما أن مانيوس كوريوس دينتاتوس (قاهر السمنيين والسابين والملك بيروس) هو وغيره من كبار الشخصيات فى المجتمع كانوا يستدعون من حقولهم ليؤدوا خدمات لمجلس السناتو ، وكذا كان يُطلق على المبعوثين الذين يكلفون باستدعائهم مسمى " المسافرين viatores " .

تلك كانت - فى الأغلب - نوعية من يُختارون للقيام بهذه المهام الوطنية الحساسة : أناس من ذوى الكفاءات والخبرات النادرة ممن يعرف الجميع قدرهم ، وهم - فى الوقت ذاته - مترفعون عن الجاه والسلطة زاهدون فيها راغبون عنها. هذا عن المقومات الشخصية المطلوبة فيما يقع

عليهم الاختيار للمنصب، اما **ضوابط القانون والمجتمع لضمان حسن الأداء من ناحية وعدم الاستلاء على السلطة أو إساءة استغلالها** فتمثل فى منح الديكتاتور **سلطة مطلقة** فى اتخاذ ما يشاء من قرارات تضمن له **تخليص الوطن من أزمته أو ورطته دون أدنى قيد على حرية حركته** ، ولكن **عنصر الوقت** كان محدداً ومحسوماً **بستة أشهر على الأكثر لتنفيذ المهمة** لا تتجاوزها ولو بيوم واحد. وفى إطار هذا الحد الأقصى الزمنى كان " الديكتاتور" **يتنازل عن المنصب بمجرد أن ينتهى من المهمة المكلف بها** ويعود إلى وضعه الطبيعى الذى كان عليه قبل تكليفه بالمنصب. بل أن الديكتاتور **لم يكن معفياً من الملاحقة القضائية** بعد تركه للمنصب إن تطلب الأمر كما نعلم من أحد النقوش (*C.I.L* 12, 583. 8–9) وكما نعلم من أمر الديكتاتور الشهير كاميللوس الذى دمرّ مدينة فياى الإتروسكية عام ٣٩٦ق.م الذى يروى عنه أنه استأثر بجزء كبر من الغنائم لنفسه وتم نفيه فى إحدى المدن اللاتينية لبعض الوقت من جراء هذا الاتهام .

ومن الجدير بالذكر أن **بقية شاغلى المناصب العليا** فى الدولة الرومانية - كالقناصل مثلاً - **كانوا يحتفظون بمناصبهم** أثناء فترة الديكتاتورية ولكنهم كانوا يعملون **تحت قيادة الديكتاتور** وينفذون أوامره . وكان يطلق على الديكتاتور لقب آخر هو *magister populi* ويعنى هنا " قائد المشاة" وكان لابد من أن يحصل على تصريح أو ترخيص إذا أراد أن يمتطى صهوة جواد وهو فى المنصب رغم أنه كان **يعين بنفسه " قائداً " للفرسان** *magister equitum* يعمل تحت إمرته كمعاون له بمجرد تقلده منصب الديكتاتور. وبمتابعة الحوليات الرومانية سنجد منصب الديكتاتور يتكرر فى عدة مناسبات فى الظروف الطارئة والاستثنائية لروما **منذ بداية الجمهورية حتى أواخر القرن الثالث ق.م**. وربما كان أول ديكتاتور رومانى هو تيتوس لاركيوس *T. Larcius*

من عام ٥٠٠ ق.م. تقريبا كما نعلم من التراث الرومانى [٨] . ولم يشهد القرن الثانى ق.م. تولى أحد من الرومان منصب الديكتاتور، ولكن هذا المنصب الاستثنائى **عاد للظهور مرة أخرى وبقوة فى القرن الأول** ق.م. حين أسند إلى سوللا ثم إلى يوليوس قيصر فى أواخر عهد الجمهورية. وربما كان ذلك أحد أسباب انهيار النظام الجمهورى إذ مُنح قيصر فى سنوات حكمه الأخيرة "ديكتاتورية دائمة *dictator perpetuus*" أى مدى الحياة ، وهو ما أدى إلى تخوف خصومه من أن ذلك قد يعنى تحوله إلى ملك وإلى عودة الملكية مرة أخرى - وعلى غرار نظام الحكم الملكى فى الشرق هذه المرة لاسيما بعد علاقته الشهيرة مع كليوباترة السابعة ملكة مصر وإقامتها الدائمة معه فى روما من ٤٦ ق.م. حتى مقتله عام ٤٤ق.م.

تلك كانت المناصب العليا البارزة التى كانت تمسك بدفة الحكم والقيادة العليا فى روما بسلطان الإمبريوم فى الفترة المبكرة من الجمهورية الرومانية على مدى القرن الخامس وحتى الثلث الأول من القرن الرابع ق.م. عام ٣٦٧. المنصب النظامى هو القنصلية والمناصب الاستثنائية الطارئة هى " الترابنة العسكريون من ذوى السلطة القنصلية " و " الديكتاتور " من حين لآخر .

٢- البرايتور (كبير القضاة) ... *Praetor* ..

إذا كانت الظروف الاستثنائية الطارئة قد أجبرت الرومان على التخلى مؤقتاً عن منصب القنصلية الثنائية سنوياً على مدى ما يقرب من ثمانين عاماً من ٤٤٤- ٣٦٧ق.م فإن ذلك العام الأخير ٣٦٧ق.م قد شهد عودة النظام القنصلى من جديد مع عدد من التعديلات والإضافات فى تركيبة السلطة التنفيذية وتوسيع قاعدة الترشح لها كما سنرى .

مـن هـذه الـتعديلات والإضافات التى صاحبت عودة النظام القنصلى فـى صـورته المعدلـة (بعـد أن صـار مـتاحاً دسـتوريا أمـام العامـة كـذلـك) إدخـال منصب جديد هو منصب " البرايتور "[٩] . وكان الهدف من إدخال هذا المنصب هو تخفيف العبء المتزايد على كاهل القنصلين بإسناد شئون العدالـة والقضـاء أساسـاً إلى صاحب المنصب الجديد بعد أن كانت من قبل مـن اختصاصـات القنصـلين . ولكـن رغـم أن ليفـيوس يقـرر أن منصـب الـبرايتور قد أنشئ خصيصاً للفصل فى القضايا فى روما (T.Livius 6. 42.11) إلا أنـه ينـبغى ألا ننسـى أن إدارة شـئون القضـاء كانـت جـزءًا مـن مهامـه العديـدة. فقد كان صاحب هذا المنصب الرفيع يتمتع بسلطان "الإمبريوم" أسـوة بالقناصل بكل ما يخوله ذلك السلطان من إدارة تنفيذية عليا لأمور الدولـة. فقـد كـان مـن حقـه - بمقتضى هـذا السلطان - أن يقوم بمعظم المهام والأنشطة الـتى يؤديها القناصل إن لـزم الأمـر . فقـد كان من حقه قـيادة الجيوش ودعـوة الجمعـيات التشـريعية إلى الإنعقـاد وإصـدار قرارات علـيا إلا إذا مـنعه القنصـلان أو أحدهمـا مـن ذلـك ، ولكـن لم يكـن بوسـع الـبرايتور أن يـتدخل بـين القناصـل أو يؤثـر فـى قـراراتهما . وقـد كـان البرايتور - فـى غـياب القنصلين عن روما وهو ما كان يحدث كثيراً - هو المسئول الأول الـذى يحـل محـلهما، وكـان - عـلى هـذا الـنحو - مسئولاً عن الـنظام القضائى وقائماً بعمل رئيس مجلس السناتو والجمعيات التشريعية . كمـا كـان مـن حقه - كما أسلفنا - قيادة الجيوش وغالبا ما نراه عند ليفـيوس (الكتب ٧ - ١٠) يتولى تلك المهمة. وهكذا يمكن القول أن البرايتور كـان زمـيلاً للقنصـلين ولكـن بـدرجة أقل *minus* ، وقد كان هذا المنصب حكـرًا عـلى الأشـراف مـنذ نشـأته عـام ٣٦٧ق.م. - رغـم جواز الترشح له من جانب العامة من الناحية القانونية الرسمية بمقتضى قوانين سيكستيوس وليكينـيوس - ولم يـتولاه أحـد مـن العامـة فعلـياً إلا بعـد نحو ثلاثين عاماً سنة ٣٣٧ ق.م .

ومن الجدير بالتنويه ان قرار تمديد " السلطة العليا أو الإمبريوم *imperium* " لبعض كبار شاغلى المناصب العليا بعد نهاية فترة العام المقررة للمنصب - دون تمديد فترة ولاية المنصب نفسه فى أوقات الضرورة القصوى . وهو امر حدث لأول مرة عام ٣٢٧/٣٢٦ق.م.- قد سمح للرومان بالحفاظ على استمرارية النظام القنصلى الثنائى مع البرايتور الوحيد كل عام على الرغم من تزايد الالتزامات والضغوط العسكرية على روما بصورة مستمرة . وفى عام ٢٤٢ق.م. فى أواخر الحرب البونية الأولى بين روما وقرطاجة (٢٦٤ - ٢٤٢ ق.م.) زيد عدد البراترة إلى إثنين واصبح احدهما يطلق عليه *Praetor urbanus* (اى البراتور المدنى أو برايتور المدينة) واصبح مسئولاً عن أمور القضاء والعدالة والتشريع المحلى اى وفقاً للقانون الرومانى، فى حين أضيف الآخر الذى صار يُعرف بالـ *praetor peregrinus* (اى برايتور الأجانب) لأنه كان يفصل فى القضايا وينظم امور القضاء والتقاضى بين غير الرومان ممن انضموا لأملاك وسيادة الرومان (كالإغريق والفينيقيين من أهل صقلية) ، اى انه كان "قاضياً أعلى على الأجانب *praetor inter peregrinos* " الخاضعين لحكم الرومان .

وحوالى عام ٢٢٨ ق.م. تضاعف عدد البراترة ليصبح أربعة، وفى عام ١٩٨ق.م. صاروا ستة وذلك لمواجهة تزايد عدد الولايات الرومانية باضطراد إذ اصبح القناصل والبراترة يعينون - بعد انتهاء عام المنصب فى روما - حكامًا للولايات الرومانية فى خارج إيطاليا لمدة عام آخر. واعتبارًا من حوالى عام ١٩٧ ق.م. اصبح تقلد منصب البرايتور اولاً شرطاً مسبقًا للترشح لمنصب القنصلية الأعلى. وفى عام ديكتاتورية الديكتاتور سوللا عام ٨١ ق.م رفع عدد البراترة إلى ٨ سنويًا يتولون أمر القضاء الداخلى فى إيطاليا ثم يصبحون بعد ذلك حكاماً للولايات لمدة عام ويتمتعون بـ "إمبريوم قنصلى " .

أما على مستوى المسئولية عن القضاء والتشريع فى روما، فعلى الرغم من الإلتزام الرسمى لبرايتور المدينة - عند توليه المنصب - بتطبيق وتنفيذ القوانين المدنية *ius civile* القائمة التى أقرها مجلس السناتوس فقد كان كل برايتور يصدر فى مستهل تقلده المنصب مرسومًا *edictum* ، وهو ما كان يفعله كافة شاغلى المناصب العليا فى روما - يعلن فيه الفعاليات وطرق الأداء وسبل العلاج الجديدة التى يزمع إقرارها خلال توليه المنصب، وهكذا فإنه كان ينشئ فى واقع الأمر سلسلة من القواعد الجديدة . ومن الناحية القانونية فإن مرسوم البرايتور لم يكن ملزماً عند مغادرة البرايتور - أو أى مسئول آخر - المنصب . ولكن لم يكن عمليًا أن يقوم البرايتور الجديد كل مرة بتغيير كافة القواعد القائمة أو يقوم بسن هذه القواعد من جديد، ولذا كان من المألوف استمرار عمل البرايتور الجديد بمرسوم البرايتور السابق مع ادخال بعض التعديلات التى ينصح بها المشرعون من حين لآخر. أما المرسوم الذى كان يظل سارى المفعول ولايتغير فكان يُعرف بالـ *edictum tralaticium* (أى المرسوم التقليدى).وقد تنامت مثل هذه المراسيم التى كانت تصدر سنوياً بحيث شكلت مجموعة قانونية كبيرة تتعلق بالقانون المدنى .

وفى ظل الجمهورية كان هناك نوعان رئيسيان من الإجراءات فى قضايا القانون المدنى: النوع الأول من هذه الإجراءات هو النظام القديم المعروف باسم *legis actio* والذى يرجع تاريخه إلى وقت مبكر ومعلوماتنا عنه قليلة نسبيًا. وقد بدأ هذا النوع من الإجراءات يندثر فى القرنين الثالث والثانى ق.م. رغم استمرار بعض جوانب منها فى البقاء حتى نهاية الجمهورية. وكان هذا النمط من الإجراءات يتسم بالشكلية الشديدة والصارمة: إذ لابد من صياغة الدعوى بواحدة فقط من الصيغ الإجرائية المحدودة العدد والتى يقرها القانون ، وأى خطأ بسيط أو تافه فى الإجراءات الشكلية يمكن أن يتسبب فى مشكلة كبيرة لصاحب الدعوى. أما الإجراء

الثانى الذى أدخل حوالى عام ١٥٠ ق.م. فقد كان يتم عن طريق التوجيه الكتابى *per formulam* وكان أكثر مرونة. وكانت المرحلة الأولى من هذا الإجراء تتم أمام البرايتور الذى كان يُعلن القانون المختص بالقضية المعنية، والمرحلة الثانية كانت أمام القاضى *iudex* الذى كان يُعين للفصل فى القضية أو أمام المحاكم القائمة المشكلة من عشرة *decemviri* أو مائة *centumviri* من الأعضاء الذين كانوا يفصلون فى القضايا بناءًا على الوقائع. وحين كانت القضية فى طورها الأول بين أيدى البرايتور كانت هذه المرحلة تسمى *in iure* (بين أيدى القانون) ، وفى طورها الثانى كان يُطلق عليها *sub iudice* أو *apud iudicem* (بين أيدى القاضى). والسبب فى إطلاق مُسمى *per formulam* على الإجراء الثانى المرن الذى أدخل حوالى منتصف القرن الثانى ق. م. هو أنه بعد مناقشة الدعوى المرفوعة أمام البرايتور كانت تلك الدعوى تحدد وتلخص من قبل البرايتور فى توجيه مكتوب *formula* يُبعث به إلى القاضى المعين للفصل فى القضية ويتضمن الحكم المقترح من قبل البرايتور والذى يوصى باتباعه للفصل فى القضية .

٣- الكنسور *Censor* . (مسئول الإحصاء - الرقيب)

إذا كانت المناصب الشرفية العليا التى أوردناها أعلاه ذات سلطة عليا *imperium* تمكن شاغليها من الإدارة العليا لأمور الدولة الرومانية عسكرياً وسياسياً وتشريعياً - بل لقد كان للمناصب الاستثنائية غير النظامية منها مثل الديكتاتور سلطان مطلق - فإننا ناتى الآن إلى المناصب الإدارية المتخصصة التى يكلف شاغلوها بمهام معينة ومحددة خلال فترة شغلهم لمناصبهم . هذه المناصب الإدارية المتخصصة - إن جاز لى استخدام هذا التعبير- لم تكن تتطلب سلطانا عامًا على الدولة *imperium* بل سلطة إدارية عليا *Potestas* تمكن حامليها من القيام بالمهام المنوطة بهم بكفاءة

واقتدار. وسنتناول الآن هذه الوظائف الإدارية العليا حسب ترتيبها فى سلك الوظائف الشرفية من أعلى إلى أدنى وبترتيب أهميتها تنازلياً .

أول هذه الوظائف الإدارية العليا هى وظيفة مسئول الإحصاء *censor* (القائم على الإحصاء *census*) وهو منصب استحدث عام ٤٤٣ق.م. لتخفيف العبء عن كاهل القناصل فيما يتصل بمسالة إجراء الإحصاء الذى كانوا يقومون به قبل ذلك التاريخ. فمنذ ذلك التاريخ أصبحت الجمعية المئوية تنتخب سنويا اثنين من المرشحين من الأشراف للقيام بمهمة اساسية وهى إعداد قوائم إحصاء رسمية بالمواطنين الرومان وحفظ هذه القوائم. وربما كان الغرض من استحداث ذلك المنصب فى ذلك التوقيت هو تيسير عملية تعبئة الجيوش لمواجهة الطوارئ العصيبة عسكرياً التى استدعت إلغاء النظام القنصلى وإحلاله بنظام " الترابنة العسكريين من ذوى السلطة القنصلية" قبل ذلك بعام . ومن الجدير بالذكر أن سجل إحصاء المواطنين الرومان كان معروفاً فى روما منذ العصر الملكى لاغراض تحصيل الضرائب والتعبئة العامة للخدمة العسكرية . وفى مثل هذا السجل الإحصائى *census* كان المواطنون يسجلون فى القبائل ويوزعون إلى خمس طبقات حسب مقدار ثروة كل منهم، وكانت كل فئة أو طبقة تنقسم إلى رجال من كبار السن *seniores* ممن تجاوزوا سن الخامسة والأربعين والشباب *iuniores* ممن لم يتجاوزوا تلك السن (١٦ إلى ٤٥ عاماً) . أما "مئات" الفرسان *equites* فكانت تسجل بصورة منفصلة من حيث التقسيم الطبقى حسب الثورة بعيداً عن الفئات الخمسة الأخرى المذكورة. أما من كانت ثروتهم من الضآلة بحيث لا تؤهلهم للانضمام لإحدى الفئات الخمسة - فقد كانوا يسجلون فى سجل منفصل وتمثلهم فى الجمعية المئوية (انظر لاحقاً) مائة واحدة فقط تأتى فى نهاية المطاف فى الترتيب: وكان يُطلق على هؤلاء "مَنْ تم احصاؤهم بالراس *capite censi* أو ·*proletarii*· .

وبعد عام ٤٤٣ق.م. يحو عشرة أعوام أصبحت مدة شغل المنصب لمن يتولون مسئولية الإحصاء ثمانية عشر شهرا بدلاً من عام واحد وأصبح يختار لهذا المنصب ستة من المرشحين من الأشراف كل خمسة أعوام (بحيث يتولى كل اثنين منهما المنصب تباعًا لمدة ثمانية عشر شهراً فيصبح مجموع عددهم أربعة أعوام ونصف ، وفى الأشهر الستة المتبقية من الأعوام الخمسة تجمع البيانات المتراكمة لإصدار إحصاء جديد عن مدة الأعوام الخمسة ويتم اختيار ستة أعضاء جدد للأعوام الخمسة المقبلة) . ومع اعداد كل إحصاء جديد *census* كل خمسة أعوام كان مسئولو الإحصاء *censores* يقومون بتقديم أضحيات تطهيرية - نيابة عن الشعب الرومانى- يذبح فيها حنزير وخروف وثور (suovetaurilia) ، وكانت الأضحية التطهيرية المقدمة فى هذه المناسبة يُطلق عليها اسم *lustrum* واقترنت بفترة الخمس سنوات الدورية التى تؤدى فيها تباعاً .

اما عن العملية الإجرائية لإتمام الإحصاء فقد كان يُطلب من الأفراد أن يقرروا ويوضحوا فى بياناتهم الإحصائية - التى يقدمونها فى مبنى مخصص لهذا الغرض فى ساحة الإله مارس *Campus Martius* ، اسم الشخص كاملاً وعمره ومقر إقامته وعمله (حرفته). ومقدار ثروته او ملكيته[١٠]. ولم تكن أسماء النساء والأطفال تدخل ضمن هذا الاحصاء وإن كان رب الأسرة يعطى تفاصيل عن أسرته (*Dion. Halicar.* 4.15) .

وفيما بعد فإن سلطات وصلاحيات الكنسور تجاوزت كثيراً مجرد إجراء الإحصاء السكانى وتطورت إلى درجة أن أصبح من صلاحياتهم ممارسة الرقابة والإشراف على أخلاقيات وسلوكيات المجتمع الرومانى *regimen morum*. وبيان ذلك أن شاغلى هذا المنصب كانوا-عند تدوينهم لقوائم المواطنين - يسجلون ملاحظة تنطوى على نقد واستهجان ***nota*** *censoris* أمام اسم أى شخص يجدون أن سلوكه العام أو الخاص يستحق

الشجب والتوبيخ بعد أن يتفقوا على ذلك ويبينوا دواعيه. وكان يترتب على ذلك استبعاد الشخص المعنى الذى لحقت به هذه الوصمة وأصبح سيئ السمعة *infamis* من قبيلته *tribus* التى ينتمى إليها - وعادة من كل القبائل- وعليه يصبح هذا الشخص المنبوذ *aerarius*(١٢) أى ملزمًا إجباريًا بدفع الضرائب دون أن يكون له حق الإدلاء بصوته. وكان هؤلاء "الرقباء" يقومون كذلك **بمراجعة عضوية مجلس الشيوخ** الرومانى "السناتوس"، وإذا ما أبدوا ملاحظة نقد أو إدانة *nota* بحق أحد أعضاء السناتوس فهذا **يعنى طرده من المجلس**. كما أن **الإنضمام إلى عضوية هذا المجلس** كان يعتمد على **تصديق الرقباء وإقرارهم لصحة عضوية** المتقدم وانطباق الشروط والمؤهلات عليه، وظل الأمر على هذا النحو حتى عام ديكتاتورية سوللا عام ٨١ ق.م. كما كان "الرقباء" **يقومون بإجراء مراجعة وتقويم لأعضاء طبقة "الفرسان الذين كان لدى كل منهم** فرساً عاماً "*equites equo publico*". **هذه المراجعة كانت تجرى فى الفوروم** (السوق الرومانية) وإذا ما ثبت أن **أياً منهم لم يعد صالحاً ومؤهلاً** للاستمرار فى الخدمة فى الفرسان (أو للاستمتاع بمثل هذا الامتياز الطبقى) فإنه كان **يُجرد من فرسه ومن وضعه الاجتماعى** .

كما كان الرقباء هم موظفى الدولة **المسئولين عن تأجير الممتلكات العامة التى تنتج دخلاً** (كالأراضى والغابات والمناجم ... الخ). وكانوا هم من **يبرم العقود مع جباة الضرائب العموميين** *publicani* من أجل جباية الدخل الناتج عن هذه الأشكال من الملكية العمومية *vectigal* من المستأجرين، وكذلك **جباية ضرائب الموانئ** *portortas* داخل الحدود الرومانية. وفضلاً عن ذلك كان الرقباء مسئولين عن إبرام **العقود الخاصة بالأشغال العامة** (كالطرق والمبانى وغيرها) وكان **السناتو** هو الذى **يحدد مقدار وقيمة تلك العقود**. ونظراً لتوسع الأملاك الرومانية فإن كم عمليات الأشغال والأمور المالية التى كان أمرها منوطاً بالرقباء قد

تزايد كذلك بصورة كبيرة وهو ما سوف يؤدى فى مراحل لاحقة إلى **ازدياد ثروات جباة الضرائب العموميين بصورة كبيرة وإلى زيادة التوتر بينهم** من جهة **وبين الرقباء وأعضاء السناتو** من جهة أخرى .

وهكذا رأينا من مجمل ما عرضناه أعلاه عن تطور وظيفة "الكنسور" كيف أنها بدأت **بإجراء عملية الإحصاء** *census* السنوية ثم بعد ذلك كل خمس سنوات ، ثم امتدت صلاحيات الوظيفة تلقائياً وبمقتضى العمل الذى يمارسونه إلى **رقابة أخلاقية صارمة** ومقننة على **سلوكيات الأفراد والهيئات والجماعات** فى روما مع **صلاحيات واسعة بإنزال أشد العقوبات** بالمخالفين **كالشطب** من **عضوية السناتو ومن فئة الفرسان العليا بالجمعية المئوية ، وعدم إجازة الترشح للمناصب والهيئات** العليا لمن لا تنطبق عليه الشروط . **وإنزال أى مواطنين من الطبقات العليا** من عليائه ثم تحكمهم فى **إبرام عقود إيجار الأملاك العامة** التى تدر دخلا وفى إسناد **مقاولات الأشغال العامة** وفى **التعاقد مع جباة الضرائب العمومية فى روما فى الولايات** بعد ذلك. كل هذه الصلاحيات الواسعة التى يتمتع بها شاغلوا هذا المنصب **ارتفعت بالمنصب تدريجياً إلى مصاف المناصب الرفيعة ذات السطوة والهيبة** والنفوذ وجعلت منه **منصباً حساساً للغاية يتحكم** فى السلوكيات العامة والخاصة ، كل ذلك رغم عدم تمتع شاغله بسلطة " الإمبريوم" العليا بل **بالسلطة الإدارية التنفيذية** *potestas*. ونظراً للحساسية الفائقة لذلك المنصب وتحكم شاغله فى كثير من مقدرات المواطنين الرومان - كبيرهم وصغيرهم- فإن من أهم متطلباته ومؤهلاته - قبل الخبرة والكفاءة والحزم وبعدهم - **النزاهة الأخلاقية التى ترتفع فوق مستوى أدنى الشبهات والتى يشهد بها القاصى والدانى ولا تشوبها أدنى شائبة .**

وعلى ذلك فإنه بمرور الوقت ولا سيما اعتبارًا من القرن الثالث ق.م. فصاعدًا فإن هذا المنصب الإدارى المهيب والرفيع ربما **خرج عن دوره ومكانه التقليدى فى سلم سلك الوظائف الشرفية** ليصبح **على رأسها جميعًا من الناحية الأدبية والمعنوية**، وربما فاق القنصلية فى النظرة المهيبة من قبل المجتمع لشاغليه. لذلك سنجده وقد شغله بعد ذلك فى العادة قناصل سابقون، بل ربما ترشح له **قناصل سابقون** واخفقوا فى الفوز به! وقد كان شاغلوا هذا المنصب قبل إصلاحات سكستوس وليكينيوس عام ٣٦٧ ق.م. كما هو متوقع- من بين الأشراف دون العامة ، وبعد الإصلاحات المذكورة **سنحت الفرصة للعامة قانونًا للترشح له** ، بل أن بعض القوانين الصادرة عام ٣٣٩ق.م. وتعرف بـ *leges publiliat* نصت فى واحد منها على **أن يكون احد الرقباء" على الأقل من العامة** وتولى واحد من أبناء العامة هذا المنصب لأول مرة **عام ٣٣٧ ق.م.** ، وفى **عام ١٣١ ق.م.** تولى هذا المنصب إثنان من العامة. ولعل من **ابرز من تولوا هذا المنصب فى روما** واحتفظ تاريخ الرومان باسمهم وأنزلهم منزلة رفيعة " **ابيوس كلاوديوس**" الذى تولى منصب كنسور عام ٣١٢ ق.م. أثناء الحرب السمنية الثانية (سنعرض لها لاحقاً) . فىعام كنسوريته قام أبيوس كلاوديوس "كايكوس" *cuecus* (واللفظة الأخيرة تعنى "الضرير" أو" الكفيف" بعد أن كف بصره فى شيخوخته فيما بعد واشتهر فى تاريخ الرومان بهذا اللقب) بمشروعين معماريين كبيرين لروما أولهما هو *Aqua Appiu* أى **قنوات مياه ابيوس** وهى أول قنوات مياه صناعية فى تاريخ روما وكانت المياه تنتقل فيها من تلال السابين إلى روما فى أنفاق تحت الأرض (وإن كانت لمسافة ميل تجرى فى قناة تحت الأرض) ، والمشروع الثانى هو ذلك الطريق الشهير الذى تحمس له وأمر ببنائه الكنسور أبيوس كلاوديوس وسمى **بطريق أبيوس** *Via Appia* والذى كان يمتد من روما حتى كابوا فى كامبانيا ثم امتد لاحقًا عام ٢٤٤ ق.م. ليصل إلى

بنيفنتوم ثم إلى برنديز (برنديزى) فى الجنوب الشرقى. وقد لعب هذا الطريق دوراً هاماً ومحورياً فى حملات روما العسكرية وعلاقاتها بحلفائها الإيطاليين. **ويُعد ابيوس كلاوديوس مثالاً على النزاهة والتجرد فى وظيفة الكنسورية** : فعلى الرغم من انتمائه إلى طبقة الأشراف إلا أنه **حرص على أن يعطى العامة دورًا متزايدًا** فى الحياة العامة الرومانية إذ **وسع قاعدة العضوية فى السناتو** لتتضمن مزيدًا من الأثرياء من الطبقات الأدنى بل أنه أقر أن يصبح **بعض أبناء العبيد السابقين (المعتقين) أعضاء فى السناتو**، وهو إجراء يُعد ثورياً حتى بمقاييس قرون عديدة لاحقة، ولذلك ألغاه قناصل العام التالى. وبالإضافة لما سبق فقد كان ابيوس كلاوديوس **أول شخصية معروفة فى الأدب اللاتينى** من كتاب النثر، ويذكر عنه شيشرون أنه كان **خطيباً مفوهاً متميزًا** وكانت بعض خطبه الجنائزية لا تزال تقرأ فى عصر شيشرون، كما كانت خطبته الشهيرة- وهو شيخ كفيف طاعن فى السن - **فى مهاجمة الملك بيروس حين أرسل رسوله إلى السنتاتو** عام ٢٧٩ق.م. متداولة أيام شيشرون. **كما** أنه ألفّ بعض **الحِكَم والمأثورات** فى أشعار من الوزن الساتورنينى بقى منها **بعضها مثل قوله :**

" المرء هو صانع قدره *faber est suae quisque fortunae* ".

ومن مشاهير من تولوا هذا المنصب المهيب كذلك - **كما سبق أن** رأينا عند الحديث عن مصادر التاريخ الرومانى - **كاتو الأكبر** (٢٣٤-١٤٩ ق.م.) الذى اشتهر بلقب "كاتو الرقيب" (الكنسور) **رغم أنه تولى منصب القنصلية عام ١٩٥** ق.م. ولكن لمعانه وبريقه وشهرته تألقت وخلدت بعد توليه **منصب الكنسور عام ١٨٤ق.م.** وإذا كان لمنصب الكنسورية ذلك القدر من الرقابة على الأخلاق والسلوكيات فى المجتمع الرومانى فإن " **كاتو الرقيب"** يعد **أبرز نموذج** على هذه **الرقابة الصارمة**. وقد تجلت

صراحة وحرم كاتو فى **عديد من المواقف المشهورة** خلال عام كنسوريته، من ذلك مثلاً مواقفه إزاء **تغلغل الثقافة والعادات الهللينية (اليونانية)** القريبة على الرومان فى المجتمع الرومانى. فمع نهاية الحرب البونية الثانية (٢١٨-٢٠٢ق.م.) وبعدها نالت الثقافة والحضارة ونمط الحياة اليونانية قسطاً وافراً من الإعجاب لدى قطاعات من المجتمع الرومانى وبدأت تتغلغل فى كافة نواحى الحياة الرومانية، وكان من أبرز ممثلى هذا التيار الجديد ومن المتحمسين له فى روما عائلة سكيبيواتى حملت لواء هذا الانفتاح الثقافى والفكرى فى روما. وقد نعى كاتو الأكبر على سكيبيو الإفريقى (ابرز اعضاء عائلة سكيبيو آنذاك وقاهر البطل القرطاجى هانيبعل فى موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق.م.) شغفه بالثقافة والأمور اليونانية وتشبهه بالإغريق فى أموره الشخصية، واستكثر على سكيبيو ذلك البريق وتلك الحالة من التبجيل التى كان يحظى بها بين الرومان. **لقد كان كاتو ينظر إلى تغلغل تيار الثقافة الهللينية على انه شر مستطير ونذك شؤم ووهن حل بالمجتمع الرومانى** الذى اتسم منذ نشاته الأولى **بالقوة والصلابة والخشونة** التى ضمنت لهم المنعة والسيادة[١٣]. لذلك هاجم كاتو كذلك الأخ الأصغر لسكيبيو الذى شن حربًا على الملك السليوتى انطيوخوس الثالث فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى وهزمه فى موقعة "مادنسيا" عام ١٩٠ق.م. حين عاد من تلك الحرب ظافرًا ومعه بعض مظاهر ترف الحياة اليونانية مثل الأرائك البرونزية وأغطية السرائر وموائد الزينة وأساليب الطهى والمطبخ الراقى وفتيات الحانات اللاتى بدأن فى الظهور فى روما. لذلك فإنه حين تولى كاتو منصب الرقيب بعد بضع سنوات عام ١٨٤ ق.م. **أبعد آل سكيبيو عن الحياة العامة وأجبرهم على الاعتزال**، وسرعان ما توفى سكيبيو الإفريقى بعد قليل.

وفى عام كنسورية كاتو ادخل كذلك العديد من الإجراءات الصارمة اخلاقياً واقتصادياً ليحمى بها المجتمع - من وجهة نظره -

ويخلصه من بعض الآفات الأخلاقية : فقد فرض مثلاً ضرائب جديدة يتحملها من ينفقون بإسراف إذ كان يرى فى الإسراف والسفه فى الإنفاق عادة مذمومة. كما كان كاتو **من المعارضين الأشداء** للتيارات السائدة حينذاك والداعية **إلى تحرر المرأة** وكان يرى أن ذلك سيؤدى تزايد جبروت وسطوة النساء على أزواجهن. ومما زاد فى تشدده فى هذه الناحية **أن ظروف المجتمع حينذاك** كانت تزيد من تفاقم مخاوفه؛ فتدفق الثروات على الرومان فى تلك الفترة كان يعنى **زيادة اهتمام نساء الرومان بفاخر الثياب والزينة والرفاهية**(١٣) وهو سيؤدى - فى تقديره - إلى ضعف وانحلال المجتمع ، كما أن مقتل العديد من رجال الرومان فى الحروب والمعارك سيؤدى **إلى انتقال ملكية الكثير من الأراضى والضياع إلى نسائهن** .

لقد بذل **كاتو الأكبر قصارى جهده** - كوجه جديد *novus homo* فى عالم السياسة الرومانية ينتمى بأصوله إلى العامة وليس الاشراف — **لحماية العادات والتقاليد الرومانية** التليدة من أية بدع دخيلة عليها وكان يرى أنها **معاول هدم** للشخصية الرومانية التى تميزت منذ القدم بالصلابة والشجاعة والفائقة وخدمة الوطن بكل إخلاص. لكن **رغم جهود كاتو الحثيثة** والقوية فى هذا المجال **إلا أن تيار الانفتاح الثقافى** والاجتماعى والفكرى لخصومه تغلب - على المدى الطويل - على تيار كاتو المحافظ الذى حاول تأجيل وابطاء تدنى المعايير ولكنه لم يستطع الصمود إلى مالا نهاية .

(٤) الإيديل(١٣) *Aedilis* (مسئول الشرطة) .

ارتبطت **نشأة وظيفة الإيديل** فى أصلها وفى مبتدئ أمرها **بترابنة العامة** *Tribuni Plebis* (سنعرض لهم لاحقاً) الذين كانوا **يتمتعون بمهابة وقداسة** امتدت لتشمل معاونيهم من الإيديليس. وكانت

وظيفتهم الأساسية - التى كان التراينة يعينون لها اثنين لشغل هذا المنصب كل عام - هى **الإشراف على معابد العامة** *aedes* **وعباداتهم** مثل عبادة كيريس *Ceres* (ربة الأرض والخصوبة) وديانا (ربة القمر والصيد والعذرية) على تل الأفنتين، ولكنهم كانوا كذلك **مساعدين للترابنة العامة** يقومون على **تنفيذ أوامرهم**. ولكن بعد إصلاحات وقوانين سيكستيوس وليكينيوس عام ٣٦٧ق.م. **أصبح عدد شاغلى هذا المنصب أربعة : الإثنان الأصليان من العامة** *aediles plebeii* وأضيف إليهما **إثنان آخران من الأشراف** *aediles curules* وأصبح الأربعة يختارون بالانتخاب (كان إيديليس العامة ينتخبون فى اجتماع العامة فى الجمعية القبلية ، فى حين كان ايديليس الاشراف ينتخبون فى الجمعية المئوية) سنويًا ، ويمثلون العامة والأشراف. ولكن مهامهم اللاحقة فيما بعد يمكن أن تفسر على أنها نوع من **الرعاية والحماية بطبقة العامة فى المدينة**. وكان ممثلوا العامة وممثلوا الأشراف فى تلك الوظيفة يتناوبون كرسى الرئاسة *curulis*[١٤]. وقد كان إيديليس الأشراف *curules* يأتون فى **ترتيب المناصب** بعد البراترة ، أما إيديليس العامة *plebeii* فقد كانوا فى أول أمرهم يأتون بعد ترابنة العامة ثم أصبحوا بعد ذلك لا يختلفون عن اقرانهم فى الوظيفة من الأشراف. **ولم يكن** منصب الإيديل **متطلبًا أساسيًا** وجوهريًا فى سلك الوظائف الشرفية "، لكنه كان **أول منصب** يضفى على صاحبه **هيبة ووقار رجال السناتو، ويمنحه حق الاحتفاظ بأقنعة شاغلى المناصب الكبرى** *ius imagines*[١٥] .

اما عن ابرز مهام شاغلى هذا المنصب بعد أن أصبح الانتخاب عام ٣٦٧ ق.م. فهى **الاهتمام بأمر المدينة (روما)** *cura urbis* **والقيام على تزويد المدينة بالحبوب والغلال** *cura annonae* **والقيام على أمر الألعاب والاحتفالات الدينية** المعتادة *cura ludorum sollemnium*. أما الاهتمام بأمر المدينة أو *cura ludorum* فكان ينطوى على الاهتمام **بأنشطة المدينة ونسيجها**

الاجتماعى وما يجرى فيها مثل الاهتمام **بالأمن والنظام ومراعاة الآداب العامة فى** شوارع المدينة وطرقاتها **ومراعاة النظام العام فى طقوس العبادات وإمداد المدينة بالمياه والإشراف على الأسواق** والحرص على عدم الاستغلال أو المغالاة فى الأسعار أو الغش والتلاعب فى الموازين والمكاييل. وفضلاً عن ذلك فقد كان من بين مهامهم فى هذا الصدد **حماية العامة مما قد يتهددهم من أخطار** مثل اغتصاب ما حصلوا عليه من **"أرض عامة"** (سنتناولها لاحقاً) **أو ابتزازهم فى عمليات إقراض الأموال،** أو اغتصاب **نسائهم** أو بناتهم، **أو توجيه الإهانات إليهم**. وكان من مهام الإيديل **ملاحقة المخالفين فى مثل هذه الجرائم وتوقيع عقوبات مالية** عليهم. أمام الجمعية القبلية؛ وكانت الغرامات المحصلة تذهب إلى صناديق منفصلة خاصة بالإيديليس العامة منهم والأشراف .

أما خارج إطار" الاهتمام بأمور المدنية" فقد امتدت مهام الإيديل لتتضمن **"القيام على تزويد المدينة بالغلال** *cura annonae*" وهى تنطوى على تأمين تزويد روما بمؤنتها السنوية من الحبوب وتوزيعها على السكان فى العاصمة. وفى أواخر الجمهورية أنشأ يوليوس قيصر منصباً خاصاً بهذا الأمر دون سواه وأطلق عليهم *aediles Ceriales* وهو وضع استمر تحت حكم الأمبراطور أغسطس ولكن تغير مسمى الوظيفة *praefectus annae*.

كما كان من بين الجوانب الهامة فى إدارة المدينة **تنظيم الألعاب العامة** *ludi*. وقد آل إلى **الإيديليس من الأشراف** *curules* تنظيم **الألعاب الرومانية** *ludi Romani*" **وأعياد الحرية كيبيلى** *Cybele* (المسماة كذلك *Magna Mater*) التى كانت تعرف باعياد Megalensia وكان يحتفل بها فى الرابع من أبريل كل عام. أما **إيديليس العامة** فقد كان يُسند إليهم تنظيم **ألعاب الربة كيريس** *ludi Ceriales*" التى تقام فى العاشر من أبريل كل عام وبقية العاب **واحتفالات العامة** *ludi plebeii*.

وفى أواخر أيام الجمهورية حين ازدادت حدة المنافسة بين المرشحين. نظرًا لزيادة الثروات كان المرشحون لمثل تلك الوظيفة ينفقون مبالغ كبيرة من جيوبهم الخاصة في الحملة الانتخابية لضمان الفوز بهذه الوظيفة وامتيازاتها .

وفى ظل **ديكتاتورية يوليوس قيصر** وفى العصر الإمبراطورى **فقدت وظيفة الإيديل** تعظم مهامها شبه الشرطية، ولكن ظلت **تحتفظ بالقيام على أمور الأسواق وما يرتبط بها من أمور** مثل تفعيل القوانين المرتبطة بالإنفاق خاصة ما يتصل بالطعام والكساء. وعليه فقد اكتسب ايديليس الأشراف سلطة قضائية رسمية للفصل فى القضايا الخاصة بالبيع.

(٥) الكوايستور *Quaestor*[١٦] (مسئول المالية)

يُقال أن أول **ظهور لهذا اللقب** كان فى **العصر الملكى** حيث يُذكر أن سلوك روما كانوا يعينون موظفين يُطلق عليهم *Quaestores parricidii* (**ينفذون حكم الإعدام فى مرتكبى جرائم القتل**). واستمر هذا المنصب بمهامه فى ظل الجمهورية - حيث كانوا ينفذون الحكم على مرأى من الناس- ولكن اختفت شواهده اعتبارًا من القرن الثانى ق.م.

أما ما يعنينا فى هذا المقام فهى **وظيفة الكوايستور** المعنى بالشئون المالية. وهذه الوظيفة **كانت فى بداية العصر الجمهورى بالتعيين** إذ كان كل قنصل يعين موظفاً (كوايستور) للإشراف على الشئون المالية للدولة وخزانتها العامة حتى يتفادى القنصلان التعامل مع الأمور المالية المعقدة من أجل التفرغ لإدارة كافة شئون الدولة الأخرى، أى أن هذه الوظيفة **كانت تضم اثنين من الموظفين سنويًا يعينان من قبل القنصلين**. ولكن بعد عام ٤٤٧ ق.م. (*Tacitus, Annales*) أصبحت هذه الوظيفة **بالانتخاب فى "الجمعية القبلية"**. وقد أضيف **اثنان آخران من**

العامة عام ٤٢١ق.م. وبذلك أصبح عدد شاغلى هذه الوظيفه منذ ذلك التاريخ أربعة: **اثنان منهما** *questores urbani* للإشراف على الخزانة **العامة** *aerarium* فى المدينة (روما) تحت إشراف وتوجيه مجلس السناتو، **واثنان لمرافقة الجيوش.** ثم زيد عدد هؤلاء الموظفين إلى ثمانية (تضاعف العدد من أربعة إلى ثمانية) **عام ٢٦٧** ق.م (*T. Lirius, Periochae* 15) وتمركزوا فى **عدة مدن إيطالية** ولا سيما فى **أوستيا** ميناء روما الرئيسى. **ثم أضيف إلى هؤلاء عدد آخر** (لا نعلم كم ومتى) حين أصبحت هناك ولايات رومانية **خارج إيطاليا** لمتابعة الشئون المالية لتلك الولايات. **وفى عهد الديكتاتور سوللا** وجد أن هذه الوظيفة بحاجة إلى تسعة عشر موظفاً للقيام بها وبمهامها وأضاف إليهم **واحداً آخر** للإشراف على **إمدادات المياه** ليصل إجمالى شاغلى هذه الوظيفة فى عهد ٨١ - ٨٠ ق.م. إلى **عشرين** كوايستور. وضاعف يوليوس قيصر هذا العدد، ولكن الأمبراطور أغسطس قلصه مرة أخرى إلى عشرين كما كان قبل قيصر .

وقد كانت **وظيفة الكوايستور** هى **أدنى (أول) درجات سلم** سلك الوظائف الشرفية وكان يشغلها المرشح وهو فى سن ما بين ٢٧ - ٣٠ عاما **وفى عام ديكتاتورية سوللا** ضاعف حجم عضوية السناتو حين جعل وظيفة الكوايستور تؤهل من **شغلها للالتحاق بعضوية مجلس السناتو بصورة تلقائية** سنة ٨١ ق.م. وكانت مدة شغل وظيفة **كوايستور بإحدى الولايات** للعمل مع حكام الولايات الرومان من قناصل وبراترة سابقين **لا تتجاوز العامين** فى الأغلب. وبالإضافة إلى إدارة الشئون المالية والخزانة *fiscus* كان لشاغلى تلك الوظيفة **صلاحيات وواجبات قضائية وعسكرية.**

وفى حالة ترك رئيسه المباشر كالبراتور المنصب فجاة لسبب طارئ أو فى حالة عجزه كان يتوقع أن يقوم الكوايستور بمهامه كقائم بعمل

البرايتور *Pro praetore*، وكان يفترض أن يظل الكوايستور وفيًا **مخلصًا لقائده** مدى الحياة. وكانت **سجلات حسابات الكوايستور هى القرينة الرئيسية فى محاكمات قضايا الفساد المالى** لكبار شاغلى المناصب فى الولايات *repetundae*، **وفى بعض الحالات** كان يتم **إغراء الكوايستور الملاحقة وتعقب المخالفات المالية لقائده** فى الولاية لضمان تقدمه وترقبه هو فى سلك المناصب ؛ ولكن هذا الأمر **كان الاستثناء** وعادة ما كانوا يرفضون القيام بهذا الدور .

هكذا رأينا تسلسل مناصب السلك الشرفى *cursus honorum* تندرج من أدنى إلى أعلى من **كوايستور** إلى **إيديل** إلى **كنسور** إلى **برايتور** إلى **قنصل**، وإن كان **منصب الإيديل ليس إلزامياً** (ولكن إذا رغب شخص فى توليه يكون بعد شغله منصب الكوايستور) كما أن **منصب الكنسور** ارتفع شأنه ومقامه بحيث **لم يصبح فى ترتيبه المذكور** بل جاوز القنصلية فى الأهمية بحيث أصبح مألوفًا أن **يشغله قناصل سابقون**. وهكذا فإن وظائف السلك الشرفى الإلزامية كانت **الكوايستور** ثم **البرايتور** ثم **القنصل**، وكان **يحكم هذا الترتيب** فى بادئ الأمر **العرف والتقليد**، وظل الأمر على هذا النحو حتى صدر قانون ينظم تولى سلك الوظائف الشرفية عام ١٨٠ ق.م. يُعرف **بقانون فيليوس** *lex Villia amalis* الذى وضع **حدًا أدنى لسن تولى كل منصب** .

وكان الحد الأدنى من العمر لتولى شخص ما القنصلية هو ٤٢ عاماً والحد الأدنى لتولى أدنى المناصب وهو الكوايستورية هو ٢٨ عامأن وكان لابد **من مرور عامين** بين شغل منصب ما والترشح للمنصب الذى يليه **ومرور عشرة أعوام إذا رشح نفسه لذات المنصب** الذى كان يشغله .

من خلال العرض السابق تعرفنا على **كيفية وظروف نشأة كل منصب** من هذه المناصب **حسب الظروف والاحتياجات ، ثم تطور**

صلاحيات كل منها ، **وزيادة أو نقصان أهميتها** مع مرور الوقت ، **وبداية السماح للعامة بالانخراط** - لمن يستطيع منهم- **فى وظائف هذا السلك تباعاً**[١٧] لاسيما بعد صدور قوانين سيكستيوس وليكينيوس عام ٣٦٧، **وهو انخراط محدود جدًا من جانب العامة** إذ ظلت غالبية المناصب الشرفية تراوح مكانها وكانت من نصيب الأشراف. ولعل **من أبرز مميزات هذا النظام لسلك الوظائف الشرفية** هو ذلك **التدرج الفعال** فى ارتقاء هذه المناصب للشاب الطموح إذ **يكتسب خبرة كبيرة فى مجال كل وظيفة** كما أسلفنا أعلاه حتى إذا ما وصل فى نهاية المطاف إلى **القنصلية كان شخصًا متمرسًا فى كافة شئون الحياة الرومانية** ووصل إلى درجة عالية من النضج والخبرة بحيث يتخذ القرارات الصائبة التى تقترن بذلك المنصب الرفيع المهم .

كما أن من بين مميزات هذا النظام أنه يعوّل فى المقام الأول على **الكفاءة والخبرة قبل غيرها** من الاعتبارات - ولا سيما فى الفترة المبكرة بين الجمهورية قبل التوسعات الرومانية خارج إيطاليا - **ولا يتيح إلا هامشاً محدودًا للتكتيكات الانتخابية** فى ظل تنافس الخبرات والكفاءات .

مراجع الفصل الخامس

(1) *Dionysius of Halicarnassus, Roman Antiquities* 7.3–11.

(٢) تيمايوس هو مؤرخ إغريقى ينتمى إلى مدينة " تاورومينيوم" على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة صقلية (حوالى ٣٥٦-٢٦٠ق.م.) وقد هاجر إلى أثينا حوالى عام ٣١٧ ق.م. وبقى هناك على مدى الخمسين عاماً التالية ، وربما عاد إلى صقلية تحت حكم هيرون الثانى ملك سيراكيوز أشهر مدن صقلية (٢٦٩-٢١٦ق.م.). وأهم مؤلفات تيمايوس هو تاريخ جزيرة صقلية فى ثمانية وثلاثين كتاباً عن تاريخ صقلية منذ أقدم العصور حتى عام ٢٦٤ ق.م. (قبل مهاجمة الرومان للقرطاجيين هناك فى بداية الحرب البونية الأولى). ويبدو أن تيمايوس كان أول من كتب تاريخاً مرتباً وفق ترتيب الاحتفالات الأوليمبية (حسب سنوات الأوليمبياد) ، ولا بد أن إراتوسثينيس (العالم الموسوعى وأمين مكتبة الاسكندرية من القرن الثالث ق.م.) قد أخذ هذا المنهج فى التاريخ عن تيمايوس. وقد امتدحه المؤرخ بوليبيوس على هذا الابتكار (التاريخ حسب سنوات الأوليمبياد) ولكنه هاجمه لتزويره المتعمد وجهله فى بعض الأحيان.

(٣) حول نظام القنصلية راجع :

M. Holleaux, 1918;

H.F. Jolowicz and B. Nicholas, Historical Introduction to the Study of Roman Law, 3 *edn.*, (1972) *with bibliography); A. Lippold, Consules* (1963);. *T.R.S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic* (1951–52).

(٤) فى عام ١٥٣ ق.م. أصبحت السنة الرومانية تتكون من إثنى عشر شهراً قمرياً وتبدأ بيناير اما قبل ذلك فكانت تتالف من عشرة أشهر قمرية

من مارس إلى ديسمبر وتتكون من ٣٠٤ يوم مع فجوة زمنية شتوية حين لا تمارس أية أعمال زراعية)

(٥) وهى عبارة عن "حزمة من القضبان" يضمها معاً سير جلدى أحمر اللون ويحملها حراس كبار شاغلى المناصب العليا ممن يتقلدون سلطان الأمبريوم ، وكان يُطلق على هؤلاء الحراس اسم *lictores* . وكان عدد هؤلاء الحراس يتفاوت حسب أهمية صاحب المنصب الرفيع فقد كان عدد حراس الشرف المرافقين لمنصب القنصل هو ١٢ حارساً، ولمنصب البرايتور عدد ٦ حراس ، أما منصب "الديكتاتور" الاستثنائى فى الظروف الطارئة فكان عدد حراس الشرف المصاحبين له هو ٢٤ حارساً يحملون "شارة السلطة العليا *fasces* " وتضم - بالاضافة إلى حزمة القضبان المربوطة بحزام جلدى أحمر - بلطة وسط هذه القضبان مما يرمز إلى السلطة المطلقة للديكتاتور حتى فى إصدار أحكام الإعدام حتى داخل روما، وهو ما لم يكن مسموحاً به لأى موظف آخر .

(٦) عن واجبات القناصل أنظر:

Polybius, History of the World, 6.12.1–9.

" إن القناصل طالما كانوا فى روما ولم يبرحوها على رأس القيادة العليا للفرق - ؤدون واجباتهم فى روما بصفتهم المديرين الرئيسيين لكل الأمور العامة . وكان كافة أصحاب المناصب - باستثناء الترابنة- يخدمون تحت رئاستهم ويطيعون أوامرهم. ويقوم القناصل بتقديم السفراء الأجانب إلى السناتو، فضلاً عن ذلك يعرضون عليه للمناقشة الأمور العاجلة والملحة. أما ما يتعلق بكافة الأمور المرتبطة بالشان العام والتى يتوجب أن تتولاها الجمعية الشعبية (القبلية) فإن من واجب القناصل أن يولوا هذه الأمور عنايتهم وأن يدعوا الجمعيات التشريعية

للانعقـاد وأن يقدمـوا مشـاريع قوانـين وأن يضـعوا المراسـيم الشـعبية (قرارات الجمعية القبلية) موضع التنفيذ

أمـا عـن الاستعدادات للحرب والعمليات العسكرية فى ميدان القتال فـإن للقناصـل سلطة شبه مطلقة. فبوسعهم إصدار أى أمر يرغبون فى تنفـيذه إلى حلفـائهم، وأن يعيـنوا ترابـية عسـكريين . ويقومـوا بتعبـئة الجند ، وأن يختاروا من يرونهم مناسبين. وفضلاً عن ذلك فإن بوسعهم ومـن سـلطتهم فـى مـيدان القـتال أن يعاقبوا من يشاءون ممن هم تحت قـيادتهم. كمـا أن مـن سلطتهم أن يـنفقوا مـن الخـزانة العامة أى مبلغ يقررونه ويرافقهم كوايستور ينفذ على الفور ما يطلبونه منه

- ولـذا فـإن مـن يـنظر إلى هذا الفرع من أفرع الحكم فربما اعتبر — وله ما يبرره — أن الدستور هو دستور ملكى " .

(7) *Michael Grant, History of Rome,* 1978, *pp.* 42,67.

(8) *H.H. Seullard, A History of the Roman Republic from* 753 *to* 146 *B. C., London,* 1935, *p.* 55.

(٩) هـناك مـن يـرى أن الموظفـين الذيـن نقلـوا أعـلى مناصـب السـلطة التنفـيذية مـع بدايـة العصـر الجمهـورى لم يكـن يُطلـق عليـهما فـى أول الأمر لقب "قنصل" وإنما كان لقب كل منهما هو " برايتور" *Praetor* (والإشـتقاق اللفظى لكلمة برايـتور مـأخوذ من *Prae-ire* بمعنى " يسير فـى مقدمـة الصفوف" فى المعركة ، أى القائد) . وأن هذا اللقب الأعلى لم يـتحول مـن "برايـتور" إلى "قنصـل" (ربمـا كانـت مـأخوذة من فعل *consulo* (*ere*) بمعنى يتأمل ، يستشير ، يتشاور ، يطلب النصح أو المشورة مـن أجل الصالح العام) إلا مع الاصلاحات الدستورية التى أدخلتها اللجنة العشرية من أعضاء السناتو حوالى منتصف القرن الخامس ق.م.

هـذه اللجنة العشرية الشهيرة المقصودة هنا هى تلك اللجنة العشرية التى شكله السناتو عام ٤٥١ ق.م. وكلفها بتدوين القوانين الرومانية *Decemviri legibus scribundis* (سنتحدث عن هذه اللجنة لاحقا) وبعيداً عن تدوين القوانين لقد كلفت نفس تلك اللجنة كذلك بإصلاح التقويم الرومانى وإدخال مناصب "القناصل" كأصحاب السلطة العليا ليحل هذا اللقب محل لقب "برايتور" من قبل ، وإعادة تنظيم الإحصاء وإجراءات التقاضى .

أنظر :

M.C. Howatson, The Oxford companion to Classical Literature, Oxford, 1989: *uneler Decemviri, p.* 170; *praetor, p.* 461.

(١٠) راجع :

*F. Cancellik Studi sui ensores,*1957: *J.Suolathi The Roman Censors,* 1963; *H.F. Jolovvicz and B. Nicholas, Historical Introduction to the Study of Roman Lui,* 3 *edn*., 1972.

(١١) أنظر :

T. Livius 40.51.9; *Tabula Heracleensis* 145.

(١٣) فئة الـ *aerarii* (فى صيغة الجمع) هم هؤلاء المواطنون الرومان من أدنى الفئات فى روما الذين ليس لهم حق التصويت وإنما كان عليهم أن يدفعوا مبلغاً من المال للمساهمة فى نفقات الدولة. وقد كان من حق الكنسور أن يعاقب أى مواطن من الفئات أو الطبقات العليا - إذا ما ثبت تورطه فى أمر شائن أو غير أخلاقى - بأن ينزله فى الترتيب الاجتماعى إلى هذه الفئة الوضيعة. وقد ورد هذا الاصطلاح عند ليفيوس فى صورة: *aerarium facere aliquem*- أى "ينزل شخصا ما منزلة متدنية ويلحقه بفئة الـ *aerarii*- وكذلك وردت عند شيشرون

بصيغة *aliquem in aerarios reterri iubere* اى "يامر بجعل شخص ما فى فئة الـ *aerarii*" .

(١٣) اتبع كاتو الأكبر فى تنشئته لأولاده نمط التربية الرومانى المحافظ الذى اعتبره مثالياً. ولنراجع فى هذا الصدد ما ذكره بلوتارخ عن كاتو الأكبر، أنظر :

Plutarch, The Lite of Marcus Cato 20.4 –7:

بعد مولد ابنه رأى كانتو أن ليس هناك أمراً ملحًا (باستثناء أمور الحكم) لدرجة أن يمنعه أن يوجد مع زوجته وهى تقوم بغسل وليدها فى الحمام ولفه بقماط وإرضاعه بنفسها من لبنها هى .

وحين وصل الطفل مرحلة التعلم اضطلع كاتو بنفسه بهذه المسئولية وعلمه القراءة والكتابة رغم أنه كان يمتلك عبدًا نابهاً متعلمًا يدعى خيلون كان يعمل معلمًا وكان يدرس لأطفال كثيرين. ولكن كاتو لم يجد أن من الملائم- كما قال هو بنفسه - أن يقوم عبد بتوجيه الانتقاد إلى ولده أو شد وقرص أذنيه حين يتكاسل فى التعلم أو أن يكون مدينًا بعلمه ثمينة كالتعليم إلى عبد. أقبل ذلك كان كاتو بنفسه هو من علمه القراءة وكان أستاذه فى القانون ومدربه فى الألعاب الرياضية. وقد رباه ليس فقط على رمى الرمح بل كذلك على القتال بالسلاح وركوب الخيل والملاكمة وتحمل القيظ والزمهرير والسباحة بقوة عبر دوامات النهر وتياراته تحت الماء. يقول كاتو أنه كتب مؤلفه (المعنيون "التاريخ ") بحروف كبيرة وبخط يده حتى تتاح الفرصة لابنه فى المنزل أن يألف العادات والتقاليد القديمة لمجتمعه. كما كان حريصا على ان يتجنب اللغة السوقية فى حضرة ابنه تماماً كما لو كان فى حضرة عذارى الربة فيستا " .

(١٤) بعد الهزيمة المدوية التى ألحقها هانيبل بالرومان فى موقعه "كاناى" فى إطار الحرب البونية الثانية أصدر الرومان قانونا عام ٢١٥ق.م. يعرف بقانون أوبيوس lex *Oppia* (وهو احد ترابنة العامة فى ذلك العام) يفرض قيودًا على النساء فيما يتعلق بشراء سلع الزينة والرفاهية من ملابس ومجوهرات لتوفير المال اللازم للحرب ضد ها نيبل ، كما فرض القانون قيودًا على استخدام النساء للعربات التى تجرها الحيول. وبعد بضع سنوات من نهاية الحرب عام ٢٠٢ بانتصار روما على قرطاجة عرض اثنان من ترابنة عام ١٩٥ ق.م. مقترحًا على الجمعية القبلية لإلغاء قانون أوبيوس. ونوقش المقترح مناقشة مستفيضة ومسهبة ومريرة . ولما كان قانون أوبيوس قد ترك أثره المباشر على النساء فمن المتوقع معارضتهن القوية ضده وحماسهن لإلغائه ، وقد فعلن ذلك عمليا إذ تدفقت نساء روما إلى الشوارع والسوق العامة (الفوروم) حيث انعقاد اجتماع العامة! ورغم عدم إمكان النسوة التصويت بأنفسهن إلا أنهن حاولن إقناع الرجال بالتصويت لصالح إلغاء القانون المذكور. وفى نهاية المطاف وافتت الجمعية القبلية على الغاء القانون ، ولكن واحداً من المحافظين التقليديين المتشددين كان فى صفوف المعارضة ضد هذا الإلغاء .

هذا المعارض المتشدد ليوماركوس بوركينوس كاتو أحد القنصلين فى ذلك العام - الذى عبر عن خيبة أمله وامتعاضه من سلوك النسوة الرومان اللاتى جرون على التعبير عن رأيهن فى أمر سياسى وتكتلو - دعمًا له. والفقرة التالية مأخوذة من إحدى خطبه العامة أوردها المؤرخ تيتوس ليفيوس :

T. Λιριυσ 34. 2 1.2,8-11, 14

Apud . jo – Ann Shelton , As the Romans did , A source Book in Roman Social History,New York oxford, 1988, pp. 299–300.

"لو ان كل واحد منها ايها الرفاق المواطنون قد تكفل بأن يحافظ على حق وسلطة الزوج بمناى عن أيدى نساء أسرته لكانت متاعبنا أقل واهون مع جماعات النسوة ولكن ما يحدث الآن فإن حريتنا فى وطننا تطاها النسوة الثائرات ، ولعلنا فى السوق العامة فإنها تسحق وتداس بالأقدام. فنظرا لأننا لم نكن قادرين على السيطرة على كل امرأة على حدة فإن النساء قد تسببن الآن فى إحداث ذعر جماعى لنا .... فى الواقع لقد تعرضت لقدر من الحرج وأنا قادم فى طريقى إلى الفوروم منذ بضع لحظات عبر حشد من النسوة . ولو أننى لم أراعى كرامة كل امرأة وحياءها العام ٠(إذ كان امرًا مخزياً أن يتلقين التقريع من القنصل). لكنت قد قلت لهن :

"ما هذا السلوك من هرولة على الملأ وزحام فى الطرقات وحديث إلى أزواج نساء أخريات؟ ألم يكن بوسعكن أن تتطلبن نفس المطلب من أزواجكن فى منازلكن ؟ أأنتن أكثر إغراءً وإقناعاً على الملأ منه فى بيوتكن. ومع أزواج الأخريات أكثر من أزواجكن؟ ومع ذلك فإنه ليس من الصواب - حتى فى منازلكن (إذا ما كان لديكن شعور بالعيب والعفة لا يخرج بكن عن حدودكن) - أن تشغلن أنفسكن بالقوانين التى تصدر أو تلغى هنا " هذا ما كنت سأقوله .

إن أسلافنا لم يكونوا يريدون للنسوة أن يقمن باداء أى عمل- حتى ولو كان خاصاً - دون أن يكون لهن وصى. لقد أرادوا لهن أن يبقين تحت سيطرة الآباء أو الأخوة أو الأزواج. ولكننا الآن - بحق السماء نسمح لهن بالمشاركة فى السياسة والاختلاط بنا فى الفوروم والحضور أمام الجمعيات التشريعية ...

وللأمانة الشديدة فإن النساء يتمنين الحرية لابل يرون رحصة بالمشاركة فى كافة الأمور، وإذا ما فزن فى هذا الأمر فماذا يمنعهن من المحاولة فى اى أمر آخر ؟ "

وقد استمر كاتو على نفس النهج المتشدد مع النساء طيلة حياته ففى عام ١٦٩ ق. م. تقدم أحد ترابنة العامة ممن يحظون بتأييد ودعم كاتو بمشروع قانون للعرض على الجمعية القبلية يصر فيه على سريان القيود القديمة التى كانت موضوعة على حق المرأة فى الميراث . وذلك كرد فعل للأوضاع الجديدة التى نجمت عن سقوط عدد كبير من رجال الأسر الكبيرة قتلى فى الحروب ومآل ما تركن من إرث إلى نسائهن. ورغم الموافقة على مشروع القانون إلا انه كان من السهل التحايل عليه بتحويل نصيب هؤلاء النسوة من الإرث شكلياً باسم رجال من ذوى قرابتهم وباسم الأوصياء الشكليين عليهم والذين كان يفرضهم القانون عليهم من الناحية النظرية .

أنظر :

M. Grant, History of Rome , 1978 *by Michael Grant Publications* , *pp.* 131–132 .

(١٥) راجع :

D. Sabbatucci, L' edilita rouiana, 954;
L. Grrotalo, II processo edilizio, 1959.

(١٦) كلمة (*curulis - c*)تعنى اساساً ما له علاقة بالعربة(*curtus*) بمعنى - مثلاً - الخيول التى تجر العربة والمحمولة من الخزانة العامة لتمويل سباقات العربات فى مضمار روما الكبير *Circus Maximus*. وهناك تعبير آخر هو *sella curulis* ويعنى الكرسى المطعم بالعاج وهو الكرسى الرسمى

الذى كان يجلس عليه القناصل والبراترة والايديليس من الأشراف فى بداية نشأة وظيفة الإيديل المنتخبة عام ٣٦٧ ق.م.

(١٧) الـ *imagines* (مفردها *imago*) هى أقنعة وجوه من الشمع للرومان الذين تقلدوا مناصب عليا فى السلك الشرفى الرومانى وكانت تعرض بطريقة جلية فى مصر أو دار العائلة ويرفق معها بضعة أسطر توضح نسب الشخصية وما حققته من أوجه الفخار والتميز .

(١٨) كلمة *quaestor* مأخوذة من فعل (3) *quaero* بمعنى يبحث عن- يتحرى عن - ربما بحكم البحث والتحرى والتقصى المستمر من جانب شاغل هذا المنصب فى سجلات نفقات الدولة ومواردها المالية وتعقب كل شاردة وواردة فى هذا الأمر ، وكذلك الحال تحريه عن القضايا التى كانت يُسند إليه الفصل فيها فى مجال اختصاصه .

(١٩) القائمة التالية تبين تاريخ المرة الأولى التى شغل فيها العامة أحد مناصب السلك الشرفى والمناصب العليا الأخرى الاستثنائية والدينية :

٣٦٦ ق. م. أول قنصل من العامة .
٣٥٦ ق. م. أول ديكتاتور من العامة .
٣٣٧ ق. م. أول برايتور من العامة .
٣٠٠ ق. م. أول كاهن أعظم من العامة .

وسبق أن رأينا فى المتن كيف شارك العامة فى منصب الكوايستور عام ٤٢١ق.م. حين أصبح عدد شاغلى هذه الوظيفة أربعة منهم إثنان من العامة ، وفى عام ٣٦٦ فى منصب الايديل المنتخب أصبح يمثل العامة إثنان سنويًا *aediles plebeii* وإثنان من الأشراف *aediles curules*.

انظر القوائم الواردة فى كتاب سكولارد عن أهم تواريخ أحداث التاريخ الرومانى حتى عام ١٣٣ ق. م :

H.H. Scullard, A History of the Roman World, London, 1935, *pp.* 469 - 485.

ب – السلطة التشريعية

رأينا فى الفصل السابق المناصب التنفيذية التي كانت تسيّر دفة الحكم وشئون الحياة اليومية فى أدق تفاصيلها. وتتبعنا فى مقدمة الفصل السابق كيف أن الظروف الجديدة المتمثلة فى سقوط نظام الحكم الملكي فى روما ونشأة الجمهورية قد فتحت الباب على مصراعيه أمام أبناء الطبقة الأرستقراطية من الأشراف للهيمنة شبه الكاملة على مقدرات الحكم بشقيه التنفيذي والتشريعي ردحاً طويلاً من الزمن في الفترة المبكرة من الجمهورية حتى عام ٣٦٧ ق. م.

وإذا ما طبقنا هذا القول على السلطة التشريعية لرأينا المدى الذي وصلت إليه سلطة الأشراف فى صياغة كل ما يتعلق بجوانب الحياة الرومانية فى صورة قوانين تصدر عن المجلس التشريعي الرئيسي القائم "**مجلس السناتوس *Senatus***" [1].

وقد سبق أن رأينا تشكيلة هذا المجلس فى العصر الملكي من شيوخ القبائل وزعماء الأحياء والعشائر من خلصاء الملك ومن رواد مجلسه الاستشاري، وكيف كانت أراؤهم استشارية صرفة وغير ملزمة للملوك بحال. من المنطقي أن نفترض أن هذه **الصفوة الرومانية** من ذوي الخبرة والحنكة والدراية بالشئون العامة قد استمرت فى عضوية ذلك المجلس التشريعي حتى بعد سقوط النظام الملكي، **ولكن مع تغير نوعي هائل فى طبيعة دورهم فى ظل المتغيرات الجديدة**. الآن لم يعد هؤلاء مستشارين لأحد بعينه (إذ سقط الملوك بكل ما كان لهم سلطات وصلاحيات مطلقة) بل صاروا **ولاة الأمر الحقيقيين** فى المجتمع **والمسئولين عن إصدار القوانين الفاعلة الملزمة** التي تنظم حركة المجتمع ومراقبة القائمين على تنفيذها من أصحاب المناصب التنفيذية الذين سبقت الإشارة إليهم. ولكن

الأمر لن يتوقف بطبيعة الحال على هذه الصفوة المخضرمة من شيوخ روما ممن عاصروا اخر الملوك واستمروا يضخون الحيوية فى المجلس التشريعي الرئيسي فى ثوبه الجديد مع الحكم الجمهورى الوليد. كان لابد من التفكير فى آلية منضطبة تتولي ضخ الدماء الجديدة بانتظام فى جسد هذا المجلس حتي لا يصاب بالشيخوخة والترهل، على أن تكون هذه **الدماء الجديدة من ذوي الخبرة والكفاءة المشهودة** التي تناسب مقام هذا المجلس الخطير ومهامه الجسيمة. **وكان المعيار الموضوعي** لهذه الآلية الذي يبتعد بها عن الإنحراف عن هدفها المنشود وهو **أن ينضم إلي عضوية هذا المجلس المهيب من سبق انتخابهم فى أعلي مناصب السلك الشرفي** ليصبحوا **تلقائياً** فى الأغلب أعضاء فى مجلس السناتوس **مدى الحياة** بمجرد انتهاء فترة السنة المحددة للمنصب التنفيذي الأعلى (القنصلية).

ولعل من أقدم القوانين التي وصلتنا والتي تحدثنا عن قواعد الانضمام إلي عضوية مجلس السناتو القانون المسمى"قانون أوفينيوس" *Lex Ovinia* الذى لا نعرف تاريخ صدوره على وجه الدقة وإن كان يرجح أنه صدر فيما بين ٣٣٩- ٣١٨ ق.م. هذا القانون أتاح لشاغلي وظيفة الكنسورية (الرقباء) أن يختاروا من يصلح لعضوية مجلس السناتوس وفقاً لمعايير محددة، وأنه لا يشطب من قائمة عضوية المجلس إلا من يثبت عليه ارتكابه مخالفة جسيمة مخلة ومشينة. وعلى ذلك فإن عضوية المجلس كانت فعلياً مدى الحياة إلا فى هذه الحالات النادرة التي لا يقاس عليها التي تجلب الخزي والعار على أصحابها. ومع أواخر القرن الثالث ق.م. كان يسمح لكبار شاغلي المناصب السابقين بالمشاركة فى جلسات المجلس حتى قبل أن يسجلوا رسمياً كأعضاء فى المجلس. **وبالإضافة إلي مواصفات الخبرة والكفاءة وشغل مناصب عليا** فى الدولة الرومانية كشروط ومعايير تؤهل العضوية السناتوس كان هناك شرط **النصاب المالي للمرشح** والذي يتطلب ملكية عقارية من الأرض تعادل المطلوب

للتاهل لطبقة الفرسان الرومانية وهي ملكية من الأرض تعادل اربعمائة ألف (٤٠٠,٠٠٠) سستركيس روماني. ولم يكن يسمح للعتقاء (من العبيد المحررين) أو أبناء هؤلاء العتقاء بالإنضمام لعضوية المجلس. وفى عام ديكتاتورية الديكتاتور سوللا (٨١ ق.م) رفع سوللا **عدد أعضاء مجلس السناتوس** من العدد التقليدي الذى كان عليه قبله وهو ٣٠٠ عضواً وضاعفه ليصبح ٦٠٠ عضواً وجعل تقلد أول وظائف السلك الشرفي وهي وظيفة الكوايستور مؤهلاً للإنضمام لعضوية المجلس. وحين هيمن يوليوس قيصر على مقاليد الأمور فى روما فى أواخر عصر الجمهورية بعد أن تخلص من منافسيه وعلى رأسهم بومبي الأكبر كافا قيصر أنصاره ومؤيديه فى روما والولايات بان ضمهم لعضوية السناتو حتى أصبح عدد أعضائه عام ٤٥ ق.م. تسعمائة (٩٠٠) عضو.

أما عن **النواحي الإجرائية والتنظيمية للمجلس** من حيث انعقاد جلساته والتصويت على قراراته فقد كان من حق أصحاب المناصب الرفيعة ممن هم فى السلطة ويتمتعون بسلطان " الإمبريوم " أو حق القيادة العليا كالقناصل والبراترة دعوة السناتوس إلي الانعقاد. وكانت الجلسات تعقد فى الفترة ما بين بزوغ الفجر وغروب الشمس، ولكن صدر فى القرن الثاني أو الأول ق.م قانون يدعي *Lex Pupia* يحظر انعقاد جلسات السناتوس فى وقت متزامن مع انعقاد الجمعيات التشريعية الأخرى *Comitia*.

وكان لابد أن تعقد جلسات المجلس فى روما أو على مسافة لا تبعد عن ميل من حدودها وأن تكون فى مكان عام يتسم بالقداسة وكانت أولى جلسات العام تعقد فى معبد جوبيتر الكابيتوليني.

ورغم خصوصية جلسات مجلس السناتوس إلا أن أبواب المجلس كانت تظل مفتوحة. وكانت الجلسة تفتتح ببيان يلقيه رئيس المجلس

او احد كبار المناصب العليا من الحكام (القناصل) يحدد فيه موضوع النقاش، ثم يدلي كل عضو فى المجلس برايه فى الموضوع المطروح (*Sententia*) وذلك **بترتيب مراتبهم العليا** بدءاً من شاغلي وظيفة الكنسورية السابقين *Censorii* ثم القناصل السابقين فالبراترة السابقين وهكذا. وكان اقدم الأشراف من شاغلي وظيفة الكسنورية السابقين هو اول من يعبر عن رايه وأول المتحدثين وكان هو **رئيس المجلس** ***Princeps Senatus***، وبعد إلغاء منصب الكنسور لبعض الوقت خلال ديكتاتورية سوللا اصبح رئيس المجلس هو أحد القناصل العاملين أو احد أعضاء السناتو من القناصل السابقين. وكان كل عضو فى المجلس **يعبر عن رأيه وهو فى مقعده ويتحدث بحرية ودون قيد** خلال العصر الجمهوري، ولكن فى عصر الإمبراطور اغسطس جعل هناك وقتاً محدداً لكل عضو لا يتجاوزه. وبعد طرح الموضوع للنقاش بهذه الطريقة كان **يجري التصويت**، وكان يطلق على القرار الذى يتخذه السناتو إذا ما صوّت بالإيجاب فى موضوع ما اسم **"قرار السناتو *Senatus consultum*"**، واحياناً كان يجري التصويت بعد إلقاء بيان رئيس المجلس مباشرة ودون أن يطرح للنقاش. وكان يتولي **حفظ سجلات الجلسات كويستور المدينة في خزانة الدولة** *aerarium*، وفى عام ٥٩ ق.م أمر يوليوس قيصر بنشر تلك السجلات (سويتونيوس- قيصر-٢٠).

اما عن **مهام مجلس السناتوس** فقد كان دوره الرسمي هو إسداء النصح إلي شاغلي مناصب السلطة التنفيذية. وكانت تلك التوجيهات من قبل السناتو تتضمن كافة امور السياسة الداخلية والخارجية وكذلك امور الميزانية والشئون التدينية. وكانت قرارات السناتوس ملزمة لكافة اعضائه ولأصحاب المناصب التنفيذية الذين سيصبحون اعضاء فى المجلس بعد فترة شغل مناصبهم. وكان من الممكن لهذا المجلس

أن يلغي قرارات سبق اتخاذها من قبل بعد أن يشير إلي عيب وثغرات شابت إجراءات إصدار تلك القرارات.

ومع بدايات القرن الثالث ق.م. ومع توسع الدولة الرومانية وتعقد وتشابك أمورها ومصالحها أصبح للسناتو سلطة وسيطرة أكبر علي شئون الإدارة والحكم. فقد كان هو الهيئة الدائمة الوحيدة ذات المعرفة والدراية والخبرة التي تؤهله **للإشراف على سياسات الدولة فى عدد كبير من المجالات**. فقد كان هو المتحكم فى ميزانية الدولة، وفى إعلان تعبئة القوات العسكرية والتصرف فيها، وفى تحديد مهام واختصاصات شاغلي المناصب العليا فى الولايات وفى العلاقات مع الدول والقوى الأجنبية، والحفاظ على القانون والنظام فى روما وإيطاليا. كما كان من شأن السناتو تحديد فترة تمتع شاغلي المناصب العليا بسلطان الإمبريوم بعد انتهاء فترة السنة المحددة للمنصب *Prorogatio imperii*. ورغم أن أموراً مثل **إعلان الحرب والتصديق على المعاهدات** كان القول الفصل فيها لجمعية تشريعية أخرى هى **الجمعية المئوية** إلا أنه من الواضح أنه بحلول نهاية القرن الثالث ق.م على الأقل كانت تلك الجمعية **تعطي موافقة شكلية رسمية** لقرارات اتخذها السناتو من قبل. كما السناتو يشرف على الحياة الدينية للمجتمع وكانت الهيئات الكهنوتية تتألف بدرجة كبيرة من أعضاء فى مجلس السناتو، كما كان السناتو يتلقي التقارير عن الأعاجيب والمعجزات ويتدبر كيف يتصرف حيالها، ولذلك كان يصدر أوامره بخصوص أداء طقوس واحتفالات دينية خاصة ويفصل فى أمر الاعتراف بديانات وعقائد جديدة.

كما لا ننسى أنه فى الملمات والطوارئ العصيبة كان السناتو يتخذ قراره المصيري الأخير بتعيين "الديكتاتور" كما سبق إن رأينا.

ب- الجمعيات التشريعية الأخرى *Comitia* [٢]

كانت كلمة *comitia* اللاتينية تعني بالنسبة للرومان مكان الاجتماع وصيغة الجمع من هذه الكلمة *comitia* (ومفردها *Comitium*) تعني جمعية يُدعى لحضورها أبناء الشعب الروماني في صورة جماعات وتوجه الدعوة إلي الاجتماع من قبل أحد أعضاء السلطة الحاكمة (من السلك التنفيذي) ممن لهم رسميا حق الدعوة إلي الاجتماع *ius agendi cum populo* . ويجب توجيه الدعوة في يوم ملائم من الأيام المخصصة للتجمع *dies comitialis* بعد معرفة ذلك من خلال الكهانة. ويتم الاجتماع في موقع افتتح لهذا الغرض. وفي تلك الجمعيات كانت **الأغلبية داخل كل جماعة** هي التي **تحسم الصوت** الخاص بتلك الجماعة بالقبول أو بالرفض. وكانت هذه الجمعيات تقوم فقط **بالتصويت على مقترحات مقدمة** إليها من كبار شاغلي المناصب، ولم يكن بوسع هذه الجمعيات إدخال تعديلات على هذه المقترحات.

وكانت هذه الجمعيات تنقسم إلي ثلاثة أنواع هي "جمعية الأحياء *curiata comitia*، والجمعية المئوية *centuriata comitia*، والجمعية القبلية *comitia tributa*" وكانت وحدة التصويت فيها هي على الترتيب الحي *curia* والمائة *centuria*، والقبيلة *tribus*.

وكانت قرارات هذه الجمعيات **تخضع للتصديق الرسمي** من جانب **أعضاء السناتو** الأشراف حتى تصبح قوانين. ولنقدم الآن نبذة مختصرة عن كل جمعية من هذه الجمعيات:

(١) جمعية الأحياء *comitia curiata*

هى أقدم أشكال الجمعيات الرومانية ويرجع تاريخها إلي العصر الملكي وقد تحولت صلاحياتها ومهامها بالتدريج إلي الجمعية المئوية رغم أنها استمرت **طيلة العصر الجمهوري تعطي الشكل الرسمي لتعيين كبار موظفي السلطة التنفيذية** من قناصل وبراترة بمنحهم سلطان "الإمبريوم" بمقتضى قانون يُعرف بـ *lex curiata de imperio*. كما كانت هذه الجمعية **تشهد تعيين الكهنة** وتشهد كذلك حالات **التبني والوصايا** ربما تحت رئاسة الكاهن الأعظم.

(٢) الجمعية المئوية *Comitia centuriata*:

كانت هذه الجمعية **ذات نظام تيموقراطي** (قائم على أساس الثروة) وجرى العرف على إسناد نشأتها إلي عصر الملك سيرفيوس توليوس. ولكن هناك اتفاقاً على أن نظام الطبقات الخمسة حسب مقدار الثروة وهو ذلك النظام المعقد الذى وصفه كل من ليفيوس وديونيسيوس الهاليكارناسى *Livy* 1.43; *Dion. Hal. Ant. Rom.* 4.16-18) لا يمكن أن يعود إلي العصر الملكي؛ ربما كانت بداياته وإرهاصاته فقط قد بدأت مع العصر الملكي.

ولكى نتحدث عن النظام المئوي لتلك الجمعية علينا أن ننوه إلي **أصول وكيفية نشأة هذه الجمعية والطابع العسكري** الذى بدأت به هذه الجمعية واتسمت به أغلب الوقت. إذ يُعزي إلي الملك سرفيوس توليوس إنجاز إصلاح عسكري الأصل اكتسب صفة سياسية فى خلال تطوره واصبحت له آثار بعيدة المدى فى المجتمع الروماني. تمثل هذا الإصلاح فى أنه احل نظاماً جديداً - كما يُروى- محل نظام القبائل والأحياء، هذا

النظام الجديد كان عبارة عن إجراء إحصاء للناس (الشعب الروماني) وإعادة تصنيفهم على أساس الثروة والعمر لمجابهة الاحتياجات العسكرية المتزايدة فى عصره. ومن رحم هذا النظام الجديد تمخضت جمعية سياسية جديدة ظلت تسحب البساط تدريجيا من "جمعية الأحياء" القديمة.

هذا الإصلاح الجديد الذى ترجع دعائمه الأولي إلي العصر الملكي **تطور فى دقائقه وتفاصيله عبر العصر الجمهوري المبكر** حتى تبلور على مدى القرن الخامس وأوائل الرابع ق.م. ولتبسيط الهدف من هذا النظام نقول أن الرومان **لم يكن لديهم جيش نظامي** تابع للدولة، وإنما كانوا يعتمدون فى خوض حروبهم الدفاعية أو الهجومية على **نظام تعبئة المواطنين** القادرين على حمل السلاح وقت الحاجة. ومن جهة أخرى **لم تكن الدولة الرومانية تسلح هؤلاء الشباب الذين تقوم بتعبئتهم** بل عليهم أن **يسلحوا أنفسهم ذاتياً**، أي أن يقوموا بتلبية نداء الواجب وقت الحاجة وهم على أهبة الاستعداد. هذا الوضع تطلب وضع آلية منظمة واضحة من خلال **نظام الإحصاء** هذا الذي تظهر فى بياناته الإحصائية **ثروة الأفراد وملكياتهم العقارية والمنقولة** وأعمارهم، وعليه يتم **تصنيف المواطنين الرومان على أساس الثروة** وليس التصنيف الاجتماعي كاشراف وعامة. وبناءً على ذلك أصبحت الدولة وكذلك المواطنون على دراية بالمستوي الاقتصادي لكل فرد وبالتالي مستوي التسليح الذي يمكن أن يُسلح نفسه به حسب درجة ثروته.

وعلى هذا الأساس تم تقسيم المواطنين إلي فئة عليا من القادة من ذوى المناصب التنفيذية الرفيعة ومن بعدهم على مستوى الجيش العامل فئة الفرسان أو من يستطيعون تسليح أنفسهم بتسليح الفرسان ثم يأتي من بعد ذلك خمس فئات من المشاة تتفاوت فى درجة تسليحها من أعلى

إلى أدنى من مشاة ثقيلة فأخف حتى نصل إلى أدنى مستوي في الفئة الخامسة. ويعتمد هذا بطبيعة الحال على مقدار ثروة الفرد ومدى قدرته المادية على أي نوع من التسليح. وبعد حصر عدد الأفراد المؤهلين (من حيث مستوي الثروة) لكل فئة بين الفئات المذكورة في الفرسان والمشاة كانت كل فئة تقسم إلى عدد من المئات (أي أن المائة كانت هي الوحدة الحسابية في هذا النظام). وينبغي التنويه إلى أن هذا النظام الإحصائي (حسب ثروة وملكية المواطنين) كان يسير جنباً إلى جنب مع تقسيم المجتمع إلى قبائل وعشائر (أحياء) آخذة في الزيادة، وكان كل منهما يؤدي غرضا معينا.

من هذا التقسيم انبثقت جمعية عسكرية الطابع (في بادئ الأمر كانت عسكرية صرفة) تبلور تشكيلها في العصر الجمهوري المبكر ليستقر على النحو التالي:

(١) ١٨ مائة من الفرسان

(٢) أما المشاة فقد انقسمت إلى خمس فئات حسب درجة تسليحها من الأثقل إلى الأخف كما ذكرنا.

وكانت الفئة الأولى من المشاة الثقيلة تتألف من (٨٠) ثمانين مائة، أما الفئات الثانية والثالثة والرابعة التي تتدرج في تسليحها من أثقل إلى أخف فكانت كل فئة تتكون من (٢٠) عشرين مائة. أي (٦٠) ستين مائة للفئات الثلاثة، ثم تأتي الفئة الخامسة الأخف تسليحاً وعددها ٢٨ مائة (ثمان وعشرون مائة).

وهكذا يصبح عدد مئات الفرسان في الجمعية ١٨ مائة، وعدد مئات المشاة بمختلف درجات تسليحها ١٦٨ مائة فيصبح المجموع ١٨٦ يضاف إليها بضع مئات (٧ مئات) تمثل من يقومون بالخدمات للجيش العامل (٤

مـئات) من نجارين وحدادين وطهاة وموسيقيين وغيرهم، ومئتان (٢ مائة احتياطي قتلي وجرحي)، و(١) مائة تمثل المواطنين المعدمين ممن لا يملكون من متاع الدنيا أي شئ ولم يكونوا يقدمون للدولة سوى ما ينجبون من أبناء *proles* ولذلك تطلق على هذه الطبقة من المعدمين فى اللاتينية "بروليتاريي *proletarii*". وكانت هذه المئات السبعة التي تقوم بالخدمات للجيش لا تملك نصاب الثروة الأدنى الذي يؤهلها للإنضمام لأدنى فئات المشاة (الفئة الخامسة) وكذلك كانت تسجل "بالرأس *capite censi*"، وإن كانت مائة البروليتاريا المعدمة أدناها قاطبة.

ولابد أن ننوه أن فئات المشاة كانت تنقسم فى كل فئة منها إلي نصفين: نصف من "الشباب *iuniores*" تتراوح أعمارهم بين ١٧ - ٤٦ عاماً والنصف الآخر من "الكبار *seniores*" وتتراوح أعمارهم بين ٤٧- ٦٠ عاماً

بعد أن رأينا تشكيلة الجمعية المئوية على النحو السابق ندرك أنها لم تكن تضم كل المواطنين الرومان الذكور القادرين على حمل السلاح وإنما كانت **أعداد المئات فى كل فئة تمثل بقية أبناء تلك الفئة**، والأرجح أن هذا **التمثيل كان يتم بالتناوب** ربما كل عام. وندرك كذلك أن هذه **الأعداد لكل فئة** تعبر بوضوح عن **رغبة وحاجة الدولة فى هذا الصدد** فالدولة فى ظل ظروف الحروب والصراعات تكون حاجتها أكثر الحاحاً فى هذه الجمعية ذات الطابع العسكري إلي **مواطنين من الأثرياء** ممن يكون بوسعهم تسليح **أنفسهم تسليحاً ملائماً لمقتضيات المعارك من فرسان ومشاة ثقيلة** فى حين تقل حاجتها إلي أعداد المشاة الخفيفة من المواطنين ذوي الثروات المحدودة أو الفقراء والمعدمين. لذلك جاء **تمثيل الأثرياء** (من الأشراف فى الأغلب ومن أثرياء العامة وكبار تجارهم) فى هذه الجمعية **كثيفاً يجاوز نصف عدد أصوات هذه الجمعية** (٩٨ مائة من الفرسان والفئة الأولي من المشاة من أصل ١٩٣ مائة كما

رايـنا) فى حين جاء **تمثيل بقية للواطنين** الأقل ثراءً- وهم بلا شك الكثرة الغالبة - **خفيفاً وغير متوازن أو متناسب** مع أعدادهم.

وإذا ما تأملنا **طريقة التصويت** على قرارات الجمعية المئوية لأتضح لـنا بجـلاء **الطـابع الطـبقي لهـذه الجمعـية** الـتي كـان **القـول الفصـل فـيها للأثـرياء وأغلـبهم مـن الأشـراف**. ذلـك أن الموافقـة على مقترح مقدم كانت تتطلـب الحصـول عـلى **الأغلبـية المطلقة من الأصوات (٥٠٪ + صوت واحد)** أي ٩٧ صـوت عـلى الأقـل من الـ ١٩٣ صوتاً (كل مائة تمثل صوتاً). وكان **التصـويت يـتم تنازلـياً مـن أعـلى إلـي أدنـي** أي يبدء بالفرسان ثم ينزل إلي الفـئة الأولـي من المشاة ثم الثانية فالثالثة وهلم جرا حتى يتم الوصول إلي النسبة المذكورة من الأصوات (٩٧ صوتاً) وهنا تكون قد تمت الموافقة على المقـترح وتحـول إلـي قـرار ويـتوقف التصويت بمجرد الوصول إلي هذا العدد مـن الأصوات. فإذا استمر التصويت حتى النهاية أي بعد الفئة الخامسة من المشاة وحتى مئات الخدمات السبعة حتى مائة المعدمين ولم تتحقق النسبة المطلوبـة مـن الأصـوات فإن هذا يعني سقوط الاقتراح ورفضه لعدم حصوله على موافقة بالنسبة المطلوبة.

معـنى هـذا بوضـوح أن **كـتلة التصـويت الضـخمة مـن الأشـراف والأثـرياء الـتى كانـت تصـوت أولاً كانـت كفـيلة وحدهـا (٩٨ صـوت) بإنجاح أو إفشال أي مقـترح إذا ما اجتمعت رغبتهم أو إرادتهم أو مصلحتهم عـلى ذلـك دون الحاجـة إلـي إكمـال التصويت وبغير أدنى عناء**. وكانت المائـة كوحدة تصويت تحتسب الموافقة فيها بالأغلبية المطلقة فإن وافقت الأغلبـية داخـل المائـة عـلى المقـترح احتسبت موافقة والعكس. أما عن **المهام المنوطة بالجمعـية المـئوية** فكـان مـن أولهـا وأقدمهـا إعـلان الحـرب وإبـرام اتفاقـيات السـلام أو الهدنـة. وكان من بين مهامها الخطيرة انتخاب أصحاب المناصـب التنفـيذية العليا (القناصـل والـبراترة والكنسـور) ثـم فـى مـرحلة

لاحقة قبول حق الاستئناف من المواطنين الذين صدرت ضدهم أحكام بالإعدام وتوقيع عقوبة الإعدام على من يُرفض طعنه واستئنافه من بينهم، أو على الأقل على من تثبت عليهم إتهامات سياسية.

أما **عند مكان انعقاد الجمعية المئوية** فقد كان خارج الحدود المقدسة لروما (*pomerium*) في ساحة الإله مارس *Campus Martius* وبنظام يغلب عليه الطابع العسكري إذ كانت تنعقد عقب إطلاق النفير وترتفع أثناء انعقاد جلساتها الرايات الحمراء على منطقتي *Arx* أركس و *Janiculum* جانيكولوم وهي الرايات التي كانت تنذر باقتراب الأعداء وتصاعد الخطر. ومن الواضح أن الأعضاء العاملين في وحدات الجمعية المئوية (المئات) الذين كان يقع عليهم الدور في التناوب في عام ما ربما كانوا يشكلون على الأرجح أساس الجيش الروماني في ذلك العام. ولكن يبدو أن هذا النظام قد طبق لبعض الوقت إذ أنه اعتباراً من عام ٤٠٠ ق.م. تقريبا يبدو أن الجيش العامل في الميدان لم يكن بالضرورة من بين المئات (الوحدات) صاحبة الحق في التصويت في الجمعية المئوية.

(٣) الجمعية القبلية *Comitia plebis tributa*:

رأينا من العرض السابق للجمعيات التشريعية ومجلس السناتو أن تلك الهيئات التشريعية كانت خاضعة بصورة شبه كاملة لسلطان ونفوذ الأشراف والأثرياء. أما السواد الأعظم والأغلبية الساحقة من عامة الرومان *plebs* **فلم يكن لهم من تمثيل يُذكر** في تلك الهيئات باستثناء ذلك **التمثيل الإسمي في الفئات المتدنية من المشاة في الجمعية المئوية**، وهؤلاء **كان التصويت الفعلي يتجاوزهم في أغلب الأحيان** حيث كان للأشراف والأثرياء نصيب الأسد من الأصوات ومن التصويت المبكر الذي يحسم الأمور مبكراً لصالحهم كما أسلفنا بحيث تصبح أصوات الطبقة

المتوسطة وما دونها فى تلك الجمعية لا قيمة لها. وهكذا وجدت **أغلبية العامة نفسها مهمشةً تماماً** فى الهيئات التشريعية بصورة لا تقل عن وضعهم بالنسبة للوظائف التنفيذية. وكان لابد من متنفس لما تضيق به صدورهم ويعتمل فى نفوسهم بسبب تجاهلهم رغم أهميتهم القصوى فى تسيير أمور الدولة وتجشم عبء اقتصاد الدولة فى معظم أركانه. **لذلك لجأ هؤلاء العامة إلي عقد اجتماعات** تضمهم يطلق عليهم إصطلاحاً *concilium plebis* أي **"اجتماع العامة"**. هذه الاجتماعات كانت تضم أعضاء القبائل من أبناء العامة دون الأشراف وتناقش أمور العامة وتعبر عن همومهم ومشاكلهم. وتصدر عن هذه الاجتماعات غير الرسمية (لم تكن هذه الاجتماعات رسمية. ولذلك لم تأخذ اصطلاح *comitia* أي "جمعية" فى أول الأمر) قرارات يُطلق عليها "قرارات العامة" أو*Plebi scita* لم تكن تحظى بطبيعة الحال باعتراف الدولة، وإن كانت ملزمة أدبياً (وليس رسمياً) لجماعة العامة الذين أصدروها.

وسوف تتوالى مكاسب العامة فى صراعهم الطويل المدى مع الأشراف على مدى قرنين وفيه سيتحول اجتماع العامة- كما سنرى فى الفصل التالى- إلي جمعية يُطلق عليها "الجمعية القبلية" فى حوالي منتصف القرن الخامس ق.م. ويتولي رئاستها ترابنة (نقباء) العامة، وسيتحول جزء من قراراتها إلي قوانين بعد موافقة مجلس السناتو عليه، واخيراً سوف تصبح جمعية تشريعية كاملة الأهلية تصدر القوانين بدون وصاية من مجلس السناتو بل على قدم المساواة معه.

لنتابع التفاصيل حول هذه التطورات فى الصفحات التالية.

المراجـع

(1) *M. Bonnefond- Coudry, Le sénat de la république romaine,* 1989; *T. P. Wiseman, New Men in the Roman Senate,* 1971.

(2) *A. H. Greenidge, Roman Public Life,* 1901; *G. W. Botsford, Roman Assemblies,* 1909; *L. R. Taylor, Roman Voting Assemblies,* 1966; *E. S. Staveley, Greek and Roman Voting and Elections,* 1972; *C. Nicolet, The World of The Citizen in Republican Rome* (1980; *French Origin* 1976).

٢- مراحل الصراع بين العامة والأشراف

حتى عام ٢٨٧ ق.م

رأينا فى سياق الحديث عن نظام الحكم فى روما فى العصر الجمهوري المبكر بشقيه التنفيذي والتشريعي الوضع المتميز لطبقة الأشراف وهيمنتها شبه المطلقة على مقدرات الحياة الرومانية فى أغلب نواحيها مع وضع متدنى للعامة الذين يمثلون السواد الأعظم من مواطني روما الأحرار الدين كانوا يضطلعون بإعاشة المدينة بكافة فئاتها حيث يقع على عاتقهم عبء الزراعة والصناعات والحرف والتجارة.

لكن رغم هذه الهوة والفجوة بين "الأشراف" و"العامة" على مستوي المناصب والسلطة والتشريع وكذلك على مستوى درجة اليسر والثراء لصالح الأشراف بطبيعة الحال إلا ان عرفاً ونمطاً اجتماعياً ساد فى روما لعدة قرون حال دون وصول الوضع لدرجة الانفجار وكبح جماحه نسبياً. هذا النمط الاجتماعي الروماني المتغلغل الذى أعنيه هو نظام أقرب إلى "التبعية *Clientela*" وفيه يقوم السادة من الأشراف من ذوي النفود بدور "الرعاة *patroni*" للبسطاء من العامة من الأحرار الذين يرتضون أن يقوموا بدور "الأتباع *clientes*" لهؤلاء السادة الرعاة الذين يتولون حمايتهم والعطف عليهم. وفى ظل هذا الوضع كان المواطن الروماني البسيط يضع نفسه تحت رعاية أحد الأشراف ويصبح أحد أتباعه، وكان على المواطن التابع أن يبدي الاحترام الواجب لراعيه بأن يقوم بأداء التحية له فى الصباح ومرافقته فى الطرقات وتقديم العون السياسي بالتصويت لصالحه. وفى المقابل كان "التابع" يتلقي من راعيه منحة يومية من الطعام أو النقود *sportula* كما كان يتلقي منه الحماية(١). وقد اعترفت قوانين الألواح الإثني عشرة (انظر لاحقاً) بعلاقة "التبعية" واعتبرتها

مُلزمة من الناحية الدينية والأدبية على الأقل وتقوم على الإخلاص وحسن النية *Fides* المتبادل والاحترام المقترن بأداء الواجب *Pietas* من جانب التابع لراعية كما يؤديه لوالديه وللوطن والآلهة. وكان أحد قوانين الألواح الأثني عشر من منتصف القرن الخامس ق.م. يلعن ذلك الراعي الذى يتصرف تصرفاً فيه غش واحتيال نحو تابعه.

وكان **الأشراف** يشكلون **أقل من عشر مجموع مواطني روما** وربما لم يكونوا يزيدون عن $\frac{1}{14}$ من مجموع المواطنين. وربما **أرضى نظام "التبعية *clientla*"** العامة إلي حد ما بسبب التزام سادتهم بتقديم العون لهم انطلاقاً من التزامات أخلاقية لا تلين. ولكن ينبغي أن نذكر أنه إذا كان كل "الأتباع" كانوا من العامة فإن العامة لم يكونوا جميعاً من الأتباع وان قدراً منهم لم يكونوا اتباعاً لأحد. كما ينبغي أن نتذكر أن غاية ما كان بوسع أحد الرعاة تقديمه لأتباعه **لم يكن كافياً ليحول دون التذمر والسخط من جانب الأتباع** فى بعض الأحيان. وكان استبعاد العامة- ولا سيما الأثرياء والميسورين منهم - من سلك الوظائف الشرفية وعضوية مجلس السناتوس أحد أسباب تذمر وسخط الفئة الثرية منهم، وكانوا هم من يقود حركات الاحتجاج من جانب العامة. ولكن إذا كان هذا الأمر يسبب إحباطاً للمرموقين من أبناء العامة وهم شريحة صغيرة **فإن الغالبية الساحقة من أبناء العامة لم يكونوا يطمحون فى أكثر من حماية أنفسهم وذويهم من التجاوزات والغطرسة** وسوء استغلال السلطة من قبل بعض الأشراف[٢].

وكان من **أبرز المشكلات التي يعاني منها فقراء العامة** فى حياتهم اليومية **نصيبهم المتواضع من "الأرض الزراعية العامة *ager publicus*** (سنتحدث عنها لاحقاً)، وهو ما انعكس سلباً على مستوي دخلهم ومعيشتهم وجعلهم فى حالة عوز وضيق. فقد نال الأشراف نصيب الأسد

من تلك الأراضي كماً ونوعاً ولم يكن يتبقى للعامة سوى فتات المائدة. هذا الوضع الاقتصادي المتردى للعامة جعل كثيراً منهم يرزحون تحت **وطأة الديون** للسادة الأشراف فى الأغلب، مع ما يترتب عليها من **فوائد مركبة** قد تضاعف مبلغ الدين أحياناً وعجز عن السداد. فى هذه الحالة يدخل المدين فى اتفاق رسمي مع الدائن يتنازل بمقتضاه عن حريته الشخصية لبعض الوقت ليصبح طوع أمر الدائن ويكون فى خدمته ويتولى زراعة أرضه كأحد الأقنان حتي يسدد مبلغ الدين من خلال أداء الخدمات للدائن بغير أجر لفترة يحددها الطرفان وتعادل مبلغ الدين، مثل هذا الاتفاق الذي يسقط حرية المواطن لبعض الوقت ويجعله فى وضع أشبه بالأقنان وكان يطلق عليه اصطلاحاً *nexum*. ربما كان ذلك فى حالة مبالغ الدين البسيطة أو المتوسطة أما إن كان الدين كبيراً ولم يكن هناك ضمان للسداد يُصادر أو يُرهن وعجز المدين عن السداد كليةً فقد كان يصدر حكم قضائي بتحويل هذا المواطن الحر إلي عبد عند دائنيه *liberum corpus in servitutem addicere* ويُطلق على المدين المستعبد فى هذه الحالة اصطلاح قانوني هو *addictus* (مُستعبد أو مُسترق بحكم قضائي)، وربما وصل الأمر إلي قتله لو كان مديناً لأكثر من دائن. ورغم أن مثل هذا الوضع كان قليل الحدوث إلا أنه يشير إلي مدى وطأة عبء الديون على المدينين من العامة والأوضاع المأساوية التي تنجم عنه أحياناً. كما كان يحدث أحياناً نقص حاد فى الطعام يؤدي إلي **حدوث مجاعات**، ومن هذه المجاعات ما كان خطيراً وأدى إلي تدخل السلطة الحاكمة الرومانية لاستيراد الحبوب للسوق المحلية، ومن أمثلة ذلك **مجاعة عام ٤٩٢** التى جعلت الحكومة تستورد قمحاً **من كوماى فى إقليم كامبانيا ومجاعة عام ٤٨٨ ق.م.** حين تم استيراد قمح من **صقلية**، وكذلك عام ٤٤٠/ ٤٣٩ق.م. حين قام أحد أثرياء العامة ويُدعى **سبوريوس**

مايليوس بتوزيع القمح على العامة ولكنه قتل بعدها حين ثارت شكوك بطموحه فى الاستيلاء على الحكم على غرار الطغاة[٣].

هكذا كان العامة بلا سند أو نصير فى مواجهة ظروف صعبة اقتصادياً واجتماعياً، ولم يكن عطف بعض الأشراف على بعض العامة فى نظام "التبعية *clientla*" المشار إليه آنفاً كافياً لحل مشاكل العامة كما لم يكن كريماً من الناحية الإنسانية، وفى الواقع لم يكن عطفاً إنسانياً بل مصالح متبادلة بين الطرفين. كان الوضع على هذه الشاكلة مختلاً والهرم مقلوباً إذ تتحكم فى فئة قليلة من الأشراف فى السلطة والثروة لا لشئ إلا بحكم انتسابها إلي العائلات العريقة *gentes* فى حين يعيش على هامش الحياة الرومانية اغلبية العامة *plebs* رغم دورهم المؤثر والفعال وسعيهم المضني وراء الرزق لا لذنب جنوه إلا لأن حظوظهم لم تتح لهم أن يكونوا من العائلات الشريفة. أمام هذا الوضع غير المتوازن وجد العامة- على اختلاف فئاتهم - أنفسهم مدفوعين دفعاً **لمحاولة تغيير تلك المعادلة** والحصول على بعض الحقوق والمكتسبات، وكان لكل فئة منهم دوافعها وحساباتها. **فالأثرياء يبغون الوصول إلي السلطة ومشاركة الأشراف فيها، والبسطاء** يهدفون إلي **الحفاظ على كرامتهم وآدميتهم** أمام تعسف بعض الأشراف. هذه المحاولة من أجل تغيير الوضع القائم لم تتخذ شكل ثورة عارمة مفاجئة تقلب الموازين بل اتخذت صورة **صراع طويل المدى على عدة مراحل** استغرقت **قرابة قرنين من الزمان**. وكانت كل مرحلة تتسم بسمات معينة وتكتسب طابع الفترة التي وقعت فيها، وكانت تلك المراحل سلسلة متصلة الحلقات كل منها تؤدي إلي ما بعدها. وكلما حقق العامة مكسباً فى إحدي المراحل كان ذلك دافعاً لهم لتحقيق المزيد، وبطبيعة الحال قاوم الأشراف هذه المحاولات من أجل التغيير ما وسعتهم المقاومة لكنهم كانوا يضطرون للرضوخ أمام ضغوط العامة فى أحيان

كثيرة حين يخشون من حدوث تصدع فى المجتمع لا تحمد عقباه إن هم استمروا فى الرفض.

على اية حال سنرصد فى الصفحات التالية سمات وظروف واحداث كل مرحلة من تلك المراحل فى ذلك الصراع الطويل المدى ونرى ما تمخض عنه من نتائج فى أوضاع المجتمع الروماني.

(١) المرحلة الأولي: اجتماع العامة *Concilium Plebis*

واتخاب ترابنة العامة *Tribuni Plebis*

حين ضاق العامة ذرعاً فى بدايات الجمهورية بالأوضاع سالفة الذكر التي كانت تؤرق مضجعهم وتنغص عيشهم وجدوا أن خير سبيل لمقاومة تلك التجاوزات والمظالم من جانب الأشراف هو الانسحاب من روما وتركها لهؤلاء الأشراف والبحث لهم (للعامة) عن مكان آخر يكونون فيه بمنأى عن ظلم الأشراف. وكانت **أول تجربة انسحاب** *Secessio* [٤] للعامة من روما عام ٤٩٤ ق.م. حين رفض العامة اثر عودتهم من إحدي الحملات العسكرية دخول روما واتجهوا إلي تل الأفنتين- الذى كان آنذاك خارج حدود روما وكان ضمن منطقة يرتادها التجار الإغريق ذوي الأفكار الديمقراطية- واعتصموا به رافضين العودة إلي روما. لكن أحد الأشراف ويُدعى **مينينيوس أجريبا لاناتوس** اقنعهم بالعودة إلي روما حين ضرب لهم مثل "البطن والأطراف" ليدلل لهم على مدى أهمية وحيوية دورهم فى الدولة الرومانية.

وقد عاد العامة إلي روما بعد أن توصلوا إلي اتفاق مقدس *lex sacrata* مع الأشراف ضمن لهم بعض التخفيف من معاناتهم الاقتصادية وقدراً من اليسر كما ضمن لهم تعيين اثنين من العامة كنقباء أو ترابنة

للعامة *Tribuni plebis* للدفاع عن مصالح العامة. ويرفض كثير من المؤرخين هذه الرواية المصدرية ويعتبرونها مجرد إشارة إلي قدم منصب التريبون فى الحياة السياسية الرومانية، وإن كان بعضهم يرون فيها ظلاً من الحقيقة يتمثل فى لجوء العامة إلي وسيلة اعتزال روما والانسحاب منها للضغط علي الأشراف لتحقيق مطالبهم. لكن الثابت على اي حال هو انه لم يحدث اتفاق أو تعاقد رسمي بين الطرفين عام ٤٩٤ ق.م. وأن التفاهم الذى حدث بينهما- إن كان ذلك قد حدث- كان ودياً وليس رسمياً. ربما كان ما حدث هو أن العامة قد اعلنوا حقوقهم وعينوا ممثليهم من جانب واحد واقسموا يميناً على ان يبطشوا بمن يتعرض لممثليهم باي اذى، وأن اي انتهاك لمثل هذه الحقوق قد يسفر عنه أعمال عنف.

هذه الخطوة المبكرة من جانب العامة قوت ساعدهم ومنحتهم قدراً من الثقة فى انفسهم ولكن شيئاً ملموساً ورسمياً لم يتحقق لهم بعد وأن تحسن الحال قليلاً. ولكن يبدو أن العامة كانوا قد بدأوا يتكاتفون ويجتمعون من حين لآخر بصفة غير رسمية. ومن الجدير بالذكر أن العامة فى روما كانوا يتعبدون للربة كيريس *Ceres* ربة الأرض والخصوبة عند الرومان فى معبدها الرئيسي فى روما على تل الأفنتين (تشبه بالربة ديميتر عند اليونان)، وكان معبد كيريس يضم ثالوثاً من الآلهة المفضلة عند عامة الرومان يتالف من كيريس *Ceres*[(٥)] و *Liber Pater*[(٦)] رب الخصوبة (للنبات والإنسان) وكذلك رب النبيذ عند الرومان (يماثل ديونيسوس عند اليونان) والربة *Libra* ربة الخصوبة. وكان معبد كيريس الذى يضم هذا الثالوث مركزاً عظيماً للطقوس والعبادة والتجمع لعامة الرومان وأقيم عام ٤٩٣ ق.م.

بعد مُضي ما يزيد على عشرين عاماً من الخطوة الأولي عام ٤٩٤ وبالتحديد **فى عام ٤٧١ ق.م.** واصل العامة ضغطهم على الأشراف لانتزاع

مزيد من الحقوق والمكتسبات من بين براثن العامة بحيث تكون هذه المرة انجازاً ملموساً ورسمياً. **وتحت وطأة هذا الضغط** اجّبرت سلطات الدولة الرومانية من الأشراف على **الرضوخ لمطالب العامة** ووافقت على انعقاد **اجتماع دوري للعامة** يُطلق عليه **"اجتماع العامة *concilium plebis*"** يقتصر على أبناء العامة دون سواهم يتداولون فيه أمورهم وقضاياهم ولكن دون أن تصدر عن هذا الاجتماع أية قرارات رسمية ملزمة لجهات الدولة. كما سُمح لهذا الاجتماع للعامة بأن **يختار سنوياً أربعة (٤) ممثلين عن العامة هم "ترابنة (نقباء) العامة"**[٧]. ويقوم هؤلاء الترابنة بدعوة هذا الاجتماع إلي الانعقاد كلما اقتضى الأمر، ويترأس هؤلاء الترابنة "اجتماعات العامة" تلك، ويطرحون مقترحات أو قضايا للمناقشة وما يتوصلون إليه من اتفاق حول بعض القضايا المطروحة يصدر فى صورة ما يُسمى **"قرارات العامة *plebiscita*"** التى لا تلزم جهات الدولة من الناحية القانونية الرسمية وإن كانت ملزمة أدبياً للعامة الذين وافقوا عليها هذا الاعتراف بشرعية انعقاد "اجتماع العامة" تحت رئاسة أربعة ترابنة منتخبين سنوياً وإصدار "قرارات العامة" ذات الصفة الأدبية غير الرسمية تم بمقتضى قانون صدر عام ٤٧١ ق.م. يُسمي **"قانون بوبليليوس" أو *Lex Publilia***.

وإذا ما تحدثنا عن **"ترابنة العامة"** فقد كان على راس **مهامهم** الدفاع عن المواطنين من طبقة العامة وأملاكهم ضد أية تجاوزات قد يتعرضون لها. ولم يكن هؤلاء الترابنة يستمدون سلطتهم وقوتهم من الدستور (على الأقل فى بادئ الأمر) وإنما من القسم الذى أقسمه العامة على ضمان تمتعهم (الترابنة) بالقداسة والمهابة *saerosanctitas* وإلا ينتهك احد هذه القداسة وإلا قُتل على الفور. وكان الترابنة يمارسون سلطاتهم داخل حدود المدينة، ولذا لم يكن يسمح لهم بمغادرة المدينة طيلة عام التريبونية *K*كما يجب على التريبون أن يترك باب منزله

مفتوحاً ليل نهار لتلقي مظالم وشكاوي العامة. وكان التريبون **يملك حق الاعتراض على** مناقشات مجلس السناتو إذا تعرضت لأمر راي فيه التريبون إجحافاً بحقوق العامة ساعتها يرفع احد الترابنة يده صائحاً **"فيتو *veto*" أي "إني معترض"** فتتوقف المناقشات ويعاد طرح الموضوع إلي أن تصل المناقشات لنتيجة ترضي أعضاء السناتو وترابنة العامة الواقفين عند مدخل السناتو متابعين لمناقشاته كممثلين للعامة وليسوا كأعضاء في السناتو. هذا الحق في الاعتراض من جانب الترابنة كان يُعرف بـ *intercessio*، ولم يكن هذا الحق للترابنة قاصراً على مناقشات السناتو فقط **بل يمتد إلي تصرفات أصحاب المناصب العليا** في السلطة التنفيذية **وضد الانتخابات والقوانين** إن شابتها شائبة. كما أصبح يمتلك لاحقاً **"حق التنفيذ الجبري *coercitio*"** لقرارات العامة فيما بينهم وكذلك لصلاحياته هو بمساعدة الموظفين الذين كانوا يعينون من قبل الترابنة لتنفيذ مهامهم وحفظ سجلاتهم وهم من كانوا يعرفون بالـ "إيديل *aediles*".

هذه السلطات المتزايدة للترابنة اكتسبت تدريجياً اعتراف سلطات الدولة بحيث اصبح **الترابنة شخصيات مرموقة** لا تقل أهميتهم عن أصحاب المناصب العليا، وإن كانوا لا يتمتعون بسلطان "الإمبريوم" ولا إمارات الشرف المصاحبة له.

(٢) المرحلة الثانية:

اللجنة العشرية ونشر قوانين الألواح الأثني عشر ٤٥١ – ٤٥٠ ق.م. (٨)

لعل من أبرز الأمور التى كانت تؤرق العامة وتقض مضاجعهم والتى كان لابد لترابنة العامة أن يتصدوا لها مسألة عدم نشر القوانين الرومانية وإعلانها على الملأ. فقد سبق أن رأينا أن الأشراف كانوا يحتكرون - بحكم وضعهم الاجتماعي وسيطرتهم شبه الكاملة على

السلطتين التشريعية والتنفيذية مسالة إصدار القوانين فى مجلس السناتو والجمعية المئوية وكذلك مسالة تفسيرها والإشراف على تنفيذها فى مناصب السلطة التنفيذية. وهكذا فإن مسالة إصدار القوانين وتطبيقها كانت شأناً من شئون الأشراف فى واقع الأمر. وكان الأشراف يحتفظون - على الأرجح- بسجلات وضابير تلك القوانين فى الأماكن الحكومية المخصصة لذلك.

ولكن لما كانت إدارة الدولة بكافة مؤسساتها التشريعية والتنفيذية أمراً يتم فى إطار الأشراف فمما لا ريب فيه أنه ما من عائلة من عائلات الإشراف إلا وكان لها من يمثلونها فى إدارة الدولة. وعليه فإن معرفة القانون والثقافة القانونية لابد وأنها كانت امراً مألوفاً فى أوساط هؤلاء الأشراف وعائلاتهم. **أما العامة** المنهمكون فى حرفهم الزراعية والصناعية والتجارية **فلم يكن هناك من يدلهم على هذه القوانين وتفصيلاتها** مما كان **يعرضهم للوقوع فى الأخطاء والتعرض للعقوبات فى أحيان عديدة من جراء جهلهم بالقوانين** الذى لم يكن يعفيهم من العقاب أو حتى يكون داعياً لتخفيف العقوبة عنهم.

هذا الوضع المزعج بالنسبة للعامة **وافتقارهم إلي الأمان** فى ممارساتهم اليومية والخشية من تعرضهم للعقاب الصارم فى أية لحظة دون ذنب أو جريرة سوى **الجهل بالقوانين** كان **دافعاً قوياً لهم للمطالبة بنشر القوانين وإعلانها على الناس.** وفى هذا الصدد تروى المصادر الرومانية القديمة أن أحد ترابنة العامة ويُدعى "تيرينتيليوس هارسا *Terentilius Harsa* " عن عام ٤٦٢ ق.م. **هدد بتقليص سلطات " الإمبريوم"** القنصلي من خلال إصدار تشريع أو قانون (من السناتو) بذلك. وفى العام التالي اقترح تريبون آخر **تشكيل لجنة مكونة من عشرة أعضاء لإعلان تشريعات** تتضمن كل مجالات القانون. وتصدي الأشراف لمثل هذا

الاقتراح وتواصل صراع مستمر بين العامة والأشراف حتى توصلت الأطراف المعنية إلي **حل وسط عام ٤٥٤ ق.م تمثل في إيفاد ثلاثة مبعوثين إلي بلاد اليونان** لدراسة النظم القانونية الأجنبية. **وعند عودتهم تقرر تعليق العمل بالدستور القائم** ووظائف السلطة التنفيذية وعلى رأسها القنصلية وكذلك نظام التريبونية **وأن تتشكل الحكومة التنفيذية فى عام ٤٥١ من عشرة مفوضين جميعهم من الأشراف- ذوى صلاحيات واسعة وليس من حق أحد الاعتراض عليهم** او الاستئناف ضد قراراتهم. وقد أدت هذه اللجنة العشرية عملها بكفاءة وتجرد وأصدرت **مجموعة من القوانين دونت على عشرة ألواح** صدقت الجمعية المئوية عليها. **وفى عام ٤٥٠ تشكلت لجنة مماثلة من عشرة مفوضين- بعضهم من العامة-** لإستكمال عمل اللجنة السابقة.

وقد أضافت هذه اللجنة الجديدة **لوحين آخرين** من ألواح القوانين إلي الألواح العشرة السابقة. ويصم شيشرون قوانين اللوحين الأخيرين الإضافيين بأنها "قوانين ظالمة". ويُروي أن حكم اللجنة العشرية الثانية عام ٤٥٠ ق.م. ولا سيما زعيم تلك اللجنة أبيوس كلاوديوس كراسوس إينرجيلاينسيس سابينوس *Appius Claudius Crassus Inregillensis Sabinus* قد بدأ يتجه نحو الطغيان والاستبداد ورفض التنازل عن الحكم. ويروي عن أبيوس كلاوديوس انه استغل غياب زملائه فى اللجنة العشرية فى مهام عسكرية ولعب دور الطاغية. ولكن حدثت **واقعتان أنذرتا بقرب سقوط ذلك النظام** وهما **اغتيال تريبون سابق** ومحارب جسور يدعي **سيكينيوس دينتاتوس** ثم **ذبح عذراء تدعي فيرجينيا** من قبل أبيها لتخليصها من براثن أبيوس كلاوديوس الذى كان يزمع اغتصابها. وتستمر رواية هذا الحدث الأخير لتذكر أن **العامة انسحبوا من المدينة** على أثر ذلك مما **أجبر اللجنة العشرية على ترك الحكم والعودة إلي النظام الدستوري القنصلي القديم فى العام التالي ٤٤٩ق.م** حين

أصبح كل من لوكيوس فاليريوس وماركوس هوراتيوس قنصلين. ويذكر تيتوس ليفيوس (*III. 33*) أنه قد ألقي القبض على ابيوس وانه انتحر قبل مثوله أمام المحكمة. وأصبح يرمز إلي الغرور والعنجهية الارستقراطية فى عيون الرومان اللاحقين.

إن الإطار العام لهذه الأحداث سالفة الذكر **صحيح ومؤكد** ويدعمه سجل الحوادث الرومانية الشهيرة *Fasti* والشذرات المتبقية من قوانين الألواح الأثني عشر، وإن كانت **التفاصيل لا ترقي فوق مستوي الشك** وربما كان بعضها قد أضيف فى مراحل لاحقة. ومن بين الأحداث المشكوك في صحتها **زيارة اللجنة العشرية لبلاد اليونان**، والأرجح إن كانت هذه اللجنة قد غادرت روما للاستفادة من خبرات الآخرين أن تكون قد توجهت إلي المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا. كذلك فإن موضوع **التريبون دينتاتوس** الذى لقي مصرعه علي يد الأشراف وكذلك **العذراء فيرجينيا** التي ذبحها أبوها قبل أن يغتصبها ابيوس كلاوديوس **ربما كانت مبالغات** تصور تضحيات العامة وطغيان الأشراف. كما أن **قصة فيرجينيا قريبة الشبه بقصة لوكريتيا** التى أدت إلي سقوط الحكم الملكي فى روما من قبل. كما أن موضوع القهر **والطغيان الذي يُنسب إلي أعضاء اللجنة العشرية الثانية** ربما كان من المبالغات، وفى هذه الجزئية ينبغي أن نتذكر أن **المشرعين الأوائل كانوا يتسمون بالقسوة والشدة حتى أنه** قيل عن المشرع اليوناني القديم **دراكون** أنه كتب قوانينه فى أواخر القرن السابع ق.م **بالدم**. كما أنه من الصعب تفسير **انسحاب العامة من المدينة عام ٤٥٠ ق.م**.إذا كان خمسة من أعضاء اللجنة العشرية الحاكمة من بين العامة حقيقة كما ورد فى الرواية القديمة وقد رجح بعض العلماء أن أبيوس كلاودويوس ضم هؤلاء العامة إلي اللجنة العشرية لكي يلغي ويبطل سعي العامة إلي إقامة "دولة لهم داخل الدولة" وهو التعبير الذى استخدمه تيتوس ليفيوس فى عبارته *duas civitates ex una factas*

أما عند الانسحاب الثاني (الخروج الثاني) للعامة من روما فيتخذ منه شيشرون مثلاً على انحدار وتدني الحكم الأرستقراطي وتحوله إلي طغيان حكم الأقلية (*De republica* 2. 61 *ff.*).

ولما كان الهدف الرئيسي من رواد تشكيل هذه اللجنة العشرية الحاكمة هو تدوين القوانين *decemviri legibus scribundis* بناءً على مطالب واحتجاجات وإصرار عامة الرومان نتجه بالحديث الآن إلي ما تمخض عنه جهد اللجنة فى هذا الصدد وهو **قوانين الألواح الإثني عشر**: هذه الألواح الإثنى عشر التى اشتملت على **تقنين مبسط ومحكم ومقتضب للأعراف السائدة** فى المجتمع الروماني آنذاك فى كافة مجالات الحياة القانونية العامة والخاصة والجنائية والمدنية والدينية. وهذه الألواح القانونية أقيمت فى السوق العامة *Forum* فى روما حتى تكون متاحة أمام كافة المواطنين الرومان بجميع فئاتهم من عامة وأشراف، وكانت هذه الألواح على الأرجح من البرونز. ورغم أن تلك **الألواح قد دُمرت بعد نحو ستين عاماً** من إقامتها وذلك حين **غزا الغال روما بعد عام ٣٩٠ق.م.** وعاثوا فيها فساداً (انظر لاحقاً) إلا أن قدراً لا بأس به من نصوص قوانين تلك الألواح قد وصلنا فى مصادر لاحقة. ويذكر الكاتب الموسوعي الروماني **شيشرون** أن **تلاميذ المدارس** فى عصره **كان لزاماً عليهم أن يحفظوا قوانين الألواح الإثني عشر** عن ظهر قلب (*De legibus* 2.59).

وتعتبر **المقتطفات** التى وصلتنا **من قوانين الألواح الإثني عشر** أقيم ما لدينا من معلومات عن أحوال روما فى القرن الخامس ق.م. والمجال الرئيسي لقوانين الألواح الإثني عشر هو **القانون المدني حول حقوق وواجبات المواطنين الرومان** *cives Romani* وعلاقاتهم ببعضهم البعض. أما عناصر ومكونات تلك القوانين فتحتوي علي خليط غريب من المبادئ العامة الفضفاضة والتفاصيل الأقل أهمية ومن القانون العام والخاص

والجنائي ومن عدد من القواعد تتعلق بامور تتصل بالصحة العامة والسلامة الشخصية... إلخ. وكما أسلفنا فإن **لغة وصياغة** هذه القوانين تتسم **بالإيجاز المركز الدقيق** الذى يصل الهدف من اقرب طريق ويعبر عن فكر عملي محدد، اما القوانين ذاتها فقد **اتسمت بالشدة والصرامة**.

وساضرب فيما يلي **بعض الأمثلة** من نصوص قوانين الألواح الإثنى عشر يتضح من خلالها ما تتسم به من **البساطة والوضوح والصرامة**.

- من نصوص اللوح رقم (٣)

- على الدائن أن ياتي بالمدين إلي المحكمة. وما لم ينفذ المدين ما اتفق عليه وما لم يضمنه احد قانوناً فمن حق الدائن ان ياخذه معه وأن يقيده بحبل او باغلال على الا يزيد وزن القيد على خمسة عشر رطلاً أو - إن شاء - اقل.

- ما لم يقم المدين بتسوية الأمر فيجوز للدائنين اقتطاع اجزاء، ولا جناح عليهم إن اقتطعوا كثيراً او قليلاً.

(لا يتضح من النص ما إذا كان المقصود هنا اقتطاع اجزاء من املاك المدين أو من جسده بمعنى تمزيقه ارباً عقاباً له على عدم وفائه وتسويفه فى سداد مبلغ الدين. واري ان كلا الأمرين وارد وأن تمزيق المدين إرباً ربما كان يتم فى حالة عدم وجود ملكية شخصية له).

- ويمكن للدائن أن يبيع المدين فيما وراء التيبر إن شاء.

- من نصوص اللوح الرابع (٤)

- إذا ولد الطفل مشوهاً فلا جناح ولا مسئولية على الأب إن لم يتول امره.

- إذا باع أب ابنه ثلاث مرات يكون الأبن بعد ذلك حراً من سلطة ابيه.

- من نصوص اللوح الثامن (٨)

إذا عامل الراعي تابعه بطريقة فيها غش وتحايل تحل اللعنات على الغشاش.

- من نصوص اللوح العاشر (١٠)

- يحظر على النسوة لطم الخدود والنو ح والعويل فى الجنازات.

- من نصوص اللوح الحادي عشر (١١)

- ممنوع التزاوج مع العامة.

ونختتم أخيراً بالقول ان **أثر قوانين الألواح الإثني عشر على الأجيال اللاحقة من الرومان** كان هائلاً، ولم يحل اختفاؤها فى أعقاب غزو الغالة كالواح ونصوص مدونة دون **إعادة كتابتها من جديد واستمرار سريان مفعولها وأهميتها من الناحية القانونية**. وكانت الأجيال اللاحقة من الرومان عبر القرون ينظرون إليها باعتبارها الأصل والمصدر لكافة المجموعات القانونية الرومانية اللاحقة، وكانت تحظى **باحترام كبير ومكانة مرموقة فى مناهج تعليم المواطن الروماني**.

ولعل تدوين قوانين الألواح الإثني عشر قد اتى أكله إلي حد كبير بالنسبة لأبناء العامة، فقد اصبحت **حقوق المواطنين وواجباتهم معروفة** ومعلومة ولا لبس فيها وبالتالي لم يعد هناك مجال للوقوع فى الأخطاء تحت ذريعة الجهل بالقانون وأصبح من يخطئ بعد ذلك يستحق ما يحل به من عقاب دون التعلل بوقوع ظلم عليه. المكسب الآخر فى ظل الوضع الجديد أنه **أصبح بوسع العامة**- بعد معرفتهم بكافة القوانين المنظمة لحركة المجتمع الروماني- **أن يقترحوا فى "اجتماع العامة"** الذى سيتحول إلي "الجمعية القبلية" **تعديل أي نص قانوني يرون أنه يلحق**

الضرر بمصالح العامة أو يشكل إهانة لهم ويحط من شانهم. ويمكن ان **يتطور هذا الاقتراح**- إن وافقت عليه السلطات التشريعية والتنفيذية العليا فى الدولة- **ليصبح قانوناً بديلاً** يُبطل القانون المطعون فيه وهو ما سنراه بعد قليل.

(٣) المرحلة الثالثة ٤٤٩ ق.م. (عام قنصلية هوارتيوس وفاليريوس):

الجمعية القبلية وزيادة عدد الترابنة:

بعد الخلاص من حكم اللجنة العشرية وعودة النظام القنصلي عام ٤٤٩ ق.م. وفى سياق الحديث عن وضع الترابنة فى الدفاع عن مصالح عامة الرومان وتزايد أهميتهم فى هذا الصدد اصبحت هناك حاجة ملحة لزيادة عدد الترابنة. فعلى الرغم ن أن الترابنة الأربعة لم يكونوا يغادرون روما طيلة عام التريبونية ورغم أن أبواب منازلهم لم تكن تغلق ليلاً أو نهاراً فى وجه العامة الذين يتقدمون لهم بشكاياتهم ومظالمهم إلا أن كل ذلك لم يكن- فيما يبدو- كافياً للاضطلاع بهذا العبء والمسئولية الكبيرة. لذلك نجد أن **عدد الترابنة قد أزداد بحلول عام ٤٤٩ ق.م. ليصبح عشرة** بدلاً من أربعة، وفى هذا دلالة على أمور عديدة منها أن مشاكل العامة ومظالمهم كانت كثيرة بحيث لا يكفيها أربعة أو خمسة ترابنة ولذلك تضاعف العدد، وأن دور الترابنة فى التخفيف من وطأة ظلم بعض الأشراف كان دوراً فاعلاً ومؤثراً وهو ما استدعي زيادته وتوسيع نطاقه.

وإذا كان الترابنة قد اكتسبوا صلاحياتهم ووضعهم المقدس ودورهم الرقابي المؤثر من خلال إصرار العامة على ذلك وقسمهم بإراقة دماء أي شخص يجرؤ على المساس بممثليهم، وإذا كانت سلطات الدولة قد اعترفت "بوجود" "اجتماع العامة" وبصلاحية الترابنة لقيادة مثل هذه الاجتماعات وتمثيل العامة فإن الأمر لم يتعد- فى الواقع- هذا **الاعتراف**

"بوجود" هذه الكيانات الشعبية ومحاولة إرضائها قدر الإمكان لنزع فتيل التوتر. ويبدو أن أمر السلطات الرسمية للدولة مع "اجتماع العامة" ورؤسائه من الترابنة كان يندرج فى إطار التعرف على نوايا وأفكار وقرارات العامة ومحاولة التوائم معها قدر الإمكان وتكييف قرارات كبار الموظفين والمجالس التشريعية- وعلى رأسها السناتو- مع آراء العامة للوصول إلي حلول وسط تراعي مصالح الأشراف ولا تغضب العامة فى آن واحد. ولكن مع **تزايد دور الترابنة** بدأت سلطات الدولة الرسمية تأخذ هذا التطور بعين الاعتبار تدريجياً وتمنحه مزيداً من **"الاعتراف الرسمي"** ولا تتركه لمجرد العرف السائد. ففي ذلك العام سمحت الدولة الرومانية للترابنة العشرة **بالجلوس فى الصف الأخير من مجلس السناتو** بدلاً من مجرد الوقوف عند بوابة المجلس ومتابعة مناقشاته وقوفاً. صحيح أن هذا كان مجرد إجراء شكلي لأن الترابنة فى الحالتين كانوا مجرد مراقبين وليسوا أعضاء فى المجلس بل هم ممثلون للعامة، ولكن **مسألة جلوسهم** داخل المجلس من بعد وقوف **تدل على احترام متزايد لمهمتهم من جانب أعضاء السناتو وحرص على تسهيل أدائهم لدورهم الرقابي**، بل ويذكر المؤرخ ليفيوس (*III. 55*) أن قوانين عام قنصلية هوراتيوس وفاليريوس قد أعادت التأكيد على قدسية الترابنة (بصفة رسمية).

وغنى عن البيان فى هذا الصدد أن مكتسبات الترابنة وصلاحياتهم وسلطاتهم التى ذكرنا من قبل أنها تحققت تدريجياً اكتسبت فى تلك المرحلة مزيداً من الاعتراف الرسمي بها من جانب سلطات الدولة التشريعية والتنفيذية. وأهم تلك الصلاحيات والسلطات هي **"حق الترابنة فى دعوة اجتماع العامة"** (الذى ربما **تحول فى ذلك التاريخ ٤٤٩ ق.م** إلي جمعية رسمية تمثل القبائل الرومانية وأصبحت تُعرف بـ**"الجمعية القبلية** *comitia tributa*" وهذا الحق أصبح يُعرف اصطلاحاً بـ *ius agendi cum plebe*، وكذلك **التشاور مع تلك**

الجمعية فى مختلف القضايا التي تخص العامة **واستصدار "قرارات العامة** *plebiscita*" التى أشرنا إليها من قبل.

كما أصبح للترابنة **الحق فى حفظ نسخ من قرارات اجتماعات العامة** (جمعية القبائل فيما بعد) بل كذلك **نسخ من قرارات السناتو** اعتباراً من ٤٤٩ ق.م. **والاحتفاظ بها فى معبد الربة كيريس على تل الأفنتين**، وكذلك إلقاء القبض على من اقترف أخطاء بحق العامة، وهي أمور كان يقوم على تنفيذها مساعدو الترابنة من الإيديليس *aediles* - بأوامر من الترابنة- كما أسلفنا.

إن من الفقرات الجدلية التى أوردها ليفيوس فى الفترة المنوه عنها أن **"ما أصدره العامة من قرارات على مستوي القبائل يصير ملزماً لعموم الشعب":**

"ut quod tributim plebs iussisset, populum teneret"

وهذا ما يتناقض مع قانون صدر لاحقاً فى المرحلة الأخيرة من مراحل الصراع بين الطبقات أصدره الديكتاتور هورتينسيوس عام ٢٨٧ ق.م. (انظر لاحقاً) يمنح الجمعية القبلية هذا الحق، أي حق إصدار القوانين أسوة بمجلس السناتو، وقد عبر أولوس جيليوس عن قانون هورتنسيوس بالقول (XV. 27):

"ut eo iure, quod plebs statuisset, omnes Quirites tenerentur"

أى **"وبمقتضى ذلك القانون يكون ما يصدر عن العامة من قرارات ملزماً لجميع الرومان".**

الأرجح هو أن تعبير ليفيوس عن الموقف عام ٤٤٩ ق.م. إنما هو **تعبير عن تأكيد العامة على حقهم فى إصدار قوانين ملزمة** وأن **تلتزم بقية سلطات الدولة**- صاحبة الحق الأصيل فى التشريع والتنفيذ آنذاك -

بإجازة تلك القوانين عبر قنواتها المعتادة فى هذا الصدد. بعبارة أخرى فإن ذلك يعني أن **"قرارات العامة** *plebiscita*" المعبرة عن رغبة وإرادة العامة تكون فى هذه الحالة بمثابة **"مشروعات قوانين"** يطرحها ترابنة العامة على **مجلس السناتو للتصويت عليها** فإذا حظيت **بالموافقة** صارت **قوانين ملزمة** لأنها صدرت بناءً على اقتراح وموافقة العامة ثم حظيت بقبول وموافقة بقية فئات الشعب الروماني من الأشراف فى السناتو، أي وافق عليها جميع الرومان. **أما إذا لم تنل** "قرارات العامة" المطروحة على السناتو **موافقة ذلك المجلس فإنها تظل مثل بقية "قرارات العامة"** ملزمة أدبياً ومعنوياً لمن أصدروها من العامة، ولكن **من دون أن تكون ملزمة**- رسمياً وقانونياً- لبقية فئات المجتمع من تلقاء ذاتها *per se*(٩).

(٤) المرحلة الرابعة: قانون كانوليوس(١٠) *Lex Canulia* ٤٤٥ق.م.

تواصل نضال العامة من الرومان لتحقيق قدر أكبر من المكاسب فى ظل قوة الدفع الهائلة التي تحققت على مدى نصف القرن الأول من القرن الخامس ق.م. وقد أستثمر العامة ما حققوه من مكاسب أخيرة وواصلوا طرق الحديد وهو ساخن، **فبعد نشر قوانين الألواح الإثني عشر** فى الفوروم (السوق العامة) الروماني، **وبعد السماح بأن تصبح "قرارات العامة** *plebiscita*" **قوانين فى حالة موافقة السناتو عليها**-حسب التفسير السابق ذكره لعبارة المؤرخ تيتوس ليفيوس- **كان لابد من تحقيق مكسب جديد** يرتكز على هذين العنصرين.

وكان العامة موفقين إلي حد كبير فى اختيار القضية التى يثيرونها فى هذا التوقيت وهي قضية **"حظر التزاوج رسمياً بين الأشراف والعامة"** والتي جاءت بوضوح فى اللوح الحادي عشر من نصوص الألواح الإثني عشر. إذ يذكر شيشرون(*De republica* 2.63) وليفيوس(*ff* 4.1)

ان احد ترابنة العامة عن عام ٤٤٥ ق.م. ويُدعى كانوليوس قد استصدر فى ذلك العام من الجمعية القبلية احد "قرارات العامة" *plebiscitum* وبقضي بإلغاء الحظر المفروض على تزاوج الأشراف والعامة رسمياً بمقتضى القانون المشار إليه من قوانين الألواح الإثني عشر.

ولكن هذه الإشارة عند شيشرون وليفيوس فى حاجة إلي المزيد من الشرح **والإيضاح والتفسير**. مما لا شك فيه أنه على الرغم من التفاوت الكبير بين الإشراف والعامة اجتماعياً واقتصادياً إلا أن بعض **ميسوري الحال من أبناء العامة** ممن اشتغلوا بالتجارة لابد أنهم كونوا ثروات لا بأس بها وأصبحوا - من حيث الثراء والرفاهية- لا يقلون عن مستوي الأشراف إن لم يفوقوهم أو بعضهم على الأقل. صحيح أن هذه **الشريحة الثرية** من أبناء العامة ربما كانت **ضئيلة جداً بالقياس بمجموع العامة**- وفى تقديري أن ترابنة العامة ربما كانوا يختارون فى الأغلب من بينهم - إلا أنهم كانوا يتطلعون بالضرورة للارتقاء فى سلم الصعود الاجتماعي بحكم مؤهلات الثراء والغنى ولكن كان **يحول دون ذلك عدم انتمائهم بصلة الدم لطبقة الأشراف** وهو- كما نعلم - شرط ضروري للولوج إلي سلك الوظائف الشرفية. هذا **العائق القسري** الذى لا ذنب لهم فيه كان لابد من محاولة إزاحته والتخفيف من غلوائه على الأقل. ولكن كيف؟ فلا سبيل لهؤلاء الوجهاء ذوي الأصول العامة الذين لا تجرى فى عروقهم دماء الأشراف إلي الانتساب للأشراف وكسر ذلك القيد، فالأصول مثبتة ومعلومة فى مجتمع مدينة روما المحدود والمعلوم. السبيل الوحيد هو مصاهرة الأسر الشريفة وبالتالي الانتساب لهذه الطبقة من البوابة الخلفية : بوابة النسب والمصاهرة.

من هنا **كان لابد من إسقاط ذلك القيد** بطريقة تثير حماس بقية ابناء العامة وتأييدهم لمشروع القرار فى الجمعية القبلية. وافترض أن ذلك

كان **أمراً يسيراً نسبياً وكانت الأرضية ممهدة لتحقيقه** فبمجرد أن يتبنى أحد الترابنة مشروع إسقاط ذلك القانون الجائر من قوانين الألواح الإثني عشر ويطرحه للتصويت فى مقر جمعية العامة "الجمعية القبلية" فلن يجد اعتراضاً جدياً من أبناء العامة. يبدو أن **أثرياء العامة** أو فريقاً منهم **أوعز إلي التريبون كانوليوس بهذا المقترح ليطرحه كقضية عامة** على الجمعية القبلية باعتبار هذا الأمر يثير حساسية العامة وضيقهم من هذا التمييز المقنن بين "مواطنين رومان *cives Romani*" يفترض تساويهم أمام القانون على الأقل.

بهذه الكيفية فإن كانوليوس لم يجد - علي الأرجح- أدني صعوبة فى استصدار قرار للعامة من الجمعية القبلية بإلغاء هذا البند من قوانين الألواح الإثني عشر. **ولكن وضع هذا الإلغاء موضع التنفيذ** كان يتطلب بالضرورة **موافقة الطرف الآخر فى هذه المعادلة- وهم الأشراف-** على هذا الأمر لأنه بغير موافقتهم لا يصبح لقرار العامة فى هذا الشأن أية قيمة عملية. لذا من المرجح- فى ضوء ما حققه العامة فى الخطوة السابقة عام ٤٤٩ ق.م. - أن يكون التريبون كانوليوس قد **أخذ "قرار العامة" فى هذا الصدد ليطرحه على مجلس السناتوس ليأخذ موافقته عليه** ليتحول إلي **قانون مُلزم** يُلغي القانون المعترض عليه.

إن طرح هذا "القرار" من جانب العامة على السناتوس لتحويله إلي قانون ملزم بعد الحصول على موافقة الأخير يمكن أن يصبح أمراً مقبولاً لأعضاء السناتوس من الأشراف فى حالة واحدة **إذا ما أدركوا إن إلغاء قانون حظر التزاوج بين الأشراف والعامة لا يعني تلقائياً** وبالضرورة **حتمية تزويج بناتهم للعامة** إذا ما تقدم أحدهم لخطبة إحدى بنات الأشراف. وأتصور أن ممثل العامة ومقترح القانون التريبون كانوليوس لابد أنه قد أقنع الأشراف بأن إلغاء ذلك القيد القانوني من قوانين الألواح

الإثني عشر يعني **تنقية تلك المجموعة القانونية من شائبة تسئ إليها وتعتبر رمز تمييز جائر** بين مواطنى روما.

ومن ناحية أخرى لابد أنه أقنعهم بأن **الإلغاء** فى هذه الحالة **لا يعني بالضرورة تنفيذ عكس ما نص عليه القانون**. بل يعني **ترك الامر لرغبة وإرادة وتقدير كل فرد على حدة**: إن شاء وافق وإن شاء رفض ولا جناح عليه فى الحالتين. أي أن الأمر متروك للإرادة الفردية المحضة ولا إكراه فيه ولا لوم ولا تثريب.

فى ظل هذا الوضع وهذه الخلفية والظروف الممهدة لابد أن الأمر قد مرَّ سلساً هيناً إلي حد ما، وشكل مكسباً لا بأس به للعامة- أقصد أثرياء ووجهاء العامة- وأزال حرجاً ونقطة ضعف فى أول مجموعة قانونية رومانية.

وفيما يتعلق بالتريبون كانوليوس فإن مؤرخاً آخر **هو** ديونيسيوس الهاليكارناسي (*Ant. Rom.* 11.53 *ff.*) ينسب إليه أمراً آخر غير إلغاء الحظر على تزاوج العامة والأشراف الذى لا يشير إليه من قريب أو بعيد بل يذكر أن **كانوليوس لعب دوراً بارزاً فى إثارة موضوع تقلد العامة منصب القنصلية**، وهو ما ترتب عليه نشوء مناصب "**الترابنة** العسكريين من ذوي السلطة القنصلية"- التي سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن القناصل- وهي اللجان التى حلت محل القناصل فى الفترة من ٤٤٤ - ٣٦٧ ق.م. ومن المعلوم أن الدافع من وراء تشكيل تلك اللجان والهدف منها كان عسكرياً فى المقام الأول لمجابهة إزدياد المعارك وجبهات القتال التى انفتحت على الرومان واللاتين فى الفترة المذكورة. ولكن هذا الموقف خدم قضية العامة للارتقاء بأحوالهم إذ **كان لهم نصيب** - من حين لآخر على مدى الفترة المذكورة - **من مناصب الترابنة العسكريين ذوى السلطة القنصلية** رغم أن الغالبية العظمي من هؤلاء الضباط فى تلك اللجان

كانوا بطبيعة الحال من الأشراف(١١). هذه الخطوة التى ربما كان كانوليوس أحد روادها - حسب زعم ديونيسيوس الهاليكارناسي- ربما كانت تمهيداً ودفعة للعامة للمطالبة بالمشاركة فى القنصلية — وبقية المناصب الشرفية- فى الخطوة التالية.

٥) المرحلة الخامسة ٣٧٦ – ٣٦٧ق.م

قوانين سكيستيوس وليكينيوس

بعد أن حقق العامة المكاسب السالفة الذكر وشعروا بقدر من الطمانينة والأمان النسبي على أنفسهم وكرامتهم فى ظل حماية الترابنة ذوي الحصانة والقدسية، وبعد أن أصبح لجمعيتهم القبلية كيان اعتباري معترف به، وبعد أن سقط حاجز التمييز المشين بينهم وبين الأشراف بإلغاء القانون الذى يحرم التزاوج بين الطبقتين، وبعد أن أصبحوا على دراية كاملة بحقوقهم وواجباتهم والتزاماتهم - وكلها مكاسب شرفية معنوية اعتبارية- بدأوا **يتطلعون إلي تحقيق إنجازات ملموسة على أرض الواقع** ينعكس على أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وربما بدأ العامة- بعد قانون كانوليوس عام ٤٤٥ ق.م. مباشرة - فى المطالبة بحقوقهم السياسية للمشاركة فى الحكم والسلطة التنفيذية على استحياء كما نفهم بين إشارة ديونيسيوس الهاليكارناسى حول كانوليوس. ولكن ظروف روما وصراعاتها الخارجية المريرة بعد ذلك التاريخ ولمدة حوالي ثمانين عاماً (٤٤٤- ٣٦٧ق.م) حالت دون الاستمرار فى المعدل السريع نسبياً لتحقيق مكاسب وإنجازات للعامة كما حدث على مدي النصف الأول من القرن الخامس ق.م. فنظراً لانفتاح جبهات القتال على مصراعيها أمام الرومان مع جيرانهم القريبين والبعيدين فى إيطاليا

توقف العمل بالنظام القنصلي وحل محله لجان الترابنة العسكريين، واصبح الرومان فى **شبه حالة طوارئ لمجابهة الأخطار المحدقة بهم** (سنراها فى الفصل التالي) وحتمت الظروف **ألا يعلو صوت فى الداخل على صوت المعارك** وقعقعة السلاح على حدود روما بل وداخلها احياناً ولكن حتى فى هذه الظروف العصبية تحقق لعامة الرومان **مكسب لا بأس به** وهو **عدم حرمانهم من المشاركة**- من حين لآخر- فى **تقلد بعض مناصب الترابنة العسكريين** من ذوي السلطة القنصلية كما أسلفنا.

ولكن على الرغم من أن المصلحة الوطنية العليا لروما فى تلك الفترة كانت تقتضى التفرغ لمجابهة المخاطر الخارجية المحدقة التى كانت تهدد الكيان الرومانى ذاته وعدم الانزلاق إلى الفرقة والاختلاف فى الداخل إلا أنه كانت هناك قضايا داخلية ملحة وكامنة وتنتظر أسرع فرصة ممكنة للوصول إلى حلول لها وقد اشرنا إلى أول هذه القضايا وتتمثل فى **مشاركة العامة** - او بالأحرى القادرين الراغبين منهم - **فى الحياة السياسية** مشاركة فعالة **بتقلد مناصب السلطة التنفيذية** أسوة بالأشراف. القضية الثانية المحورية فى هذه الفترة والتى كانت بحاجة إلى حسم هى قضية **الديون وفوائد الديون**. وهذه القضية - كما رأينا فى مقدمة هذا الفصل وفى بعض بنود قوانين الألواح الاثنى عشر التى أوردنا بعضها - كانت قضية ملحة وحساسة ويمكن أن تقلب حياة المواطن الرومانى البسيط رأساً على عقب وتعرضه للقتل او العبودية أو وضع الأقنان على الأقل. وهناك إشارة رمزية من أواخر فترة الطوارئ المذكورة التى تعطل خلالها العمل بالنظام القنصلى (٤٤٤ – ٣٦٧ق.م.) تتحدث عن ماركوس مانليوس **كابيتولينوس** الذى انقذ قمة الكابيتول فى روما من احتياح الغالة - الذين كانوا يحتلون روما آنذاك عام ٣٨٧ ق.م. - هذه الرواية عن كابيتولينوس تذكر انه **تنازل عن أملاكه لكى يفتدى ويحرر المدينين الذى سقطوا فى ربقة العبودية من جراء الديون** وأنه لقى

مصرعه بعد ذلك حين أعدم بتهمة التطلع إلى أن يصبح طاغية. هذه الإشارة تفيدنا فى هذا السياق فى التنويه إلى مدى تفاقم مشكلة الديون فى الفترة المذكورة. ومما لا شك فيه أن فقراء وبسطاء العامة كانوا أكثر من عانى من هذه المشكلة التى زادها تعقيداً موضوع **الفوائد المركبة** التى كانت تضاف إلى أصول الدين كلما مضى الوقت. وهنا يشير المؤرخ تاكيتوس (٥٧/٥٦ حوالى ١١٧م.) فى مؤلفه الحوليات *(Ann. 6.16.3)* إلى أن اللجنة العشرية التى وضعت قوانين الألواح الإثنى عشر عام ٤٥١ ق. م. حددت مقدار الفائدة فى الديون بحد أدنى ١٢/١ من مقدار الدين *unciarium fenus* وهو ما يعنى أن هذه الفائدة لو كانت سنوية يصبح مقدارها ٨,٥٪ ولو كانت شهرية لوصلت إلى ١٠٠٪ سنوياً .

ومن بين القضايا المعلقة التى كانت تؤرق جموع العامة وتنتظر حلاً ناجعاً بعد زوال فترة الأزمة والطوارئ قضية **"الأرض العامة** *ager publicus*". و " الأرض العامة " هى تلك الأرض التى **استولى عليها الرومان بحق الغزو والفتح من أعدائهم** أو **من خلال مصادرة أراضى المتمردين من حلفائهم**. وعلى مدى العقود الأخيرة من القرن الخامس وبداية القرن الرابع ق. م. ازدادت مساحات "الأرض العامة" الرومانية نتيجة للفتوحات والصراعات بين روما وجيرانها الإيطاليين. ولما كانت تلك "الأرض العامة" ملكاً للدولة الرومانية فإنها كانت تتصرف فيها حسبما تراه ملائماً للوضع الطبقى والاجتماعى القائم. إذ كانت الدولة تعرض مساحات كبيرة من تلك الأراضى للبيع للقادرين - ومعظمهم من الأشراف - ولكن هذا البيع لم يكن يعطى لمن اشترى حق الملكية المطلقة (أى التصرف فى الأرض بالبيع والرهن وخلافه) وإنما حق الانتفاع والحيازة *Possessio* نظير إيجار يُدفع للدولة من قبل هؤلاء الحائزين *Possessores* . ويبدو على الأرجح أن **أسعار شراء تلك "الأرض العامة"** وكذلك **الإيجارات** المفترضة عنها **كانت رمزية** وأن الأمر لم يكن يتعدى تقسيم غنائم

الحرب على تلك الصفوة الرومانية - **تحت غطاء شكلى من عمليات بيع وإيجار رمزى**- وعلى هذا الأساس حصل الأشراف على مساحات شاسعة من " الأرض العامة " على سبيل الحيازة -نظرياً- وعلى أساس دفع إيجارات رمزية سنوية للدولة . وبمرور الوقت **تحولت هذه الحيازة المستمرة إلى نوع من "وضع اليد** *Occupatio*" المستقر الذى أصبح أقرب إلى "**الملكية** ***dominium***" إن لم تكن هى " الملكية " بعينها. وبطبيعة الحال كانت تلك الإجراءات تتم بمباركة الأشراف انفسهم فى المواقع التنفيذية والتشريعية: إذ كان يقترح هذه الإجراءات شاغلو المناصب العليا ويتم التصويت عليها فى الجمعية المئوية ثم التصديق على القرار فى مجلس السناتو ؛ وهكذا حصل الأشراف على نصيب الأسد من تلك الأرض ، وذراً للرماد فى العيون وزعت الدولة **حصصاً صغيرة من " الأرض العامة " على أبناء العامة** عام ٣٩٣ ق.م. (بعد ثلاث سنوات من إسقاط مدينة "فييى *Veii*" والاستيلاء على أرضها الزراعية الواسعة وهى أكبر مساحة من الأرض العامة يستولى عليها الرومان حتى ذلك التاريخ) ، وقدر بعض المؤرخين هذه الحصص بـ ٧يوجيرا[١٣] للفرد عند المؤرخ ليفيوس (*5.30.8*) و٤ يوجيرا عند ديونيسيوس الهاليكارناسى (*14.102.4*) ، ورغم أن هذه المنح للعامة كانت على سبيل الملكية المطلقة *assignatio* إلا أنها كانت تمثل فتات المائدة من " الأرض العامة " بالمقارنة بالمساحات الشاسعة التى كانت تحت يد الأشراف .

عن مجمل هذه القضايا الملحة - وبعد طول انتظار فى الفترة الاستثنائية التى ساد خلالها حكم الطوارئ (إن جاز التعبير) فى روما فى فترة تعليق النظام القنصلى - بدأت إرهاصات جدل محتدم وخلاف حاد بين الأشراف والعامة فى السنوات العشر الأخيرة من تلك الفترة. ففى عام ٣٧٦ ق.م. بعد ان هدأت الأمور نسبياً على ساحات القتال الرومانية بعد

إسقاط مدينة فييى *Veii* المشهود عام ٣٩٦ق.م. ومن بعدها إعصار غزو الغالة لروما وما ترتب عليه من تداعيات كثيرة - تقدم اثنان من ترابنة العامة هما جايوس **ليكينيوس** ستولو ولوكيوس **سكستيوس** سيكستينوس لاتيرانوس بمجموعة من **مشروعات القوانين** التى أخذوا موافقة الجمعية القبلية عليها كـ "قرارات للعامة" ثم نقلوها إلى مجلس السناتوس للتصديق عليها لتصدر كقوانين فى القضايا الحيوية المشار إليها أعلاه . هذه القرارات المثيرة للجدل والتى ستعرف لاحقاً - بعد إقرارها - بـ **قوانين ليكينيوس وسكستيوس** لم تحظ - بطبيعة الحال - بموافقة السناتو ، ودار حولها **جدل وخلاف حاد** كاد يهدد وحدة الكيان الرومانى ويحدث صدعاً لا يلتئم لمدة عشر سنوات (٣٧٦ — ٣٦٧ ق.م.). وتذكر المصادر الرومانية أن **هذين التريبونين تكرر انتخابهما من قبل الجمعية القبلية كترابنة طيلة الفترة المذكورة** التى سادها الاختلاف للدفاع عن تلك القضايا الجوهرية المطروحة ، وترتب على هذا الوضع المتوتر أن تعطل انتخاب شاغلى المناصب العليا فى الدولة لمدة **خمس سنوات ٣٧٥ — ٣٧١ ق.م.** وأطلق على هذه الفترة فترة "فراغ الحكم ، أو الفوضى αἰχρανα .

ولكن بعد هذا المخاض العسير ووصول الأمور إلى حافة الهاوية عام ٣٦٨ ق.م. اختير أحد قادة روما المشهورين آنذاك هو ماركوس فوريوس **كاميللوس ديكتاتوراً** وزيد عدد الكهنة الذين يتولون أمر الاحتفالات الدينية من اثنين إلى عشرة *decemviri sacris faciundis* ولعب كاميللوس دوراً فى تلطيف الأجواء المتوترة بين الأشراف والعامة وإقناع الأشراف بقبول مطالب العامة المتشددة لإنقاذ المجتمع الرومانى من الفرقة والفتنة .

أخيراً وبعد هذه الفترة العصيبة رضخ الأشراف لمطالب العامة وصدرت تلك المجموعة من القوانين المسماة **"قوانين سكستيوس وليكينيوس" عام ٣٦٧ ق.م.** والتى تضمنت ما يلى :

(١) **عودة النظام القنصلى** - بعد فترة الطوارئ المذكورة - على أن يكون **بالإمكان أن يصبح أحد القنصليين من العامة**. وهذا القانون فى حد ذاته يُعد مكسباً كبيراً للعامة بعد صمودهم الطويل والعنيد فى فترة طرح مشاريع تلك القوانين (٣٧٦ - ٣٦٧ق.م.) حتى وإن اعترض التطبيق صعوبات هائلة بسبب إمكانيات ونفوذ وخبرة الإشراف . ولكن هذه الخطوة كانت - رغم ذلك - **متوقعة إلى حد ما** وكانت قد بدات تجد أرضاً ممهدة : فقد نُسب إلى التريبون **كانوليوس** عام ٤٤٥ق.م. - كما أسلفنا- أنه لعب دوراً بارزاً فى إثارة موضوع **تقلد العامة لمنصب القنصلية**. كما أن مناصب **"الترابنة العسكريين ذوى السلطة القنصلية " قد شهدت تقلد بعض العامة لهذه المناصب** خلال فترة تعليق النظام القنصى ٤٤٤ - ٣٦٧ق.م. بل لقد وصل بعض العامة إلى مناصب رفيعة فى مناصب الترابنة العسكريين إذ أن جايوس **ليكينيوس** ستولو نفسه كان أول من تقلد من أبناء العامة منصب **" قائد الفرسان** *magister equitum* " عام ٣٦٨ق.م. ، ربما بدعم من صهره الأرستقراطى ماركوس فابيوس **امبوستوس** *M.F. Ambustus* (الذى كان احد الترابنة العسكريين عامى ٣٨١ و٣٦٩ ق.م.) ، وهو أحد فوائد إلغاء منع التزواج بين الأشراف والعامة التى جناها أثرياء العامة من قانون كانوليوس ٤٤٥ ق.م. كما أن التريبون الآخر لوكيوس **سكستيوس** كان أول من استفاد من العامة من هذا القانون الجديد بتخصيص أحد منصبى القنصلية للعامة: إذ تقلد منصب القنصلية عام ٣٦٦ ق.م. ، كما ان زميله الآخر جايوس ليكينيوس أصبح قنصلاً هو الآخر عام ٣٦٤ أو ٣٦١ ق.م.

ولما اصبح بالإمكان - من الناحية القانونية - وصول أثرياء العامة إلى اعلى مناصب السلك الشرقى وهو القنصلية يكون من المفهوم أن بقية مناصب السلك الشرفى الأدنى - القائمة آنذاك والمستحدثة- ستكون هى الأخرى مفتوحة بالضرورة امام أبناء العامة وهو ما تحقق بالفعل. فقد انفتح امامهم منصب " الكنسور / الرقيب " اعتباراً من ٣٥١ق.م. ، واعتباراً من عام ٣٣٩ ق.م. تقرر أن يكون أحد شاغلى هذه المناصب - على الأقل - من العامة كل عام. كما أن منصب " البرايتور " الذى استحدث عام ٣٦٦ ق.م. اصبح متاحاً للعامة اعتباراً من عام ٣٣٧ ق.م. حين تولى المنصب آنذاك أحد أبناء العامة. ما نفهمه من هذا السياق هو أن القانون الذى أتاح الفرصة ليكون بالإمكان أن يصبح أحد القنصليين من العامة سنوياً قد فتح الباب على مصراعيه لمن يرغب ويستطيع من أثرياء العامة أن يخوض انتخابات كافة المناصب الشرفية حتى أعلى درجاتها وهى القنصلية. وفى عبارة أخرى أن **الدستور الرومانى أباح حق الترشيح لمن يرغب وتتوافر فيه مؤهلات الترشيح للمناصب الشرفية من أبناء العامة دون أن يكون فى ذلك إلزام** بضرورة تخصيص حصة معينة من هذه المناصب لهم **الأمر متروك تماماً لما تفرزه نتائج التصويت** ، وفى ظل ذلك الوضع يجب أن نتوقع **تفوقاً كاسحاً لأبناء الأشراف** - فى البداية على الأقل - بحكم عراقتهم وخبرتهم وإمكاناتهم مع **بروز نماذج استثنائية** - من حين لآخر - من **صفوة ووجهاء العامة** .

(٢) بخصوص **قضية الديون** وما يترتب عليها من **فوائد تراكمية باهظة** وما ينجم عنها من آثار مدمرة على أشخاص المدينين وأملاكهم تقرر أن **تحتسب فوائد مبلغ الدين** التى تم دفعها من قبل المدين **على أنها من أصل مبلغ الدين** ، وما يتبقى من **أصل الدين** يسدد على مدى **ثلاث سنوات**. وقد خفف هذا القانون كثيراً عن كاهل المدينين لأن **فوائد الديون المركبة** والمتراكمة كانت **تفوق فى أحيان كثيرة مبلغ الدين**

الأصلى . فما بالنا حين تلغى هذه الفوائد ويحتسب ما سبق أن دفع منها على انه من أصل مبلغ الدين. لاشك أن ذلك ازاح عبئاً كبيراً من على كاهل المدينين ويقترب فى تأثيره من قانون **إزاحة الأعباء** "*Seisachtheia*" الذى أصدره **سولون فى أثينا** فى بدايات القرن السادس ق.م. للتخفيف من أعباء الديون فى أثينا .

(٣) أما القضية الثالثة المعلقة والتى كانت بحاجة إلى حل يهدئ نفوس العامة الغاضبة فهى قضية **" الأرض العامة "** . وفى هذه القضية فإن قوانين سيكستيوس وليكينيوس نصت على **ألا تزيد حيازة أى مواطن رومانى من الأرض العامة عن ٥٠٠ (خمسمائة) يوجيروم** (أى ما يساوى ١٣٤ هيكتار أو ٣٣٠ فدان) وألا يزيد عدد الماشية التى ترعى فى هذه الأرض عن **مائة رأس من الماشية وخمسمائة رأس من الأغنام**. هذا القانون الذى يُعد من القوانين القديمة فى تحديد ملكية الأرض الزراعية أو حيازتها يوحى بأن عدداً من الأشراف قد **تضخمت حيازاتهم من " الأرض العامة "** بصورة كبيرة ومستفزة وربما تحولت - فى كثير من الأحيان - إلى ما يشبه الملكية الخاصة المستقرة ، ولعل تحديد مساحة " الأرض العامة " التى يجوز للفرد الواحد حيازتها بخمسمائة يوجيروم كحد أقصى يدل على أن الواقع فاق ذلك الرقم بكثير . كما أن هذا القانون لابد أنه أعطى أملاً كبيراً للفقراء والبسطاء من العامة الذين كان نصيبهم من "الأرض العامة" ضعيفاً ومتواضعاً وهامشياً كما أسلفنا. فمعنى تحديد مقدار حيازة الفرد (من الأشراف) بذلك الرقم هو مصادرة أو انتزاع ما يزيد عن ذلك الرقم وإعادة توزيعه على بسطاء العامة لرفع مستوى معيشتهم نسبياً الذين كان الحد الأدنى للملكية *heredium* للفرد منهم لا يكاد يكفى لإعالة أسرة واحدة منهم فى فترة مبكرة من تاريخ روما إذ كان ٢ يوجيرا .

بذلك يكون **عام ٣٦٧ق.م. عاماً مفصلياً وحاسماً** على مستوى الوضع الداخلى فى روما ولا سيما فى مسالة الصراع الطويل المدى بين العامة والأشراف. فإذا كان **العامة فى مراحل الصراع السابقة قد حققوا بعض المكاسب المعنوية** التى حققت لهم **قدراً من الأمان والحماية** من تعسف وطغيان بعض الأشراف وأعطت لهم **ضمانات قانونية** واسقطت **حاجزاً مشيناً** يتمثل فى قانون منع التزاوج ، فإنهم فى هذه المرحلة - وبعد أن وضعوا الأسس فى المراحل السابقة - بدأوا **يجنون بعض الثمار الناضجة** التى لم تكن واردة فى بدايات الصراع وتمثلت فى **مكاسب مادية على الأرض**. وربما وصل المجتمع الرومانى فى ذلك العام - بعد فترة من الشقاق والنزاع الخطير - إلى حالة من التراضى والهدوء خصوصاً من جانب العامة الذين تحققت - ولو على الورق - كثير من مطالبهم . ولعل الوسيط الذى ساهم فى نزع فتيل التوتر بين الجانبين وهو **الديكتاتور فوريوس كاميللوس** قد عبر عن حالة التراضى هذه وأراد أن يغطى على الحساسيات الناجمة عن حسابات المكاسب والخسائر على الجانبين **فأقام معبداً فى ذلك العام ٣٦٧ق.م. لربة "الوفاق *Concordia*"** . وقد أطلق المؤرخ ليقيوس على كاميللوس لقب **"المؤسس الثانى لروما"** و **"منقذ الوطن"** ، وسوف نتناول هذه الشخصية بالحديث التفصيلى فى سياق الفصل القادم .

(٦) المرحلة السادسة

قانون هورتنسيوس ٢٨٧[١٤]ق.م. (الجمعية القبلية تصدر القوانين)

بعد تلك المكاسب التى أحرزها العامة بمقتضى قوانين ليكينيوس وسكستيوس عام ٣٦٧ق.م. توالى تمثيلهم وبروزهم - تدريجياً ومن حين لآخر - على ساحة سلك الوظائف التنفيذية الشرفية وبدأوا يشغلون مواقع لم تتسن لهم من قبل. فقد سبق أن رأينا سكستيوس التريبون وهو

يشغل منصب القنصلية عام ٣٦٦ ق.م. فى أول سابقة من نوعها للعامة ثم تولى أحد أبناء العامة منصب " الديكتاتور" لأول مرة عام ٣٥٦ق.م. ، ثم آل إليهم لأول مرة منصب "الكنسور" (الرقيب) عام ٣٥١ق.م. (ففى عام ٣٥٦ ق.م. تولى منصب الديكتاتور أحد العسكريين المتميزين من أبناء العامة وهو جايوس ماركيوس **روتيلوس** الذى انتخب بعد خمس سنوات ٣٥١ ق.م. لمنصب الكنسور) ، ثم "البرايتور" عام ٣٣٧ق.م. ، وكانوا من قبل هم أصل وظيفة "الإيديل" منذ اوائل القرن الخامس ق.م. كما مُثلوا فى وظيفة الكوايستور فى أواخر ذلك القرن .

الخلاصة أن سلك الوظائف التنفيذية الشرفية أصبح - مع أواخر القرن الرابع ق.م. - متاحاً دون عوائق أمام القادرين على الترشيح من أبناء العامة ، وأصبح ذلك الأمر حقاً يكفله لهم الدستور والقانون الرومانى. بل لقد زاد انخراط العامة فى الشأن العام بدرجة كبيرة وصاروا على دراية بأمور كثيرة لم يكونوا يلمون بتفاصيلها من قبل : **ففى عام ٣٠٤ق.م** مثلاً نشر الإيديل **جنايوس فلافيوس** فى "السوق العامة *Forum*" فى روما **التقويم الخاص** بالأيام التى يجوز فيها القيام بإجراءات التقاضى أمام المحاكم *dies fasti* والأيام التى لا يسمح فيها بذلك *dies nefasti* وكذلك صيغ أو قواعد *formulae* رفع الدعاوى القضائية .

وبعد ذلك بأربعة أعوام أى فى **عام ٣٠٠ق.م.** انفتحت أبواب **المناصب الكهنوتية** وعلى رأسها منصب "الكاهن الأعظم" *Pontifex maximus* أمام أبناء العامة. وكانت هذه المناصب من قبل حكراً على الأشراف دون سواهم كذلك وكانت سلاحاً كذلك فى يد الأشراف استغلوه - مع غيره من السلطات التشريعية والتنفيذية - فى إجهاض أنشطة وتطلعات العامة. ولذلك فإن دخول العامة سلك الوظائف الكهنوتية يُعد - من هذا المنطلق - مكسباً سياسياً لهم فى إطار حلقات الصراع .

ولا يفوتنا ان ننوه انه على مدى **الفترة من عام ٣٦٧ق.م. حتى بدايات القرن الثالث ق.م.** - وهى الفترة التى تحققت فيها مكاسب تدريجية وتلقائية للعامة على مستوى المناصب التنفيذية - **خاضت روما عدة حروب واختبارات حرجة مع جيرانها** ولا سيما سكان الجبال شرق إقليم لاتيوم ومع المدن اللاتينية ثم أخيراً مع عدو لدود شرس ومنافس قوى يتمثل فى القبائل السمنية القوية التى أرهقت روما كثيراً حتى سلمت بتفوق روما وانصاعت لها عام ٢٩٠ق.م.

الآن ماذا تبقى من مطالب العامة للمساواة -دستورياً- مع الأشراف؟ **لم تبق سوى السلطة التشريعية** التى كان يهيمن عليها السناتو باعتباره الجهة التشريعية أو الهيئة التشريعية الوحيدة التى تصدر " قوانين " ملزمة لجميع طوائف الرومان. صحيح أن " قرارات العامة " الصادرة عن "الجمعية القبلية " كان قدر منها يتحول - احياناً - إلى قوانين ملزمة للجميع ، ولكن هذا كان **مرهوناً** - قبل اى اعتبار آخر - **بموافقة صريحة من السناتو** على اى قرار لكى يصبح قانوناً ، إن هذا الأمر كان بيد السناتو واعضائه قبل أية جهة اخرى. **وبعد الحروب السمنية الشرسة** التى أرهقت روما كثيراً خرج الرومان منها منتصرين غير أنهم كانوا مثخنين بالجراح وفى حاجة إلى فترة من الراحة والهدوء. ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ففى أعقاب تلك الحروب **أصاب الإرهاق كذلك الاقتصاد الرومانى** وخصوصاً فقراء العامة الذين **واجهوا أزمة ديون كبيرة وهددوا بالإنسحاب من روما إلى جانيكولوم** (وهى منطقة مرتفعة على الضفة الغربية من نهر التيبر قبالة روما وتمتد لمسافة ٦ ستة كيلومترات).

وأمام هذا التهديد الجدى من قبل العامة بالخروج من روما فى تلك الظروف العصيبة التى تحتاج إلى التهدئة أكثر من الإثارة اتخذ السناتوس قراره الأخير **بتعيين ديكتاتور** ، وكان فى هذه المرة **من العامة**

وهو **كوينتوس هورتنسيوس** وذلك فى عام ٢٨٧ق.م. ورأى **هورتسيوس** أنه من الصائب لإخراج المجتمع الرومانى من ازمته الطاحنة آنذاك **أن يُصدر قانوناً بأن تصبح " قرارات العامة " التى تصدر عن " الجمعية القبلية " قوانين ملزمة للجميع فى روما** من تلقاء ذاتها وبغير موافقة السناتو عليها. وهذا يعنى ببساطة **رفع وصاية السناتو** - التى كانت موجودة سلفاً - عن الجمعية القبلية وأن تصبح هذه الأخيرة جمعية أو **مجلساً تشريعياً كامل الأهلية** ولا وصاية لأحد على ما يصدره من " قوانين " ، اى أن " الجمعية القبلية " صارت فى هذا الصدد نداً للسناتو وعلى قدم المساواة معه .

ولكن هذا الأمر يطرح **إشكالية خطيرة** وهى احتمالية حدوث **ازدواجية فى التشريع** قد ينجم عنها **تناقض أو تضارب بين مجلسين** يصدران القوانين لذات المجتمع الواحد ، وهى احتمالية صارت قائمة بدرجة كبيرة فى ظل الوضع الجديد . **يبدو من الممارسات والوقائع اللاحقة** فى تاريخ الرومان على مدى القرن الثالث وقسم كبير من القرن الثانى ق.م. أن هذا القانون حين صدر راعى - على الأرجح - ألا يحدث التناقض والتضارب التشريعى بين المؤسستين ، **ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين القائمين على الأمر فى روما على تحديد اختصاصات معينة لكل منهما.** فـ **السناتوس** أصبح يشرع فى **الأمور السيادية الكبرى** التى تخص كيان الدولة وهيبتها فى أمور مثل العلاقات الخارجية والمعاهدات والميزانية والسفارات والولايات (فيما بعد) ، **أما الجمعية القبلية** فكانت تصدر **القوانين التى تنظم حياة المجتمع الرومانى الداخلية** فى معظم تفاصيلها على اعتبار أن الغالبية الساحقة فى المجتمع الرومانى من العامة مع عدم المساس بحقوق وامتيازات الأشراف . **ولم يحدث ما يعكر صفو هذا الاتفاق** الذى نتصوره إلا فى أواخر القرن الثانى ق.م. وبالتحديد عام ١٣٣ ق.م. حين تجاوزت الجمعية القبلية بزعامة **تيبريوس جراكوس**

صلاحياتها واصدرت قوانين فى أمور من اختصاص السناتوس ، وهو ما سيؤدى إلى اعمال عنف خطيرة اريقت فيها دماء الساسة الرومان على الساحة الرومانية لأول مرة كما سنرى.

ولابد أن نشير فى هذا الصدد إلى أن **قانون هورتنسيوس** الذى منح "الجمعية القبلية " حق إصدار القوانين **لم يكن أمراً هيناً وتقبله الأشراف ببساطة**. فلابد لنا أن نتخيل مقدار **الامتعاض من جانب الأشراف** من قرارمثل هذا يطعنهم فى الصميم حين يسند للجمعية القبلية حقاً أصيلاً لهم تمتعوا به على مدىً عدة قرون. لكن هذا الأمر يظهر الوجه الآخر للعملة وهو أنه على الرغم من الاستياء المتوقع من جانب الأشراف فى موضوع محورى مثل هذا الأمر الجلل إلا انهم **احتراماً لنظامهم الدستورى العتيد لم يكن بوسعهم مقاومة هذا القانون بل انحنوا احتراماً له** ولم يشككوا فى مصداقية قرار الديكتاتور هورتنسيوس رغم أنه من العامة وأن الأزمة التى جاء لحلها هى أزمة الديون. وعلى الرغم من قلة المعلومات المصدرية حول فترة الديكتاتور هورتنسيوس أكثر مما أوردناه إلا انها تنوه إلى انه الديكتاتور الرومانى الوحيد الذى توفى أثناء شغله لهذا المنصب .

أخيراً وليس آخراً نختتم موضوع "الصراع بين العامة والأشراف" ببضع ملاحظات سريعة تتلخص فيما :

(١) أن **المراحل الأربعة الأولى من هذا الصراع** حتى ما بعد منتصف القرن الخامس ق.م. شكلت **مكاسب "معنوية"** لعامة الرومان إذ حفظت لهم قدراً من كرامتهم أمام الأشراف وجنبتهم بعض التجاوزات الفظة من جانب بعض الأشراف ، وجعلتهم على دراية بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، وازالت حاجزاً تمييزياً منيعاً كان يفصل بين المواطنين الرومان من أشراف عامة .

(٢) ان **قوانين سيكستوس وليكينيوس عام ٣٦٧ق.م.** رغم أنها اثارت قدراً كبيراً من الجدل الحامى الوطيس لما يقرب من عشرة أعوام وتم إقرارها بصعوبة بالغة ورغم أنها عالجت قضايا حيوية وملموسة على الأرض كالوظائف التنفيذية والأرض العامة وفوائد الديون **إلا أن أثرها الإيجابى كمكاسب للعامة لم يستمر طويلاً** بل وتكاد تكون قد أفرغت من مضمونها على المدى الطويل. فمسألة الوظائف التنفيذية لم ينص بشأنها على حتمية حصول العامة على حصة ثابتة سنوياً من هذه الوظائف ، بل أتيح هذا الحق الدستورى لمن تنطبق عليه شروط الترشح لهذه المناصب من أبناء العامة - وهم قلة نادرة - ولمن يقدر منهم على خوض غمار المعارك الانتخابية الحامية التى تتطلب خبرة وثروة وشعبية . هذه المؤهلات التى كانت متوافرة لكثير من أبناء الأشراف لم تكن متاحة - فى الواقع - إلا للقليل النادر من صفوة أبناء العامة ؛ وعلى هذا فقد **ظلت معظم المناصب** التنفيذية - حتى بعد صدور تلك القوانين - **فى أيدى الأشراف** وأحياناً ما كان **بعضها يُفلت** - على سبيل الاستثناء - لتقتنصه **أيدى صفوة الصفوة من العامة**. أما من جهة قضايا **" الأرض العامة " و " الديون "** فإن ما صدر من قوانين بشأنها **لم يستمر تطبيقه طويلاً** ، إذ سرعان ما **طواها النسيان وعادت الأمور كما كانت وأكثر**. ففى ظل التوسعات الرومانية المستمرة بعد ذلك التاريخ توسعت وتضخمت "أملاك" الأشراف من " الأرض العامة " فى إيطاليا والولايات بعد ذلك ، وتقلصت ملكيات العامة من الأراضى بصورة هائلة فى ظل ظروف سنتعرض لها فيما بعد. كما جرت تعديلات عديدة على قوانين الديون سنتحدث عنها فيما بعد .

(٣) **أن الصفوة من العامة** الذين تمكنوا من اختراق الجدار الحديدى الذى يفصل بينهم وبين الأشراف ووصلوا إلى مصاف المناصب الشرفية العليا كالقنصلية والكنسورية **ومن ثم أصبحوا** يمثلون الطبقة الجديدة من " الوجوه الجديدة *novi hominés*" فى مجلس السناتو قد اصبح معظمهم - فى تقديرى - **خصماً من رصيد العامة وليس إضافة إليه**. لقد انضوى معظم هؤلاء **تحت عباءة الأشراف ودخلوا فى مصاهرات معهم** واصبحوا أميل إلى **محاكاتهم والتشبه بهم** والتنصل تدريجياً من جذورهم والانحياز لوضعهم الجديد. وحتى **الجمعية القبلية بوضعها الجديد** لم تسلم من أصابع الأشراف ومن تدخلهم غير المباشر فى شئونها عن طريق **استمالة التراينة المؤثرين ومحاولة إجهاض القرارات المؤثرة عن طريقهم** .

وهكذا فإن مكاسب العامة من جراء هذا الصراع - والتى قد تبدو كبيرة - كانت فى المحصلة النهائية متواضعة وظلت الهيمنة للأشراف .

المراجـع

(1) *M. C.Howatson (editor), The Oxford Companion to Classical Literature, art. Client, p.* 141.

تابع (١) أنظر:

Dionysius of Halicarnassus, 2. 9 – 10.

حيث يُرجع نظام التبعية إلي بدايات نشأة روما فى ظل ملكها الأسطوري الأول رومولوس الذى حدد حسب قول ديونيسيوس الهليكارناسي- واجبات والتزامات كل من "الاتباع" العامة "والرعاة" الأشراف نحو بعضهما البعض.

(2) *M. Grant, History of Rome,* 1978, *pp.* 60 – 61.

(3) *H. H. Scullard, op. cit., pp.* 57 – 58.

(4) *J.- C. Richard, Les Origines de la plébe romaine,* 1978, *pp.* 541 *ff.*

(5) *H. Le Bonniec, Le Cult de Cérés à Rome,* 1958, *B. S. Spaeth, The Roman Goddess Ceres,* 1996.

(6) *A. Bruhl, Liber Pater,* 1953; *E. Simon, Die Götter der Römer,* 1990, *SS*- 126 – 34.

(7) *G. Niccolini, Il tribunato della pleb,* 1932; *Lily Ross Taylor, JRS* 1962, *pp.* 19 *ff.*; *J. Bleicken, Das Volkstribunat der klassischen Republik (2ed),* 1968.

(8) H.H. Scullard, op. cit., pp. 63 – 66; M. Grant, op. cit., pp. 64 – 67; David Cherry (ed.), The Roman World, A sourcebook, Blackwell, Oxford, 2001, pp. 4-9; Simon Hornblower and A. Spawforth (eds.), The Oxford Classical Dictionary (3), 1996, art. Decemvirates and Tweleve Tables. M. H. Crawford (ed.), Roman Statutes, 1996, no. 40, vol. 2, pp. 578-82.

(9) H. H. Scullard, op. cit., appendix 5 (The Valerio-Horatian Laws), pp. 454 – 55.

(10) J.Lindesk, in R. Raaflaub (ed.), Social Struggles in Archaic Rome (1986), pp. 244ff.

(11) M. Grant, op. cit., pp. 67 – 68.

(١٢) مصدرنا الرئيسى عن هذه المرحلة واحداثها هو المؤرخ ليفيوس
T. Livius, 6. 34-42.
أنظر كذلك : Appianus, Bellum Civile 1.33.

(١٣) ال "يوجيروم *iugerum* " (جمعها *iugera*) مقياس ارض عند الرومان تبلغ مساحته ٢٨,٠٠٠ قدم مربع وهو ما يساوى ثلثى مساحة الفدان (*acre*) الإنجليزى .

(14) F. De Martino, Storia della costituzione romana 2.2nd. ed., 1960, pp. 149ff. ; A. K. Michels, The Calendar of the Roman Republic, 1967, pp. 103ff. ; G. Maddox, Latomus, 1983, pp. 277–86.

الفصل السادس

العلاقات والصراعات بين روما وجيرانها الإيطاليين

حتى إخضاع إيطاليا عام ٢٦٥ ق.م.

(١) محاولة الإترورين إستعادة روما : لارس بورسينا

ذكرنا من قبل - فى سياق الحديث عن نهاية العصر الملكى - أن روما بقيت لاتينية الجذور واللغة والتقاليد والديانة رغم الحكم والنفوذ الإتروري للمدينة فى الفترة الأخيرة من الحكم الملكى؛ وبعد فرار آخر ملوك روما "تاركوينيوس الطاغية" الإتروري يُروى أن أحد ملوك إتروريا وهو **"لارس بورسينا"**[١] ملك **مدينة "كلوسيوم" الإترورية** حاول أن يعيد الملك الطريد تاركوينيوس إلى عرشه فى روما ، ويُروى عنه أنه قام بحصار روما فى بدايات العصر الجمهورى ولكنه **واجه مقاومة ضارية من الرومان** جعلته يتراجع عن حصار روما ويقال أنه توصل إلى **صلح مع الرومان** أمام هذه الأمثلة **من البطولات الرومانية الخارقة**. من هذه البطولات التى يحتفظ بها التاريخ الرومانى والروايات عن تلك الفترة المبكرة تلك القصة عن البطل الرومانى جايوس موكيوس **سكايفولا**[٢] (*Scaevola* **وتعنى الأشول)** الذى تسلل - حسب رواية ليفيوس - إلى معسكر الملك "بورسينا" وحاول إغتياله لكنه لم يستطع التعرف عليه فاخطاه وقتل كاتم أسراره الذى كان يجلس إلى جواره. ولما ألقى القبض عليه بعد فشل المحاولة لم يخش التعذيب والوعيد بل قام هو - فى ذهول من الأعداء - بوضع يده اليمنى فى النار حتى إحترقت تماماً دون أن يصرخ أو يتألم- ولذا أطلق عليه "الأشول". كما يُروى عن بطل رومانى آخر هو **"هوراتيوس الأعور** *Cocles*"[٣] الذى قام بتحفيز الرومان الفارين من وجه الجيش الإتروسكى الذى إستولى على تل جانيكولوم على الضفة الخرى من النهر وحثهم على الثبات لبعض الوقت وتدمير الجسر الذى يربط بين ضفتى التيبر حتى لا يعبر العداء من عليه إلى داخل روما نفسها. وأفلح هوراتيوس فى إقناع عدد كبير من رفاقه الرومان بالشروع فى عملية تدمير الجسر من ناحية روما فى حين وقف هو - بمفرده معظم الوقت- على الجانب الآخر من

الجسر أمام جيش بورسينا ودعاهم إلى المنازلة الفردية وسط ذهول الأعداء وظل يقاوم بمفرده ويصد عن نفسه سهام الأعداء بدرعه إلى أن انجز رفاقه مهمتهم فى تدمير معظم الجسر وقطع الطريق على الجيش الإترورى. حينئذ ألقى بنفسه فى النهر بكامل عدته وعتاده وظل يسبح حتى وصل إلى رفاقه على الضفة الأخرى سباحة وسط فرحة عارمة من الرومان ببطلهم المغوار. (وقد كان أول ذكر لهذه الرواية فى المصادر الرومانية المتاحة عند بوليبيوس : 4-6.55.1).

وتتضارب الآراء بعد ذلك بين القول بأن **اللاتين قدموا العون إلى روما** - المدينة اللاتينية - **ضد الملك الإترورى الغازى** لارس بورسينا وأجبروه بعد إنتصارهم عليه على ترك روما وشأنها وبين **رواية أخرى** أكثر قبولاً تفيد بأن **ملك كلوسيوم إنسحب من روما أمام المقاومة الباسلة** ووجه قواته — تحت قيادة إبنه أرّونس *Arruns* - **ضد بلدة "أريكيا" اللاتينية** ولكن تصدى له **اللاتين بمساندة حلفائهم من مدينة "كوماى"** تحت قيادة أريستوديموس[4] المخنث الذى سيصبح طاغية لكوماى (٥٠٤ — ٤٩٠ ق.م.). ويُروى أن هذه الحملة التى قادها أرّونس ابن بورسينا ضد **"أريكيا"**[5] فشلت حيث **انهزم جيش أرّونس ولقى هو حتفه فى المعركة**، ويُحكى ان **الناجين من جيشه** عادوا أدراجهم شمالاً **نحو روما حيث إستقبلوا بترحاب**، وهو ما يزيد القصة غموضاً. بل والأكثر تعقيداً **ما ورد فى المصادر الرومانية اللاحقة** من العصر الإمبراطورى من أن **الرومان قد خضعوا لحكم بورسينا** واستسلموا له كما أورد المؤرخ تاكيتوس (*Hist*.3.72) وانه فرض عليهم معاهدة مهينة كما يذكر بلينى الأكبر (*N.H.*34.139). وبناء على هذه المعلومات اللاحقة يرجح بعض العلماء ان **بورسينا ربما إستخدم روما كقاعدة إنطلاق** يبدأ منها **هجماته على اللاتين**، وأن **ماجعله ينسحب من روما هو هزيمة قواته** فى **"أريكيا"**،

كما أن هذا الإطار العام **لا يوحى بأن بورسينا كان يرمى إعادة "تاركوينيوس الطاغية"** إلى عرش روما لأن الأخير كان حليفا سابقا لأعداء بورسينا من اللاتين وكوماى بل ربما **ألغى بورسينا الملكية فى روما وأن النظام الجمهورى الرومانى برز وتوطد بعد رحيله عن روما** بعد موقعة **أريكيا** (٢٥كيلو متر إلى الجنوب الشرقى من روما) التى وقعت على الأرجح **عام٥٠٥ق.م**.

يبدو أن هذا كان هو واقع الحال فعلاً وأن **روما ربما خضعت لفترة إحتلال قصيرة من جانب ملك كلوسيوم "لارس بورسينا"** فى الفترة من **٥٠٧ - ٥٠٥ ق.م**. وأن **الأعمال البطولية الكبيرة** التى نسبتها المصادر الرومانية اللاحقة إلى أبطال رومان مثل **موكيوس سكايفولا وهوراتيوس كوكليس** لم تكن سوى **أعمال بطولية فردية فى ظل الإحتلال أو مبالغات** جادت بها قريحة المؤرخين الرومان اللاحقين (من أمثال ليفيوس مؤرخ البلاط الأغسطى) الذين كانوا يميلون لتمجيد وتعظيم وإبراز البطولة الرومانية. وهكذا فإن الأقرب إلى الصحة هو أن **روما لم يكن لها دور فى موقعة "أريكيا"** التى إنهزم فيها الإتروريون على يد **اللاتين الذين شكلوا حلفاً استبعدوا منه روما بل وأعلنوا الحرب عليها** لأنها كانت **قاعدة إنطلاق** وراس حربة للإتروريين فى هجماتهم على اللاتين حين كانت محتلة من قبل "لارس بورسينا" . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد إنسحاب "بورسينا" من روما عقب هزيمة قواته فى "أريكيا" اصبحت روما مستقلة عن السيادة الإترورية، ولكن **مدينة فيى** الإترورية كانت قد إستولت فى تلك الفترة على ضاحية شمالية من روما تدعى **"فيديناى *Fidenae*"** تقع شرق التيبر لكى تضمن لها موطئ قدم هناك.

(٢) الصراع المبكر بين مدن لاتيوم وروما (موقعة بحيرة ريجيلوس ٤٩٦ق.م. – معاهدة كاسيوس ٤٩٣ق.م.)

نتيجة لهذا العداء الكامن فى نفوس اللاتين تجاه روما والذى شرحنا دوافعه بدأ اللاتين يفصحون عن هذا العداء لروما خصوصاً بعد إنتصارهم على الإتروريين فى موقعة "اريكيا" سنة ٥٠٥ ق.م. وتحولت حالة التوتر والعداء الكامن تحت السطح إلى **عداء صريح** تجسد فى صورة موقعة ومواجهة شهيرة فى التراث الرومانى هى **موقعة "بحيرة ريجيللوس"**(١) التى يذكر ذلك التراث أنها وقعت فى بدايات القرن الخامس ق.م. إما فى عام **٤٩٩ او ٤٩٦ ق.م.** بين الفريقين والتى كانت ذروة ذلك الصراع المبكر. ويروى انه كان يقود تحالف اللاتين فى تلك المعركة القائد اوكتافيوس ماميليوس *Octavius Mamilius* من مدينة "توسكولوم" اللاتينية الشهيرة والذى كان صهراً لملك روما الأخير "تاركوينيوس الطاغية"، وهو ما قد يوحى بمناصرة اللاتين له لإستعادة عرش الملكية فى روما. أما بخصوص دور توسكولوم القيادى فى إقليم لاتيوم فربما تؤكده إحدى شذرات مؤلف "الأصول *Origines*" الكاتو الأكبر (*M.P.Cato.Orig. fr.*٥٨ *Peter*)، وإن كانت المصداقية التاريخية لقيادة ماميليوس للقوات اللاتينية فى هذه المعركة محل شك. على أية حال يروى التراث الرومانى ان هذه المواجهة بين الطرفين أسفرت عن **انتصار بطولى لصالح الرومان على خصومهم اللاتين** بفضل مؤازرة الأخوين التوام ابناء زيوس وليدا (الذين رُفعا إلى السماء وإرتقيا إلى مصاف الآلهة وعُرفا فى الأساطير الإغريقية باسم *Dioscuri* اى "ابناء زيوس") وهما **كاستور وبولوكس** لهم، وقد اقام الرومان معبداً لهما فى " الفوروم" الرومانى إعترافاً بفضلهما.

وبعد بضع سنوات تولى **القنصل سبوريوس كاسيوس** فيكيللينوس عام٤٩٣ ق.م. (تولى القنصلية فى أعوام٥٠٢، ٤٩٣، ٤٨٦ق.م. حسب قائمة القناصل *Fasti Consulares*) التفاوض مع اللاتين من أجل إبرام معاهدة معهم وتم التوصل إلى تلك المعاهدة التى سميت بإسم ذلك القنصل **"معاهدة كاسيوس"**[٧] *Foedus Cassium (Cassianum)*. وقد ظلت نسخة من هذه المعاهدة باقية حتى أيام شيشرون(*Cicero, Balb.53*) كما أورد ديونيسيوس الهاليكارناسى أهم بنودها (6.95) . وقد نصت هذه المعاهدة فى بنودها على التوصل إلى **سلام دائم** بين روما وبقية المدن اللاتينية وأن يدخل الطرفان فى **تحالف عسكرى** وأن يقدم كلاهما الدعم لبعضهما البعض فى المعارك (دفاعية وهجومية) **ويتقاسمان غنائم الحرب ويتناوبان القيادة**. هذا من الناحية العسكرية أما من **الناحية المدنية** فقد إتفق الطرفان –بمقتضى هذه المعاهدة- على **تبادل بعض حقوق المواطنة** بين الرومان واللاتين ومن أبرزها :

أ- **حق التجارة** *ius commercium* الذى يعطى المواطنين من الطرفين حق التبادل التجارى الحر فى كافة أرجاء إقليم لاتيوم وما يترتب عليه من حرية نقل السلع والبضائع وإمتلاك محلات تجارية ومساكن وبيع وشراء ورهن وكافة المعاملات التجارية.

ب- **حق التزاوج** *ius conubium* بين الطرفين وما يترتب عليه من حقوق خاصة كالتوريث والإلتزامات العائلية الأخرى كالوصايا وتقسيم الأملاك وغيرها.

هذا الموقف برمته يوحى بعدة مؤشرات هامة نوجزها فيما يلى :

(١) إن **إنتصار روما على اللاتين** فى موقعة **بحيرة ريجيللوس** الشهيرة **لم يكن نصراً حاسماً وباهراً** كما تصوره الدعاية الرومانية بدليل انه

ادى إلى موقف تفاوضى اسفر عن معاهدة كاسيوس التى أعطت حقوقاً متساوية ومتكافئة للطرفين.

(٢) أن اللاتين **برغم حنقهم على روما** التى كانت قاعدة إنطلاق للإتروريين تجاههم من جهة الشمال **لم ينسوا أنها** -فى نهاية المطاف- **مدينة لاتينية** وأنها ينبغى أن تكون **رأس حربة فى شمال لاتيوم تصوب نحو الإتروريين** بدلاً من أن ترتمى فى أحضانهم إذا ما نبذها اللاتين، لا سيما وهى على حدود إتروريا.

(٣) أن **اللاتين كانوا يرغبون فى إبرام إتفاقية صلح وسلام دائم مع الرومان** والدخول فى تحالف عسكرى معهم - ليس كنتيجة لهزيمة ساحقة تعرضوا لها - بل لأن **قبائل الجبال المحيطة** بهم من الشرق والجنوب (فوق جبال الأبنين) **كانت تضغط عليهم وتهددهم** آنذاك. وأمام هذا الخطر الداهم من قبائل الجبال كان لابد أن يتماسك اللاتين ويظهروا فى صورة جبهة موحدة امام خصوم أقوياء، وبلا شك أن العون العسكرى الكبير من روما لهذه الجبهة يُعد مكسباً كبيراً لهم.

(٣) الحلف اللاتينى فى مواجهة قبائل الجبال فى القرن الخامس ق.م. (السابين – الأيكوى – الـ"هيرنكى" – الفولسكى).

كما سبق أن نوهنا فإن سلسلة جبال الإبنين كانت تمتد من الشمال إلى الجنوب فى إيطاليا إلى الشرق من السهول الغربية الإيطالية الغنية (إتروريا - لا تيوم - كامبانيا). وكانت هذه الجبال تحصر إلى الشرق منها سهولاً شرقية ضيقة محدودة الموارد تقع بين تلك الجبال وبين البحر الأدرياتيكى (وهى من الشمال إلى الجنوب أومبريا - بيكينوم - أبوليا) . وأشرنا إلى ضيق الموارد الاقتصادية وقسوة الطبيعة على سكان هذه

الجبال أحياناً مما كان يضطر هؤلاء إلى الإغارة على السهول الغنية الواقعة إلى الغرب منهم. الآن وفى إطار التطبيق العملى لتلك الأوضاع الطبيعية الجغرافية نأتى لحديث عن **منظومة العلاقة بين اللاتين** سكان إقليم لاتيوم **وقبائل الجبال** الواقعة إلى الشرق منهم والتى تقطن **الجزء الأوسط من جبال الإبنين** قبالة لاتيوم.

هذه القبائل من الشمال إلى الجنوب فى تلك المنطقة هى قبائل **السابين** *Sabini* **والأيكوى** *Aequi* **والهيرنيكى** *Hernici* **والفولسكى** *Volsci* . وتروى المصادر التاريخية أن الرومان دخلوا فى تحالف دفاعى وأبرموا معاهدة بهذا المعنى مع **قبائل الهيرنيكى**[^8] عام٤٨٦ ق.م. ونسبت هذه المعاهدة كذلك إلى القنصل سبوريوس كاسيوس فى قنصليته الثالثة. وتروى هذه المصادر (*Dion. Hal.* 8.64*f.*; *Livy* 2.4) ان الهيرنيكى حاربوا بضراوة مع اللاتين والرومان ضد قبائل الجبال الأخرى لا سيما الايكوى والفولسكى. وقد كان هؤلاء الهيرنيكى يقطنون منطقة تدعى وادى تريروس *Trerus* . وهكذا **تشكل فى وقت مبكر من القرن الخامس ق.م. تحالف ثلاثى مبكر ضم الرومان واللاتين وقبائل الهيرنيكى.**

أما عن **قبائل "السابين"**[^9] التى كانت تقطن المناطق الواقعة إلى الشمال الشرقى من روما بمحاذاة الجانب الغربى من وادى التيبر والممتدة حتى مرتفعات الإبنين فقد سبق ان ذكرنا فى الحديث عن الأساطير القديمة حول نشأة روما ما ورد بها عن زواج الرومان الأوائل عنوة" من بنات السابين وما ترتب على ذلك من حرب بين الطرفين ثم تصالح وصلات قربى ومصاهرة وإندماج. بل لقد شارك السابين فى حكم روما ممثلين فى ملكهم تيتوس تاتيوس الذى كان شريكاً لرومولوس فى حكم روما، كما ان إثنين من ملوك روما اللاحقين وهما نوما بومبيليوس وانكوس ماركيوس كانا من السابين. ومع كل ذلك يروى فى المصادر

الرومانية ان السابين تحرشوا عسكرياً بالرومان خلال النصف الأول من القرن الخامس ق.م. ولكن الحق الرومان بهم هزيمة عام ٤٤٩ ق.م. لم تقم لهم قائمة بعدها إلا عام ٢٩٠ ق.م. حين غزاهم قائد رومانى هو القنصل كوريوس دينتاتوس ومُنحوا على أثر ذلك المواطنة الرومانية الناقصة (أى بدون ممارسة الحقوق السياسية) ثم منحوا المواطنة الرومانية الكاملة عام٢٦٨ ق.م.

هكذا فإن **القبائل الأكثر خطورة** على الكيان اللاتينى الذى كان الرومان احد اعضائه هى قبائل **الأيكوى والفولسكى**. وقد كان **الأيكوى**[١٠] يقطنون مناطق جبال الأبنين إلى الجنوب من السابين وتوسعوا نحو الغرب تجاه إقليم لاتيوم من مواطنهم الجبلية وبحلول عام٥٠٠ق.م. كانوا قد إستولوا على المرتفعات والجبال الواقعة وراء مدن برانيستى (بالسترينا الحالية على بعد٣٧كم إلى الجنوب الشرقى بعد روما) وتيبور (تيفولى الحالية) التى كانت تتحكم فى الطريق المؤدى إلى وادى نهر الأنيو المؤدى إلى وسط جبال الأبنين، وبذلك شكلوا خطراً داهماً على إقليم لاتيوم. وعلى مدى سبعين عاماً بعد ذلك التاريخ اثبتوا انهم **اكثر خطورة وشراسة فى مجابهة التحالف الثلاثى (روما واللاتين والهيرنيكى) من حلفائهم قبائل الفولسكى** رغم قلة اعدادهم (الأيكوى) كما يروى ليفيوس*(6.12)* . وقد إتخذ الأيكوى من **مرتفعات البانوس مقراً لهم** واقاموا لهم قلعة **حصينة على جبل "الجيدوس"** على الحافة الشرقية من مرتفعات البانوس، وكانوا يشنون منها الهجمات على اللاتين والرومان ويتحصنون بها. وكان الأيكوى قد **استولوا على هذه القلعة** فى أوائل القرن الخامس ربما **عام ٤٨٤ ق.م.** على الأرجح كما يشير إلى ذلك ديودور الصقلى*(11.40)*.وهناك روايات رومانية حول بعض **بطولات الرومان ضد الأيكوى** أبرزها ما يروى عن الديكتاتور **كينكيناتوس**[١١] ؛ ففى عام ٤٥٨ق.م. حاصر الأيكوى القنصل **لوكيوس مينوكيوس** إيسكويلينوس

اوجوريـنوس **عـلى جـبل "الجـيدوس"** وتحـرج موقـف الـرومان فعيـنوا ديكـتاتوراً هـو لوكـيوس كوينكيـتيوس كينكيـناتوس الـذى أبلغ بأمر إسـتدعائه لشغل منصب الديكـتاتور وهـو يعمل فى حقله وعلى محرائه. وفـى غضـون خمسـة عشـر يومـاً كـان كينكيـناتوس قـد حشـد جيشـه والحق الهزيمة بـ "الأيكوى" وأقام إحتفال النصر وسلم السلطة للدولة وعاد يحـرث حقلـه. وكانـت قصـة كينكيـناتوس تـروى للـرومان فـى العصور اللاحقـة لكى **تتخذ مثلاً يحتذى على بساطة الرومان الأوائل وتفانيهم فى أداء الواجب** وتـرفعهم فـوق زخـرف المناصـب وبـريقها. ولكـن رغـم هـذه الـرواية المثاليـة عـن كينكيـناتوس إلا أنـه لم ينتصـر عـلى الأيكوى - على الأرجـح - ذلـك النصـر الساحق الذى يـردعهم بدليل انهم عاودوا هجماتهم عام٤٥٧ وعام٤٥٥ق.م.

وقـد تـوا صلـت هجمات وتحرشات الأيكوى بالرومان **ولم تتوقف إلا حـوالى عـام٤٣١ ق.م.** حـين إنتصـر علـيهم (وعـلى حلفـائهم الفولسـكى) الديكـتاتور **بوسـتوميوس توبيرتـوس**[١٣] واسـتولى عـلى قاعـدتهم الحصينة فـى "الجيـدوس". **ويصـف ليفـيوس هـذه المعـركة وبطولات الرومان** فيها بصورة مماثلة **لوصف هوميروس للمعارك فى الإلياذة**، ويقترب الوصف هنا عـند ليفـيوس *(4.27ff.)* مـن وصـف معـركة "بحـيرة ريجولـوس" ضـد اللاتـين. وبعـد تلـك المعـركة لم يرد ذكـر "الأيكوى" إلا لماماً حتى عام ٣٠٤ حـين عـاود الأيكـوى السيطرة عـلى مـناطقهم الأصـلية فـى وسـط إيطاليا واستاصـل الـرومان شـأفتهم واقـاموا مسـتوطنات لاتينـية فـى مـناطقهم ومـنحوا مـن تـبقى مـنهم حـق "المواطـنة بـدون الحقوق السياسية *civitas sine suffragio*" واضـفوا علـيهم الصـبغة الرومانـية كمـا يـروى ليفـيوس (9.45;10.1.9).

أما الفولسكى[١٣] فهم من الشعوب الإيطالية القديمة ، ولكن لم تبرز أهميتهم فى الروايات التاريخية القديمة إلا إعتباراً من بدايات القرن الخامس ق.م. عندما اجتاحوا **جنوب لاتيوم واحتلوا جبل ليبينى** (*Mt - Lepini*) ومعظم سهل *Pomptine* **والمنطقة الساحلية** الممتدة من **أنتيوم إلى تاراكينا**. وعلى مدى القرن الخامس ق.م. كان الفولسكى غالباً ما يهاجمون حدود روما وحلفائهم اللاتين بالتنسيق مع الأيكوى فى معظم الأحوال. ولكن - كما سبق أن أوضحنا - فقد **لحقت بالطرفين هزيمة ثقيلة عام٤٣١ ق.م.** توقفت بعدها غاراتهم تقريباً ، ومع نهاية القرن الخامس والعقود الأولى من القرن الرابع أخذ الرومان زمام المبادرة فى غزو مناطق الفولسكى تدريجياً وإقامة مستوطنات لاتينية فيها.

وفى سياق الحديث عن الفولسكى يجدر بنا أن نشير إلى جنايوس ماركيوس **كوريولانوس** *Coriolanus*[١٤] . لقد كان كوريولانوس أحد أشراف الرومان واكتسب لقبه من دوره الفعال الذى لعبه فى **استيلاء الرومان على مدينة كوريولى** *Corioli* " من أيدى الفولسكى عام٤٩٣ ق.م. وتروى أنه ذهب إلى المنفى بعد إتهامه بأنه ينتهج نهج الطغاة واعتراضه على توزيع القمح على المحتاجين من العامة مما جعل ترابنة العامة يلاحقونه قضائياً ويتهمونه بالصلف والغرور وسلوك مسلك الطغاة مما أدى إلى نفيه. **وحين صدر عليه الحكم بالنفى رحب به خصومه القدامى الفولسكى** فى مدينة **"انتيوم"** الفولسكية واتخذوه قائداً لهم فى حروبهم ضد روما. وتمكن من خلال حملتين شرستين من الإستيلاء على عدد من المدن اللاتينية إلى أن أصبحت قواته **على مشارف روما وبواباتها**. ولكن أمام استعطاف وإقناع امه "فيتوريا" وزوجته "فولومنيا" تراجع عن حصاره لروما وسحب قواته من الفولسكيين ، وهو ما جعل الفولسكيين يقتلونه عند عودته (على الرغم من ان فابيوس بيكتور *Peter fr.* 17 يعتقد انه

ظل على قيد الحياة حتى سن الشيحوخة) إن قصة كوريولانوس قد ورد ذكرها عند ليفيوس (2.33) وديونيسيوس الهاليكارناسى ثم روى بلوتارخوس سيرة حياته التى اتخذها شكسبير أساساً لمسرحيته المسماة "كوريولانوس".

إن **قصة كوريولانوس** - بعيداً عن جوانبها الشخصية - **تعد مؤشراً على مدى كثافة هجمات الفولسكى على مدن لاتيوم** وتغلغلهم فيها ووصولهم إلى مشارف روما على بعد خمسة اميال منها فى أوائل القرن الخامس ق.م. وإذا ما ربطنا خيط الأحداث ببعضها لراينا كيف أن **ضغط هجمات الفولسكى والأيكوى على مشارف لاتيوم** كانت **من عوامل الإسراع فى التوصل إلى معاهدة كاسيوس" عام٤٩٣ ق.م.** بين اللاتين والرومان. كما أن التحول من نظام القنصلية إلى نظام "لجان الترابنة العسكريين ذوى السلطة القنصلية" فى روما إعتباراً من عام ٤٤٤ ق.م. كان **دليلاً على رغبة روما القوية فى تكثيف هجماتها ضد تلك القبائل** من خلال حشد الجيوش والقيادات أمام هذه القبائل مما أدى إلى **كسر شوكتها وتحجيم دورها إعتباراً من عام٤٣١ ق.م.** وإن كان مسلسل مواجهات وصراعات روما لم يتوقف بعد ذلك وإنما إتجه وجهة اخرى مع خصوم آخرين.

(٤) الرومان وتدمير مدينة فيبى الإتروسكية ٣٩٦ق.م.

فى الوقت الذى تحالفت فيه روما مع جيرانها اللاتين لمجابهة قبائل الأيكوى والفولسكى من الشرق والجنوب تركت لتواجه مصيرها فى الشمال حيث كانت فى مواجهة مع إحدى مدن خصومها السابقين الإترورين[١٥]. هذه المدينة الإترورية هى "**فيبى** *Veii* " الواقعة على بعد حوالى خمسة عشر ميلاً على الضفة الغربية من نهر التيبر. وكانت فيبى

تتمتع بمساحة كبيرة وأراضى زراعية خصبة وموقع حصين ومناخ صحى وكانت تتفوق فى هذه النواحى على روما. ويذكر ليفيوس (5.22) أن تلك المدينة كانت **أكثر المدن الإتروسكية ثراءً** *urbs opulentissima Etrusci nominis*. وقد عثر فى مقابرها ومعابدها الفخمة على آثار وقرائن تشهد بذلك الثراء. وعلى أثر رحيل الإتروسكين من روما بعد هزيمتهم فى موقعة " أريكيا " عام٥٠٥ق.م. أرادت فييى أن **تحتفظ لنفسها بموطئ قدم شرق التيبر** من خلال الاستيلاء على **"فيدناى** *Fidenae* **"** على الضفة الأخرى من التيبر فى شمال إقليم لاتيوم، كما كانوا يغيرون من حين لآخر على تل جانيكولوم غرب التيبر قبالة مدينة روما.

وهكذا فإن هذا الوضع قد خلق - فضلاً عن الكراهية القديمة التى يشعر بها الرومان نحو الإتروريين - **منافسة حامية بين روما اللاتينية وفييى الإترورية**. كما عزز من هذه المنافسة **محاولات الطرفين التحكم فى أغوار وأحواض الملح (الملاحات) عند مصب نهر التيبر** حيث إستقرت مجموعة من عمال الملاحات الرومان منذ أمد بعيد. وترجح بعض الآراء أن **"لارس بورسينا"** الذى احتل روما لبعض الوقت فى أواخر القرن السادس لم يكن ملكاً على "كلوسيوم" البعيدة بل **كان على الأرجح ملكا على " فييى"** القريبة. إن صحت هذه الفرضية فإنما تدل على تحول المنافسة بين الطرفين إلى صراع ملموس على الأرض فى أواخر القرن السادس ق.م. كانت الغلبة فيه لتلك المدينة الإترورية.

وقد تواصلت الإغارات عبر الحدود بين المدينتين فى بدايات القرن الخامس ق.م. ولكن **حرباً حقيقية نشبت بين الطرفين ما بين ٤٨٣ - ٤٧٤ ق.م. وتذكر الروايات أن ماركوس فابيوس وجنايوس مانليوس الحقا هزيمة بـ "فييى" عام ٤٨٠ إنتقاماً لهزيمة سابقة لحقت بالرومان.** ولكن

يروى أنه فى العام التالى إستولى أهل فيبى على "جانيكولوم" فقام الرومان بهجوم مضاد وأقاموا لهم موقعاً حصيناً قطع الطريق بين فيبى وفيدناى. وظلت الحرب سجالاً **وانتهت عام ٤٧٤ بعقد معاهدة سلام بين الطرفين لمدة أربعين عاماً**، وإن بقيت "فيدناى" تحت سيطرة "فيبى" . وفى نهاية المطاف **استطاعت روما أن تسترد فيدناى نهائياً** فى السنوات ما بين٤٣٥- ٤٢٥ق.م.

بعد أن إستردت روما "فيدناى" نقلت الحرب مع فيبى بعد نحو عشرين عاماً **إلى عقر دار الخصم عام٤٠٥ ق.م.** إذ حاصرت روما فيبى حصاراً مريراً إستمر ما يقرب **من عشرة أعوام** (نفس مدة حصار الإغريق لطروادة قبل إسقاطها). صحيح أن فيبى تلقت بعض المساعدات من بعض المدن الإترورية المجاورة. مثل تاركوينى *Tarquini* وكابينا *Capena* لكنها لم تكن مساعدات كبيرة. ورغم ذلك صمدت فيبى فى وجه الحصار الرومانى صموداً باسلاً لمدة عشر سنوات بفضل ثرائها ومنعة تحصينها كما أسلفنا. ولما ضاق الرومان بهذا الصمود الطويل من جانب خصومهم لم يعد بوسعهم **إلا تعيين ديكتاتور هو ماركوس فوريوس كاميللوس**[١٦] **عام٣٩٦ق.م.**

ومع ظهور كاميللوس على مسرح الأحداث تتوالى سلسلة من **الأعاجيب والتخطيطات العسكرية البارعة** التى تضفى حيوية على المشهد. إذ يُروى أن **وحى دلفى** تنبأ بأن فيبى لن تسقط إلا بعد أن **تنصرف مياه بحيرة "البانوس"** مما جعل الرومان يشرعون على الفور فى سحب مياه البحيرة الواقعة جنوب غرب روما قرب توسكولوم. كما قدم كاميللوس بحفر نفق تحت "فيبى" وسمع المتسللون من الجند الرومان وهم فى النفق ملك فيبى من فوقهم وهو يقدم الأضحيات إلى "جونو" فى معبدها فوق رؤوسهم وهو يقول إن من يقدم الأضحيات سوف يحرز النصر فخرج الرومان من النفق وقدموا الأضحيات فسقطت فيبى فى أيديهم.

ويروى المؤرخ تيتوس ليفيوس (5.21) هذه الواقعة على النحو التالى:

"هناك رواية قديمة تفيد بانه بينما كان ملك فيبى يقدم الأضحيات اعلن احد الكهنة ان من يقطع احشاء واوصال الأضحية سيكتب له النصر فى الحرب. وقد إستمع إلى كلمات الكاهن بعض الجند الرومان من الرابضين فى النفق، فقاموا بفتح النفق وإنتزعوا الأحشاء واخذوها إلى كاميللوس .

واستعداداً للضربة الحاسمة امتلأ النفق بجند مُنتقين ثم إنطلق هؤلاء بدون سابق إنذار إلى معبد جونو فوق القلعة . ومن هنا فإن الأعداء الذين كانوا يحشدون الجند وراء الأسوار ضد اى تهديد من الخارج قد هوجموا من الخلف، وانفتحت مزاليج البوابات وأشعلت النيران فى المبانى بينما كانت النسوة والعبيد يقذفون بالأحجار وقوالب الطوب من فوق الأسطح على المهاجمين. وارتفعت اصوات جلبة مخيفة ما بين صيحات النصر وصرخات الفزع والذعر وعويل النساء ونحيب الأطفال المؤثر. وفى لحظة من الزمن ألقى بالمدافعين من فو ق الأسوار وإنفتحت بوابات المدينة وتدفقت من خلالها القوات الرومانية او تسلقت الأسوار التى لم يعد هناك من يدافع عنها، وتم اجتياح كل شىء وتاججت نيران المعارك فى كل شارع بالمدينة.

وبعد مذبحة مروعة بدأت المقاومة تضعف وتستكين واصدر كاميللوس اوامره بالعفو عن كل من لا يحمل سلاحاً. وهكذا توقف سفك الدماء وبدا استسلام من لا يحملون سلاحاً وانتشرت القوات الرومانية تنهب المدينة باوامر من كاميللوس ، وتمضى القصة إلى القول بانه عندما احضرت الغنائم والأسلاب إلى كاميللوس وادرك انها كانت اكثر واثمن مما كان يامل او يتوقع رفع يديه بالدعاء من أجل

التخفيف من وقع الحسد الذى قد تثيره كل هذه الغنائم فى نفوس أى من الآلهة أو البشر ممن يستكثرونها على الرومان وينفسون عليهم حظوظهم. ويروى التراث أنه وهو يتضرع بالدعاء استدار وحدث أن زلت قدمه، وهو ما اعتبره الحكماء بعد الحادثة نذيراً لما سيلاحقه من إدانة بعد ذلك، وبسقوط روما واحتلالها وهى الكارثة التى حلت بعد بضع سنوات. وهكذا انتهى يوم مشهود أنفقت كل ساعة فيه فى قتل خصوم روما ونهب مدينة ثرية".

وهكذا **حُكم على مدينة ثرية مرفهة بالإعدام** إذ عاث الرومان فيها فساداً وأشبعوها سلباً ونهباً وتخريباً وقتلوا رجالها وباعوا نساءها وأطفالها وشيوخها فى أسواق الرقيق والنخاسة. كما استولى الرومان على **"الأرض العامة" الفسيحة** التى كانت تابعة لـ "فيبى" وأثار سوء توزيعها **أزمة كبيرة** فيما بعد بين العامة والأشراف كما سبق أن رأينا. ويُروى أن كاميللوس قدم **نذراً إلى وحى وكهنة الإله أبوللو فى ديللفى باليونان** بهذه المناسبة وكان هذا النذر عبارة عن **إناء (حوض) ذهبى** واحتفظ به فى خزانة أهل ماسيليا فى ديلفى. وهذه إشارة طيبة **إلى علاقات مبكرة بين روما وبلاد اليونان ووحى أبوللو فى ديلفى** وكذلك **بينها وبين ماسيليا (مارسيليا)** - المدينة اليونانية التى أقيمت على الساحل الجنوبى لبلاد الغالة (فرنسا) - منذ وقت مبكر ولكن هذا الفاتح كاميللوس **اتهم بالإحتفاظ بجزء من الغنائم فإنسحب من روما** إلى منفاه الإختيارى فى "أرديا" فى إقليم لاتيوم.

ومما لا ريب فيه أن إسقاط مدينة "فيبى" المنيعة والإستيلاء على أرضها وثرواتها من جانب الرومان منحهم جرعة هائلة من **الثقة بالنفس وعزز مكانتهم بين حلفائهم** اللاتين **وبين خصومهم** السابقين من الإتروريين وعاد عليهم **بمكاسب وتوسعات** ملموسة. فبعد ان ضمت روما

إليها "الأرض العامة" لفيبى اقامت عليها **أربع قبائل ريفية جديدة** وهو ما جعلها **أكبر مدينة فى لاتيوم وعزز من قدراتها العسكرية** إذ أصبح مزيد من الجند الرومان من مُلاك الأرض وبوسعهم تسليح أنفسهم. كما أن إسقاط "فيبى" شجع الرومان **على مزيد من التوسع شمالاً** فى إتروريا ودخلت روما فى اتفاقات مع مدن مثل "سوتريوم" و "نيبيتى". ومن الروايات المشهورة عند ليفيوس عن هذه الفترة من التوسعات الرومانية فى إتروريا بعد إسقاط "فيبى" ما يرويه عن **إخضاع كاميللوس لمدينة "فاليرى** *Falerii* " الإترورية عام ٣٩٤ ق.م. إذ يُروى أن **ناظر مدرسة** بتلك المدينة **احضر تلاميذ مدرسته** إلى مقر قيادة كاميللوس فى المعسكر الرومانى الذى يقع خارج المدينة لكى يحتفظ بهم كاميللوس كرهائن ليفاوض بهم أهل المدينة. لكن كاميللوس رفض أن يجنى مكسباً بالغدر والخديعة فأعاد الأطفال إلى أهلهم بأمان وأرسل ناظر المدرسة الغادر مصفداً فى الأغلال ليلقى جزاءه من أهل المدينة وقد ذهل مواطنو المدينة من هذا النموذج الرومانى فى الشهامة والمروءة والعدالة مما جعلهم يسلمون للرومان.

ولكن لا ينبغى ان نسلم بصحة كل ما أورده ليفيوس الذى يحرص دوماً على إبراز **فضائل الشخصية الرومانية** المبكرة للترويج لما حدث من توسعات رومانية لاحقة وصلت إلى أقصى مداها فى عهد الإمبراطور اغسطس الذى كتب ليفيوس تحت رعايته . صحيح أن هذه الروايات لا تخلو من قدر من الصدق ولكنها تتسم بقدر من المبالغة الدعائية.

(٥) غزو القبائل الغالية[١٧] لروما وتوابعه ٣٩٠ق.م.

عند الحديث عن منطقة حوض نهر "بو" فى شمال إيطاليا ذكرنا أن الإتروريين كانوا قد مدوا نفوذهم إلى تلك المنطقة وبسطوا سلطانهم

عليها منذ فترة مبكرة. ولكن **تدفقت على هذه المنطقة سلسلة من الهجرات والغزوات من قبائل من وراء (شمال وغرب) جبال الألب من بلاد الغالة*** الأصلية بدات بقبائل الـ "**إنسوبريس** *Insubres*" التى أتت إلى المنطقة عبر وادى نهر تيكينوس (احد روافد "بو") وانتصرت على الإتروريين قرب مينبوم (التى اطلق عليها الرومان **ميديولانوم** وهى ميلانو الحالية) وقد حدث ذلك **خلال القرن السادس ق.م.** وبعد الإنسوبريس *Insubres* اتى لهذه المنطقة قبائل غالية أخرى متتابعة هى **الـ "كينومانى** *Cenomani* والـ "ليبوى *Libui* " وسالوى *Salui*· و "بويى *Boii* " والينجونيين *Lingones*".

وكانت **اخر القبائل الغالية التى قطنت حوض نهر "بو"** هى قبيلة الـ "**سينونيس** *Senones* " الذين إحتلوا شريطاً ساحلياً من الأرض **محاذياً للبحر الأدرياتيكى فى الشرق** وهى المنطقة التى أطلق عليها *ager Gallicus* أى "أرض الغالة" ، وقد أتى السينونين بزعامة **قائدهم برينوس** *Brennus* إلى المنطقة مع **بداية القرن الرابع**.

ولكن قبل أن نستطرد فى الحديث عن الوجود الغالى فى شمال إيطاليا نتحدث عن **أصل تلك القبائل الغالية**. إن المسمى الأصلى لتلك القبائل هو "**القبائل الكلتية** *Celts* " التى يُعتقد بصفة عامة انها إنتشرت بين موطنها الأصلى فى **حوض الدانوب الأعلى فى وسط أوروبا** الذى سكنته منذ عصر البرونز. وكان بعض من هذه القبائل **قد غزا حوض نهر الراين** ووصلوا إلى **بلاد الغالة وإستقروا فيها** وإكتسبوا **إسم "القبائل**

* بلاد الغالة (فرنسا الحالية) تضم المنطقة الممتدة من جبال البرانس وساحل البحر المتوسط الفرنسى حالياً حتى القنال الإنجليزى ومن المحيط الأطلنطى إلى الراين وغرب جبال الألب. وقد أُطلق عليها الرومان بلاد الغالة *Gallia* و الغالة وراء الألب *Gallia Transalpina*، وكان غالبية سكان الغالة ينتمون إلى عناصر من أصول كلتية قدمت من منطقة حوض الدانوب الأعلى منذ وقت مبكر نسبياً

الغالية" التى تنتمى إليها القبائل العديدة سالفه الذكر التى إستقرت تدريجياً فى حوض نهر "بو" بشمال إيطاليا، ولذلك يُطلق على هذه القبائل مُسمى **القبائل الكلتية** أو **القبائل الغالية** وهو الإسم الكثر ذيوعا وشهرة.

وتشتهر القبائل الغالية (الكلتية الأصل) بانها **قبائل بدائية** لم تحظ من الثقافة أو الحضارة بنصيب يُذكر وكانت تعتمد **منطق القوة والتوسع** والبقاء للأقوى. وكانوا **يُفرطون فى الشراب** وكانوا مولعين **بتقديم الأضحيات البشرية** من الأعداء وجز رؤوسهم والإحتفاظ بها، وكانوا كذلك **متقلبى المزاج** ويتسمون **بالجرأة والشجاعة والمقامرة**، ويندفعون إلى المعارك عراة سواء فى صفوف المشاة أو على ظهور الخيل أو على العربات. وكانت أسلحتهم من الحديد وكانت **سيوفهم الطويلة الضخمة** وشعرهم المتهدل وصيحاتهم العجيبة تلقى الفزع فى نفوس أعدائهم خصوصاً من أصحاب الجيوش النظامية. ولكن **من عيوبهم** أن **قوتهم ووحدتهم لم تكن ذات نفس طويل إذ سرعان ما كانوا ينصرفون إلى جمع الغنائم والأسلاب** والتمتع بها. وقد كانت حياتهم تعتمد على **غنائم القتال ورعى القطعان** ولم يكونوا يطيقون حياة الزراعة والإستقرار، وإن كان البعض منهم قد وطنّ نفسه على تقبل **حياة الإستقرار فى شمال إيطاليا** بفضل النظم الزراعية المتطورة التى **أخذوها عن الحضارة الإتروسكية** التى إستمتعوا بثمارها.

ولكن إذا كانت بعض قبائل الغالة فى شمال إيطاليا قد تقبلت حياة الإستقرار والزراعة وإرتضت بها فإن **البعض الآخر أبقى على نهج ونمط حياتهم القديم القائم على الحرب والقتال**. وكان على رأس هؤلاء المحاربين الغالة فى أوائل القرن الرابع ق.م. قبيلة السنونيس - أحدث تلك القبائل الغالية عهداً بحوض نهر "بو"- **وزعيمها برنيوس**. وإذا كانت

هجرات القبائل الغالية إلى حوض نهر "بو" وهجماتهم المتكررة على مناطقه قد حولت تلك المنطقة من منطقة نفوذ إترورى إلى **منطقة ذات أغلبية سكانية غالية** بحيث اصبحت منذ القرن الرابع تعرف بـ **"الغالة القريبة"** أو *Gallia Cisalpina* "أى الغالة الواقعة على هذا الجانب (القريب من الرومان فى شمال إيطاليا) من الالب" فإن **أطماع الغالة لم تقف عند هذا الحد** بل تجاوزته **إلى ما وراء الأبنين جنوباً**. وكان **هدف السنونيس** وزعيمهم برينوس من وراء عبور حاجز الأبنين جنوباً هو **مواصلة السلب والنهب** والحصول على **الغنائم أكثر من الأرض**. ولما كان **إقليم إتروريا** فى ذلك التوقيت قد **فقد مجده وبريقه القديم** تحت وطأة **ضغط القبائل الغالية** من الشمال **وتقلص نفوذ** الإتروريين بشدة فى **لاتيوم وكامبانيا** وتعرضوا لهزائم خلال القرن الخامس كما اكتملت دائرة الضعف **حين دمرت روما "فيبى"** وتوسعت هناك فإن **إتروريا صارت هدفاً سهلاً للغالة القادمين من الشمال** فاجتاحوها بسرعة فائقة وظهرت **جحافل الغالة أمام بوابات مدينة "كلوسيوم"** الإترورية التى سبق لملكها "لارس بورسينا" أن إحتل روما فى اواخر القرن السادس ق.م. ولكن الآن تغيرت الظروف وتبدلت واصبحت روما قوة ذات حول وطول دمرت مدينة إترورية قوية غنية وتوسعت فى غيرها **طلبت "كلوسيوم" العون والنجدة من روما فى هذا الوقت العصيب**، ولم يكن هناك من ملاذ آخر أمام كلوسيوم إذ أن روما مدينة إيطالية على أى حال.

فى هذا الموقف لم **تخذل روما كلوسيوم** بل هبت إلى نجدتها وإن كان ذلك فى صورة حذرة إلى حد ما حيث **أرسلت مبعوثين للتفاوض مع السينونيس وزعيمهم برينوس** حول **الانسحاب من أمام كلوسيوم** وترك المدينة وشأنها. لكن يبدوأن المفاوضين الرومان لم يجدوا أذناً صاغية إذ أن الغالة لا يعرفون شيئاً إسمه التفاوض ولا يفهمون إلا لغة السيف والعنف، لذلك يروى أن **المبعوثين الرومان** - الذين يُفترض فيهم الحياد المطلق فى

مثل هذه المهمة. **قاتلوا إلى جانب أهل كلوسيوم** بل أن أحدهم قتل قائداً من الغالة. وبذلك **جلبت روما على نفسها انتقام الغالة** الذين توعدوا الرومان بالويل والثبور. ويروى أن الغالة قد صرفوا النظر عن الهجوم على كلوسيوم **واندفعوا كالسيل العرم نحو روما** الواقعة على بعد نحو ثمانين ميلاً إلى الجنوب. وكان **عدد الغالة يقدر بنحو ثلاثين ألفاً** (٣٠,٠٠٠) **أما الرومان** لم يكن لديهم ما يزيد على فرقتين يصل عدد جنودهما - بمن فيهم الفرسان والمشاة الخفاف- إلى نحو عشرة آلاف جندى، وحتى إذا ما أضفنا إليهم القوات التى تمثل حلفاءهم اللاتين **فلن يزيد العدد عن خمسة عشر ألف** جندى (١٥,٠٠٠) أى نصف العدد تقريباً، وإن كان ذلك العدد فى حد ذاته كان أكبر حشد جمعته روما فى معركة واحدة حتى ذلك التاريخ.

وبعد هذه المقدمات والإرهاصات حلّ ذلك **اليوم الأسود فى حوليات التاريخ الرومانى**. فعلى بعد نحو إحدى عشر ميلاً إلى الشمال من روما كان يجرى رافد صغير **من روافد التيبر يُدعى "أليا** *Allia* **"** فى وادى التيبر الضيق شمال فيدناى وعلى الضفة اليسرى من التيبر إتخذ الرومان مواقعهم. وقد **إجتاح الغالة القوات الرومانية المرابطة عند التلال وحصروها بينهم وبين النهر** ومزقوا الكثيرين منهم إرباً فى حين **استطاع البعض ان يفر عبر النهر إلى "فيبى"** وتمكن **بعض المرابطين على التلال من الهرب إلى روما**. وبعد **ثلاثة أيام وصل الغالة إلى روما**: وقد فرَّ الكهنة وعذارى فيستا إلى بلدة "كايرى *Caere*" ولم تكن هناك مقاومة من القوات الرومانية المتجمعة إلا من قلعة "الكابيتول"، **أما بقية أرجاء مدينة روما فقد قام الغالة بإحراقها وسلبها ونهبها**. ولندع المؤرخ **تيتوس ليفيوس يروى لنا تفاصيل تلك الكارثة التى حلت بروما على يد الغالة** (ما بين ٣٩٠ - ٣٨٧ق.م. تقريباً) فى الكتاب الخامس من مؤلفه "منذ تأسيس المدينة" (٣٩ - ٥,٣٧) :

" لقد كانت هناك كارثة هائلة بصورة غير مسبوقة على وشك الوقوع، ولكن لم تتخذ الخطوات الملائمة لمواجهتها. فالأمة التى غالباً ما كانت تلجأ —فى مجابهة خصوم عاديين ضد فيدناى وفييى- إلى قرار وإجراء نهائى بتعيين ديكتاتور وقت المحن لإنقاذها لم تتخذ مثل هذا الإجراء من القيادة غير العادية ولم تتطلع إلى وسيلة إستثنائية للحفاظ على كيانها وهى تواجه عدوا غريباً - أتى فى مسيرة طويلة من المحيط الأطلنطى ومن ابعد شواطئ العالم- ولا تعلم شيئاً عن قواته سواء بطريقة مباشرة او بالسماع.

ما أصدق القول بان القدر يُعمى ابصار البشر حين يُصر ذلك القدر على الا يجابه حشوده احد فالترابنة العسكريون - الذين كان مسلكهم المتهور هو السبب فى الحرب- كانوا على راس القيادة العليا، وقاموا بحشد وتعبئة القوات بصورة باردة وغير محكمة كما لو كان الأمر لا يتعدى مجرد الاستعداد لحملة عادية دون ان يضعوا فى الإعتبار مدى دقة الموقف وحرج الخطر الداهم. اما الغالة فإنهم لم يضيعوا وقتاً: ففى اللحظة التى علموا فيها بالإهانة التى لحقت بمبعوثيهم وتولى اناس (من الرومان) القيادة العليا وإنتهاكهم للقوانين غير المكتوبة التى تحكم الجنس البشرى تفجرت براكين غضبهم - وهى سمة هؤلاء القوم- وإنطلقوا بسرعة مرعبة فى الطريق إلى روما. وهرولت البلدان والقرى المذعورة التى مرّ بها هذا الإعصار العاصف إلى أسلحتها: وفرّ الرجال من مزارعهم طلباً للنجاة بارواحهم من تلك الحشود الهائلة التى قطعت اميالاً من الأرض - فوق ظهور الخيل او على الأقدام- وهى ترفع صيحة واحدة هى : "إلى روما"

وكانت الشائعات قد سبقت هؤلاء الغزاة ووصلت رسائل من كلوسيوم وغيرها إلى روما، ولكن على الرغم من التحذيرات فإن السرعة الهائلة التى تقدم بها الغالة كانت أمراً مروّعاً. فعلى الرغم من تحرك

الجيش الرومانى بكل سرعته فى حالة الطوارئ فإنه لم يقطع سوى أحد عشر ميلاً فقط حتى وجد الغزاة أمامه فى المنطقة التى يهبط فيها نهر "اليا" من مرتفعات "كرستوميريوم" إلى أخدود عميق ويلتقى بالتيبر إلى الجنوب قليلاً. وكان الموقع المقابل والأرض الواقعة على الجانبين تعج بجند الأعداء، وارتفعت فى الهواء جلبة مروعة من أغانى الحرب العنيفة وصيحات غاضبة من أناس تعتبر حياتهم نوعاً من المغامرة.

ولم يتخذ القادة الرومان احتياطات من أى نوع: فلا هم تخيروا موقعاً دفاعياً عادياً ولا هم أعدوا تحصينات يحتمون بها وقت الحاجة؛ وإنما أعد الرومان صفوفهم على جبهة واسعة كبيرة دون أن يستعينوا بمشورة الآلهة، وكان يراودهم الأمل فى ألا يتمكن الأعداء المتفوقون عدداً من شق صفوفهم، ولكن أملهم ذهب أدراج الرياح لأنهم مدّوا قواتهم على مساحة كبيرة بحيث أصبحت هذه القوات ضئيلة وضعيفة عند القلب وغير متماسكة. وصدر الأمر لقوات الاحتياط بأن تتمركز على منطقة مرتفعة إلى اليمين، وكان وجودهم هناك والهجوم اللاحق عليهم -رغم انهم نشروا الفزع فى القوة الرئيسية- هو الذى مكّن البعض منهم من النجاة بحياتهم. فقد شك القائد الغالى برينوس فى أن شركاً قد نصب له حين رأى ان حجم الأعداد المقابلة له أقل كثيراً مما توقع وأفترض أن قوات الإحتياط الرومانية لابد انها تسيطر على المرتفعات بغرض شن الهجوم على قواته وعلى مؤخرة جيشه حين يشتبك فى القتال مع قوات الفرق الرومانية. لذلك غيرّ برينوس تكتيكاته وتحرك أولاً ضد قوات الإحتياط فوق المرتفعات وهو على ثقة بأنه إذا نجح فى تطهير المرتفعات منهم فإن قواته الهائلة المتفوقة العدد سوف تحرز له نصراً سهلاً على بقية الجيش الرومانى. ويا للأسف فإن هؤلاء البرابرة لم يحالفهم فقط الحظ الحسن بل تمتعوا كذلك بقيادة جيدة.

اما فـى صفوف الفـرق الرومانية —من ضباط وجند على حد سواء- فـلم يكـن هـناك اثـر للـرجولة والشـهامة الرومانـية القديمـة. لقـد فـروا مذعورين، وقـد اعماهم الفـزع عـن كـل شـيء سوى ان يفلتوا بجلدهم حتـى انهـم عـلى الـرغم مـن ان نهر التيبر كان فى طريقهم فإن معظمهم حـاول الوصـول إلى "فيـيى" - التى كانت من قبل مدينة معادية- بدلاً من الـتوجه إلى وطـنهم روما. اما قوات الإحتياط فقد وجدت بعض الأمان فى موقعهـم الأكـثـر تحصيناً وإن كـان ذلك اماناً مؤقتاً؛ اما القوة الرئيسية فى الجيش الرومانى فإنها عند سماعها لأول صيحة حرب من جانب الغالة على قواتهـم وعـلى مؤخـرة جيشهم فلم ينتظروا حتى مجرد رؤية هؤلاء الأعـداء الغـرباء الذيـن جـاءوا مـن اقصـى الأرض، ولم يـبـذلوا أيـة محاولـة للمقاومة ولم تكـن لديهـم الشجاعة حـتى للـرد على صيحة التحدى وإنما فـروا مـن قـبل ان يفقـدوا رجلاً واحـداً. لم يسقط احـد مـن الـرومان وهو يقـاتل وإنمـا مـزقوا إرباً من الخلف وهم يصارعون لشق طريقهم من اجل الـنجاة عـبر اكـداس رفـاقهم الفـارّين. وبالقـرب مـن الـنهر وقعت مذبحة مـروعة إذ تجمـع الجناح الأيسر من الجيش باكمله وذهبوا إلى هناك بعد ان طـرحوا اسـلحتهم جانـباً عـلى امـل يـائس فـى الـنجاة. ولم يسـتطع كـثيرون مـنهم السباحة كمـا بلـغ الإعـياء بالكـثيرين مـنهم مبلغاً بحيث ابتلعـتهم مـياه الـنهر مـن ثقـل عتادهم. وقد وصل نصف هؤلاء احياء إلى "فيـيى" ولكـنهم لم يرسـلوا برسـالة إلى رومـا حـول هزيمـتهم. امـا جـنود الجناح الأيمن الذين كـانوا بعيـدين عن النهر وعلى مقربة من التلال فقد إتجهـوا نحـو رومـا حيـث الـتجاوا إلى قلعـة المديـنة دون ان يغلقـوا الـبوابات خلفهم.

ولم يكد الغالة يصدقون اعينهم وهم يرون نصراً سهلاً سريعاً عجيباً قـد تحقـق لهـم، وظلوا لـبعض الوقـت متشبثين بالمكان وكانهم قد زرعوا فـيه وهـم لا يكـادون يستوعبون ما حدث. وبعد لحظات من القلق خشية

ان يكون الأمر برمته كميناً بداوا يجمعون اسلحة وعتاد القتلى ويكدسونها فى اكوام كما جرت العادة عندهم. واخيراً وبعد ان لم يروا اى اثر للأعداء اكملوا مسيرتهم وقبيل غروب الشمس كانوا قد وصلوا إلى مشارف روما. وارسلوا رجال الخيالة عندهم لاستطلاع الأمر: ووجدوا البوابات مفتوحة وليس هناك من حارس فى مواقع الحراسة او جنود وراء الأسوار. ومرة اخرى عقدت دهشة الحقيقة السنتهم، ومع ذلك فقد كانوا حذرين إذ ربما كان الليل يخفى اهوالاً والمدينة مجهولة تماماً بالنسبة لهم، ولذلك قاموا بمزيد من الإستطلاع على الأسوار والبوابات الأخرى ليكتشفوانوايا عدوهم فى هذه المحنة المحيطة والنازلة الشديدة ، واقام الغالة معسكرهم فى مكان ما بين المدينة ورافد انيو *Anio* .

ونظراً لأن اكثر من نصف الجيش الرومانى قد التجأوا إلى فييى فقد ساد اعتقاد فى روما بان البقية التى يممت شطر روما هم وحدهم الناجون. لذا تحولت روما إلى مدينة يملؤها النواح والعويل على الأحياء والأموات على حد سواء. وتوالت الأخبار بان الغالة على الأبواب. ولذلك نسى الناس فى غمرة موجة الفزع والرعب مآسى الفقد الشخصية، وسرعان ما سمعوا صيحات اشبه بعواء الذئاب والأغنيات البربرية فى اثناء طواف سرايا الفرسان الغالة هنا وهناك بجوار الأسوار. وطيلة الوقت حتى مطلع الفجر كان هناك صمت رهيب مفتوح التوقعات: متى سيبدأ الهجوم؟ لقد كانوا يعتقدون بقرب وقوع هجوم هائل بمجرد ظهور الغالة إذ لماذا كانت مسيرتهم صوب المدينة ولماذا لم يبقوا فى "اليا" إلا إذا كانت هذه هى نيتهم؟ لقد توقع الرومان الهجوم قرب غروب الشمس حين يكون هناك بقية من ضوء النهار وبالتاكيد قبل ان يحل الظلام. ولكن لما حل الظلام ظنوا ان هذا التاخير والتاجيل متعمد لزيادة حجم الرعب. ولكن مرَّ الليل واقترب انبلاج الفجر مما جعل نفسيتهم محطمة،

واخيراً وبعد هذا الإنتظار الطويل والترقب الممتد والقلق الذى ينهش النفوس وقع البلاء ذاته ودخل الأعداء عبر البوابات".

وهكذا إجتاح الغالة روما واشبعوها سلباً ونهباً وحرقاً، ومما يروى فى هذا الصدد أن الغالة حين دخلوا **المدينة وجدوا بعضاً من شيوخ الـ..اتو من العجائز ممن لا يقدرون على القتال جالسين -كل امام منزله- على مقاعدهم العاجية وكانهم آلهة على عروشها وكانوا ينتظرون قضاءهم المحتوم فى وقار وهدوء.** واحتل الغالة المدينة لمدة سبعة أشهر ظل خلالها المدافعون الرومان معتصمين بقمة الكابيتول وقلعته المنيعة تحت **قيادة ماركوس مانليوس كابيتولينوس.** ويُروى أن الرومان **قد نشروا على سفوح تل الكابيتول عدداً من الكلاب ومن طيور الأوز** حتى تنبه حراس الكابيتول من الرومان إلى اى تحرك من جانب الغالة المنتشرين فى المدينة لمحاولة الصعود إلى قلعة الكابيتول والإستيلاء عليها. ويُروى انه فى إحدى الليالى حاول الغالة التسلل إلى قلعة الكابيتول وغفلت كلاب الحراسة ولم تنبح وكاد الغالة يفلحون فى الصعود **لولا صياح الأوز الزاعق الذى ايقظ ماركوس مانليوس الذى إستدعى الحراس واحبط هجوم الغالة المباغت.** ومن وقتها أصبحت مسئولية إطعام الأوز المقدس من مهام الكنسور وتتكفل بها خزانة الدولة، وفى الذكرى السنوية لذلك الحدث كان الأوز يُحمل على حمالات ومحفات أرجوانية مذهبة فى حين كانت الكلاب تُصلب على خوازيق من خشب البلسان.

وبعد سبعة أشهر من احتلال الغالة لروما اجبرت المجاعة والقحط المدافعين عن الكابيتول إلى أن **يعرضوا على الغالة فدية مقدارها الف رطل من الذهب فى مقابل الإنسحاب من روما وقبل الغالة ذلك.** وفى أثناء وزن تلك الكمية من الذهب **تذمر أحد التربانة العسكريين الرومان** من التلاعب فى الميزان فما كان من القائد "برينوس" إلا أن ألقى بسيفه على الميزان

وصاح قائلاً "**ويل للمهزوم** *vae victis* " بمعنى انه ليس من حق المهزوم الاعتراض أو التذمر وجرت مثلاً بعد ذلك. ولكن الكرامة الرومانية **تأبى أن تختم القصة بهذه الصورة المهينة** والمذلة للرومان فتكمل الرواية بالقول بأن الرومان **أرسلوا إلى الديكتاتور المنفى كاميللوس** - مدمّر فييى قبل بضع سنوات - يعرضون عليه أن يتولى منصب الديكتاتور مرة أخرى، لكى يتصدى للغالة هذه المرة ويسترد الذهب منهم وتمضى الرواية للقول بأنه قبل المهمة **وتعقب الغالة وقضى عليهم واسترد الذهب المنهوب**. هذه الرواية بلا شك من **المبالغات الرومانية** التى تمجد صورة روما وتعزف على نغمة أنها لابد أن تنتصر فى نهاية المطاف وأن التسليم بالهزيمة النهائية أمر غير وارد فى قاموس الرومان، وهى نغمة سنراها كثيراً فى أحلك مواقف الرومان وهى **صحيحة** إلى حد كبير **وإن كانت تتسم بالمبالغة** والتهويل أحياناً.

مما لا شك فيه أن كارثة **اجتياح الغالة لروما وما تعرضت له روما من مهانة** فى تلك المحنة القاسية **قد هزت مصداقية روما كثيراً** وأثرت **تأثيراً سلبياً بالغاً على الهيبة والمكانة** التى تمتعت بها خصوصاً بعد تدمير "فييى" والتوسع فى إتروريا . وكان من التداعيات المباشرة لهذه المحنة أن **بدأ جيران روما الأقربون فى إتروريا وبعض حلفائها اللاتين وقبائل الأيكوى والفولسكى فى التمرد عليها** والكيد لها. وكانت أيام حالكة السواد على الرومان إذ **دمرت المدينة واهتز استقرارها وتفكك جيشها مؤقتاً وانهار تحالف الرومان مع اللاتين والهيرنيكى** وباتت مسألة **عودة الغالة لمهاجمة المدينة واردة**. ولكن فى **هذه الظروف العصيبة** أثبت الرومان **صلابتهم** ورباطة جأشهم فى مواجهة هذه المواقف الحرجة والخصوم المتربصين. فى البداية **وبعد الكارثة مباشرة** كان الشغل الشاغل للرومان **هو إعادة بناء مدينتهم المدمرة وحماية المدينة وإتخاذ الإحتياطات اللازمة لوقايتها** من اى هجوم خارجى مباغت. ولما كان

السور الطينى الضعيف الذى سبق أن أقيم حول روما قد اثبت عدم فعاليته فى مواجهة هجوم الغالة فقد اقام الرومان **سوراً حجرياً** حول مدينتهم **سمكه ١٢ قدماً وارتفاعه ٢٤ قدماً** ويدعمه السور الطينى *agger* السابق الذى ارتفع ليصبح مساوياً لإرتفاع السور الحجرى المحيط بالمدينة كلها - بما فيها تل الأفنتين- بإمتداد **خمسة أميال ونصف** الميل، وعُرف ذلك السور بإسم **"سور سرفيوس"** - نسبة إلى الملك الرومانى سرفيوس توليوس- ولا زالت هناك آثار من بقاياه.

أما **عن خصوم روما الذين استغلوا الموقف** فإن روما عاجلتهم بحملات وضربات سريعة متلاحقة على مدى أكثر من ثلاثة عقود، وإن كان يغلب على سرد أحداث تلك الفترة النمطية والتكرار والخلط. ولكن يمكن على الأقل تحديد أهم ملامحها بصورة تقريبية: فعلى **جبهة الإتروريين** فى الشمال حاولت المدينتان الإتروريتان **فاليرى وتاركوينى** *(Falerii - Tarquini)* **استغلال الموقف** فى الاستيلاء على إقليم مدينة "فيى" التى دمرتها روما من قبل وكذلك المنطقة الجنوبية من إتروريا **تصدت روما لهما بقوة ودعمت نفوذها من جديد فى هذه المنطقة** التى ضمت - كما سبق أن ذكرنا- أربع قبائل ريفية، بل قامت بتوطين **مستوطنين لاتين** فى محيط مدينتى **سوتريوم** *Sutrium* **ونيبتى** *Nepte* بعد انسحاب الغالة من روما بسنوات قليلة. ولكن مع ذلك فإن تحرشات الإتروسكيين بالرومان لم تتوقف إلا عام ٣٥١ حين تعرض الإتروسكيون لهزيمة كبيرة اجبرتهم على عقد صلح لمدة أربعين عام أى حتى عام ٣١١ ق.م.

أما **قبائل الأيكوى** فتجدد عداؤهم لروما **وانضم إليهم الهيرنيكى** - حلفاء روما السابقون- فضلاً عن **الفولسكى وبعض المدن اللاتينية**. إذ نجد بعض **المدن اللاتينية مثل تيبور** (تيفولى) **قد قطعت علاقاتها مع روما** وإن

لم تنزلق إلى حرب صريحة معها قبل عام٣٦٠ ق.م. **أما "برانيستى" و"فيليترای** *Velitrae* " فقد **كانتا مستعدتين للإنضمام إلى الفولسكى،** وكانت **"توسكولوم" مترددة** نسبياً ولكنها **حسمت ترددها إيجابياً لصالح روما عام٣٨١ ق.م.** فمنحتها روما سلاماً. اما **بقية المدن اللاتينية** مثل أريكيا وارديا ولافينيوم ولانوفيوم فقد **ظلت على ولائها لروما** وكذلك فعلت **بعض المدن اللاتينية الواقعة داخل حدود الفولسكى** مثل كورا ونوربا وسيجنيا وسيتيا. وقد تلقى **الفولسكى والمدن اللاتينية المتحالفة** معها **هزائم على يد الرومان** وحلفائهم فى أعوام **٣٨٦ و٣٨٥ وكذلك فى عام٣٧٧ ق.م.** ولكن فى عام٣٦٠ ق.م. **تمردت مدن فيليتراى وتيبور وبرانيستى اللاتينية** من جديد مع الفولسكى واستخدمت هذه المدن مرتزقة من الغالة فى حربها ضد روما ولكنها **هزمت عند "بوابة كولينى"** فى ذلك العام. وفى **عام ٣٥٨ق.م.** اكدت روما **سطوتها** من جديد **على مدن الحلف** الذين أجبروا على **تجديد العمل "باتفاقية كاسيوس"** القديمة ولكن **بشروط وبنود تصب اكثر فى مصلحة روما** وتنتزع من اللاتين بعض مميزاتهم القديمة. **إذ لم يعد مسموحاً بتناوب قيادة الحلف** فى ميادين القتال: إذ اصبح الحلف تحت سيطرة وقيادة إسمية مكونة من إثنين من البراترة يُعينان سنوياً ويرأسهما فى القيادة الفيدرالية القناصل الروسان. **وأجبرت المدن المارقة** على **الإنضمام ثانية للحلف** وهى فيليتراى وأنتيوم وتيبور ونومينتوم وبيدوم وبريفرنوم وبارينيستى التى أنضوت جميعها تحت راية الحلف بحلول علم٣٥٤ ق.م.

أما عن **الهيرنيكى** فقد **انضموا إلى الفولسكى وشاركوا معهم فى التمرد** والإضطرابات ضد روما عام٣٨٦ ق.م. **ولقوا الهزيمة** مع حلفائهم الفولسكى وظلوا **بغير فعالية ولا تأثير لمدة٢٣ عاماً.** ففى عام ٣٦٣ ق.م. كانت روما قد تخففت من بعض مشاكلها الداخلية وهدات الأحوال الملتهبة بين العامة والأشراف بصدور قوانين ليكينيوس وسكستيوس عام

٣٦٧ق.م. **فاتجهوا إلى جبهة الهيرنيكى والحقوا بهم الهزيمة عام٣٦٢ ق.م.** واستولوا **على "فيرينتينوم** *Ferentinum* " **مدينة الهيرنيكى عام٣٦١ ق.م.** وبعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات عام٣٥٨ ق.م. طلب الهيرنيكى الصلح مع الرومان **وإبرام اتفاقية سلام معهم وسمح لهم بإعادة التحالف مع الرومان.** ولكن **قلت امتيازاتهم** عن ذى قبل.

ثم نأتى أخيراً إلى **قبائل الأيكوى** الذين وجه إليهم الرومان بعد خروج الغالة من روما مباشرة **ضربة قاصمة فى "بولا** *Bola* " أعادتهم إلى حظيرة الطاعة الرومانية منذ وقت مبكر.

أما عن **الغالة** فقد **أحجموا عن القيام بهجمات أخرى** ضد روما لمدة **ثلاثين عاماً** بعد إجتياحهم الأول لروما حسبما يذكر بوليبيوس. ولكن **ليفيوس** يسجل **بعض الهجمات الأخرى للغالة** ضد روما ومعارك الرومان ضدهم فى أعوام٣٦٧ و٣٦١ **و٣٦٠ ق.م.** ولكن اختلف الوضع الآن بعد أن صارت **روما آمنة خلف أسوارها المنيعة**، وكانت هناك بعض **المبارزات الفردية الشهيرة** مثل مبارزة **تيتوس مانليوس توركواتوس** *T. M. Torquatus* الذى دخل فى **مبارزة فردية مع أحد قادة الغالة واستولى على الحلقة الذهبية المحيطة بعنقه** *torques*. ومما لا شك فيه أن الغالة الذين توغلوا فى هجماتهم جنوباً حتى أبوليا لابد أنهم شنوا **بعض الغارات من حين لآخر على إقليم لاتيوم.** وفى عام٣٣٢/ ٣٣١ **ق.م. أبرم الرومان معاهدة سلام مع الغالة لمدة ثلاثين عاماً مع قبائل السنونيس.** وهكذا ظل الغالة يشكلون تهديداً جدياً لنحو خمسين عاماً ولكنهم لم يكونوا عائقاً حقيقياً أمام نهضة روما وتوسعها.

هكذا رأينا أنه على الرغم من **الانتكاسة** التى أصابت روما ونالت من هيبتها بعد **اجتياح الغالة** لها حوالى عام٣٩٠ ق.م. إلا أنها سرعان ما **تماسكت واستردت زمام الأمور** وأثبتت جدارتها وعادت اقوى مما كانت

داخلياً وخارجياً. وقد رأينا **الدور البطولى** الذى لعبه الديكتاتور فوريوس **كاميللوس على مدى ما يزيد عن ثلاثين عاماً** فى بداية القرن الرابع فى **تدمير مدينة "فيى"** الإترورية ثم فى **استرداد شىء من هيبة روما** بعد اجتياح الغالة لها ثم فى توجيه بعض **الضربات القوية للمتمردين** من حلفاء روما السابقين، وأخيراً فى **التوصل إلى قوانين ليكينيوس وسكستيوس وإقامة معبد لربة الوفاق** وبعدها احتفالاً بالوفاق بين العامة والأشراف *Concordia Ordinum* .

(٦) روما زعيمة اللاتين (حل الحلف اللاتينى) ٣٤٠-٣٣٨ ق.م. [١٨]

رأينا قبل قليل كيف تغلبت روما على المتمردين الفولسكى ومن سار على دربهم من المدن اللاتينية المناوئة وكيف أجبرت روما هذه الأطراف على إعادة الالتزام "بمعاهدة كاسيوس" الشهيرة التى ابرمت عام ٤٩٣ ق.م. بعد أن كان بعض المدن اللاتينية قد تحلل منها بعد كارثة غزو القبائل الغالية (السنونيس) لروما. **هذه العودة** إلى حظيرة الحلف اللاتينى **لم تكن طوعية بل كانت قسرية** بالنسبة للفئة المارقة وقد فرضتها روما بحد السيف عام٣٥٨ ق.م. كما أن **المدن اللاتينية جميعها دفعت ثمن مروق البعض** منها وتمردهم على روما حين **ألغى مبدأ تناوب القيادة** وصار الحلف - فى وقت الحرب- **تحت القيادة الفعلية لروما**. بل والأكثر أن المدن اللاتينية التى حافظت على عهودها مع روما ولم تنكث بها **لم تحظ بشىء من غنائم النصر** الذى حققته روما - بالتعاون معهم- ضد الفولسكى والمدن اللاتينية الثائرة، بل لقد **إستأثرت روما بتلك الغنائم** لنفسها دون سواها. وبعد ذلك عقد الرومان **محالفة مع السمنيين** من سكان جبال الأبنين قبالة كمبانيا **عام٣٥٤ ق.م.** ، وكان هذا **تحالفاً ثنائياً بين الرومان والسمنيين** أثار **هواجس اللاتين** وقلقهم من أن يصبحوا بين المطرقة والسندان بين الطرفين المتحالفين. وفى **عام٣٤٨ ق.م. عقدت**

روما إتفاقية مع قرطاجة على الساحل الأفريقى تنص على عدم الإعتداء المتبادل بين الطرفين على مناطق نفوذ كل طرف. وفى هذه الإتفاقية **تعهدت قرطاجة بعدم الإعتداء على شواطئ لاتيوم**، وهو ما يعنى ضمنياً أن روما تعتبر **لاتيوم من مناطق نفوذها** كما أنها تحدثت بإسم اللاتين دون تفويض منهم وكأنها وصية عليهم بصورة رسمية.

هذه الأمور والإرهاصات جميعها **أثارت حفيظة اللاتين وغضبهم ضد روما** وجعلتهم يطالبون روما بمطلب عسير على الرومان ويتلخص فى كلمتين **"الاستقلال أو المساواة"** (مع الرومان)؛ ويضع **ليفيوس** هذا المطلب على **لسان اللاتين** بالقول بأن مطلبهم تمثل فى **الحصول على المواطنة الرومانية الكاملة والمناصفة فى الحكم مع الرومان**. وقد **رفض الرومان** طلبهم **وحشد اللاتين قواهم** من أجل حرب الاستقلال عن الرومان، وكان اللاتين **قد تحالفوا من قبل مع قوى أخرى** من جيرانهم الجنوبيين مثل الفولسكى والأورونيكى *Aurunci* والسيديكينى *Sidicini* وأهل كامبانيا *Campani* وأشهروا سلاحهم ضد روما عام٣٤٠ ق.م. وعندها قام أحد القنصلين وهو تيتوس **مانليوس توركواتوس** (الذى سبق له أن صرع أحد قادة الغالة فى مبارزة فردية عام٣٦١ ق.م. واستولى على الحلقة الذهبية *torques* التى تحيط بعنقه كتذكار واكتسب لقبه منها) **بقيادة الجيش الرومانى** ومنع المبارزات الفردية مع العدو. ويُروى ان هذا القائد **قد تحالف مع السمنيين** وتوجه مع قواته وحلفائه **جنوباً إلى نهر ليريس**، وعند **"تريفانوم"** بالقرب من سويسا **واجه القوات المتحالفة** من اللاتين وحلفائهم فى موقعة كبرى **وألحق بهم هزيمة كبرى حيث إنهارت مقاومة اللاتين** بسبب الدور المؤسف الذى قام به الخيالة من كمبانيا. وسرعان ما توصل الرومان إلى سلام مع الكامبانيين مما يوحى بأن الرومان قد إستمالوا الكمبانيين وفرقوا بينهم وبين اللاتين. **وفى عام ٣٣٩ ق.م. احتفل كوينتوس بوبليليوس فيلو بانتصاره على اللاتين**، وفى

عام٣٣٨ ق.م. انتصر لوكيوس فوريوس كاميللوس على المدن اللاتينية الشمالية بيدوم وتيبور بينما تغلب **جايوس ماينيوس على لاتين الجنوب والفولسكى** فى **موقعة قرب "أنتيوم" التى إستولى الرومان عليها** وهكذا خضعت **المدن اللاتينية للرومان وفقدت إستقلالها نتيجة لعزم الرومان** الأكيد ولجوء الرومان إلى سياسة **"فرّق تسد"** *divide et impera* بين اللاتين انفسهم وبين اللاتين وحلفائهم ما بين عامى٣٤٠ - ٣٣٨ ق.م

وترتب على انتصارات الرومان فى تلك الحرب الكبرى **حل الحلف اللاتينى الذى كان قد شهد عدداً من المتغيرات**، وعليه **فقدت كثير من المدن** والمستوطنات اللاتينية **حقوق المواطنة التى كانت تتمتع بها** وفق معاهدة كاسيوس القديمة مثل حق التجارة *commercium* وحق التزاوج *conubium* **مع بعضها البعض واقتصرت هذه الحقوق** على التعامل بين **روما وكل مدينة** من هذه المدن **على حدة**، وهو ما يعنى **ربطها المباشر بروما والتفريق بين هذه المدن**، كما **حُرمت** هذه المدن **من كافة الأنشطة السياسية العامة** وبذلك صار الحلف كياناً ميتاً من الناحية السياسية. ولكن الرومان لم يلجأوا إلى هذه الإجراءات العنيفة وحدها وإنما **حلوا الحلف لينشأوا بدلاً منه نوعاً من الكونفدرالية** (اتحاد من مجموعة مدن). فقد **ربطوا المدن اللاتينية المهزومة** بهم بروابط من **المصالح المشتركة** ومحاولة تعميق **مفهوم الوطنية** لديهم تجاه الدولة التى صاروا جزءاً منها (روما). ولكن **لم تمنح كل المدن الشريكة** فى هذا الإتحاد الكونفدرالى حقوقاً **ومميزات كاملة** منذ البداية وإنما صارت **حقوق المواطنة الكاملة مكافأة** لمن يثبت ولاءه لهذا الإتحاد بطريقة عملية. وهكذا بدأت روما تتسيد الإيطاليين (بداية باللاتين) من خلال إجراءات راعت فيها **التوازن بين الترغيب والترهيب**، بين العصا والجزرة.

ولكى نوضح الصورة أكثر عن وضع المدن اللاتينية بعد "حرب اللاتين الكبرى" يمكن أن نقسمها إلى ثلاث فئات على النحو التالى:

١- **مدن فقدت استقلالها تماماً واندمجت فى الكيان الرومانى** ومنح أهلها **المواطنة الرومانية الكاملة** وإن احتفظوا بحكم بلدى محلى وتتمثل هذه فى المدن والبلدات المجاورة لروما من اللاتين مثل لانوفيوم واريكيا ونومنتوم وبيدوم وتوسكولوم، والأخيرة ربما كانت قد أُدمجت فى مرحلة مبكرة منذ عام ٣٨١ ق.م.

٢- **بعض المدن مُنحت ترضية مؤقتة تتمثل فى الحصول على حقوق المواطنة بإستثناء الحقوق السياسية** من تصويت وترشيح *civitas sine suffragio* مثل كايرى *Caere*. واغلب المدن التى تمتعت بهذا الوضع تقع فى **جنوب لاتيوم وكامبانيا** مثل فوندى *Fundi* وفورمياى *Formiae* وكابوا وسويسولا وكوماى واخيراً أكيراى. وهذه المدن كان مواطنوها يخدمون فى الجيش الرومانى ويتمتعون بحماية روما لهم ضد أى عدوان خارجى كما يتمتعون بالحقوق المدنية للمواطنة الرومانية.

٣- أما **بقية المدن والمستوطنات اللاتينية** مثل سيجنيا *Signia* ونوربا وارديا وكيركيى *Circeii* وسوتريوم ونيبيتى *Nepete* وسيتيا وتيبور وبرانيستى (رغم أن الأخيرتين فقدتا بعضاً من حدودهما لصالح روما) **فقد احتفظت - شكلياً- بوضعها القديم**. فمن الناحية الرسمية ظلت هذه المدن على قدم المساواة مع روما **بوصفهم حلفاء لروما** *Socii Latini nominis* وتربطهم بها **تحالف قائم على المساواة** *Foedus aequum*. **أما من الناحية الفعلية العملية فإن التفاوت الواضح فى القوة** بين هذه المدن جميعها وبين روما **لصالح الأخيرة** جعلهم فى واقع الأمر **يحاربون من أجل روما فى المقام الأول**، ومما عزز هذا الوضع أن

الحقوق المدنية مثل "حق التجارة" و "حق التزاوج" التى كانوا يتمتعون بها من قبل بين بعضهم البعض **قد اقتصرت الآن على التعامل بين كل مدينة من هذه المدن على حدة وبين روما وألغى هذا الحق فى التعاملات بين هذه المدن وبعضها**. وهذا يعنى أن كل هذه المدن **أصبحت تسير** - فى واقع الأمر - **فى فلك روما دون سواها** والتى أصبحت بمثابة البوصلة التى تبين اتجاه الطريق لهذه المدن.

وهكذا **أصبحت روما فعلياً سيدة لاتيوم** وأخضعت القبائل المناوئة فى المناطق المحيطة وتغلغلت فى إتروريا شمالاً، وبدأت تتسلل - فى هدوء وثقة- إلى شمال كامبانيا فى كابوا وكوماى كما رأينا

(٧) حروب روما ضد سامنيوم[١١] حتى ٢٩٠ ق.م.

(أ) المرحلة الأولى: حتى عام ٣٠٤ ق.م.

سامنيوم - كما تعرفنا عليها فى الحديث عن جغرافية شبه الجزيرة الإيطالية- هى منطقة تقع فى منتصف القسم الجنوبى من جبال الأبنين قبالة إقليم كامبانيا الواقع إلى الغرب من سامنيوم. ويتحدث السمنيون لغة إيطالية قديمة هى **الأوسكانية** ، وهم **شعب شرس محارب** من سكان الجبال وكانوا ينقسمون إلى **أربعة دويلات** على أساس **قبلى** (الكاراكينى *Caraceni* والكاوديني *Caudini* والهيربيني *Hirpini* والبنترى *Pentri*) ولكنها كانت مرتبطة فى **اتحاد كونفدرالى يجمعه مجلس تشريعى مشترك وجمعية شعبية**، وكان **يدير كل قسم** من أقسام سامنيوم موظف كبير لقبه **"ميديكس** *Meddix* " وكان هذا الموظف الكبير يُطلق عليه *meddix tuticus* أو *medix summus* أى "الميديكس العام أو الأكبر" **ويعاونه موظف أقل رتبة** هو *meddix minor* وفى زمن الحروب والمعارك **كان يقود دويلات الاتحاد السمنى** (لم يكن الـ

Frentani وغيرهم من السابليين *Sabelli* اعضاء فيه رغم انتمائهم للعنصر السمنى) **قائد اعلى**. وبعد **معاهدة السلام** التى ابرمتها روما مع السمنيين **عام ٣٥٤ ق.م**. اصبح **نهر ليريس** يمثل خط الحدود بين سامنيوم ولاتيوم.

وقد سبق أن أشرنا فى الصفحات السابقة إلى بداية **توسع وامتداد النفوذ الرومانى فى إقليم كامبانيا** بُعيد حرب اللاتين الكبرى ٣٤٠- ٣٣٨ ق.م. وإذا كنا قد سبق أن أشرنا إلى **قرب إقليم كامبانيا الغنى من حدود السمنيين** وكيف أن هؤلاء السمنيين كانوا **يغيرون عليه إن ضاقت بهم موارد الرزق** وضنت عليهم الطبيعة. فلابد أن **ظهور قوة منافسة أخرى سيثير ضيق وحنق السمنيين تجاه تلك القوة** وسيمهد الطريق **إلى حرب بين القوتين الكبيرتين** المتنافستين على المنطقة: **روما وسامنيوم**. كل هذا كان متوقعاً أن يحدث بين الطرفين بعد حرب روما مع اللاتين وبداية تغلغلها فى كامبانيا رغم وجود إتفاق سلام بين الطرفين عام ٣٥٤ ق.م. فحين تتعارض وتتصادم المصالح تسقط الإتفاقات وتصبح حبراً على ورق ويحاول كل طرف ان يجد ذريعة ومبرراً للتحلل منها. لكن **المؤرخ ليفيوس** يحدثنا عن **حرب وقعت** بين الطرفين **قبل حرب اللاتين الكبرى** ودرج الباحثون على تسميتها بـ **"الحرب السمنية الأولى" (٣٤٣ - ٣٤١ق.م.)**. ولكن التفاصيل التى يرويها **ليفيوس** عن تلك **الحرب المزعومة** بين الطرفين **مشكوك فى صحة بعضها** إلى حد كبير **ويتطابق بعضها الآخر** مع احداث الحرب التى وقعت بين الطرفين **بين عامى ٣٢٦- ٣٠٤ ق.م**. والتى يُطلق عليها **"الحرب السمنية الثانية"**. لذلك **يميل كثير من الباحثين** والعلماء إلى اعتبار ما يُسمى بـ **"الحرب السمنية الأولى"** امراً **خيالياً مشكوكاً فى صحته** إلى حد كبير ويستندون - فضلاً عن المبررات المنطقية السالفة الذكر- إلى **إغفال ديودور الصقلى لهذا**

الحلف وعدم إشارته إليه، واعتبر رأيهم في هذه القضية صائباً خصوصاً وأن السمنيين تعاونوا مع الرومان في الحرب ضد اللاتين.

لنعد الآن إلى **مقدمات ونذر** ما يُسمى بـ **"الحرب السمنية الثانية" (٣٢٦- ٣٠٤ق.م.)** لنرى بعض تفاصيل ما قامت به روما في إقليم كامبانيا إثر حلها للحلف اللاتيني وسيطرتها عليه بعد "حرب اللاتين الكبرى" (٣٤٠- ٣٣٨ ق م.). لقد **أنعم الرومان** في نهاية تلك الحرب على **بعض مدن كامبانيا** التي تحالفت معهم **بحقوق المواطنة الرومانية الناقصة** (بدون الحقوق السياسية) *civitas sine suffragio* مثل كابوا وكوماي وفوندي وفورمياي وسويسولا. وبعد ذلك **استمرت روما في تغلغلها في مدن كامبانيا** فهاجمت المناطق المحيطة بـ **"تيانوم" عام ٣٣٦ ق.م.** ومنحتهم تحالفاً نعها، ثم اجتاحت **"كاليس** *Cales* **" وأقامت بها مستوطنة لاتينية عام ٣٣٤ ق.م.،** وترجع أهمية الإستيلاء على "كاليس" في كونها مركزاً حدودياً يسيطر على الوادي الواقع بين لاتيوم وكامبانيا ويقوم على حماية سهل كامبانيا من "السيديكيني *Sidicini* " ويشكل منطقة عازلة بين السمنيين في الشرق والممتلكات الرومانية إلى الغرب؛ وقد إستقبلت كاليس ٢٥٠٠ مستوطن من اللاتين ومُنحت حق سك العملة. **وفي عام ٣٣٢** منحت روما **"أكيراي"** حق المواطنة الرومانية المدنية فقط، وسرعان ما دخلت **بعد ذلك في تحالف مع فابرايتريا** *Fabrateria* و " **فروسينو** *Frusino* " وهي مناطق تقع في "وادي تريروس" وحوله **بالقرب من الحدود السمنية حوالي عام٣٣٠ ق.م.** وفي **عام ٣٢٩** إستولت روما على **بريفيرنوم** *Privernum* ونفت القادة المناوئين لروما فيها ومنحتها المواطنة الرومانية المدنية وصادرت جزءاً من حدودها. كما أرسلت في نفس العام **مستوطنين رومان في "تاراكينا** *Taracina* " التي تسيطر على الطريق الساحلي، **وفي العام التالي ٣٢٨** أقامت **مستوطنة لاتينية في فريجيللاي** *Fregella* لتسد المدخل الشمالي الغربي إلى السهل الأوسط الخصيب لنهر

ليريس. وهكذا **مدت روما** تدريجياً **مناطق نفوذها** وحدود كيانها الإتحادى **وخلقت منطقة عازلة** قبالة الحدود الشمالية الغربية للسمنيين

والآن وبعد هذه **المقدمات التى لابد وأن تؤدى إلى توتر العلاقات** بين الرومان والسمنيين **رغم معاهدة ٣٥٤** بسبب **تداخل وتشابك المصالح** فى كامبانيا واقتراب نقاط التماس نأتى إلى **السبب المباشر** الذى أدى إلى إندلاع الحرب السمنية الثانية عام ٣٢٦ ق.م. لقد كان **السبب هو تفجر صراع حزبى سياسى بين الأحزاب والتيارات السياسية فى مدينة نيابوليس** (نابولى) **الكامبانية الإغريقية الأصول** والمركز التجارى الإغريقى فى وسط إيطاليا. فقد تحالف **"المواطنون القدماء"** *Palaeopolitae* فى **نيابوليس** (ربما كانوا من سلالة المهاجرين الأوائل الذين استوطنوا المدينة)، **مع السمنيين واستقدموا** - بمساعدة مدينة نولا- **حامية سامنية إلى المدينة** وهو ما أثار **اعتراض بقية المواطنين** وأثار كذلك **توجس وقلق مدينة كابوا** المجاورة حليفة روما **وجعلها تطلب** - نيابة عن بقية اهل نيابوليس- **تدخل الرومان**. وبناء على ذلك أرسلت روما القنصل **كوينيتوس بوبليليوس** فيلو لمحاصرة نيابوليس **عام٣٢٧ ق.م.**، ولما استمر الحصار للعام التالى ظل هذا القنصل عى رأس جيشه بصفة "قنصل سابق" حى العام التالى٣٢٦ق. م. حتى **تخلص** فى نهاية المطاف **من الحامية السمنية وسلم الإغريق الموالون لروما المدينة للرومان** وكانوا **سعداء** بقيام روما **بحماية نشاطهم التجارى من إغارات السمنيين**. واعقب الرومان ذلك **بمنح نيابوليس تحالفاً مميزاً** اعفيت بمقتضاه المدينة من الخدمة العسكرية الإلزامية مع الجيوش الرومانية. وبعد ذلك إستولى الرومان على مدينتى **روفريوم** *Rufrium* **واليفاى** *Allifae* على الحدود السمنية، وبذلك **بسط الرومان سيطرتهم على إقليم كامبانيا بأكمله باستثناء مدينة "نولا** *Nola* ".

نتيجة لهذه **التوسعات والتحالفات الرومانية فى كامبانيا مع رغبة السمنيين** -فى الوقت ذاته- **فى توسيع نفوذهم فى تلك المنطقة** أصبح **الصدام** بين القوتين **أمراً حتمياً** ولا مفر منه. **ويعبر ليفيوس** عن ذلك بوضوح حين ذكر على لسان احد المتحدثين الرسميين بإسم السمنيين **"دعنا نحسم الأمر، من سيحكم إيطاليا السمنيون ام الرومان"**. وإذا ما تحدثنا **عن الطبيعة القتالية** للطرفين فإن **الرومان كانوا متفوقين فى قتال الفيالق النظامية** فضلاً عن مساندة **قوات الفرسان الكامبانيين** لهم، أما فى **حروب الجبال بدروبها وشعابها فإن السمنيين** فى مجموعاتهم الصغيرة المتحركة الرشيقة ذات الخبرة بالمكان **ربما تسبب إزعاجاً بالغاً للرومان**. ويكتنف بعض الغموض ما أورده ليفيوس عن السنوات الأولى من تلك الحرب؛ فهو يحدثنا عن **عدد من حروب العصابات** التى دارت ما بين **٣٢٦ و٣٢١ ق.م**. ويذكر **انتصارين للرومان أولهما عام ٣٢٥ ق.م**. حين أحرز القنصل **ديكيوس جونيوس بروتوس** انتصاراً على الفستينى Vestini (إحدى قبائل وسط إيطاليا) عبر جبال الأبنين، **وثانيهما عام ٣٢٤** حين **انتصر الديكتاتور لوكيوس بابيريوس كورسور فى أمبريفيوم**. أما السنوات التالية فمعلوماتنا عنها ضئيلة ولكن يبدو أن الرومان تعلموا خلالها التكيف مع الظروف الجديدة المتمثلة فى حرب العصابات عبر الجبال.

وفى عام ٣٢١ ق.م. صمم الرومان على شن هجوم أقوى على جبهة القتال مع السمنيين. فقام القنصلان عن ذلك العام وهما **تيتوس فيتوريوس وسبوريوس بوستوميوس** بصف وترتيب جيشيهما القنصليين **فى كالاتيا** *Calatia* فى كامبانيا حيث نما إلى علمهما أخبار بأن **الجيش السمنى بقيادة جافيوس بونتيوس كان فى أبوليا**. وقد راودهما الأمل **فى قطع الطريق على هذا الجيش والحيلولة دون عودته لقواعده فى** جبال الأبنين وبالتالى **إحراز انتصار حاسم عليه فى سهول ابوليا فتقدم**

القنصلان فى وادى **"شعاب كاوديوم"** عبر الأبنين. ولكن اتضح للقوات الرومانية أن هذا **فخ وشرك نصبه لهم السمنيون** وانهم كانوا **يرابطون حول هذا الوادى من كل جانب** وأن التقارير التى وصلت الرومان عن وجود الجيش السمنى فى أبوليا كانت **غير صحيحة** ولا أساس لها من الصحة وانها كانت **بغرض تضليل الرومان وإيقاعهم فى الشرك** المنصوب **ونجحوا فى خطتهم** وحين توغلت القوات الرومانية فى وادى شعاب كاوديوم وأكتشفوا أمر الخدعة التى دبرت لهم بإحكام **وحاولوا التراجع والإنسحاب لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً** أيضاً حيث كان **السمنيون قد سدوا مدخل الوادى كذلك**. وقد حاول القنصلان محاولات غير مجدية للخروج من حلقة الحصار لكنها كانت محكمة **مما أجبرهما على الاستسلام وإلا واجها هما وجيشاهما هلاكاً محققاً لا محالة**. وقد أملى القائد السمينى جافيوس بونتيوس **شروط الإستسلام** وهى : أن **يسحب الرومان حامياتهم من المناطق الحدودية** التى كان السمنيون يعتبرونها من أملاكهم، **وألا يعاود الرومان إشعال الحرب** من جديد، **وأن يسلموا ستمائة من الفرسان الرومان كرهائن، وأن يمر الجيش الرومانى المستسلم "تحت النير** *sub iugo* " وهو نير من الرماح - كرمز للمهانة والإذلال.

هكذا **تعرض الرومان لاستسلام مهين على يد السمنيين** فى "شعاب كاوديوم" عام ٣٢١ق.م. ولكن **كتاب الحوليات** الرومان حاولوا **التخفيف من وطأة هذه الكارثة والمهانة** بالقول بأن **مجلس السناتوس رفض الاعتراف بهذه الإتفاقية ولم يصدق عليها**. لكن **واقع الحال على الأرض** أن حالة من **اللاحرب قد أعقبت ذلك** الموقف **وسلم الرومان فريجيللاى** وأحجموا عن أية أعمال عدائية ضد السمنيين. ولكن هذا الموقف **هز هيبة روما** بعض الشىء **وخلق حالة من عدم الإستقرار النسبى** بين رعاياها. وتم تدبير الرهائن المطلوبين **من كانوسيوم وتيانوم** وتم **إرسال بعض القادة الرومان إلى كابوا وكوماى** المستقرتين عام ٣١٨ ق.م. **وكون الرومان قبيلتين**

جديدتين على بعض الأراضى المصادرة التى لم تستغل بعد : فعلى الأرض المصادرة من "بريفرنوم *Privernum* " تكونت قبيلة " أوفينتينا *Oufentina* "، وفى منطقة شمال كابوا قبيلة "فاليرنا *Falerna* " .

وبحلول **عام ٣١٦** كان **الرومان قد استردوا ثقتهم** وخففوا كثيراً من الاستياء الناجم عن " شعاب كاوديوم" **وزادوا طاقتهم التجنيدية إلى أربعة فرق** بدلاً من إثنتين كل عام. فى الوقت ذاته كان السمنيون ينظرون شذراً إلى نفوذ روما المتنامى فى أبوليا. ويبدو أن كلا الطرفين كان جاهزاً للقتال، **وتجدد القتال حين استولت روما على "ساتريكوم"** الواقعة على نهر "ليريس". ففى **عام ٣١٥** أرسل **الرومان** القنصل لوكيوس بابيريوس **كورسور** للاستيلاء على **لوكيريا** (وهى بلدة تقع على الحدود بين سامنيوم وابوليا وكانت موقعاً حصيناً تحت السيطرة السمنية) حيث **استولى عليها وأقام فيها مستوطنة لاتينية عام ٣١٤ ق.م.** ولكن **السمنيين** كانوا قد أصبحوا أكثر قوة من ذى قبل **فتقدموا غرباً نحو "سورا *Sora* "** إلى **وادى نهر ليريس ثم إلى الساحل** حيث **ألحقوا الهزيمة بجيش رومانى** من جنود الاحتياط الذين تمت تعبئتهم على عجل فى **"لاوتولاى *Lautulae* "** بالقرب **من تاراكينا عام ٣١٥**. ويروى ان السمنيين ربما شقوا طريقهم إلى **لاتيوم** واغاروا **على أرديا**. وهكذا أصبحت روما فى خطر داهم وهزت هيبتها لاسيما بعد **أن سيطر السمنيون على تاراكينا** على الساحل **وقطعوا الطريق إلى كابوا وكوماى** على الرومان وهو ما ادى إلى **تمرد كابوا** وبداية **إنقلاب المدن الكامبانية** رغم إستمرار اللاتين على ولائهم لروما. ولكن لم يلن عزم روما ولم يهن فى العام التالى مباشرة **عام ٣١٤ ق.م.** حشد الرومان قوتهم لشن هجوم مضاد واحرزوا **انتصاراً مؤزراً على السمنيين فى "تاراكينا"** التى استردوها. وسرعان ما **أخضعت روما حلفاءها الذين تمردوا** عليها قبل قليل: كابوا والأورونكى، واعقبت ذلك **بإعادة الاستيلاء على فريجيللاى**

وسورا، وهزمت **نولا وكالاتيا** وجعلت منهما حلفاء. **وأرسلت روما مستوطنات لاتينية** لتحقيق مهام بعينها فى أجزاء عديدة من كامبانيا **لمراقبة الطريق الساحلى** (فى سويسا اورونكا وبونتيا) **ولمراقبة حدود كامبانيا** (فى ساتيكولا *Saticula*) **ولحراسة سهل ليريس الأوسط** (فى إنترامنا *Interamna*). كل ذلك تم فى الفترة ما بين ٣١٤ - ٣١٢ ق.م.

إنجاز آخر لا يقل اهمية فى تلك الفترة قام به **ابيوس كلاوديوس كايكوس** (الأعمى) الذى شغل منصب **الكنسور عام٣١٢** وأقام **الطريق السريع المشهور الموصل بين روما وكابوا** والذى عُرف بإسمه **"طريق ابيوس** *Via Appia* " والذى احكم سيطرة الرومان وعزز إتصالاتهم بإقليم لاتيوم الذى يمر من خلاله وكذلك بكامبانيا، وقد امتد هذا الطريق فيما بعد ليصل إلى برنديزى فى كالابريا فى الجنوب الشرقى. **أما كيف اتيح لأبيوس كلاوديوس إقامة هذا المشروع الضخم** فإن ذلك يرجع إلى شخصية أبيوس القوية ذات الآراء الثورية العنيدة: فقد رأى وهو يشغل منصب الكنسور - كما أسلفنا- أن **يوسع من نطاق عضوية السناتو** لتضم إليها المواطنين **الرومان الأثرياء من الطبقات الأدنى** حتى ولو كانوا من أبناء العتقاء. وقد اتيح له - من خلال تأييد هؤلاء له ودعمهم ى والضريبى الذى صب فى خزانة الدولة- إقامة هذا المشروع الكبير. وهكذا وبحلول **عام ٣١٢ ق.م.** كانت **روما قد تعافت تماماً من آثار هزيمتى كاوديوم ٣٢١ ق.م. "ولاوتولاى" (قرب تاراكينا" ٣١٥ ق.م.)** واحكمت قبضتها على كامبانيا ووسعت نفوذها فى أبوليا وبدأت تطوق سامنيوم **بسلسلة محكمة من الحلفاء والحصون.**

واعتباراً من العام التالى بدأت **مرحلة أخرى وأخيرة من الحرب السمنية الثانية من عام ٣١١ ق.م.** إذ دخل حلبة الصراع الرومانى - السمنى **عناصر جديدة.** ففى ذلك العام كانت الهدنة التى عقدها الرومان مع

مدينة تاركويني الإترورية لمدة أربعين عام ٣٥١ ق.م. قد انتهت. وخلال فترة الهدنة تلك لم يتدخل الإتروريون ضد روما في صراعها مع "سامنيوم". لكنهم الآن -وبعد صعود نجم روما وتوسع مناطق نفوذها كما أسلفنا وبعد نهاية فترة الهدنة- **ألقى الإتروسكيون بثقلهم فى ذلك الصراع** مؤازرين لسامنيوم وتقدمت قواتهم نحو "سوتريوم". ولكن **فى عام ٣١٠ ق.م. قام** القنصل الرومانى كوينتوس فابيوس **روليانوس بهجوم مضاد جرىء وشق طريقه بقواته إلى قلب إتروريا** وأحرز انتصاراً على الإتروريين. وبعدها **عقد الرومان اتفاقات مع مدن إترورية** مثل "كورتونا" و "بيروسيا" و "اريتيوم"، ثم استولوا على فولسينى، وفى **عام ٣٠٨ ق.م. جدد الرومان التحالف مع مدينة "تاركوينى" لمدة أربعين عاماً أخرى،** كما عقد الرومان **تحالفات أخرى مع بعض مدن أومبريا** مثل كاميرينوم *Camerinum* وأوكريكولوم *Ocriculum* . وبذلك أمن الرومان - إلى حين- خطر الشمال.

وفى ذات الوقت **انفتحت جبهات أخرى** فى تلك الحرب الضروس إذ كان الرومان قد هاجموا سامنيوم من شمال أبوليا واستولوا فقط على "الليفاى" عام ٣١٢. ولم يكد كوينتوس فابيوس يغرى مدينة "نوكيريا" بالعودة إلى تحالفها مع روما حتى اضطر إلى الإسراع نحو الشمال باتجاه المارسيين الذين كانوا قد تعرضوا لغزو من السمنيين عام ٣٠٨. وفى الوقت ذاته **تمردت قبائل الهيرنكى وتحالفت مدن** "سورا" و "اربينوم" و "فروسينو" و "كالاتيا" مع السمنيين. **وفى عام ٣٠٦ اجتاحت روما بعض هذه المدن وأجبرتها على الاستسلام، وفى عام ٣٠٥ ساند الأيكوى جيرانهم الهيرنيكى** واجتاح السمنيون منطقة سهول فاليرنوس الخصيبة *ager Falernus* فى شمال كامبانيا ولكنهم رُدوا على أعقابهم، **ولقى جيش سامنى جاء لنجدة وعون رفاقه هزيمة -بعد صراع عنيف- قرب بوفيانوم *Bovianum* . واستولت روما على سورا وأربينوم من جديد وهو**

ما قضى على مقاومة الهيرينكى. **وفى عام ٣٠٤ هزم الرومان قبائل "الأيكوى" وقبل السمنيون فى نهاية المطاف الالتزام بالمعاهدة القديمة** *foedus antiquum* . وبعدها عقدت روما تحالفات من جديد مع بعض من تمردوا عليها ومنحت البعض الآخر بعض حقوق المواطنة المدنية دون السياسية.

وهكذا وبعد ما يزيد على **عشرين عاماً من الحروب الشرسة بين الرومان والسمنيين** لم تفقد سامنيوم استقلالها بعد **وظلت محافظة على كيانها واستقلالها** ولكن بعد جيم نواياهم وخططهم التوسعية وإجبارهم على البقاء داخل حدو . أما **الفوائد التى جنتها روما من وراء هذه الحرب** فهى **حصولها على عدة مدن حدودية** مثل ساتيكولا وأربينوم وسورا ولوكيريا **وتحالفها مع بعض سكان الجبال فى وسط إيطاليا وشمال ابوليا**، كما أن **إبرامها معاهدات مع "نولا" و "نوكيريا" أكملا سيطرتها على كامبانيا**، وكذلك فإن **إقامتها للحصون والقلاع** على طول نهر ليريس وفى لوكيريا كانت **مؤشراً حقيقياً على قوتها**. ومن هنا فإن هذا الصراع الطويل عاد **بمكاسب** على الأرض **لا يستهان بها** بالنسبة للرومان **ولكنه لم يحسم صراعهم مع السمنيين** ولم يقض على مقاومة سامنيوم ويجعلها ترفع راية الإستسلام. وعليه فإن **التزام سامنيوم بالمعاهدة القديمة** لا يعدو - فى واقع الأمر - ان يكون **هدنة مؤقتة لالتقاط الأنفاس** من الطرفين ريثما تسنح الفرصة لمواجهة فاصلة بينهما.

(ب) المرحلة الثانية : (الحرب السمنية الثالثة ٢٩٨ –٢٩٠ ق.م.)

بعد هذه الهدنة المؤقتة مع سامنيوم عام ٣٠٤ بدأت **نذر وغيوم التوتر تتجمع من جديد أمام روما وتقض مضاجعها مع بدايات القرن الثالث ق.م. من الشمال ومن الجنوب**. ففى الشمال أضطربت الأوضاع فى منطقة

"الغالة القريبة" بعد أن عبرت جماعات جديدة من الكلتيين جبال الألب وأشاعوا حالة من عدم الإستقرار بين رفاقهم من سكان "الغالة القريبة" الذين سبقوهم إلى الإستقرار فى حوض سهل البو قبل وقت طويل. واكتسحت جماعة من القادمين الجدد **سهول إتروريا** بل وتوغلوا **فى مناطق خاضعة للرومان عام ٢٩٩ ق.م.** فى حين توجهت غالبية هذه الجماعات إلى منطقة الـ *Veneti* فى أقصى شمال شرق إيطاليا على الأدرياتيك. وقد حاول الرومان -على عجل- **إيقاف تقدم الموجة الكلتية نحو الجنوب** بتكوين تحالف مع منطقة **بيكينوم** (جنوب أومبريا) فى الشرق **وإستولوا على إحدى مدن أومبريا** وأقاموا عليها مستوطنة لاتينية **إسمها "نارنيا** *Narnia* " .

هذا **الوضع الجديد** شجع **السمنيين** وبعض من **الإتروسكيين** على استغلال نقطة ضعف روما وانتهاز هذه الفرصة السانحة للنيل منها. فقد استغل السمنيون الفرصة وقاموا **بغزو منطقة "لوكانيا"** فى الجنوب وهنا قام قنصلا عام ٢٩٨ ق.م. **بمهاجمة السمنيين من الجنوب ومن الشمال**: إذ قام القنصل لوكيوس كورنيليوس سكبيو باربـاتوس بالاستيلاء على مدينتين فى جنوب غرب سامنيوم وطرد السمنيين وحصل على رهائن من اللوكانيين، وقام زميله جنايوس فولفيوس بمهاجمة شمال سامنيوم واستولى على إحدى مدنها. وبينما كان القنصلان كورنتوس **فابيوس رولیانوس** وبوبليوس **ديكيوس موس** يواصلان **حملتهما فى سامنيوم** على مدى عامى **٢٩٧ - ٢٩٦ ق.م.** واستولوا على **مدينتين شرق سامنيوم** كان **السمنيون بزعامة قائدهم جيلليوس إيجناتيوس** قد دبروا أمر خطة جريئة فى **التعاون مع خصوم روما الشماليين** للقيام **بهجوم مشترك من هذه القوات المتحالفة ضد الرومان.**

وفى العام التالى ٢٩٥ **أسرع** الرومان **بإرسال جل قواتهم عبر أومبريا لمنع السمنيين من الإنضمام إلى قوات الغالة**. ولكن **محاولتهم جاءت متأخرة** ولقت مقدمة جيشهم **هزيمة قرب كاميرينوم** *Camerinum* . وهنا تأزم الموقف وأصبح **خطيراً بالنسبة للرومان** الذين بات عليهم مواجهة القوات الحليفة المؤلفة من **السمنيين والغال وبعض الأومبريين والإتروسكيين** وصار الرومان فى موقف لا يُحسدون عليه. وهنا تجلت قوة الرومان ورباطة جاشهم وظهر **عزم وتصميم الفرق الرومانية** أمام جحافل القوات الحليفة. فى موقعة "**سنتينوم** *Sentinum*" الشهيرة. ويتحدث التراث الرومانى عن **آيات البطولة الخارقة** التى أبداها القنصلان كوينتوس فابيوس **رولیانوس وديكيوس موس** من المحاربين القدماء الذين شغلوا منصب القنصلية عدة مرات من قبل. إذ يروى عن هذين القنصلين المخضرمين أنهما دخلا المعركة وفى عزمهما أن **ينذرا نفسيهما وأكبر حشد من أعدائهم لآلهة العالم** السفلى. وهو ما يُطلق عليه اصطلاح *devotio* (وهو قريب نسبياً - مع الفارق طبعاً- من مفهوم الإستشهاد فى الإسلام حين يدخل المرء المعركة وفى يقينه إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة أو هما معاً). **ويروى المؤرخ ليفيوس الصلاة والدعاء الذى تلاه ديكيوس موس** وهو ينذر نفسه وأعدائه لآلهة العالم السفلى قبل أن **يندفع وهو على ظهر جواده** ويخترق صفوف الأعداء ويلحق بهم أفدح الخسائر (*ff.* 8.9.4) . نتيجة لهذه البطولات الرومانية والعزم الأكيد **حقق الرومان انتصاراً باهراً** على جموع الحلفاء فى **سنتينوم عام ٢٩٥ ق.م.** التى كانت موقعة حاسمة فى تحديد مصير إيطاليا تحت حكم الرومان. **فبعد هذه المعركة تفرق السمنيون والغالة** وعادوا منكسرين إلى مواطنهم، كما عاد القنصل فابيوس روليانوس إلى وطنه عبر إتروريا. وفى العام التالى **٢٩٤ ق.م. وضع الرومان حداً للقلاقل فى إتروريا** بأن سحقوا مدن فولسينى وبيروسيا

واريتيوم صلحاً وسلاماً لمدة اربعين عاماً حتى يتفرغ الرومان لحسم صراعهم مع السمنيين.

ولكن على الرغم من **انهيار التحالف الذى أقامته سامنيوم مع الغالة وبعض الأومبريين والإتروسكيين** نتيجة الهزيمة الكبيرة فى سنتينوم عام ٢٩٥ ورغم **سقوط جيلليوس إيجناتيوس زعيم السمنيين صريعاً** فى المعركة إلا أن هذه **الهزيمة لم تسحق السمنيين تماماً** بل لقد هزموا جيشاً رومانيا فى "لوكيريا" فى العام التالى. ولكن فى عام ٢٩٣ أخذ الرومان زمام المبادرة من جديد وأحرز القنصل لوكيوس بابيريوس انتصاراً كبيراً على السمنيين فى **أكويلونيا** ***Aquilonia*** على حدود أبوليا وبذلك أكمل انتصار "سنتينوم"، وفى عام ٢٩١ اجتاح القنصل لوكيوس بوستوميوس **مدينة فينوسيا** *Venusia* المتحكمة فى الطريق بين كامبانيا وابوليا **وأقام مستوطنة لاتينية** كبيرة هناك. وبذلك **أصاب الإرهاق والضعف السمنيين** وتم التوصل إلى صلح - هو أقرب **إلى الاستسلام- بينهم وبين روما عام ٢٩٠ ق.م. وأصبح السمنيون "حلفاء"** لروما يلبون طلباتها وحاجاتها من القوات ويدينون لها بالطاعة فى السياسة الخارجية. لقد كان هذا **رضوخاً للأمر الواقع** من جانب السمنيين - **على كره منهم**- واعترافاً بتفوق روما، ولكن ظلت بذرة التمرد والكراهية لروما كامنة فى نفوسهم تتحين أية فرصة ضعف لروما لتعبر عن نفسها.

وبعد بضع سنوات من هدوء الأوضاع على جبهات القتال ونزع فتيل التوتر بين العامة والأشراف بقانون هورتنسيوس الشهير عام ٢٨٧ ق.م. أطل **خطر الغالة** برأسه من جديد عام **٢٨٤ ق.م**. ففى ذلك العام عبرت قبائل السنونيس الغالية جبال الأبنين وحاصرت مدينة **"أريتيوم"** الإتروسكية الحليفة لروما خفَّ القنصل الرومانى كايكليوس ميتيللوس

لنجدتها ولكنه لقى مصرعه فى **معركة كلفت الرومان ١٣٠٠٠ قتيل** وهو ما شجع بعض الإتروسكيين والسمنيين واللوكانيين على التمرد. ولكن الرومان واجهوا هذا الخطر **وقام القنصل ماركوس كوريوس دينتاتوس وتوجه بقواته إلى الأرض** التى احتلها الغال *ager Gallicus* **وطردهم منها بمنتهى القوة والحزم** بل واستولى على جزء من أرضهم وضمها فى صورة **مستوطنة رومانية هى "سينا"** *Sena* **على بحر الأدرياتيك** كما حاولت **قبائل البوبيى** *Boii* **الغالية عام ٢٨٣** أن تنضم إلى الإتروسكيين المتمردين **ولكنها هزمت** حين توجهت جنوباً نحو روما حيث هزمهم القنصل كورنيليوس دولابيلا **فى موقعة "بحيرة فاديمو"** على بعد نحو خمسين ميلاً شمال روما. وفى العام التالى **أحبطت محاولة ثانية للبوبيى** وبعدها **جنحوا إلى السلم لمدة خمسين عاماً**، وفى عام **٢٨٠ هزمت روما وأخضعت بعض المدن الإترورية** الثائرة وأصبحت من حلفاء روما.

وهكذا **وبعد نهاية الحرب السمنية الثالثة وتوابعها** من تحرشات قبائل الغال **نجح الرومان فى السيطرة على الموقف إلى حد كبير** وفى إثبات أنهم **القوة الأولى فى إيطاليا** وأصحاب القوة والسطوة فعلاً لا قولاً. صحيح أنهم دفعوا **ثمناً باهظاً وتضحيات جساماً** إلا انهم **أخذوا الدنيا غلاباً** وأدركوا أن نيل المطالب لا يتأتى بالتمنى. **وسوف يستمر هذا النهج حتى تخضع** شبه الجزيرة الإيطالية بالكامل لهم، ترى ماذا **بقى منها لم يخضع** بعد للسيادة الرومانية: إنها مجموعة المدن الإغريقية فى أقصى جنوب إيطاليا المعروفة باسم "بلاد الإغريق العظمى *Magna Graecia* " وعلى رأسها زعيمتها آنذاك مدينة "تارنتوم".

(٨) الصراع بين روما والمدن اليونانية فى جنوب إيطاليا *Magna Graecia* (٢٠)

حتى تحقيق الوحدة الإيطالية عام ٢٦٥ ق.م.

على مدى الفترة ما بين **أواخر القرن الثامن وأواخر القرن السادس ق.م.** كانت هناك **ظروف سياسية واقتصادية وإجتماعية** غير مستقرة فى بلاد اليونان ومناطق نفوذها واستقرارها فى آسيا الصغرى دفعت بأعداد كبيرة من اليونانيين من تلك المناطق إلى **الهجرة والاستيطان فى أرجاء عديدة** من البحر المتوسط شرقه وغربه وكذلك حول البحر الأسود. وفى غضون تلك الحقبة **أقيمت عشرات المستوطنات الإغريقية** فى تلك المناطق المذكورة. **ما يعنينا** فى هذا المقام هو الحديث **عن المستوطنات والمدن التى أقامها الإغريق فى إيطاليا خلال الفترة ما بين ٧٤٠، ٤٣٣ ق.م.** (التاريخ الأول يشير إلى إنشاء أقدم مستوطنة إغريقية فى إيطاليا وهى "كوماى" فى خليج نابولى، والثانى إلى آخر مستوطنة أقاموها هناك على خليج تارنتوم فى الجنوب وهى "هيراكليا"). وقد أطلق على هذه المجموعة من المستوطنات والمدن اليونانية فى إيطاليا مصطلح *Magna Graecia* **باللاتينية** أو *Megale Hellas* باليونانية. وتفاوت تعريف هذا المصطلح بصورة بينة وإن كان التعريف الأكثر شيوعاً هو ما **ينطبق على المنطقة الواقعة بين كوماى وتارنتوم** *(Servius on Aeneid, I.569)* وإن كان **سترابون** يجعل المستوطنات الإغريقية فى صقلية ضمن مصطلح "بلاد اليونان العظمى" *(6.1.2)* ولكن آخرين يستبعدون صقلية بل وكامبانيا من هذا التعريف مثل **"بلينى الأكبر"** فى مؤلفه "التاريخ الطبيعى" *(NH 3.95)*. على اية حال فقد أقام الإغريق عدداً كبيراً من المستوطنات فى جنوب إيطاليا غرباً ثم شرقاً، ناهيك عن مستوطنات صقلية التى لا مجال لذكرها فى هذا المقام حيث لم تكن

تعتبر انذاك جزءاً من إيطاليا بل كانت كيانا مستقلاً سنتحدث عنه فى حينه.

ونعطى الآن **تعريفاً بأهم مدن ومستوطنات الإغريق فى جنوب إيطاليا** : كما سبق أن نوهنا اعلاه فقد كانت **كوماى على خليج نابولى أقدم تلك المستوطنات اليونانية** حيث أقامها مستوطنون من جزيرة يوبويا اليونانية حوالى عام **٧٤٠ ق.م.** وقامت كوماى بدورها بإقامة مستوطنة جديدة لها تقع إلى الجنوب الشرقى منها بمسافة حوالى ١٠ أميال (١٦ كيلو متراً) هى مدينة **"نيابوليس (نابولى / المدينة الجديدة)"** حوالى عام **٦٠٠ ق.م.** وعلى نفس الشاطئ الغربى من إيطاليا إلى الجنوب أقام إغريق مدينة فوكايا (على ساحل آسيا الصغرى الغربى) مدينة **"إيليا"** حوالى **٥٤٠ ق.م.** (التى اشتهرت بمدرسة إيليا الفلسفية الشهيرة التى بدأت نشاطها بالفيلسوف بارمينيديس فى أواخر القرن السادس ق.م.) وقد غزاها الرومان عام ٢٩٠ ق.م.

وفى أقصى الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة الإيطالية كان إغريق من مدينة خالكيس فى جزيرة يوبويا اليونانية قد أقاموا مدينة **ريجيوم** *Rhegium* منذ وقت مبكر حوالى عام **٧٢٠ ق.م.** ، وكانت **تشرف على مضايق ميسينا** التى تفصل بين جنوب إيطاليا وشمال صقلية وكانت على علاقة طيبة بروما. وعلى **الجانب الشرقى من منطقة "بروتيوم"** فى جنوب غرب إيطاليا أقام إغريق من لوكريس فى بلاد اليونان مدينة **لوكرى فى القرن السابع ق.م.** والتى **أقامت بدورها عدداً من المستوطنات** على مقربة منها خلال القرن السادس. ثم نجد أن مستوطنين **إغريق من آخايا** فى شمال شبه جزيرة البيلوبونيز قد أقاموا عدة مدن على هذا الجانب أيضاً أبرزها **كروتون وسيباريس** اللتان **أقامهما الآخيون** فى أواخر القرن الثامن ق.م. (٧٢٠ سيباريس و ٧١٠ كروتون) ثم **ميتابونتوم** إلى

الشمال منهما. كما أن اسبرطة أقامت مدينة على الجانب الآخر من ذلك الخليج قبالة "ميتابونتوم" ، هذه المدينة هى "**تارنتوم**" التى شيدت فى **أواخر القرن الثامن ق.م.** حوالى **عام ٧٠٦**، والتى **سيصبح لها شان كبير** بين تلك المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا إعتباراً من **أواخر القرن الخامس ق.م.** ومن المدن التى أقامها الإغريق فى جنوب إيطاليا خلال القرن الخامس ق.م. مدينة "**ثورى**" التى أقامتها أثينا بالتعاون مع إغريق آخرين **عام ٤٤٤ / ٤٤٣ ق.م.** قرب موقع سيباريس القديمة التى دُمرت عام ٥١٠ ق.م. على يد شقيقتها كروتون. ونظراً للنفوذ القديم والمنافسة التقليدية على زعامة بلاد اليونان بين اسبرطة وأثينا خلال القرن الخامس ق.م. ، نجد تارنتوم المستوطنة الأسبرطية فى جنوب إيطاليا وقد ورثت نفس النفور **تجاه ثورى** المستوطنة الأثينية الجديدة فأقامت إلى الشمال منها - بعد نحو عشر سنوات **عام ٤٣٣ ق.م.** - مستوطنة ومدينة تابعة لها هى "**هيراكليا**" لتحدث نوعاً من التوازن أمام ظهور "ثورى".

كانت تلك **أبرز المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا** او "بلاد اليونان العظمى" وقد حققت تلك المدن **درجة عالية من الازدهار والرفاهية** الاقتصادية عن طريق ممارسة التجارة على نطاق واسع وكذلك من خلال تربتها الخصبة الغنية كما **ازدهرت الثقافة والمعرفة والفكر** فى تلك المدن إلى آفاق كبيرة منذ فترة مبكرة من خلال **مدارسها الفلسفية** مثل **مدرسة إيليا** الفلسفية **وكروتون التى شهدت** إبداعات ونظريات الفيلسوف والعالم الموسوعى **فيثاغورث (بيثاجوراس)** منذ القرن السادس ق.م. [٢١] لكن آفة **تلك المدن اليونانية** فى جنوب إيطاليا هى أنها نقلت إلى مهجرها الجديد **بذرة الخلافات والمشاحنات التى كانت** موجودة فى مواطنها الأصلية بين المدن اليونانية التى أقامتها، بل وحتى بين المدن (فى المهجر) التى تنتمى إلى نفس المدينة أو الجماعة من بلاد اليونان. ولا أدل على ذلك من **قيام كروتون بتدمير جارتها الشمالية وشقيقتها سيباريس**

ومحوها من على الخريطة لخلافات بينهما **رغم ان المدينتين بناهما الآخيون** (سكان القسم الشمالى من سبه جريرة البيلوبونيس فى جنو اليونان) فى أواخر القرن الثامن ق.م. كما أسلفنا . لقد كانت كل من المدينتين مضرب **الأمثال فى الثراء والرفاهية** (لا سيما سيباريس) . ولكن **الأحقاد والخلافات المريرة** بين المدينتين أدت إلى تلك **النهاية الفاجعة للمدينة المزدهرة** قبيل الحكم الجمهورى فى روما وفى نفس عام القضاء على الملكية فى روما عام ٥١٠ ق.م. لقد أمعنت كروتون فى الانتقام من شقيقتها حتى لقد غيرت مجرى نهر صغير كان قريباً من سيباريس هو نهر "كراثيس *Crathis* " حتى يغطى موقع المدينة المدمرة لكى لا تقوم لها قائمة من جديد (وإن كانت مدينة "ثورى"*Thurii* التى اقامتها أثينا عام ٤٤٣ ق.م. قد أقيمت على موقع قريب من موقع سيباريس القديمة)

هذه الخلافات - الحادة أحياناً- بين المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا **أطمعت فيهم جيرانهم الإيطاليون** ولا سيما من **إقليم لوكانيا وإقليم بروتيوم**. وجعلت الأخيرين يتحرشون بهم ويهاجمونهم ويدخلون فى معارك وصراعات معهم طيلة **القرن الرابع ق.م.** وهو **بداية اضمحلال تلك المدن** مما جعلها تستعين لمواجهة خصومها **بقوى خارجية من الوطن الأم أو قوى إيطالية كبرى مثل روما أو سامنيوم.**

وفى **خلال القرن الرابع برزت قوة وسطوة مدينة تارنتوم**[**] الاسبرطية الأصل على خليج تارنتوم (الذى سُمى باسمها) واصبحت تشكل **أكبر قوة بين المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا.** ومن **الشخصيات البارزة من تارنتوم** مع بدايات القرن الرابع ق.م. **الفيلسوف الفيثاغورى والرياضى الشهير "ارخيتاس"** الذى كان كذلك مولعاً بالموسيقى والميكانيكا **وكان صديقاً لأفلاطون.** كما كان ارخيتاس قائداً **عسكرياً شهيراً** قاد جيوش مدينته مراراً وتكراراً فى **حملات عسكرية ناجحة**، ويُعزى إليه العديد من

المخترعات. **وترجع أسباب قوة تارنتوم** إلى **تجارتها مع المناطق المجاورة** لها فى إيطاليا وكذلك مع بلاد اليونان، كما كانت لها **مصايد أسماك غنية** فى خليج تارنتوم، وحافظت تارنتوم على مكانتها وهيبتها من خلال **استئجار جند مرتزقة** محترفين من بلاد اليونان.

وكانت **اسبرطة تقدم العون والنجدة** من حين لآخر لمستوطنتها تارنتوم وقت الشدائد ففى خلال "حرب اللاتين الكبرى" بين روما والمدن اللاتينية ٣٤٠ - ٣٣٨ ق.م. كان الملك **الأسبرطى أرخيداموس يحارب** فى إيطاليا نصيراً لتارنتوم ضد خصومها الإيطاليين من **اللوكانيين والسمنيين**. وقد أسدى - بغير قصد- خدمة كبيرة لروما حين شتت إنتباه السمنيين وصرفهم عن مساعدة اللاتين فى حربهم ضد روما وذلك قبل أن يسقط قتيلاً فى ميدان المعركة عام ٣٣٨. وبعد ذلك بقليل **حاول التارنتيون أن يتوسعوا فى أبوليا** وساعدهم فى ذلك **الإسكندر المولوسى ملك إبيروس**، ويبدو أن **الاتفاقية التى أبرموها مع روما قد تمت فى ذلك التوقيت** وبمقتضاها لم يكن يحق للسفن الحربية الرومانية أن تبحر إلى الشرق من **رأس لاكينيوم قرب كروتون**، وفى ذلك الحين لم يكن للرومان إهتمام بأبوليا او بالجنوب. ولكن احلام وطموحات الإسكندر ملك بيروس التوسعية التى فاقت طموحات أهل تارنتوم وئدت بموته عام ٣٣٠ ق.م. ثم جاء **تحالف روما مع نابولى عام ٣٢٧** ومن بعده **توسعات روما فى أبوليا اثناء الحرب السمنية الثانية** - وخصوصاً إقامة مستوطنة لهم فى "لوكيريا" ليجذب إنتباه إغريق الجنوب **ويثير حنق وغيظ تارنتوم**. ثم تعرضت تارنتوم لاعتداءات **وهجمات جديدة من قبل اللوكانيين** مما دعاها إلى **الاستعانة بكليونيموس** ملك اسبرطة عام ٣٠٣ **ولكنه لقى هزيمة من أعدائه واضطر إلى الرحيل** ربما بمعاونة من روما للوكانيين. ثم أقام الرومان **مستوطنة لاتينية** فى جنوب إيطاليا جنوب إقليم أبوليا ولا تبعد

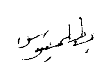
كثيراً عن حدود تارنتوم. هذه المستوطنة واسمها **فينوسيا** *Venusia* التى أقامها الرومان عام ٢٩١ شكلت حدثاً بارزاً لفت الإنتباه.

هذا **التدخل الرومانى المضطرد فى شئون الجنوب الإيطالى** وتوسعها هناك **أغرى المدن اليونانية الصغيرة بطلب النجدة والعون وقت الشدائد من روما** وليس من شقيقتهم الكبرى **تارنتوم** أو من **أجاثوكليس ملك سيراكيوز** الذى سبق له التدخل من قبل وكبح جماح البروتيين لبعض الوقت (٢٩٨ - ٢٩٥ ق.م.) والذى توفى عام ٢٨٩ فانهارت إمبراطوريته. ففى حوالى عام **٢٨٥ ق.م. لجأت ثورى إلى روما** تطلب مساعدتها **ضد اللوكانيين**، ويبدو أن روما استجابت للطلب وعليه كُرّم أحد الترابنة بتاج ذهبى. وفى عام ٢٨٢ **كررت ثورى الطلب** فأرسل الرومان جايوس فابريكيوس **بجيش قنصلى لطرد اللوكانيين وإقامة حامية فى ثورى**. كما استفادت كل من **ريجيوم ولوكرى وربما كروتون** من الحماية الرومانية. **لقد قرر الرومان** التدخل فى شئون الجنوب الإيطالى **وعدم الوقوف على الحياد** لا سيما وان قوى خارجية مثل الاسكندر ملك بيروس وأجاثوكليس ملك سيراكيوز قد سبق لهما استغلال الموقف والتدخل هناك. وفى تلك الأثناء **أرسلت روما عشر سفن فى خليج تارنتوم تجاوزت رأس لاكينيوم المحظور فردت تارنتوم** بإغراق أربعة منها وأسر إحداها وإجبار البقية على التراجع. وأعقبت ذلك **بإرسال قواتها إلى ثورى حيث طردت الحامية الرومانية وإجتاحت المدينة**، ثم **أهانت** بعد ذلك **المبعوثين الرومان** الذين طالبوا بتعويضات معقولة. وعند هذا الحد أرسلت روما القنصل لوكيوس **أيميليوس باربولا لمهاجمة تارنتوم** إذا ما أصرت على عدم دفع التعويض، وكان ذلك عام ٢٨١ ق.م. وكانت تارنتوم على وشك التسليم بمطالب ارومان لولا أن **رسول الملك بيروس ملك ابيروس** الذى كان التارنتيون قد طلبوا معونته **وصل إلى تارنتوم معلناً تأييد الملك بيروس لهم** فى حربهم ضد الرومان فقلب بذلك الموازين .

وهكذا لم يعد هناك من خيار بين الرومان وتارنتوم سوى الحرب.

(ب) بيروس[٢٣] وروما :

كان **بيروس** ملك ايبيروس **يمت بصلة قرابة إلى القائد العظيم الراحل الاسكندر الأكبر** من جهة أم الاسكندر أوليمبياس التى كانت من إيبيروس. ويروى أن بيروس كان فى ملامحه شبيهاً بالاسكندر الذى كان مثله الأعلى. وقد **خاض بيروس غمار السياسة والمعارك التى نشبت بين خلفاء الاسكندر** الأكبر بعد وفاته: إذ **طرد من عرشه وأطيح به عام ٣٠٢** وحارب تحت قيادة ديمتريوس "قاهر المدن" المقدونى فى **موقعة إبسوس عام ٣٠١** ضد بقية قادة الممالك الهللينستية ثم **ساعده بطليموس الأول ملك مصر فى العودة إلى عرشه عام ٢٩٧ ق.م.** وكان بيروس قائداً بارعاً وتنظيمياً سديد الرأى وقائداً طموحاً **وحقق إنجازات كبيرة فى بلاد اليونان حتى عام ٢٨٦ ق.م.** ولكنه سرعان ما **ألزم حدوده فى إيبيروس عام ٢٨٣ ق.م.** فأراد أن يعوض ما فقده وأن يكون إمبراطورية على غرار الإسكندر الأكبر **ولكن نحو الغرب هذه المرة** لذلك **لبىّ دعوة تارنتوم** واعتبرها **فرصة لتحقيق أحلامه**. وقد أتى بيروس وهبط بجيشه فى تارنتوم وكان جيشه مؤلفاً من **٢٥,٠٠٠ جندى محترف** وكذلك **عشرين من الأفيال الحربية التى يراها الرومان لأول مرة**. وقد طلب بيروس من التارنتيين **تسليمه قلعة المدينة والقيادة طيلة فترة الحرب**. وأسرع الرومان فى مجابهة بيروس فارسلوا إليه أحد قنصلى عام **٢٨٠ ق.م.** وهو **فاليريوس لايفينوس** الذى توجه إلى الجنوب والتقى بيروس وقواته فى موقعة **"هيراكليا"** الواقعة إلى الغرب من تارنتوم على خليج تارنتوم. وكان **الفريقان متساويين من الناحية العددية** تقريباً ولكن جيش بيروس كان على **مستوى قتالى محترف وعالى التدريب على نظام الفيالق المقدونية** الذى كان يحارب به الاسكندر الأكبر، كما **أن سلاح الأفيال والفرسان**



فـى جانـب بـيروس **مـنعا اخـتراق الـرومان لقواتـه** ولعـبا دروا كـبيراً فـى **تحطيم جناحى الجيش الرومانى وإلقاء الذعر فى صفوفهم** وهم يرون الأفـيال الحربـية لأول مـرة فى هذه المواجهة غير المتوقعة تراجع الفرسان الـرومان **وفـروا إلى مستوطنتهم فـى فينوسيا إلى الشمال** وتـركوا سبعة آلاف مقـاتل فقـط فـى مـيدان المعـركة. وبفضـل هـذا الموقـف ومسـاندة اللوكانـيين والسـمنيين ومديـنتى كروتون ولوكرى لبيروس لانقلابهم عـلى رومـا فقـد أحـرز بـيروس **أول انتصـار لـه عـلى الـرومان** فـى موقعـة **"هيراكليا" عـام ٢٨٠ ق.م. ولكـنه دفـع ثمـناً باهظاً لهـذا النصـر** إذ تكبـد **أربعة آلاف قتيل** من قواته فى هذه المعركة رغم انتصاره.

وبعـد هـذا النصـر **واصـل بـيروس مسـيرته نحـو الشـمال** فـى **إندفـاع هجومـى** ربمـا آمـلاً فـى أن **يضم إلى صفوفه حلفاء روما** الذين انضموا إليها عـلى كـره منهم مثل **الإترورين وبعض اللاتين وإغريق كامبانيا، ولكن خاب أمله فى كل ذلك** ولا سيما فى كابوا ونابولى اللتين أغلقتا بواباتهما دونـه. ولمـا كـان **بقية الجيش الرومانى** الذى لم يشارك مع القنصل الآخر فـى المعـركة الأولى **قـد أنهى مهمـة لـه فـى إتروريا** فقد اجتمع القنصلان لايفيـنوس (قـائد المعـركة الأولى فى هيراكليا) وإيميليوس مع جيشيهما استعداداً لإيقـاف زحف بيروس. **ونتيجة لذلك عاد بيروس إلى تارنتوم** بعد ان كـان عـلى مقربة اربعين ميلاً من روما وعسكرت قواته فى كامبانيا. **وأرسـل الـرومان سـفارة إلى بـيروس** عـلى رأسـها فابريكيوس للتفاوض معه عـلى **إعـادة الأسـرى** ، وبـدا بـيروس مسـتعداً لذلـك بـل **وأرسـل رسـوله كينـياس مـع فابريكـيوس الى رومـا ومعـه بعـض الأسـرى وهدايـا ثمينـة لأعضاء مجلس السـناتوس.** وعرض كينياس على الرومان **إعادة كافة الأسرى مقابل إنهاء الحرب** ولكن بشروط وهى أن **يعقد الرومان سلاماً مع تارنـتوم ويمـنحوا إغـريق إيطالـيا حكمـاً ذاتـياً** وأن **يعـيدوا إلـيهم كافـة أملاكهـم الـتى اغتصبها اللوكانـيون والسمنيون** وكان هناك فريق فى

السناتو **ميالاً إلى السلم** ولكن **اخرستهم بلاغة وقوة بيان زعيم السناتو ابيوس كلاوديوس كايكوس (الأعمى)** فى شيخوخته إذ إنهال لوماً وتقريعاً على اعضاء السناتو لمناقشتهم مثل تلك الأمور وتفاوضهم مع بيروس ذلك المعتدى الذى انتصر عليهم ولا زال يربض فوق أرض إيطاليا وطالب **بإنسحاب بيروس أولاً من إيطاليا ثم التفاوض معه بعد - وليس قبل- ذلك.** وبذلك سد الطريق على بيروس فى تحقيق مكاسب بالتفاوض واجبره من جديد علىَ الحرب.

ولما كان **بيروس قد فشل فى البقاء فى كامبانيا** فإنه اتجه إلى **تهديد القلاع والحصون الرومانية فى لوكيريا وفينوسيا** فى أبوليا وكان يهدف إلى **الضغط على سواحل الأدرياتيك.** وتلقى بيروس **تعزيزات من السمنيين واللوكانيين وبذلك اصبح جيشه مساوياً للجيشين الرومانيين القنصليين** الذين اجتمعا قرب فينوسيا عام ٢٧٩ لوقف تقدم جيش بيروس. والتقى الخصمان فى **معركة نظامية ثانية قرب "اسكولوم"** فى معركة **دامت يومين** هُزم فيها **الرومان وتكبدوا ستة آلاف قتيل واحد القنصلين** فى حين **تكبد بيروس خسائر كبيرة كذلك تقدر بـ ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) قتيل** حتى أنه ذكر العبارة الشهيرة المعروفة عنه **"إن انتصاراً آخر مثل هذا سيقضى علينا"** وجعل مثل هذا الموقف الذى يتكبد فيه المنتصر خسائر فادحة مضرب المثل بانه **"أشبه بانتصار بيروس** *Pyrrhic victory* ".

وكان من الممكن أن يواصل بيروس مسيرته الظافرة - رغم خسائره- إلى روما لولا أن **وصلته أنباء مزعجة من اليونان وصقلية** أجبرته على التوقف مؤقتاً. **فقد تعرضت مقدونيا لغزو من القبائل الكلتية** وهو ما يتيح لبيروس فرصة الظهور فى صورة البطل القومى الذى أنقذ بلاد اليونان من هجمات الكلت، وربما كذلك الاستيلاء على عرش مقدونيا.

وفى نفس الوقت وصل إلى بيروس **مبعوثون من سيراكيوز فى صقلية يرجونه مناصرتهم والوقوف بجانبهم ضد القرطاجيين** هناك الذين كانوا على وشك التهام كل صقلية والقضاء المبرم على الوجود الإغريقى فيها. ولما لم يكن بوسع بيروس أن يخوض المغامرتين معاً فقد **قرر الذهاب إلى صقلية ومناصرة إغريق صقلية ضد أعدائهم القرطاجيين**، ولكنه قبل أن يذهب إلى هناك ربما توصل إلى **اتفاق مع فابريكيوس** - أحد قنصلى ٢٧٨ — يضمن **سلامة تارنتوم** على الأقل **وترك بيروس نصف قواته فى إيطاليا** لحماية أعوانه وحلفائه هناك **وابحر بالنصف الآخر إلى صقلية فى خريف عام ٢٧٨ ق.م.**

وفى صقلية أمضى بيروس **نحو عامين** حتى **أواخر عام ٢٧٦ ق.م.** نجح خلالها **فى الحفاظ على كيان الإغريق** هناك **وحال دون سقوط الجزيرة بأكملها فى قبضة القرطاجيين**، وفى أثناء عودته من صقلية إلى جنوب إيطاليا لقى هزيمة على يد الإسطول الفينيقى هناك. وبعد هذه المهمة الخاطفة فى صقلية **عاد إلى جنوب إيطاليا** وكانت الأحوال قد تغيرت بعض الشىء. ففى **فترة غياب بيروس عن إيطاليا** تمكن الرومان تدريجياً **من إجبار السمنيين واللوكانيين والبروتيين على الخضوع لهم.** وإن لم يفلحوا فى ذلك مع إغريق جنوب إيطاليا تماماً ، إذ استولى فابريكيوس على هيراكليا عام ٢٧٨ وتمردت لوكرى وتم الاستيلاء على كروتون عام ٢٧٧. وكان بيروس قد عزم على ان يعود من حيث أتى إلى بلاده اليونان إذا لم يحقق إنتصاراً باهراً على الرومان يعيد إليه حظوظه المأمولة. **وسرعان ما استعاد كروتون ولوكرى ثم وصل إلى تارنتوم.** وفى خلال **عام ٢٧٥ ق.م.** اتجه بقواته التى تناقصت عن ذى قبل **نحو الشمال** فى حملة يرجو من ورائها إحراز نصر كبير ولكنها انتهت نهاية مؤسفة بالنسبة له. وكان احد القنصلين يرابط عند **ماليفنتوم** (ومعناها "الريح غير المواتية") فى أبوليا وهو القنصل مانيوس كوريوس، فى حين

ربط القنصل الآخر بجيشه فى لوكانيا واستبق بيروس التقاء الجيشين الرومانيين وتسرع بمهاجمة جيش كوريوس على عجل ولكنه أخفق فى الوصول إلى هدفه بهجوم ليلى مباغت. **وتمكن الرومان من التصدى لهجومه فى معركة مفتوحة واستولوا على العديد من أفياله، وانسحب بيروس إلى تارنتوم قبل أن يطبق عليه الجيشان.** وبعد ذلك **غادر جنوب إيطاليا عائداً إلى بلاده اليونان** هرباً من هذا المأزق الرومانى وإن ترك بعضاً من قواته فى تارنتوم ليشجع حلفاءه إغريق إيطاليا الذين خذلهم. **وفى العام التالى سحب تلك القوات المتبقية من تارنتوم باستثناء حامية بسيطة.** وعاود مغامراته فى بلاد اليونان. وبعد عامين ٢٧٢ ق.م. لقى بيروس مصرعه فى قتال شوارع فى إحدى مدن جنوبى اليونان (أرجوس) حيث أصابته سيدة بقالب طوب فى رأسه من على سطح منزلها فخرّ صريعاً.

بذلك **انتهت مغامرة بيروس فى إيطاليا** حيث أثبت الرومان صلابتهم ورباطة جاشهم رغم الهزائم التى انتهت أخيراً **بانتصار الرومان فى ماليفنتوم** (التى تيمن الرومان بانتصارهم فيها وجعلوا إسمها **بنيفنتوم** أى "الرياح المواتية") **وترك حلفاءه الإغريق هناك يواجهون مصيرهم المحتوم.** لقد تقرر مصير المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا حين غادر بيروس إيطاليا وتأكد ذلك المصير عندما أيقن الرومان أنه لن يعود مطلقاً. والآن لم يعد أمام الرومان إلا أن **يضعوا اللمسات النهائية لإنجازهم فى تنظيم إيطاليا الموحدة** ونشر السلام فى ربوعها: فبعد أن هزموا اللوكانيين أنزلوا بهم عقوبة قاسية حين قاموا **بإنشاء مستوطنة لاتينية فى بايستوم *Paestum* على الساحل الغربى فى لوكانيا عام ٢٧٣ ق.م.** وتمت **مصادرة نصف مساحة أراضى الغابات المملوكة للبروتيين** رغم أنهم احتفظوا بقدر من الحكم الذاتى، وأصبحت مدن **إيليا وهيراكليا وثورى وميتابونتوم حلفاء لروما عام ٢٧٢ ق.م.** وربما قبلها، كما تم إخضاع كل من **لوكرى وكروتون، واستسلمت حامية إيبيروس فى تارنتوم بمجرد اقتراب جيش**

قنصلى رومانى من تارنتوم عام ٢٧٢ ق.م. كما كانت هناك حامية من **المرتزقة الكامبانيين فى ريجيوم رفعت راية العصيان على روما** واستولت على المدينة **لكن الرومان إجتاحوها** بقيادة كورنيليوس بلاسيو وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثمائة من الناجين من هؤلاء المرتزقة فى روما عام ٢٧٠ ق.م. وأخيراً **اجبرت كل من ابوليا وميسابيا فى كالابريا على التحالف مع روما عام ٢٦٧ / ٢٦٦ ق. م.** كما هزم اهل **رأس سالينتينوم** *Sallentinum* فى أقصى جنوب الكعب الإيطالى. كما صودرت أراضى برنديزيوم وباستحواذ الرومان على كل **ريجيوم وبرنديزى** فى أقصى جنوب إيطاليا غرباً وشرقاً أصبح **الرومان يمتلكون مفاتيح البحر التيرانى غرباً والبحر الأدرياتيكى شرقاً**.

وهكذا يمكن القول بان **روما سيطرت على كل إيطاليا جنوب نهر الروبيكون** من **بيزا وأريمينيوم شمالاً** إلى **ريجيوم وبرنديزى جنوباً** بحلول **عام ٢٦٥ ق.م.** حين **تحققت اقدم وحدة إيطالية فى التاريخ** تحت زعامة روما.

ساقط من اصل المصدر

ساقط من اصل المصدر

ساقط من اصل المصدر

ساقط من اصل المصدر

المراجـع

(1) *A. Alföldi, Early Rome and the Latins,* 1965, *pp.* 47 *ff.; CAH* 7^2. 2. 93–94, 257–59.

(2) *R.M.Ogilivie, Commentary on Livy, Books* 1–5, 1965, *pp.* 262–63.

(3) *Ibid., p.*258; *F.W. Walbank, A Historical Commentary on Polybius, (*3 *vols.* 1957–79*), vol.* 1, *p.* 740.

(4) *A. Alföldi, op. cit., pp.* 50 *ff.; M. W. Frederiksen, Campania,* 1984, *pp.* 95*ff.*

(5) *Strabo* 5. 239; *Verg. Aen.* 7.761*f.; Livy* 1.50*f.*

(6) *R. M. Ogilivie, op. cit., pp.* 283*ff.*

(7) *Ibid., pp.* 337*ff.; A. N. Sherwin – White, The Roman Citizenship.* 2nd *ed.,* 1973, *pp.*20 *ff.; A. Drummond, CAH* 7^2/2, *pp.*183*ff.*

(8) *G. Devoto, Gli antichi Italici,* 1951, *pp.* 127*ff.*

(9) *J. Poucet, Recherches sur la légende Sabine,* 1967.

(10) *G. Devoto, loc. Cit.*

(11) *R. M. Ogilivie, op. cit., pp.* 416*ff.*

(12) *Ibid.*, 576*ff.*

(13) *E. T. Salmon, The Making of Roman Italy*, 1982, *pp.pff.*

(14) *Ogilivie, op.cit., pp.* 314*ff.; De Sanctis, Steria del Romani,* 1960, 2/^{2}, *pp.*103*ff.*

(15) *H. H. Scullard, The Etruscan Cities and Rome,* ١٩٦٧; *W. V. Harris, Rome in Etruria and Umbria;* 1971.

(16) *Drummond, CAH* 7^2/2 *l,* 1989, *pp.* 298*ff.*

(17) *M. T. Grassi, I Celli in Italia,* 1991; *P. Tozzi, Storia padana antica,* 1972; *I Galli e l, Italia,* 1978; *D. Vitali, The Celts,* 1991.

(18) *A. Alföldi, Early Rome and the Latins,* 1965.

(19) *E. T. Salmon, Samnium and the Samnites,* 1967; *J. R. Patterson, Samnites, Ligurians and Romans,* 1988.

(20) *E. Cia ceri, Storia della Magna Graecia* (1926–30); *E. Greco, Magna Graecia,* 1981.

(21) *M. Napoli, Civiltà della Magna Graecia,* 1970.

(22) *G. Brauer, Taras: Its History and Coinage,* 1986; *I. Malkin, Myth and Territory in the Spartan Mediterranean,* 1994, *ch.*4.

(23) *P. Lévêque, Pyrrhos,* 1957; *P. R. Franke, CAH* 72/2, 1989, *pp.*456*ff.*; *P. Wuilleumier, Tarente, des origins à la conquête romaine,* 1939.

الباب الثالث

التوسعات الرومانية فى حوض البحر المتوسط

القسم الأول

الحروب البونية

٢٦٤ – ٢٠٢ ق . م .

الفصل السابع

أ-الحرب البونية الأولى

٢٦٤-٢٤١ق.م.

مقدمة تاريخية :

بعد أن فرغت روما من تحقيق أول وأهم أهدافها وأولوياتها وهو إخضاع شبه الجزيرة الإيطالية لسلطانها - بعد كفاح شاق وحروب دامية وتضحيات جسام ورحلة طويلة من الانتصارات والانكسارات ومن الإنجازات والإخفاقات - بدأت تتطلع إلى مزيد من التوسعات لتلعب دورا إقليميا خارج نطاق إيطاليا. وقد سبق أن رأينا عند الحديث عن جغرافية شبه الجزيرة الإيطالية أن تقسيماتها الطبيعية ومناخها وثرواتها الطبيعية تؤهلها أكثر للإتصال الميسر ***بغرب البحر المتوسط*** أكثر من شرقه. لذلك كان من الطبيعي أن تسعى روما - بعد سيطرتها على إيطاليا - إلى خوض غمار المنافسة على ***زعامة القسم الغربي من البحر المتوسط*** كأولوية تسبق ما عداها. ولكن هذا القسم الغربي من البحر المتوسط كان يشهد حتى أواخر القرن السادس ق.م. منافسة بين عدة قوى للسيطرة عليه أبرزها الفينيقيون والإتروسكيون والإغريق.

وكما سنرى فقد حسمت هذه السيادة منذ أواخر القرن السادس ق.م. للحليفين الإتروسكي والفينيقي (ممثلا في قرطاجة أبرز المستوطنات الفينيقية في غرب المتوسط) على حساب إغريق فوكايا ومستوطنتهم في تلك الأصقاع ماسيليا. وكما سبق أن رأينا عند الحديث عن توسعات روما وفتوحاتها في شبه الجزيرة الإيطالية في العصر الجمهوري المبكر فقد صاحب قوة وتوسع روما ضعف وخضوع إتروريا للرومان حتى صاروا في نهاية المطاف من رعايا الجمهورية الرومانية وقبلوا بوجود قبائل رومانية ومستوطنات لاتينية على أرضهم. وفي تلك الأثناء أصبح للفينيقين - ممثلين في كبرى دولهم ومدنهم في غرب المتوسط قرطاجة - اليد الطولى والكلمة الفاصلة في مقدرات غرب البحر المتوسط لا سيما في التجارة والنقل البحري.

ولما كانت روما منشغلة بتحقيق هدفها الأول وهو السيطرة على إيطاليا مجال نفوذها الحيوي . فضلا عن كونها قوة برية ورراعية ليس لها باع طويل في البحر وتجارته فلم تجد بأسا — في تلك المرحلة — في مسألة ***النفوذ القرطاجي في غرب البحر المتوسط*** وتجارته. بل أنها لم تجد غضاضة - كما سنرى - في الدخول في معاهدات مبكرة مع قرطاجة تحتم على الطرفين ألا يضر أحدهما بمصالح الآخر وقبلت روما بشروط قرطاجة والحظر الذي فرضته على التجار الرومان في غرب المتوسط طالما ضمن ذلك حياد قرطاجة تجاه الصراع بين الرومان وجيرانهم الإيطاليين ومنع قرطاجة من التدخل في الشئون الإيطالية.

أما الآن وقد حققت روما مبتغاها الأول وهو إخضاع إيطاليا لزعامتها ونفوذها عام ٢٦٥ ق.م. فقد بدأت تتطلع إلى القسم الغربي من البحر المتوسط وترنو بمطامحها ومطامعها إليه. معنى ذلك أن قواعد اللعبة السياسية قد تغيرت ولم يعد الحياد مع قرطاجة - كبرى القوى الفينيقية ذات النفوذ في عالم غرب البحر المتوسط - مجديا . ولا شك أن صراع المصالح والتنافس على الزعامة في تلك المنطقة سيؤدي حتما إلى نشوب صراعات وحروب ممتدة ذات أثر بالغ بين القوتين روما وقرطاجة. هذه الحروب بين القوتين الكبيرتين في غرب المتوسط سوف تعرف بالحروب الفينيقية (أو بالأحرى "البونية" كما ينطقها الرومان في لغتهم اللاتينية) نظرا لأن غريم روما في تلك الحروب هي دولة قرطاجة ذات الأصول والحضارة الفينيقية من شرق البحر المتوسط.

وإذا كنا قد تعرفنا على أحد طرفي تلك الحرب الضروس وهم الرومان عبر الفصول السابقة من هذا الكتاب فلنتعرف الآن - قبل الدخول في تفاصيل تلك الحروب - على الطرف الثاني وهو العنصر الفينيقي وأبرز ممثليه آنذاك وهي دولة قرطاجة .

"الفينيقيون"[1] هم شعب يقطن ساحل شرق البحر المتوسط، وقد أطلق عليهم هذا المسمى المصادر الكلاسيكية اليونانية Φοινίκες وهي تسمية اشتقاقية يونانية ، أما الإسم الذي أطلقوه هم على أنفسهم فغير معلوم وإن كانت التوراة (العهد القديم) تطلق عليهم إسم "الكنعانيين". أما النقوش الملكية الآشورية (من القرن التاسع إلى القرن السابع ق.م.) فتشير إلى مدن صورا وصيدا وبيبلوس ... الخ. مثلما تفعل النقوش الفينيقية ولكنها لا تورد مسمى "فينيقيا" و "الفينيقيين" والتي هي مركبات كلاسيكية يونانية كما أسلفنا. والراي السائد يجعل Φοινιος مشتقة في اليونانية من I او Φοινος بمعنى "احمر" ويرجع هذا الراي سبب تسمية الفينقيين بهذا الإسم إلى بشرتهم النحاسية خبرتهم في صناعة الصبغة الإرجوانية الحمراء التي أحتكروا بيعها للإغريق فعرفوهم بها، وإن كانت نظريات أخرى ترجع تسميتهم بهذا الإسم إلى تجارتهم في النحاس وأشجار النخيل أو البلح.

أما عن **موطن الفينيقيين** (فينيقيا) فقد كان يمتد بطول الساحل الشرقي للبحر المتوسط من سوريا الحالية إلى جنوب لبنان والجليل بشمال فلسطين، وهناك جدل حول الحدود الدقيقة لفينيقيا وإن كان الرأي السائد هو أنها تمتد جنوب أوجاريت على الساحل السوري إلى عكا في الجليل. وكانت منطقة فينيقيا تنقسم إلى عدة مدن تشكل كل منها مملكة بذاتها وكان أشهر هذه الممالك - المدن صيدا (التي جعل منها هوميروس مرادفا لفينيقيا في ملحمته الأوديسية فى الكتاب الرابع سطر ٨٤) وكذلك صور وبيبلوس ، فضلا عن آرادوس في شمال فينيقيا وبيروت وساريبتا (صرفند الحالية جنوب صيدا). ويذكر هيرودوت أن الفينيقيين قد هاجروا أصلا من موطنهم على الخليج الفارسي قبل ٢٣٠٠ عام من عصره أي في أوائل الألف الثالث ق.م. (هيرودوت : الكتاب الأول، فقرة (١) ، الثاني فقرة (٤٤) ، السابع فقرة (٨٩).

وتاريخ الفينيقيين مرتبط إرتباطا وثيقا بالبحر كما يتبين من موانيهم التي كانت قائمة على الجزر المقابلة مثل صور وارادوس ومستوطناتهم الساحلية التي اقاموها في غرب البحر المتوسط في شمال افريقيا وجنوب اسبانيا التى بدات حركة الإستيطان الفينيقي هناك في الفترة من القرن الحادي عشر ق.م. ووصلت إلى ذروتها خلال القرن التاسع والثامن ق.م. حين تركت الحضارة الفينيقية بصمة قوية في أرجاء عديدة من البحر المتوسط. وقد اشتهر الفينيقيون بخبرتهم العالمية في بناء السفن (مستخدمين الأخشاب من الغابات اللبنانية) وركوب البحر، وكذلك بإقامة نوع من التجارة الدولية في كافة أرجاء المتوسط في سلع كالمعادن والمنسوجات والأصباغ والمواد الغذائية والسلع الغريبة والنادرة. وقد وصلوا بتجارتهم وسلعهم إلى ما وراء البحر المتوسط في طرفه الغربي حيث وصلوا إلى المحيط الأطلسي حيث تاجروا في القصدير مع بريطانيا شمالا كما وصلوا بتجارتهم إلى مسافة نحو أربعمائة ميل جنوبا على الساحل الغربي لأفريقيا.

هذه المقدمة عن الفينيقين تقودنا بالضرورة إلى الحديث عن ذلك الفرع من الفينيقين الذي سيتولى زمام المواجهة مع الرومان في "الحروب البونيه" الضارية الا وهو دولة أو جمهورية "قرطاجة" — المستوطنة التي اقامتها مدينة صور الفينيقية في أواخر القرن التاسع ق.م. حسب مألوف الروايات التراثية.

تعد **قرطاجة**[٢](قرطاجة: Καρχηδων-Carthago -Qrthadst) أهم المستوطنات التي اقامها الفينيقيون في وسط وغرب البحر المتوسط. والإسم الفينيقي لقرطاجة هو "قرط حدشت" وتعني المدينة الجديدة، ويقال أن أهل صور اقاموها (انشاوها) حوالي عام ٨١٤ ق.م.[٣] ويروى في هذا الصدد أن الأميرة إيليسا من مدينة صور الفينيقية قد فرت من الملك بيجماليون

مع نفر من أتباعها المخلصين ووصلوا إلى أفريقيا حيث منحتها قبائل المنطقة مساحة من الأرض تغطي جلد بقرة . لكنها إستغلت هذه المنحة بطريقة في غاية الذكاء والعبقرية حين قطعت جلد البقرة إلى خيوط دقيقة بحيث تغطي مساحة كبيرة من الأرض تكفي لإقامة قلعة كبيرة عليها لتصبح قلعة المدينة الجديدة. وقد أضفى الكتاب اللاحقون على نسيج القصة الأساسية لإيليسا كما من الأحدوثات والأساطير إلى أن اتخذت صيغتها النهائية على يد الشاعر الموهوب فيرجيليوس الذي صاغها في قالب درامي خالد. في "إنياذة" فرجيليوس أصبحت "إيليسا" تحمل إسم "ديدو" ، وترحب في مدينتها الجديدة بالبطل الطروادي أينياس وتقع في غرامه ولكنه يهجرها ليحقق مشيئة الأقدار في تأسيس روما ، وتطعن "ديدو" التي هجرها الحبيب نفسها وتلقى حتفها وهي تصرخ صرخة شقت عنان السماء. "سيخرج من بين ظهرانينا بين ينتقم

Exoriare aliquis noastris ēx ossibus ulter "

وهكذا فإن دراما الصراع بين روما وقرطاجة بدأت تتخلق [٤]

نعود ثانية إلى قرطاجة لنذكر أنها في بداياتها الأولى كانت على إتصال بالمدينة الأم التي أقامتها وهي "صور ، ولكن اعتبارا من القرن السابع ق.م. تعرض الفينيقيون في موطنهم الأصلي على الساحل السوري لضربات وفترات إحتلال من جانب الممالك الشرقية الكبرى المجاورة من آشوريين وبابليين وفرس واحدة تلو الأخرى. لذلك فإنهم تركوا إخوانهم الفينيقيين في غرب المتوسط يشكلون مصيرهم بأيديهم يحافظون على إستقلالهم ويجمعون شتاتهم . وتولت قرطاجة الريادة والقيادة في إنجاز تلك المهمة وأصبحت في موضع الزعامة بين جموع الفينيقيين في غرب البحر المتوسط. وقد إمتدت المستوطنات الفينيقية والقرطاجية على ساحل شمال أفريقيا في المنطقة الممتدة ما بين مضيق هرقل غربا (مضيق

جبل طارق لاحقا) والمدن الثلاثة الكبرى في طرابلس الغرب شرقا وأصبح هؤلاء حلفاء مخلصين لقرطاجة. وعرف هؤلاء بإسم "الفينيقيون الليبيون" أو"ΛιβυΦοινικες ". وإذا ما وضعنا هؤلاء الحلفاء في الحسبان فإن قرطاجة كانت تتحكم فيما يزيد على ٢٨٠٠٠ ميلا مربعا من الأراضي وما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين من السكان، فضلا عن أصدقاء قرطاجة من القبائل النوميدية المجاورة[٥].

ولعل **موقع قرطاجة** على الساحل الشمالي الشرقي من تونس الحالية كان احد **عوامل تفوقها على بقية المدن الفينيقية في شمال افريقيا**، إذ زودها هذا الموقع بإمكانات رسو السفن التجارية التي تمخر عباب غرب البحر المتوسط وتتاجر في الذهب والفضة والقصدير وكذلك تزويدها بما تحتاج إليه من مؤن وإمدادات، هذا فضلا عن خلفيتها الكبيرة من الأرض الخصبة والمرفأ المتميز. وقد كان النشاط التجاري يمثل عصب الحياة الإقتصادية القرطاجية عبر تاريخها الطويل وميزها بأكثر مما ميز غيرها من الأمم القديمة. وكانت التجارة القرطاجية تقوم في معظمها على نظام المقايضة مع القبائل الأفريقية والأسبانية حيث كانت تتم مقايضة المعادن الآتية من تلك القبائل كما كانت هناك علاقات تجارية قديمة بين قرطاجة والعالم اليوناني كما نستدل على ذلك من شواهد الأمفورات الأتيكية المبكرة التي عثر عليها في أقدم طبقات التربة القرطاجية. وينسب إلى القرطاجيين كذلك قيامهم برحلات إستكشافية طويلة بمحاذاة سواحل المحيط الأطلسي من شمال غرب افريقيا وأسبانيا .وقد غطى النفوذ التجاري القرطاجي معظم غرب البحر المتوسط وإمتد من المدن الثلاث (إقليم طرابلس) إلى مراكش كما إمتد شمالا في غرب صقلية وساردينيا وجزر البليار وجنوب أسبانيا.

وكان **يحكم قرطاجة** في مبتدأ أمرها حاكم يلقب بـ (skn) وكان تابعا لملك صور . ومن غير الواضح ما إذا كان لقرطاجة ملوكا مستقلين (mlk) خلال القرن السابع ق.م. ولكن من الثابت أن دستور قرطاجة في القرن السادس ق.م. كان دستورا أوليجاركيا (يعتمد حكم الأقلية) وكان على رأس الدولة القرطاجية أحد القضاة ثم صاروا إثنين منهم يطلق عليهما (sptm / شبتيم فى الفينيقية / Suffetes فى اللاتينية) كانا ينتخبان سنويا على أساس النسب العريق والثروة. أما السلطة العسكرية فكان يتولاها قادة منتخبون بصورة منفصلة. كما كان في قرطاجة مجلس شيوخ قرطاجي يتالف من بضعة مئات من الأعضاء مدى الحياة، وكذلك كانت هناك هيئة مؤلفة من ١٠٤ من القضاة تتولى الإشراف والرقابة على تصرفات القادة العسكريين وغيرهم من كبار شاغلي المناصب. هذا النظام الأوليجاركي القرطاجي حال دون إنفراد أحد بالحكم أو استيلاء بعض القادة الطموحين على زمام السلطة. ولم تكن الخدمة العسكرية في الجيش القرطاجي إجبارية بسبب قلة عدد السكان الذي لم يكن يسمح بقيام جيش كبير من مواطني قرطاجة، لذا كان البديل هو اللجوء إلى جلب المرتزقة المأجورين من شعوب عديدة في غرب البحر المتوسط للخدمة في الجيش القرطاجي لسد النقص الناجم عن قلة المواطنين.

وكان الغرض الرئيسي للسياسة الخارجية هو السيطرة على الطرق التجارية البحرية في غرب البحر المتوسط ، وهو مجال احتدمت فيه المنافسة بين الإتروسكيين والقرطاجيين والإغريق خلال القرن السادس ق.م. هذه المنافسة التجارية أدت إلى إندلاع حرب بين هذه القوى أدت عام ٥٣٥ ق.م. تقريبا إلى تدمير أسطول يوناني ينتمي إلى فوكايا ومستوطنتها ماسيليا في موقعة الآيا Alaia على الشاطئ الشرقي من جزيرة كورسيكا

على يد الاتروسكيين والقرطاجيين. وهو ما ادى الى زيادة وتماسك النفوذ القرطاجي في غرب وجنوب ساردينيا ومناطق من جنوب اسبانيا ومن قبل ذلك كان القائد القرطاجي مالخوس (ملك) قد بسط نفوذ قرطاجة في المناطق الغربية من صقلية وأحرز عدة إنتصارات هناك (٥٨٠ – ٥٥٠ ق.م. تقريبا) وظلت مناطق غرب صقلية في ايدي القرطاجيين حتى القرن الثالث ق.م.

ولما كان **الإغريق** قد أقاموا استيطانا كثيفا لهم في النصف الشرقي من صقلية – كما سبق أن رأينا – فقد نشبت **صراعات متقطعة بينهم وبين جيرانهم القرطاجيين** في القسم الغربي من الجزيرة على مدى ثلاثة قرون[٦] كان من آخرها الصراع الذي ساعد فيه بيروس إغريق صقلية (٢٧٨ – ٢٧٥ ق.م.). وكان من أبرز معارك هذا الصراع الممتد بين الطرفين الهزيمة التي تعرض لها القائد القرطاجي الكبير "هاملكار" في موقعه "هيميرا" (شمال وسط صقلية) عام ٤٨٠ ق.م. على يد كل من جيلون طاغية سيراكيوز وثيرون طاغية أكراجاس . وفي عام ٤٠٩ ق.م. ثأر لهامليكار حفيده هانيبعل حين قام بتدمير هيميرا وعدد من المدن الإغريقية في جنوب صقلية. ولكن الحروب اللاحقة بين قرطاجة وديونيسيوس طاغية سيراكيوز (٤٠٥ – ٣٦٧ ق.م.) جعلت النفوذ القرطاجي في الجزيرة ينحسر إلى أقصى غرب الجزيرة وتسيد ديونيسيوس الأول لما يزيد عن نصف مساحة الجزيرة وتوسيع نفوذه وفتوحاته إلى المدن اليونانية في جنوب إيطاليا (بلاد الإغريق العظمى) . وأدت حروبه مع قرطاجة إلى تدمير إحدى المدن القرطاجية الثلاثة الكبرى في غرب صقلية وهي مدينة موتيا Motya والتي حلت محلها لاحقا قلعة وحامية "ليليبايوم".

وفي خلال مرحلة التوسعات القرطاجية الخارجية بدأت **قرطاجة في إقامة علاقات مع روما**، وكان الوسطاء بين الطرفين في ذلك هم حلفاء قرطاجة من الإتروسكيين الذين كانت موانيهم مفتوحة أمام التجار الفينيقيين. وحين تم طرد الأسرة الحاكمة الإتروسكية من روما وما ترتب عليه من قيام الجمهورية الرومانية عام ٥٠٩ ق.م. أبرمت قرطاجة **معاهدة مع الجمهورية الرومانية الوليدة عام ٥٠٨ ق.م.** وكانت نسخة من هذه المعاهدة - منقوشة على لوحة نحاسية - محفوظة في الخزانة الرومانية وكانت معروفة للمؤرخ بوليبيوس في القرن الثاني ق.م. ويبدو أن قرطاجة هي التي أملت هذه المعاهدة وقامت بصياغتها إذ أن كافة القيود المفروضة فيها تصب في مصلحة قرطاجة، ويبدو أن روما قد قبلتها لانها لم يكن لها آنذاك مصالح تجارية بحرية تخشى عليها في غرب المتوسط وكانت علاقاتها ومصالحها - في معظمها - داخل شبه الجزيرة الإيطالية. إذ وافق الرومان بمقتضى هذه المعاهدة على ألا يبحروا نحو الغرب إلى ما وراء نقطة بعينها هي رأس بحري مجاور القرطاجة نفسها إلا إذا اضطروا إلى ذلك إضطرارا من خلال طقس سيء أو فرارا من عدو يهددهم، كما لم يكن مسموحا للتجار الرومان في ليبيا أو ساردينيا - بمقتضى هذه المعاهدة - أن يعقدوا صفقات إلا في وجود أحد موظفي المدينة. وفي هذه المعاهدة سمح للرومان القادمين إلى منطقة النفوذ القرطاجي في صقلية بالتمتع بالإمتيازات المنوحة لآخرين.وهكذا فرضت قرطاجة سياسة "البحر المغلق "mare clausum" على منطقة غرب البحر المتوسط ووضعت قيودا وشروطا للتجارة في ليبيا وساردينيا والجزء القرطاجي من صقلية. وفي مقابل ذلك كله لم تتعهد قرطاجة سوى بعدم إلحاق الأذى أو مهاجمة مدن معينة في إقليم لاتيوم.

وعندما **جُددت هذه المعاهدة حوالي عام ٣٤٨ ق.م.** سمحت روما لقرطاجة بإملاء المزيد من الشروط المتشددة : فبمقتضى الاتفاقية

الجديدة استبعد التجار الرومان من القدوم إلى ساردينيا وليبيا كما لم يعد يسمح لهم بارتياد غرب البحر المتوسط من خليج تونس إلى ماستيا (موقع قرطاجة الجديدة/ قرطاجنة اللاحق) في أسبانيا ، ولم يعد مباحا امام التجار الرومان سوى ارتياد أسواق قرطاجة والجانب القرطاجي من صقلية. وهكذا ضحت روما طوعا - في المعاهدة الجديدة - بأية مصالح تجارية أو امتيازات كانت تتمتع بها وهي تحت حكم الإتروسكيين وتحولت إلى التجارة البرية داخل إيطاليا في الأغلب ، في حين قامت قرطاجة بتحويل غرب البحر المتوسط إلى بحيرة قرطاجية.

ولكن إذا كانت **المعاهدات السابقة بين روما وقرطاجة ذات طابع تجاري** ينم عن الصداقة ويهدف إلى تحييد كل طرف فيما يخص مصالح الطرف الآخر ورسم مناطق نفوذه ، إلا أنه **في عام ٣٠٦ وقع الطرفان إتفاقية ذات طابع سياسي** تحظر على القرطاجيين التدخل في الشئون الإيطالية كما تحظر على الرومان التدخل في صقلية أثناء وجود الملك بيروس في إيطاليا . ولكن في عام ٢٧٩ ق.م. جرت مفاوضات بين روما وقرطاجة - من خلال وفد قرطاجي ذهب إلى روما - ورغم عدم إبرام معاهدة بشأن خطر بيروس على الطرفين إلا أنه تم الوصل إلى ترتيبات يقوم بمقتضاها أي من الطرفين بتقديم العون إلى الطرف الآخر إذا ما تعرض لعدوان بيروس وهو ما يعني تعليقا مؤقتا لإتفاقية عام ٣٠٦ ق.م. الآنفة الذكر. ولكن في أثناء حرب بيروس مع القرطاجيين في صقلية فإن قرطاجة لم تتلق عونا من روما ولم تطلبه ، ربما لأنها لم تشأ أن تتدخل روما في صقلية، كما أن روما لم تقدم على عرض المساعدة على قرطاجة.

- نذر الحرب بين روما وقرطاجة وسببها المباشر.

يروى عن بيروس أنه قال وهو يغادر شواطئ صقلية بعد أن أمضى فيها ثلاث سنوات يساند الإغريق "ياله من مسرح معارك كبير ندعه الآن

للقرطاجيين والرومان ليتصارعا فيه". ربما أطلق بيروس هذه النبوءة التي تحققت من بعده - استنادا إلى معطيات تاريخية قريبة في تلك الجزيرة. ففي الفترة من ٣٠٤ إلى ٢٨٩ تصدى أجاثوكليس ملك سيراكيوز للتوسع الفينيقي القرطاجي في الجزيرة وقام بتحجيمه . ولكن بعد وفاة ذلك الملك تقدم القرطاجيون وتوسعوا مرة أخرى في صقلية إلى أن ردهم بيروس على أعقابهم. ولكن عندما عاد بيروس إلى إيطاليا مرة أخرى عام ٢٧٥ هزم القرطاجيون أسطول سيراكيوز واستردوا أملاكهم المفقودة هناك واستولوا على المدن الإغريقية الواقعة في منتصف صقلية. وهكذا فإن نفوذ سيراكيوز قد تقلص عام ٢٧٥ ليقتصر على شرق صقلية. بل لقد كان هناك منافسون آخرون لها هناك.

ففي **عام ٢٨٨ ق.م.** قام جند **مرتزقة إيطاليون** - ممن كان أجاثوكليس ملك سيراكيوز الراحل يستعين بهم في حروبه ضد القرطاجيين وسرحهم بعد إنتهاء مهمتهم لديه - **بالإستيلاء على بلدة ميسانا في أقصى شمال شرق الجزيرة** وهم في طريق عودتهم إلى وطنهم في كامبانيا. وقد قام هؤلاء المرتزقة الذين لقبوا أنفسهم بلقب "المامرتيين Mamertini" — نسبة إلى إله الحرب Mamers عند السابليين أحد الشعوب التي تقطن تلك المنطقة Sabelli والمقابل لمارس عند الرومان — بالاستقرار في ميسانا والقيام باعمال سلب ونهب للمناطق المجاورة إغريقية كانت أم قرطاجية. وكان بيروس قد إنتصر عليهم ولكنه لم يقض عليهم نهائيا، ثم هزمهم بعد ذلك القائد السيراكيوزي هيرون الذي صار ملكا بعد ذلك (٢٦٥ — ٢٦٤ ق.م.) واضطلع بمحاصرة ميسانا بعد إعتلائه العرش. وعند هذا الحد تدخلت قرطاجة التي لم تشأ أن تسيطر سيراكيوز على المضيق الفاصل بين سيراكيوز وجنوب إيطاليا بعد سيطرتها على ميسانا. لذلك أنفذ قائد الأسطول البحري القرطاجي

حاميـة قـرطاجية إلى ميسانا بموافقة المامرتين الذين رحبوا بهذه الحامية التي ستعاونهم ضد هيرون الذي اضطر بدوره إلى فك الحصار عن البلدة والعودة إلى سيراكيوز. ولكن بعضا من المامرتيين آثر الإستعانة في هذا الوقت بقوة إيطالية ٠٠ ومن تكون في هذا الموقف سوى "روما" سيدة إيطاليا؟!

وحين وصل طلب هذا الفريق من المامرتيين إلى مجلس السناتو يناشد روما التدخل في الأمر لم يكن حسم هذا الطلب والرد عليه بالأمر اليسير، بل كانت له حسابات وتداعيات لابد أن توضع في الحسبان. من بين هذه الحسابات أن روما كانت في ذلك التوقيت قد طردت من ريجيوم في أقصى الطرف الجنوبي الغربي من إيطاليا بعضا من الكامبانيين الذين حاولوا القيام بأعمال القرصنة هناك على غرار المامرتيين في ميسانا. وهذا يعني أن وجود حامية قرطاجية في ميسانا يضع القوات الرومانية في ريجيوم قبالة هذه الحامية مباشرة على الساحل المقابل ولا يفصل بينهما سوى مضيق ميسانا ، وهو ما قد يشجع القرطاجيين على مهاجمة السواحل الإيطالية الجنوبية مثلما فعل ديونيسيوس وأجاثوكليس حكام سيراكيوز من قبل. كما أن وجود القرطاجيين بهذا الشكل اللصيق ربما يجعل من صقلية من المناطق المحظورة على التجارة الرومانية وكذلك على حلفاء روما من إغريق جنوب إيطاليا . هذه الحسابات تجعل من تدخل روما في المسألة أمرا يصب في خانة المصالح الرومانية . ولكن الإستجابة لطلب المامرتيين سوف يترتب عليه مباشرة اندلاع حرب بين الطرفين بكل ما قد يكون لها من عواقب وخيمة. ولكن حتى بدون قضية ميسانا فإن اندلاع حرب بين روما وقرطاجة - في ضوء المعطيات الجديدة من تشابك المصالح وتقاطعها واقتراب خطوط التماس - أصبح مسألة وقت لا أكثر وأصبح الحياد أو الحلول الوسط في مثل هذه الظروف أمرا صعبا إن لم يكن مستحيلا.

ولما قلب أعضاء السناتو الأمر على كافة وجوهه تعذر عليهم التوصل إلى قرار ناجع فأحالوا الأمر إلى الجمعية الشعبية التي صوتت لصالح قرار إرسال العون والنجدة إلى المامرتيين. ويفسر بوليبيوس - الذي أخذ روايته هذه عن المؤرخ الروماني فابيوس بيكتور - سبب تردد السناتو في اتخاذ مثل هذا القرار رغم إدراكه الكامل للخطر الذي يمثله الوجود القرطاجي في ميسانا بأنها لم تشأ أن تتحالف مع جماعة من القراصنة. لا سيما وأنها "كانت قد فرغت لتوها من طرد عصبة اللصوص الكامبانيين من ريجيوم". وربما تضاف إلى ذلك خشية روما من منازلة قوة بحرية ذات باع طويل مثل قرطاجة . لا سيما وأن ذلك سيعني انتهاكا صريحا وجليا لمعاهدة عام ٣٠٦ مع قرطاجة. أما قادة الشعبيين فربما كان دافعهم للموافقة على تقديم العون للمامرتيين هو ما سيجنيه هؤلاء القادة من مكاسب من جراء خوض تلك الحرب وكبح جماح قرطاجة واكتساب حلفاء جدد مما يخفف الضغط على الجيش الروماني ومنه العامة. كما كان هناك هدف قومي يلتقي عنده كل من العامة والإشراف ويمكن تحقيقه من خلال خوض تلك الحرب بالتحالف مع المامرتيين ويتمثل في تأمين حصن أمامي متقدم يؤمّن إيطاليا من جهة صقلية ويشكل موقعا استراتيجيا محوريا. وفي الوقت ذاته كان ذلك الموقع يمثل بالنسبة لقرطاجة نقطة مهمة تستغلها في مدها التوسعي التجاري.

وهكذا وفي ضوء المعطيات السابقة لم يكن هناك بد مما ليس منه بد ·· ستدق طبول الحرب بين روما وقرطاجة انطلاقا من ميسانا في شمال شرق صقلية .

الحرب البونيه الأولى (٧): (٢٦٤ - ٢٤١ ق.م)

في **عام ٢٦٤ ق.م** أرسلت روما القنصل **أبيوس كلاوديوس كاودكس** Caudex وتحت قيادته فرقتين ليعلن للمامرتيين في ميسانا قبول روما التحالف معهم - حسب طلبهم - وإقامة حامية رومانية بالمدينة ، وقد لقيت مقدمة هذا الجيش مقاومة محدودة في عبورها للمضايق إلى ميسانا وتمكن القائد البحري القرطاجي من أسر بعض السفن الرومانية ولكنه أعادها للرومان بعد أن وجه إليهم إنذارا بعدم تكرار فعلتهم، كما غلب التردد على تصرفات القائد القرطاجي في ميسانا. وعند وصول مقدمة الجيش الروماني إلى ميسانا أجبرت الحامية القرطاجية هناك - تحت ضغط من المامرتيين - على إخلاء قلعة المدينة وهكذا غلب التردد على تصرفات القادة القرطاجيين في حين إتسم أداء الرومان بالقوة والحسم ، وقاموا بوضع حامية لهم في المدينة.

في هذا الموقف شعر **الملك هيرون ملك سيراكيوز** (٨) برغبة في طي صفحة العداء بين قرطاجة وإغريق صقلية - وهي صفحة طويلة - وفي إقامة تحالف بين الطرفين المتحالفين (هيرون الثاني والقرطاجيين) بفرض حصار على ميسانا ، ولكن سرعان ما أجبر الرومان هيرون على الإنسحاب إلى سيراكيوز. وفي **العام التالي ٢٦٣** تمكن القنصل **ماركوس فاليريوس ميسالا** من إجبار عدد من التجمعات الإغريقية في شرق صقلية على الاستسلام ثم أجبر هيرون الثاني ملك سيراكيوز على إبرام معاهدة سلام مع الرومان والتخلي عن حلفائه القرطاجيين، وبذلك تمكن ماركوس فاليريوس من تامين مدينة ميسانا شمال شرق صقلية ومن هنا اكتسب لقب "ميسالا"، ويروى عنه أنه في احتفالات النصر التي أقامها كان أول من عرض في روما لوحة يصور فيها اشتباكاته العسكرية ومعاركه. أما هيرون الثاني فقد تمكن - بفضل اتفاقاته مع الرومان - من الحفاظ على

مملكته وإن أصبح تابعا وعميلا للرومان. ولما ظل على إخلاصه للرومان طيلة الحرب البونيه الأولى فقد قام الرومان بمراجعة الإتفاقية التي سبق لهم أن أبرموها معه وجعلوها عام ٢٤٨ ق.م " معاهدة بين أنداد متساوين Foedus aequum" واضاف أراضي جديدة لحدود مملكته وأعفاد الرومان من مبالغ تعويضات طائلة سبق لهم أن فرضوها عليه من قبل . ويصفه بوليبيوس بالقول "لما كان هيرون بطبيعته ملكا ورجل دولة فقد تمتع بدرجة كبيرة من الواقعية جعلته ينبذ تطلعاته وطموحاته الإمبراطورية المبكرة ويتجه إلى الولاء لروما من أجل رفاهية وازدهار شعبه".

هذا التحالف بين هيرون وروما فضلاً عن تخلى بعض حلفاء قرطاجة عنها أزعج قرطاجة وجعلها تخشى على سلامة نفوذها فى صقلية مما دفع بها **عام ٢٦٢ ق.م.** إلى أن تبعث بقوات كبيرة إلى صقلية. لكن الرومان حاصروا **أكراجاس (أجريجينتوم)** - حليفة قرطاجة - وهزموا القرطاجيين فى ساحة القتال وسحقوا أكراجاس بوحشية أرعبت وصرفت عدداً كبيراً من الموالين لقرطاجة.

ورغم ما فعله الرومان إلا أن القتال البرى لم يحسم الموقف لصالح روما تماما فى صقلية كما تزايد النشاط البحرى القرطاجى حول **صقلية** ، وهو الأمر الذى دفع **الرومان** إلى **إقامة أسطول بحرى حربى**(٩) استعداداً لمجابهة القرطاجيين فى البحر. ولما لم يكن لدى الرومان أسطول حربى - بالمعنى الدقيق للكلمة - إذ كانت كل حروبهم حتى ذلك الحين حروباً برية على جيرانهم الإيطاليين كما رأينا - وإن كان يمكن القول بأنهم كانوا يمتلكون سفناً صغيرة كخفر السواحل كتلك التى دمرتها تارنتوم فى بداية التحرش الرومانى بها - فإن بناء أسطول حربى سيكون بمثابة بداية للرومان فى هذا المجال. ويذكر **المؤرخ الرومانى ليفيوس** فى

هذا الصدد **رواية غير مقنعة** مفادها أن سفينة حربية قرطاجية قد عطبت قبالة السواحل الإيطالية فاستولى عليها الرومان وبنوا على شاكلتها ما لا يقل عن مائة سفينة من ذات المجاديف الكبيرة (يعمل على المجداف الواحد خمسة بحارة Quinqueremes) وأعدوا هذه السفن وجهزوها وخاضوا بها **معركة حاسمة ضد القرطاجيين فى "ميلاى"** عام ٢٦٠ ق. م. فى شمال شرق صقلية. وهذه الرواية غير منطقية من منطلق أن بناء أسطول حربى كبير لأول مرة لا يمكن أن يكون أمراً بسيطاً وهينا ويأتى بمجرد محاكاة نموذج لسفينة قرطاجية. وحتى وإن افترضنا جدلاً إمكانية حدوث ذلك فإن ركوب البحر والقيادة البحرية وخوض معركة بحرية لأول مرة لابد وأن يحتاج إلى عناصر مدربة ذات خبرة ودراية، الأرجح إذاً هو أن قوة أو قوى من حلفاء الرومان الجدد من ذوى الخبرة البحرية - إغريق جنوب إيطاليا أو سيراكيوز مثلا - قد وضعوا خبرتهم الطويلة في هذا المجال تحت تصرف الرومان وأعانوهم على إنجاز تلك المهمة الكبيرة في فترة وجيزة . أما المبالغة الدعائية التي ذكرها ليفيوس في هذا الصدد فلا مجال لها في حسابات العقل والمنطق.

بعد أن جهز الرومان أسطولهم البحري لمواجهة القرطاجيين زودوا سفنه بروافع Corvi عبارة عن جسور أو كباري خشبية متصلة الحلقات تفرد وتطوى وتنتهي بخطاف . وكان الغرض من هذه الحيلة انه حين تقترب السفن الرومانية من نظيرتها القرطاجية يقوم بحارة السفن الرومانية بنشر تلك الجسور الخشبية ذات الخطاطيف لجذب السفن القرطاجية إليها ويقوم الجند الرومان بالعبور إلى متن السفن القرطاجية ويخوضون مع بحارتها قتالا متلاحما وبذلك تتحول المعركة البحرية إلى معركة برية على متن السفن والكباري الخشبية . بهذه الخدعة الحربية الرومانية التى لم تكن متوقعة من جانب القرطاجيين - أصحاب الخبرة والتفوق في الحروب البحرية - مما أصابهم بالإرتباك وحرمهم من ميزة

القتال البحري الذي يجيدونه وأبيح للرومان **فرصة ممارسة القتال البري** الذي برعوا فيه على مدى قرون . **لكن هذه المرة في عرض البحر** . وقد تولى قيادة هذه المعركة من الجانب الروماني القنصل **جايوس دويليوس** أحد قنصلي عام ٢٦٠ ق.م . في حين تولى قيادة الأسطول القرطاجي قائد يدعى **"هانيبعل"** (غير هانيبعل المشهور بطل الحرب البونيه الثانية الذي سيرد ذكره فيما بعد). ونتيجة لهذا التكتيك الروماني البارع وقعت المفاجأة غير المتوقعة وأحرز الرومان نصرا مؤزرا على القرطاجيين في موقعة يفترض أنها بحرية. لذلك احتفل جايوس دويليوس إثر عودته إلى إيطاليا عام ٢٥٩ ق.م. بأول إنتصار بحري تحرزه روما ، وخلد هذه الذكرى بإقامة نصب تذكاري على شكل عمود تزينه مقدمات (مناقير) السفن القرطاجية التي استولى عليها الرومان columna rostrata وقد أقيم هذا العمود في السوق العامة الرومانية وكتب عليه نقش بالمناسبة.

(A. Degrassi, ed., Inscriptiones Latinae Liberae Rei Republicae 319, 1963, 1965, in 2 vols.)

وعلى مدى الأعوام الثلاثة التالية (٢٥٩ — ٢٥٦ ق.م.) لم يحرز أي من الخصمين تقدما يذكر وإن تمكن الرومان من إحراز النصر على القرطاجيين مرة أخرى في موقعة بحرية هائلة فيها صراع مرير بين الجانبين عند **رأس إيكنوموس جنوب صقلية عام ٢٥٦ ق.م.** وكانت بين أكثر المعارك البحرية القديمة ضراوة. وبعد هذه المعركة التي انتصر فيها الرومان انفتح الطريق إلى شمال افريقيا أمامهم. وكان يقود الرومان في هذه المعركة **القنصلان ماركوس ريجولوس أتيليوس ولوكيوس ما نليوس فولو لونجوس** ، الحرب إلى قرطاجة نفسها على الساحل الإفريقي وهبطا هناك بغير مقاومة تقريبا. وقد إستوليا على كلوبيا على

الشاطيء الشمالي الشرقي لقرطاجة (CLUPEA) وبعدها عاد فولسو إلى روما **وأكمل ريجولوس المهمة بمفرده** حيث هزم القرطاجيين في أديس Adys واستولى على تونس Tunis (في موقع مدينة تونس الحالية) وعرض على القرطاجيين بعد ذلك شروط صلح وسلام مهينة وغير مقبولة رفضها القرطاجيون.

وبدا القرطاجيون يستعدون لجولة أخرى من القتال ضد ريجولوس، واستعانت قرطاجة في هذا الصدد بأحد قادة المرتزقة من إسبرطة ويدعى كسانثيبوس Xanthippus. وقد أعاد هذا القائد تنظيم الجيش القرطاجي وسحق به القوة الرومانية الغازية في وادي "براجادا" في ربيع عام ٢٥٥.ق.م. وأجاد توظيف الأفيال والخيول القرطاجية في اختراق الجيش الروماني وتطويقه وسحقه حتى أن قائده ريجولوس وقع في أسر القرطاجيين. وقد وصل اسطول روماني لمحاولة تخفيف الضغط عن الرومان ولكنهم لم يتمكنوا من إنقاذ القائد ريجولوس، بل أن سوء الحظ صادف ذلك الأسطول العائد حيث هبت ريح عاتية دمرت بالقرب من كامارينا جنوب صقلية معظم سفن ذلك الأسطول.

أما عن ريجولوس فإن هناك بعضا من الروايات الرومانية المتاخرة التي جعلت منه بطلا رومانيا قوميا عرض عليه القرطاجيون العودة إلى روما على رأس سفارة ليقنع الرومان بتحقيق سلام مع قرطاجة وجعلوه يقسم على أن يعود إلى الأسر في قرطاجة إن هو فشل في إقناع الرومان بذلك. وتذكر تلك الروايات الرومانية المتاخرة أن ريجولوس فعل عكس ما طلبه القرطاجيون وحرّض الرومان على مواصلة واستئناف الحرب على قرطاجة وعاد إلى محبسه بمحض إرادته حتى توفى وهو في الأسر تحت التعذيب. إن هذه القصة التي أوردها الشاعر الروماني

هوراتيوس من عصر الإمبراطور أغسطس (Horatius, Odes III .5) جعلت من ريجولوس بطلا قوميا نادر المثال.

وكان الدرس الأساسي الذي إستفاده الرومان من حملة ريجولوس هو عدم المبادرة بقتال القرطاجيين في عقر دارهم في قرطاجة وحصر ميدان القتال ليكون في صقلية التي حاولوا أن يكسبوا انتصارات على أرضها بأساطيلهم الجديدة واحداً تلو الآخر.

وكانت بداية هذه المرحلة موفقة للرومان **إذ استولوا عام ٢٥٤ ق.م. على مدينة بانورموس** (باليرمو الحالية) وحصروا نفوذ القرطاجيين في أقصى الطرف الغربي للجزيرة. وقد كانت "بانورموس" على الرغم مما يوحي به اسمها من تأثيرات يونانية - إذ يعني باليونانية "الميناء العمومي أو الشامل" - من أهم المراكز القرطاجية في شمال غرب صقلية ولم تكن يونانية مطلقا وإن كان بيروس قد استولى عليها لفترة قصيرة عام ٢٧٦ ق.م. وهكذا فإن هذه المدينة ظلت قرطاجية حتى استيلاء الرومان عليها عام ٢٥٤ ق.م. (Polybius I.38) . **وفي العام التالي ٢٥٣ ق.م.** شن القنصل جايوس **سمبرونيوس بلايسوس غارة خاطفة على قرطاجة** في أفريقيا ولكنه فقد معظم اسطوله في أثناء رحلة العودة من جراء الرياح العاصفة . وفي خلال تلك السنوات وما تلاها كان الشغل الشاغل للقرطاجيين موجها نحو استعادة نفوذهم وهيبتهم وسلطانهم على الليبيين والنوميديين ، وهي الهيبة التي تأخرت واهتزت من خلال حملة وغزو ريجولوس.

وفي عام ٢٥١ دعم القرطاجيون مركزهم وجيشهم في صقلية ولكنهم تعرضوا **لانتكاسة قوية في العام التالي ٢٥٠ ق.م.** حين لقوا هزيمة نكراء على يد القنصل لوكيوس كايكيليوس **ميتيللوس في بانورموس**

التي حاول القرطاجيون استردادها دون جدوى. ومن خلال هذا الانتصار الكبير استولى القنصل ميتيللوس على عدد كبير من الأفيال الحربية القرطاجية ، ومن هنا ظهرت صورة الفيل على العملات الرومانية التي صكت في سنوات حكم قناصل من عائلة ميتيللوس تكريما لإنجاز هذا الرائد من رواد العائلة.

وفي العام التالي ٢٤٩ ق.م. **تعرض أسطول روماني جديد - بناه** الرومان بصعوبة - **لهزيمة كبرى في "دريبانا"** غرب صقلية ، وتعرضت قافلة كبيرة من الإمدادات — كان الرومان قد جهزوها لمحاصرة مدينة قرطاجية شهيرة في غرب صقلية هي "ليليبايوم" -Lilybaeum- للغرق عند خليج جيلا في الجنوب ، وإن كان الرومان قد سيطروا على قمة جبلية في اقصى الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة هي قمة إيريكس Eryx .

وهكذا مضت السنوات من **٢٥٤ إلى ٢٤٨ ق.م.** من الحرب البونية الأولى **سجالاً بين الطرفين** دون تحقيق إنتصار حاسم لأي من الطرفين ينهي الحرب ويضع أوزارها. وفي خلال تلك السنوات تعرضت الأساطيل الرومانية إما للغرق بفعل الأعاصير والعواصف أو للهزيمة وهو دليل على قلة الخبرة الرومانية بالبحر رغم انتصارات ميلاي وايكنوموس من قبل.

وفي عام ٢٤٧ ق.م. استبدلت قرطاجة بقائدها البحري الناجح كارثالو Carthalo قائدا آخر عقدت عليه قرطاجة جل آمالها في حسم تلك الحرب التي طالت وامتدت بلا نهاية تلوح الأفق ، هذا القائد معقد الآمال هو **هاملكاربرقة** الذي تولى قيادة الأسطول القرطاجي **عام ٢٤٧ ق.م.** وقام بشن هجمات عديدة على سواحل منطقة بروتيوم في جنوب غرب إيطاليا . ثم هبط ومعه جنده في صقلية حيث استولى على قمة

جبلية قرب بانوريوس تدعى **هيركتي Herecte** وكانت تقع في قلب المنطقة التي يسيطر عليها خصومه الألداء الرومان ! وهو ما يدل على منتهى الجرأة والمغامرة! وقد ظل مسيطرا على هذا الموقع **ثلاثة أعوام كاملة** وعلم جنده الاعتماد على أنفسهم في تدبير أمور معيشتهم وسط هذه الظروف القاسية ، بل وكان يشن هجمات خاطفة في حرب عصابات سببت للرومان إزعاجا بالغا وألحقت بهم خسائر كبيرة غير متوقعة . والأكثر أنه كان يشن هجمات على الشواطئ الإيطالية الغربية. بالتنسيق مع الأسطول القرطاجي - حتى كوماي Cumae. وفجأة نقل هاميلكار قاعدة عملياته إلى بلدة عند سفح جبل إيريكس في أقصى الغرب عام ٢٤٤ حيث ظل يتحدى الرومان لمدة **عامين آخرين** مواصلا هجماته المباغتة وكمائنه ضد الرومان.

ولكن في **عام ٢٤٣ ق.م.** التقط الرومان أنفاسهم لبعض الوقت من العمليات العسكرية البحرية الباهظة التكلفة — فانتهزوا الفرصة **لبناء اسطول روماني كبير** من السفن الرومانية الكبيرة ذات المجاديف الخماسية ولكنها تتسم بخفة وسهولة الحركة هذه المرة لأنها لم تكن مصممة بالكباري والخطافات corvi الثقيلة الوزن التي تعوق الحركة. ولكن لما كانت الخزانة الرومانية قد استنزفت من خلال حرب طويلة زادت مدتها عن عشرين عاما فقد فرضت على **أثرياء الرومان مساهمات مالية إجبارية سخية لبناء الأسطول الكبير** . ولم تكن مهمة هذا الأسطول هي شن حرب على قرطاجة في عقر دارها فقد نبذت روما هذا الأسلوب بعد مغامرة ريجولوس ، كما لم يكن الهدف الدخول في اشتباكات جانبية محدودة مع القرطاجيين لا تسمن ولا تغني من جوع ، لقد كان الهدف هو حسم الحرب ووضع نهاية لها. أما عن كيفية تحقيق ذلك فقد كان من خلال فرض حصار شديد على الحاميات والمدن القرطاجية في غرب

صقلية ومنع وصول أية مؤن أو إمدادات من قرطاجة إلى مقاتليها في صقلية . ولما كانت الخزانة الرومانية قد عانت بشدة من جراء تلك الحرب الطويلة - كما أسلفنا - فقد أقنعت السلطات الحاكمة أثرياء روما بضرورة التبرع لبناء الأسطول الروماني المزمع وذلك في صورة قرض يرد لأصحابه فقط في حالة النصر . ومن خلال هذه الجهود والتبرعات التي غلبت عليها الروح الوطنية تمكن الرومان من بناء أسطول مؤلف من ٢٠٠ (مائتي) سفينة من ذات المجاديف الخماسية الخفيفة (بدون كباري ذات خطافات Corvi) فضلاً عن سفن النقل والإمداد العديدة.

وفي صيف عام ٢٤٢ ق.م. أبحر ذلك الأسطول تحت قيادة جايوس لوتاتيوس **كاتوللوس إلى "دريبانا"** غرب صقلية ولم يجد أسطولا قرطاجيا يواجهه. ورغم فشل الهجوم الروماني على تلك المدينة إلا أنها ظلت تحت الحصار لعدة أشهر. وبحلول شهر **مارس من عام ٢٤١ ق.م.** كان القرطاجيون - الذين انهكت خزانتهم **ومواردهم** المالية كذلك - قد تمكنوا بصعوبة من إعداد ما يتراوح بين ١٧٠ و ٢٠٠ سفينة . **وكان القرطاجيون يعتزمون الهبوط والإنزال في صقلية** أولا ليلتقطوا أنفاسهم ويضموا إلى قواتهم هامليكار وجنده المحاصرين هناك ثم يخوضوا معركة بحرية حاسمة ضد الرومان . **لكن الحصار البحري الروماني المحكم حال دون تحقيق هذا الهدف المنشود**. فقبل أن تتاح للقرطاجيين فرصة تحقيق هذه الخطة قطع عليهم الأسطول الروماني بقيادة القنصل كاتللوس الطريق واشتبكوا معهم مباشرة عند "جزر الأيجاتيس" الصغيرة الواقعة إلى الغرب من صقلية. ونظرا لثقل سفن القرطاجي وصعوبة حركتها بالمقارنة بالسفن الرومانية الخفيفة وبسبب عدم تزود الأسطول القرطاجي بالإمدادات اللائمة نظرا لعدم تمكنه من الهبوط في صقلية سرعان ما تعرض لهزيمة قاسية إذ أغرق الرومان خمسين سفينة وأسروا أكثر من سبعين مما لم يتح للقرطاجيين مجالا للمزيد من

المقاومة. لقد كانت هذه الهزيمة إعلانا صريحا عن نهاية تلك الحرب الضروس.

وأمام هذا الموقف اليائس من جانب قرطاجة فقد أعطت هاملكار برقة تفويضا كاملا لإجراء مفاوضات مع الرومان للوصول إلى **سلام بين الطرفين**. وقد توصل هاملكار برقة والقنصل المنتصر جايوس لوتاتيوس كاتللوس إلى اتفاق بالشروط الآتية :-

١ - أن تخلي قرطاجة صقلية[١٠] تماما وتتنازل عن مدنها وحامياتها هناك وألا تشن حربا ضد هيرون ملك سيراكيوز أو أيا من حلفائه.

٢- أن تعيد قرطاجة كل من لديها من الأسرى والرومان.

٣- أن تدفع قرطاجة تعويضات للرومان عما تكبدوه من نفقات و خسائر خلال الحرب؛ وقدر مبلغ التعويض بـ ٢٢٠٠ تالنت من الفضة تدفع على عشرين قسطا سنويا على مدى عشرين عاما.

وحين عرضت هذه الشروط للتصديق عليها من جانب مجلس السناتوس والمجالس التشريعية في روما رفض عامة الرومان مبلغ التعويض واعتبروه متساهلا وقليلا وأرسلت بعثة من عشرة مفوضين رومان إلى محل التفاوض وزادوا مبلغ التعويض ألف تالنت أخرى تدفع على الفور وأن يُسدد المبلغ المتفق عليه من قبل على عشرة أقساط سنوية بدلا من عشرين . كما أضافوا شرطا آخر بأن تخلي قرطاجة كذلك الجزر الصغيرة الواقعة بين صقلية وإيطاليا وهي جزر ليباري وجزر إيجاتيس.ومن بين الشروط التي أضيفت ألا يقوم أي من الطرفين بمهاجمة حلفاء الطرف الآخر أو يقوم بتجنيد وتعبئة جند في مناطق نفوذ الطرف الآخر، وهي إضافات في مجملها غير مؤثرة.

وهكذا وضعت تلك الحرب أوزارها بالنسبة للرومان بعد أربع وعشرين سنة من الحروب الدامية الباهظة التكاليف ، وكانت أكثر نتائج تلك الحرب إيجابية بالنسبة للرومان هي ضم صقلية (باستثناء مملكة هيرون الحليفة في سيراكيوز) كأول ولاية رومانية خارج حدود إيطاليا. ويصف بوليبيوس تلك الحرب البونية الأولى بأنها "أطول ما عرفنا في تاريخنا من حروب وأكثرها تواصلا وشراسة وعنفا".

الفصل الثامن

فترة ما بين الحربين البونية الأولى والبونية الثانية

٢٤١ - ٢١٩ ق. م.

(أ) فترة ما بين الحربين عند القرطاجيين :

أ- حرب قرطاجة ضد جندها المرتزقة ونتائجها

"إن المصائب لا تأتي فرادى!" . كأنه لم يكف قرطاجة ما تجرعته من مرارة هزيمتها مع نهاية الحرب البونية الأولى وضياع صقلية تماما من القرطاجيين والتعويضات الباهظة التي كان على قرطاجة دفعها للرومان ! لقد أضيف إلى كل ما سبق **تمرد جند قرطاجة من المرتزقة**[11] من كافة الأعراق ومطالبتهم برواتبهم المتأخرة رغم ما تعانيه الخزانة القرطاجية من إرهاق شديد ، وقد كانت ثورة المرتزقة هذه أخطر على مواطني قرطاجة في الداخل من الحرب البونية الأولى الممتدة.

ففي الحرب البونية الأولى لم يدفع مواطنو قرطاجة في الداخل من ضريبة الدم إلا أقل القليل، أما ثورة المرتزقة فقد تركت أثرها وبصمتها على حياة المدينة في قرطاجة. فقد احتشد في قرطاجة عشرون ألفا من قوات المرتزقة في الجيش القرطاجي العائدين من صقلية وتجمهروا واطلقوا صيحات مرتفعة مطالبين برواتبهم المتأخرة. وكان هؤلاء المرتزقة يمثلون خليطا من الليبيين والأيبيريين والكلت والليجوريين ومن جزر الباليار وأنصاف الإغريق ، ووحّد بين هذا الخليط غير المتجانس مصلحتهم المشتركة ومطالبهم لدى الحكومة القرطاجية . وقد اتجه هذا الجمع في مسيرة نحو تونس تحت قيادة ليبي يدعى "ماثو" وعبد روماني هارب يدعى "سبينديوس" . ورفع هؤلاء وتيرة التمرد والعصيان بين رعايا قرطاجة من الليبيين والنوميديين وقطعوا اتصالات قرطاجة ببقية أرجاء ليبيا ، كما ثار على قرطاجة جندها المرتزقة في ساردينيا.

في هذه المحنة عين القرطاجيون "هانو" - منافس هاميلكار - لقمع التمرد ولكنه لم يفلح في ذلك بعد أن أقام المتمردون معسكرهم على الجسر الوحيد على نهر باجراداس الذي يربط قرطاجة وأوتيكا . ونتيجة لإخفاق هانو في ربيع عام ٢٤٠ ق.م في تلك المهمة فقد أسندت لخصمه هاميلكار الذي كان قد فقد جزءا من رصيده وشعبيته إثر هزيمته من الرومان . وقد **حقق هاميلكار انتصارا حاسما على المتمردين** من المرتزقة قرب **نهر باجراداس** مما فتح طرق الاتصالات القرطاجية عبر النهر . وأبدى قدرا كبيرا من التسامح مع خصمه سبينديوس بعد أن انتصر عليه ولكن الأخير أساء فهم هذا التسامح وعذب الأسرى القرطاجيين لديه تعذيبا شديدا وهو ما فتح المجال أمام إشعال نيران الحرب بضراوة بالغة بين الجانبين بصورة لا هوادة فيها. ومن جهة أخرى كان هانو - منافس هاميلكار - يقوم بعمليات عسكرية ضد ماثو في هيبو حتى استسلمت هيبو وأوتيكا ، وهنا تحركت قوات المرتزقة من قاعدتها في تونس ضد قرطاجة ولكنها لم تحرز نجاحا يذكر لعدم تمكنها من السيطرة على البحر.

وقد تمكن هاميلكار من سحق قوات سبينديوس وقام بصلبه هو وعدد من رفاقه عام ٢٣٩ ق.م. ولكن الزعيم الآخر للتمرد "ماثو" ظل يقاوم ويحاول الثار لزميله القتيل ، ولكن **في شتاء العام التالي ٢٣٨ بذل القرطاجيون آخر مجهوداتهم لقمع تمرد المرتزقة** إذ تصالح الخصمان المتنافسان هاميلكار وهانو واتحدا ودخلا في معركة نظامية - بعد أن شنا حرب العصابات - ضد قوات المرتزقة ودمروهم تدميرا.

وهكذا عاد السلام إلى ربوع قرطاجة بعد ثلاث سنوات من الحرب الضارية الشرسة التي لم يعرف بوليبيوس مثيلا لها في القسوة والتجرد من كل نوازع الإنسانية .

أما عن **علاقات قرطاجة بروما على مدى تلك السنوات الثلاثة** من حرب قرطاجة ضد المرتزقة المتمردين فيذكر المؤرخون أنها كانت **علاقات ودية وأن الرومان كانوا متعاطفين** مع قرطاجة في محنتها ! صحيح حدث ما عكر صفو هذه العلاقة وتمثل في قيام بعض التجار الإيطاليين بإمداد المرتزقة المتمردين على قرطاجة بالسلاح والمؤن الغذائية مما جعل قرطاجة تلقي القبض على خمسمائة منهم وإن أفرجت عنهم إثر تلقيها احتجاجات من روما. وفي المقابل أعادت روما أسرى الحرب البونية الذين كانوا لا يزالون رهن الاحتجاز . وحظرت تهريب السلاح والمؤن للمتمردين وسمحت لقرطاجة بالتجارة مع إيطاليا. ومن إمارات هذه العلاقة الودية كذلك أن المرتزقة البونيين في ساردينيا ثاروا على الحكومة المركزية في قرطاجة واستولوا على معظم الجزيرة عام ٢٤٠ ق.م. وطلبوا المساعدة من روما عام ٢٣٩ ق.م. حين كان هاميلكار قد أوشك على تصفية ثورة المرتزقة في قرطاجة - لكن روما رفضت هذا الطلب بالتدخل في وقت أزمة قرطاجة وفضلت احترام بنود اتفاقية عام ٢٤١ مع قرطاجة.

ولكن حين سحقت قرطاجة تمرد المرتزقة في أفريقيا عام ٢٣٨ ق.م. انقلب سكان ساردينيا على قوات المرتزقة وضغطوا عليهم بشدة . وبات جليا أن **الدور قد حل على مرتزقة ساردينيا لتصفية الحساب معهم** من جانب قرطاجة . ومعنى هذا عودة النفوذ القرطاجي بكل ما يحمله من تهديد للمصالح الرومانية المجاورة بحكم التقارب الجغرافي الوثيق في ظل سيطرة قرطاجية كاملة وأسطول معادي. لذلك سرعان ماتبددت العلاقات الودية المزعومة بين الجانبين **وسيطرت النزعة التوسعية على تفكير الرومان** كعادتهم وبدأوا يستجيبون لطلب المرتزقة بالتدخل لصالحهم في ساردينيا .

ولما اعترض القرطاجيون على هذا المسلك العدائي من جانب روما لم يكن من **الرومان** إلا أن أعلنوا **الحرب على قرطاجة**، وحاولت قرطاجة الاحتجاج بأن لها نفوذا سابقا في ساردينيا كما عرضت أن يقوم طرف ثالث (ربما بطليموس الثالث في مصر) بالتحكيم بينهما ، ولكن كانت هذه المحاولات بلا أدنى جدوى وواجهت رفضا قاطعا من روما . ولم يستتب الأمر إلا بعد أن أملت روما شروطا جديدة مهينة على قرطاجة تتمثل في أن **تدفع قرطاجة تعويضا لروما مقداره ١٢٠٠** (الف ومائتي تالنت من الفضة) **وأن تسلم ساردينيا (ومعها كورسيكا) للرومان** دون قيد أو شرط ، وهو الأمر الذي اعتبره بوليبيوس "مجافيا تماما للعدالة"!

ولكن لغة القوة الغاشمة تفرض نفسها ، وويل للمهزومين والمستضعفين في كل زمان ومكان رغم أنف كل شعارات العدالة والحق التي لا تسمن ولا تغني من جوع بغير قوة تحميها .

وهكذا استولت روما على ساردينيا[١٢] وكورسيكا عام ٢٣٨ ق.م. لتصبحان - معا - ثاني ولاية رومانية خارج إيطاليا.

ب- القرطاجيون في أسبانيا [١٣]:

بعد قمع تمرد الجند المرتزقة واستئصال شأفتهم ،وبعد استمرار مسلسل التوسع العدواني الروماني في ساردينيا وكورسيكا بعد صقلية **انقسم الرأي داخل قرطاجة حول الصراع مع روما** بين الخصمين المتنافسين اللذين قمعا تمرد المرتزقة بكل الشدة والعنف . هانو وهميلكار برقة . إذ كان **هانو يرى أن تشجيع التوسع في افريقيا** أجدى وأكثر نفعا من معاداة الرومان وأن نوميديا وموريتانيا يمكن أن تقدما الكثير لقرطاجة. أما **هاميلكار** فقد رأى أن **إعادة غزو أسبانيا والتوسع فيها** يمكن أن يعوض قرطاجة عما لحق بها من خسائر تداعي واضمحلال النفوذ

الفينيقي هناك فضلا عن خسائر الحرب البونيه الأولى ، كما ستكون بمناى عن تدخل وتطفل الرومان . ومما لاريب فيه أن هامليكار وانصاره من دعاة إعادة السيطرة والسيادة البونية في أسبانيا وغرب المتوسط كانوا يهدفون بشكل صريح ومباشر إلى الثار مما لحق بهم من هزيمة مخزية على أيدي الرومان. وقد دعم موقفهم ضد دعاة التوسع في افريقيا موقف روما المتغطرس والوقح من مسألة ساردينيا.

بناء على ماسبق **جمع هاميلكار انصاره** ورفاقه وافراد عائلته **وأبحروا إلى قادس** (في جنوب أسبانيا إلى الغرب من مضيق هرقل) التي كانت لا تزال في أيدي الفينيقيين في جنوب أسبانيا. ومن قادس التي اتخذها قاعدة له منذ وصوله عام ٢٣٧ق.م. تقدم ليعيد الاستيلاء الفينيقي على **جنوب وشرق أسبانيا** . وسرعان ما سقطت منطقة الأندلس تحت وطأة تقدمه ووصل حتى منتصف الساحل الشرقي لأسبانيا وشيد قلعة كبيرة هناك في منطقة "**أكراليوكي**" (التي تعني في اليونانية الصخرة البيضاء). **وفي عام ٢٣١ ق.م.** أتت إلى هاميلكار **سفارة من روما** لتهدئة مخاوف حليفتها مدينة ماسيليا - مارسيليا الحالية والتي اقامها في عام ٦٠٠ ق.م. مستوطنون إغريق من فوكايا في آسيا الصغرى - التي خشت من توسع النفوذ القرطاجي في أسبانيا نحو الشمال الشرقي ليقترب من حدودها، وأفضت بمخاوفها للرومان الذين أرسلوا تلك السفارة . ويبدوا أن الرومان لم يأخذوا مسألة التوسع القرطاجي في جنوب أسبانيا بما تستحقه من اهتمام واقتنعوا بإجابة هاميلكار الدبلوماسية في هذا الصدد وهي أنه يحارب سكان شبه جزيرة أيبيريا من أجل الحصول على المال اللازم لسداد التعويضات المفروضة على قرطاجة من جانب روما عقب نهاية الحرب البونية الأولى وتوابعها.

ولكن الرومان راقبوا - من على بعد - التوسع القرطاجي في أسبانيا وأقاموا علاقات صداقة مع مدينة أسبانية محلية على الساحل الشمالي الشرقي من أسبانيا تدعى "ساجونتوم" .

وبعد هذه الفتوحات لقي هاميلكار حتفه غرقا في أثناء حصاره لإحدى المدن الأسبانية وتدعى Helice عام ٢٢٨ ق.م. بعد أن أدى خدمات جليلة لوطنه قرطاجة. إن هامليكار برقة لم يكن محاربا جسورا فحسب وإنما كان كذلك سياسيا بارعاً وإداريا وتنظيميا محنكا استطاع أن يكتسب ود وولاء الكثير من القبائل الأسبانية التي علمها حياة الزراعة والاستقرار وتمكن من إقامة دولة قرطاجية جديدة في اسبانيا.

بعد وفاة هاميلكار **تولى قيادة الدولة القرطاجية في أسبانيا** من **بعده صهره (زوج ابنته) هاسدروبعل** - زعيم الحزب الشعبي في قرطاجة - حيث اختاره الجند وصادق الشعب في قرطاجة على تعيينه . وكان هاسدروبعل دبلوماسيا بارعا حقق بالدبلوماسية الكثير رغم ما توفر له من قوات كبيرة تجاوز ٥٠٠٠٠ (خمسين الفا) من المشاة و ٦٠٠٠ (ستة الآف) من الفرسان و٢٠٠ (مائتين) من الأفيال الحربية. ولكي يوطد علاقاته بالأسبان من أهل البلاد تزوج من أميرة أيبيرية ثم غير مقر حكمه وحكومته من "أكراليوكي /الصخرة البيضاء" (أليكانتي الحالية) إلى موقع يدعى **"ماستيا"** حيث أقام مدينة **"قرطاجة الجديدة" عام ٢٢٨ق.م.** (Carthago Nova قرطاجنة) على شبه جزيرة تتحكم في أحد أفضل الموانئ في العالم ، وكانت المنطقة المحيطة بقرطاجنة غنية بمناجم الفضة وكان الطريق منها إلى أفريقيا سهلا. ومن قاعدته في قرطاجنة شرع هاسدروبعل في الصعود بمحاذاة الساحل الشمالي الشرقي في اتجاه نهر الإيبرو. **وفي عام ٢٢٦ ق.م. التقى مجموعة من السفراء الرومان** الذين كانوا

يخشون انضمامه إلى الليجوريين المتمردين في شمال غرب إيطاليا وكذلك القبائل الغالية.

وقد توصل السفراء إلى **اتفاقية مع هاسدروبعل** اتفق الطرفان بمقتضاها على ألا يعبر هاسدروبعل نهر الإيبرو بقوة مسلحة، بمعنى أن يكون نهر الإيبرو الحد الشمالي للدولة القرطاجية في أسبانيا ، ومن الممكن أن يكون قد تلقى مقابل ذلك تأكيدا من روما بأنها لن تتدخل في **توسعاته جنوب ذلك النهر. وكانت مدينة ماسيليا هي التي حذرت روما من خطر التوسع القرطاجي شمال ذلك النهر الذي سيضر حتما بمصالحها وتوسعاتها جنوب ذلك النهر وشماله.**

وفي **عام ٢٢١ ق.م.** اغتال احد العبيد الكلتيين هاسدروبعل وحل محله في القيادة "هانيبعل" الابن الأكبر لهاميلكار برقة والذي كان آنذاك في الخامسة والعشرين والذي سرعان ما سوف ينضم إلى قائمة أكبر خصوم روما وينخرط في أشرس قتال ملحمي ضدها ليصبح من أشهر القادة والأبطال عبر التاريخ . ويروى عن هاميلكار برقة - في بداية قدومه إلى أسبانيا عام ٢٣٧ ق.م. - أنه جعل ابنه الصبي هانيبعل الذي كان حينذاك في التاسعة من عمره أن **يقسم في المعبد أن يمضي حياته عدوا للرومان وألا يكون صديقا لهم في يوم من الأيام** وذلك لكي يثار لأبيه الذي الحقت به روما هزيمة مخزية في الحرب البونية الأولى واستولت منه على صقلية ثم ساردينيا وكورسيكا . وبعد فترة المهادنة والدبلوماسية التي اتبعها زوج اخته هاسدروبعل عاد هانيبعل إلى سياسات أبيه الحربية الهجومية إذ كان يتحرق شوقا لقتال الرومان. من هنا شن هانيبعل عدة هجمات متتالية متلاحقة ضد القبائل الأسبانية التي لم تخضع بعد لسلطانه وإن تحالف مع قبائل جديدة بالزواج من أميرة أسبانية من قشتالة Castula. ومن خلال هذه الحملات التوسعية امتد النفوذ

القرطاجي في أسبانيا عام ٢٢٠ ق.م. الى ماوراء نهر تاجوس ورغم أن أسبانيا لم تخضع تمام الخضوع للقرطاجيين وكانت لاتزال هناك بعض المناطق والقبائل ذات النزعة المتمردة إلا أن القرطاجيين بزعامة آل برقة أقاموا هناك إمبراطورية كبيرة أمدتهم بإمدادات هائلة من القوى البشرية والثروة المعدنية.

ورغم هذه الإمبراطورية القرطاجية في أسبانيا إلا أنه كانت هناك مدينة أيبيرية على الساحل الشرقي لأسبانيا جنوب نهر "الإيبرو" ظلت تقاوم النفوذ القرطاجي وتتحداه وهي **"ساجونتوم"** حليفة روما.

ولما كان هانيبعل يتعجل المواجهة مع الرومان - لأن كراهية الرومان والرغبة في الثأر منهم قد تأصلت في نفسه منذ طفولته كما أسلفنا - فلم **يجد ذريعة** أكثر ملائمة من **التحرش بحلفاء الرومان** المشمولين بحمايتهم وكان أقرب هؤلاء الحلفاء إليهم هي تلك المدينة **"ساجونتوم"** ولذلك عقد العزم على إسقاطها وضمها لإمبراطوريته القرطاجية في أسبانيا. ولما علمت روما بنية هانيبعل إسقاط "ساجونتوم" أرسلت إليه مبعوثين وسفراء ليثنوه عن عزمه ويذكرونه بإتفاق سلفه هاسدروبعل معهم الا يعتدي على حلفاء روما وأن على هانيبعل احترام ذلك الإتفاق. ولكن هؤلاء السفراء لم يظفروا منه بوعد يلبي مطالبهم ويهدئ من روع حليفتهم ساجنتوم ، بل لقد شرع هانيبعل **في ربيع عام ٢١٩ ق.م.** في فرض الحصار على المدينة طالبا منها الاستسلام . ولما كانت ساجونتوم تعتمد على أن روما ستمد لها يد العون فقد رفضت أن تستسلم، ولكن روما خذلتها لأنها كانت مشغولة آنذاك بحملتها على قراصنة إلليريا في شمال غرب بلاد اليونان على الساحل الشرقي من بحر الأدرياتيك (سنتحدث عنها بعد قليل) ، وبذلك تركت روما ساجونتوم تواجه مصيرها بغير معين. وظلت **ساجونتوم صامدة تقاوم هانيبعل**

ثمانية أشهر وأبلت بلاء حسنا ولكنها **سقطت في يد القرطاجيين** في نهاية المطاف.

بإسقاط ساجونتوم ألقى هانيبعل بالقفاز في وجه الرومان وفرض عليهم التحدي **وأشعل فتيل حرب** لا يمكن تفاديها . ولعل هانيبعل كان موفقا في فرض الحصار على ساجونتوم بينما كانت روما مشغولة بحرب الإليريين وقنصلاها خارج الحدود في تلك الحرب وهو الأمر الذي أعاق السناتو عن الوصول إلى قرار بشأن حصار هانيبعل لساجونتوم. أما وقد سقطت ساجونتوم - حليفة روما - وانتهت حرب الليريا ، فقد أصبح اتخاذ قرار يحفظ ماء وجه روما أمرا ملحا ، ولكن المداولات والتفكير المتأني حول هذا القرار الخطير من جانب الرومان أجلت الأمر إلى **أواخر شهر مارس عام ٢١٨ ق.م.** ففي ذلك التاريخ أرسلت روما إنذارا إلى القرطاجيين في أسبانيا تطالب فيه **باستسلام هانيبعل وأركان حربه**، وكان هذا فعليا بمثابة إعلان حرب. إذ قام زعيم الوفد الروماني إلى القرطاجيين - رئيس السناتوس المخضرم ماركوس فابيوس بوتيو Buteo - بالإمساك بثنيتين من عباءته الرومانية Toga وصاح "ها أنا ذا آتيكم بالسلام وبالحرب ، ولكم أن تختاروا ما شئتم ". وهنا رد عليه القرطاجيون بأن يعطهم ما شاء بينهما ، وهنا ترك المبعوث الروماني طرف ردائه وأجاب **"فلتكن الحرب"** !

وقبل القرطاجيون التحدي ودقت طبول الحرب ولاحت نذرها.

(٢) فترة ما بين الحربين عند الرومان :

أ) حرب روما على القبائل الإلليرية[١٤] ٢٢٩ و ٢١٩ ق.م.

بعد أن خرجت روما من أتون الحرب البونية الأولى ظافرة منتصرة جنت ثمار انتصاراتها في ولايتي صقلية ثم ساردينيا وكورسيكا وما تمثله تلك الولايات من إضافة إلى نفوذها السياسي ورخاءها وانتعاشها الاقتصادي. وعلى مدي تلك الحرب كان حلفاء روما ورعاياها من الإيطاليين يدينون لها - في الأغلب الأعم - بالولاء والتبعية ، لم يشذ عن هذه القاعدة من الشعوب الإيطالية سوى **الليجوريين** في أقصى الشمال الغربي من إيطاليا والذين كانوا يقطنون منحدرات جبال الألب على حدود بلاد الغالة وعلى مدى الريفييرا الإيطالية.

فقد توغل هؤلاء جنوبا وطردوا الإتروريين من "بيزا" ومنطقة نهر الأرنو. ولكن روما دخلت معهم في بعض الاشتباكات على مدى الأعوام ٢٣٨، ٢٣٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤، ٢٣١ ق.م. أسفرت عن تحرير "بيزا" من قبضتهم والسيطرة على مدينة "لونا" إلى الشمال منها ، ولكن إخضاع الليجوريين نهائيا لن يتحقق إلا بعد نهاية الحرب البونية الثانية. كما كانت هناك بعض التحركات التي تنذر بالخطر من جانب **بعض قبائل الغالة** وخصوصا **البويي Boii** وإن تجدد هذا الخطر عام ٢٣٦ ق.م. لخلافات وانشقاقات بين زعماء القبائل مما أدى لتراجعهم عن مهاجمة أريمينيوم على الساحل الشمالي الشرقي الإيطالي بعد أن قاموا بتحركات تنبيء عن هذه المغامرة في ذلك العام.

وهكذا فبخلاف المناوشات البسيطة من جانب الرومان ضد الليجوريين وأهل ساردينيا نعمت روما بالسلام في فترة مابعد الحرب البونية الأولى لبعض الوقت حتى أن **بوابات معبد جانوس قد أغلقت**

(تغلق وقت السلم حين لا يكون هناك معارك) لأول مرة منذ حكم الملك نوما بومبيليوس **عامي ٢٣٥ — ٢٣٤ ق.م.**

ولكن على مدى السنوات القليلة القادمة ستنهمك روما في ميدان آخر في بحر الأدرياتيك ضد **القبائل الإلليرية**. كما سبق أن ذكرنا فإن القبائل الإلليرية كانت تقطن اقصى الشمال من الساحل الغربي لبلاد اليونان - إلى الشمال من مملكة إيبيروس - على الشاطيء الشرقي من بحر الادرياتيك (في المنطقة التي تشغلها الآن الجمهوريات التي كانت تكون يوغسلافيا . الصرب والكروات والبوسنيون وكسوفو). وإذا كانت روما قد احتكت وتعاملت - داخل إيطاليا - بإغريق جنوب إيطاليا (بلاد اليونان العظمى) وإغريق صقلية والملك بيروس ملك ايبيروس منذ بدايات القرن الثالث إلا أنها لم تتعامل مع الإغريق - في بلادهم - من قبل **قط ولم تطأ سفارة رومانية أرض بلاد اليونان قبل عام ٢٢٨ ق.م.**

نعود مرة أخرى للحديث عن **القبائل الإلليرية** لننوه أن تلك القبائل كانت قبائل بدائية لم تنفتح أمام محاولات الإغريق المتحضرين في الجنوب لصبغ تخومهم الشمالية - نصف البربرية - بالصبغة الهللينية ذات الحضارة والمدنية. وإذا كانت محاولات الإغريق في هذا الصدد قد أتت أكلها في بقية هذه التخوم مثل طراقيا ومقدونيا وايبيروس على مدى الفترة من القرن السابع إلى القرن الرابع ق.م. فإن النتيجة مع إلليريا لم تكن مشجعة حيث ظلت تعيش **حياة بدائية خشنة تعتمد على أعمال القرصنة والسلب والنهب.**

وفي خلال الحرب البونية الأولى كان يحكم هذه القبائل زعيم يدعى **"اجرون"** الذي كان زعيما قويا استطاع أن يكون من هذه القبائل مملكة كبيرة إذ اتخذ مقر حكمه في عاصمته "سكوردا Scorda" إلى

الداخل قليلا من ساحل دلماتيا (المنطقة الساحلية من إلليريا على بحر الأدرياتيك) ومد نفوذه من دلماتيا في الشمال على الساحل جنوبا حتى وصل على الساحل الغربي **لبلاد اليونان إلى المنطقة الموازية لمنطقة كالابريا** (كعب الساق الإيطالية). وفي عام ٢٣١ ق.م. تمكن - بالتعاون مع ديمتريوس الثاني المقدوني - من أن يمد نفوذه على الساحل اليوناني الغربي إلى أبعد من ذلك بكثير، ولكنه مات على أثر ذلك وهو يحتفل بانتصاراته. وتولى الحكم من بعده **أرملته "تيوتا" Teuta** كوصية على العرش لابنها الصغير Pinnes وكان يعاونها في هذه المهمة زعيم إلليري انتهازي يدعى "سكير ديلا يداس" Scerdilaidas ، **وسارت "تيوتا" على نهج زوجها التوسعي فاستولت عام ٢٣٠ ق.م. على ايبيروس** وأكارنانيا غرب اليونان أي وسعت نفوذ الليريا هناك حتى خليج كورنثة.

كل ذلك لم يكن ليزعج الرومان في شيء لأنها من الأمور والصراعات اليونانية الداخلية التي لم تقحم روما نفسها في خصوصياتها باعتبارها شأنا لا علاقة لها به ، ولم تضر المصالح الرومانية أو الإيطالية في قليل أو كثير لأن هجمات قراصنة الإلليرين كانت تنصب على المناطق اليونانية الغربية والسفن اليونانية التي تمخر عباب بحر الأدرياتيك . لكن حين مد الإلليريون نطاق قرصنتهم لتطال **السفن الإيطالية** هناك وتستولي عليها أو **تنهبها وتقتل بحارتها وملاحيها في البحر الأيوني والأدرياتيكي** - وهو ما بدأ يحدث بالفعل آنذاك - أثار ذلك حنق الرومان وحفزهم على القيام برد فعل حازم.

وقد فضل السناتو اتخاذ **إجراء دبلوماسي** لمواجهة الموقف بدلا من استخدام القوة فأرسل مبعوثين إلى "تيوتا" التي كانت مشغولة آنذاك بحصار إحدى المدن اليونانية (Issa) . لكنها خاطبت **السفراء بفظاظة ونفت مسئولية رعاياها** عن الانتهاكات بحق السفن الإيطالية ورفضت

تقديم ضمانات مستقبلية بشان سلامة التجارة الإيطالية، وحين هددها السفراء تملكها الغضب وفضت الاجتماع. وفي طريق عودة سفيري السناتو هاجمهما القراصنة **وقتلوا أحدهما** ، ورفضت "تيوتا" تقديم أي تفسير لما جرى.

ورغم ماحدث إلا أن رد الفعل الروماني كان بطيئا ، إذ لم تتحرك روما إلا بعد أن حاصر الإلليريون جزيرة كوركيرا قبالة ساحل ايبيروس واستولوا عليها. على أثر **ذلك أبحر أسطول رومانى** من مائتي سفينة باتجاه إلليريا **في صيف عام ٢٢٩ ق.م**. وعلى رأس قيادته كان القنصل جنايوس فولفيوس كينتومالوس . وأمام ضخامة الأسطول الروماني لم تكن تجدي المقاومة **فاستسلمت كوركيرا على الفور** وكان قائد الحامية الإلليرية فيها إغريقي من جزيرة فاروس المقابلة لإلليريا ويدعى ديمتريوس الذي سرعان ما سلم المدينة للرومان. كما عزز الأسطول الروماني انضمام قوة رومانية كبيرة أتت إليه من ميناء برنديزيوم بقيادة القنصل الآخر. وأمام هذا الحشد الروماني الهائل تساقطت مدن الساحل الغربي اليوناني أمامه بغير مقاومة جادة فبعد كوركيرا سقطت **أبوللونيا** ثم **أبيدامنوس** ثم شمالا نحو **إيسا وجزيرة فاروس**. وأمام هذا الزحف المظفر فرت "تيوتا" إلى قلعتها في منطقة Rhizon واعتصمت بها حتى ربيع العام التالي ٢٢٨ ق.م. حيث **توصل الرومان معها إلى شروط صلح أظهرت قوتهم**. إذ سمح لها بالاستمرار في الحكم مقابل دفع مبلغ سنوي للرومان وأن تتنازل عن كل المناطق التي استولى عليها الرومان ، وألا يسمح لأكثر من سفينتين من السفن الإلليرية بالإبحار على الساحل الغربي لليونان جنوب ليسوس Lissus التي ربما اصبحت تمثل خط الحدود الجنوبي لملكة إلليريا.

كما اتخذت روما عددا من الإحتياطات والإجراءات **لتحجيم الإلليريين وتقليص أنشطتهم العدوانية** : ففي شمال المملكة منح الرومان عميلهم ديمتريوس الفاروسي جزيرة فاروس وعددا من الجزر المجاورة والمدن المقابلة على الساحل ليحكمها بإذن من الرومان، وفي جنوب المملكة أقام الرومان محمية على الشريط الساحلي الممتد من ليسوس حتى حدود إبيروس فضلا عن الجزر المقابلة التي استولوا عليها.

وهكذا تمكن الرومان **بغير قتال أو إراقة الدماء من تقليص الملاحة** الإلليرية في بحر الأدرياتيك دون أن يدمروا مملكة الإليريين، كما تمكنوا من إقامة قاعدة لهم على الساحل الجنوبي لمراقبة أنشطة الإلليريين ومدى التزامهم بالإتفاق . وبعد **هذه الحملة أرسل الرومان عددا من السفراء إلى بلاد اليونان إلى الآخيين والأيتوليين والكورنثيين والأثينيين** لإبلاغهم بالنصر الذي أحرزه الرومان وتفسير وشرح فحوى تصرفهم ، وقد كان رد فعل هؤلاء الإغريق إيجابيا لأنهم استفادوا - هم أيضا - من قمع الإلليريين وكبح جماح قرصنتهم بصورة لا تقل عن الرومان والإيطاليين.

وكانت هذه **أول مرة** تجري فيها **روما اتصالات رسمية بالقوى الرئيسية في بلاد اليونان من خلال وفود دبلوماسية** . ومن خلال هذه الاتصالات تعرفت روما على الخريطة السياسية لبلاد اليونان وابرز معالمها والقوى المؤثرة من مدن وأحلاف وتكتلات وسياسات .

ولكن روما لم تقم باية اتصالات مع احد أهم القوى المؤثرة في السياسة اليونانية حينذاك وهي **مملكة مقدونيا** التي كان لها علاقات طيبة بالإلليريين . وقد كان يحكم مقدونيا وقت الحملة الرومانية على إلليريا أنتيجونوس دوسون الذي كان وصيا على عرش الملك الصغير فيليب الخامس إلى أن يكبر. ومن الواضح أن **التدخل الروماني في شئون**

إليريا والعالم اليوناني وإقامة محمية على الساحل اليوناني جنوب إليريا من الأمور التي أزعجت مقدونيا.

وبعد أن أجرت روما تلك الاتصالات بالعالم اليوناني عام ٢٢٨ ق.م. وتركت محمية لها جنوب إليريا انصرفت لشواغل أخرى في اسبانيا (حيث توسع الدولة القرطاجية هناك ومحاولة كبح جماحها بطرق دبلوماسية) وفي شمال إيطاليا (حيث هجمات القبائل الغالية في إتروريا والتصدي لها كما سنرى). على مدى الفترة حتى عام ٢٢٠ ق.م. وفي خلال انشغال روما بتلك الأمور كان انتيجونوس دوسون في مقدونيا قد وطد دعائم حكمه وأكد سيادته على بلاد اليونان واكتسب تأييد ديمتريوس الفاروسي الذي كان يحكم في شمال اليريا حيث نصبه الرومان. واستمر هذا المقامر ديمتريوس في القيام بمغامراته اعتماداً على تاييد مقدونيا بزعامة انتيجونوس دوسون ومن بعده فيليب الخامس اعتبارا من عام ٢٢١ ق.م. **وفي عام ٢٢٠ قام** هو وحليفه الإليري الأمير سكير ديلايداس - بعد موت الملكة تيوتا - **بهجمات على بيلوس** (في جنوب غرب شبه جزيرة البيلوبونيز) بل وقام **بأعمال قرصنة واسعة في بحر إيجة** وغزا بعض **أجزاء المحمية الرومانية جنوب إليريا**. ومما زاد الوضع سوءا قيام الملك فيليب الخامس المقدوني بزيارة سكير ديلايداس في إلليريا في شتاء عام ٢٢٠ — ٢١٩ ق.م.

أمام هذه الأوضاع كان لابد لروما أن تتحرك من جديد لتعاود السيطرة على الموقف الذي بدا يفلت مرة أخرى من يديها في تلك المنطقة . وعلى **ذلك قام قنصلا عام ٢١٩** (لوكيوس ايميلوس باولوس وماركوس ليفيوس ساليناتور) **بالإبحار إلى بلاد اليونان على رأس أسطول كبير،** وقرر ديمتريوس أن يقاوم الرومان في الجنوب عند "ديمالي" وفي الشمال عند جزيرة فاروس مقر إقامته . ولكن القنصل أيميليوس اجتاح "ديمالي" في سبعة ايام واستسلمت له المناطق المحيطة، ثم أبحر القنصلان

شمالا إلى فاروس واستولوا عليها بعد هجوم قوي وفر ديمتريوس إلى فيليب الخامس. ولكن جاءت من أسبانيا أنباء مزعجة عن حصار هانيبعل لساجنتوم حليفة الرومان هناك، وهو ما أدى بالقنصلين إلى الإسراع بعمل تسوية متعجلة للوضع في إلليريا. فوضعوا فاروس وغيرها من المناطق التي استولوا عليها في هذه الحملة تحت الحماية الرومانية أسوة بغيرها من مناطق المحمية الرومانية التي أخضعت قبل عشر سنوات. وترك الرومان "سكير ديلايداس" والملك الشاب "بينيس" يحكمون إلليريا دونما تدخل في أمرهما.

وهكذا فإن حملتي الرومان على إلليريا في عامي ٢٢٩ و ٢١٩ ق.م. قد أسفرتا عن القضاء على القرصنة في بحر الأدرياتيك وإقامة محمية رومانية على سواحل إلليريا (في ساحل دلماتيا والجزر المقابلة) وإثارة عداء واستفزاز الملك فيليب الخامس ملك مقدونيا.

ب - روما تسحق هجمات الغالة [١٥] ٢٢٥ - ٢٢٢ ق.م.

رأينا فيما سبق أنه مع نهاية الحرب السمنية الثالثة وانتصار روما على سامنيوم وحلفائها من الغالة والأومبريين والإتروسكيين في موقعة "سنتينوم" الشهيرة عام ٢٩٥ق.م. تفرق هذا التحالف واستسلمت سامنيوم رسميا عام ٢٩٠ق.م. بعد مقاومة لمدة ثلاث سنوات بعد هزيمتها للمرة الثانية في موقعه "اكويلونيا" عام ٢٩٣ على حدود أبوليا.

ولكن رغم هزيمة السمنيين واستسلامهم إلا ان خطر الغالة بدأ يطل برأسه من جديد اعتبارا من ٢٨٤ ق.م. عند "أريتيوم" حيث قتل أحد القنصلين وتكبدت روما ١٣٠٠٠ قتيل، ولكن الرومان سرعان ما سيطروا على الموقف وطردوا الغالة وانتصرت روما على قبائل البويي الغالية عام ٢٨٣ عند "بحيرة فاديمو" على بعد خمسين ميلا شمال روما، وفي العام

التالي ٣٨٢ أحبط الرومان محاولة ثانية لتلك القبائل وبعدها جنحوا للسلم لمدة خمسين عاما تقريبا (أنظر ص ٢٧٧ – ٢٧٨).

بعد مضي الخمسين عاما المذكورة أي **عام ٢٣٢** تزعم الطبقات الوسطى من العامة من المزارعين وقاطني المناطق الريفية الرومانية أحد ترابنة العامة وهو **جايوس فلامينيوس** الذي شن هجوما على طبقة النبلاء سواء كانوا من ذوي الاصول الارستقراطية أو الشعبية. وتقدم هذا التريبون **باقتراح يقضي بتوزيع الأرض العامة التي صادرها الرومان من قبائل السنونيس الغالية** Ager Gallicus جنوب أريمنيوم على فقراء **المواطنين من أبناء العامة** في صورة حيازات صغيرة المساحة . واستصدر قانونا بهذا المعنى من الجمعية القبلية وانتزعه من بين أنياب الأشراف ورغم معارضتهم الضارية لتضرر مصالحهم الشخصية في تلك المنطقة ولتجاهل فلامينيوس للسناتو والجمعية المئوية في هذا الشأن.

هذا القانون الذي استصدره فلامينيوس من الجمعية القبلية حول الأرض العامة المصادرة من الغالة ركز الانتباه على الجبهة الشمالية متمثلة في تحركات الليجوريين وفي محاولة الغالة من قبل أربع سنوات عام ٢٣٦ ق.م. مهاجمة أريمنيوم وإن لم ينفذوا ذلك لانشقاقات بينهم . ربما جاء هذا القانون ليصب مزيدا من الزيت على النار بالنسبة للغالة وإن تاخر رد فعلهم بعد هذا القانون بست سنوات عام ٢٢٦ ق.م. ففي ذلك العام طلبت قبائل ال Boii الغالية وجيرانهم اللينجونيين Lingones العون من إخوانهم الغالة المحاربين من قبائل الإنسوبريس وراء نهر "بو" ومن أقصى الغرب حيث قبائل التاوريين Taurini وال "جايساتيين" Gaesati من وراء الألب.

وعاد **شبح ذكريات هزيمة "اليا" المريرة** قبل ما يزيد على قرن ونصف ليلقي بظلاله الكئيبة ويثير الفزع في أرجاء إيطاليا ولا سيما روما. وكنتيجة لذلك أجرى الرومان إحصاء ليحصروا ما لديهم من قوات متاحة في أرجاء إيطاليا ، وكانت نتيجة هذا الإحصاء توافر ٢٥٠٠٠٠ (ربع مليون) من المشاة و ٢٣٠٠٠ (ثلاثة وعشرون الفا) من الفرسان من بين المواطنين الرومان فضلا عن ٣٥٠٠٠٠ (ثلاثمائة وخمسون ألفا) من الحلفاء ناهيك عن القوات الاحتياطية من البروتيين والإغريق.

وفي هذا الموقف سارعت روما بالدفاع **عن إيطاليا عام ٢٢٥ ق.م. ولما** كان احد القنصليين موجودا في ساردينيا في ذلك الحين اتخذ القنصل الآخر موقعه عند أريمنيوم في الشمال الشرقي - التي اعتزم الغالة مهاجمتها قبل احد عشر عاما - وهو القنصل **لوكيوس ايميلوس بابوس**، في حين تولى قائد بدرجة برايتور قيادة قوات الإتروسكيين والسابين لحماية ممرات الأبنين الغربية وانتشرت أربع فرق في روما وتولت اثنتان حماية جنوب إيطاليا وصقلية ضد إمكانية استغلال القرطاجيين للموقف . ولكن بدلا من أن يهاجم الغالة أريمنيوم كما أزمعوا قبل أحد عشر عاما **تقدموا فوق الأبنين إلى اتروريا بجيش مكون من ٧٠٠٠٠ مقاتل** : خمسين الفا من المشاة وعشرين الفا من الفرسان ، وعاثوا فسادا وتدميرا في المناطق الريفية في طريقهم وتخطوا الجيشين الرومانيين. وأسرع هذان الجيشان بملاحقتهم محاولين التجمع والالتقاء عند كلوسيوم ، ولكن الغالة خدعوا الجيش الذي يقوده البرايتور واستولوا منه على بعض الغنائم قبل وصول الجيش القنصلي **واتجهوا بغنائمهم نحو الساحل الإتروسكي ومن هناك اتجهوا شمالا وفي اعقابهم ويلاحقهم عن كثب جيش القنصل "ايميليوس بابوس"** من الجنوب بعد وصوله من شرق إيطاليا.

وظـل الجيش الغالي يسير على هذا النحو على الساحل الاتروري إلى الشـمال إلى أن بوغـتوا عـند **تيلامـون** بجيـش رومـاني قنصـلي آخـر يسـد عـليهم الطـريق مـن الشمال.هذا الجيش هو جيش القنصل الاخر **"اتيلوس ريجولـوس"** الذي كان في ساردينيا وصدر له استدعاء لمواجهة خطر الغالة فهـبط في بيـزا وسـار جـنوبا حـتى الـتقى جيش الغالة عند تيلامون . وهنا **وقـع الغالـة بـين شـقي الـرحى بـين الجيشـين الـرومانيين القنصـليين مـن الشـمال والجـنوب ودارت رحـى معـركة ضـارية بين الطرفين.** لقد اضطر الغالـة إلى تقسـيم جيشـهم إلى جيشـين - كلاهمـا يعطـي ظهـره للآخـر - لمواجهـة الجيشـين الـرومانيين مـن الشمال ومن الجنوب ، وكانوا في موقف دفـاعي إزاء ذلـك الهجـوم المـزدوج مـن الكماشـة الرومانيـة . وأبلى الغالة بلاء حسـنا بـروحهم العاليـة وأجسادهم المشـوقة العاريـة وقلائدهـم الذهـبية اللامعة تزين صدورهم وقاتلوا قتال حياة أو موت حتى الرمق الأخير.

لكـن حسـن التـنظيم الروماني والتفوق في العدة والعتاد انتزع نصرا ساحقا لـلرومان "في تيلامـون" فـبرغم مقـتل القنصـل اتيـليوس ريجولوس فقـد سـقط من الغالة في ميدان **المعركة ٤٠٠٠٠ (أربعون الفا) قتيل** ووقع في **الأسـر منهم نحو ١٠٠٠٠ (عشرة آلاف)** ولم يفلت من تلك المجزرة سوى جزء مـن فرسـان الغالـة شـقوا طـريقهم فـارين نحـو الشـمال. وبعدهـا لم يجـرؤ جيش من الغالة على عبور الأبنين نحو الجنوب مرة أخرى.

هـذه المغامـرة من جانب الغالة أقنعت الرومان بأن القبائل الغالية في الغالـة القريـبة لا يؤمـن جانـبها وأنهـا يمكن أن تكون مصدر خطر وفزع في أي وقـت وان جـبال الألـب يـنـبغي أن تكـون هـي الحـدود الطبيعية لإيطاليا الـرومانية. مـن هـنا فقـد خطـط الـرومان في اسـتثمار ذلـك النصـر المؤزر في تيلامـون في إخضـاع مـنطقة "الغالـة القريـبة" ليضـمنوا لأنفسـهم حـدودا شماليـة هادئـة تـنعم بالسـلام. لذلك أغار القنصل ايميليوس بابوس على

قبائل ال Boii الغالية التي قام قناصل العام التالي ٢٢٤ ق.م. بإخضاعها تماما . وكان من نصيب الرعيم الشعبي **جايوس فلامينيوس** - التريبون الذي استصدر من الجمعية القبلية عام ٢٢٣ قرارا بتقسيم بعض أرض الغالة على فقراء العامة - أن يكون أول قائد روماني يتولى قيادة جيش روماني عبر نهر "بو" ليحارب قبائل الإنسوبريس في شمال البو . ففي ذلك العام وصل هذا القائد الجسور والسياسي الكفء إلى منصب القنصلية وبدا في إظهار واستعراض مهاراته العسكرية الكبيرة .

ففي ذلك العام ٢٢٣ عبر هو وزميله القنصل الاخر نهر البو بالقرب من Adda وبدلا من مهاجمة الإنسوبريس مباشرة اتجه نحو قبائل "الكينو ماني" الصديقة إلى الشرق وهاجمه الأعداء من جهة الشرق المكشوفة وانقض عليهم والحق بهم الهزيمة . ورغم ذلك فإن بعضا من خصومه في مجلس السناتوس اتهموه بالتهور والتسرع وأن النصر في المعركة يعزي إلى قوة وكفاءة الفرق الرومانية أكثر منه إلى براعة فلامينيوس. وتم استدعاؤه إلى روما بعد المعركة مباشرة رغم انه كان بوسعه أن يكمل مسيرته ويحقق مزيدا من الانتصارات ، لكن كان للسناتو رأي آخر وأبى عليه إقامة احتفال بالنصر على الأنسوبريس ولكن العامة أصروا على إقامة احتفال نصر لزعيمهم رغم أنف السناتو.

وبعد هذا التكريم اعتزل فلامينيوس منصبه قبل شهر من المدة القانونية (مدة العام) ليفسح المجال لقناصل العام الجديد ٢٢٢ ق.م. لإستكمال المهمة.

وقد سعى الإنسوبريس إلى التوصل إلى سلام مع القناصل الجدد هنا جنايوس كورنيليوس سكيبو وماركوس كلاوديوس ماركيللوس بشروط رفضها القنصلان وهكذا تواصل الاستعداد للقتال من الطرفين. واتاح القنصلان لنفسهما قدرا من حرية الحركة بأن

تصرف كل منهما بمفرده. فقد **ذهب ماركيللوس إلى مدينة "كلاستيديوم"** التي تعرضت لهجوم من الغالة لكي يخفف الضغط عنها وهناك دخل في مبارزة فردية ضد القائد الغالي المدعو **فيريدوماروس** Viridomarus فذبحه وأرداه قتيلا وحصل على آخر "غنائم شرف Spoila Opima " يحصل عليها قائد روماني عندما يقتل زعيم الأعداء وقائدهم في مبارزة فردية (في هذه الحالات كان المبارز المنتصر يجرد القائد القتيل من سلاحه ويقدمها هدية لجوبتير).

وفي الوقت نفسه كان القنصل الآخر قد استولى على مدينة أخرى قرب منطقة **قبائل الإنسوبريس ومنها تقدم إلى عقر دارهم** . ثم انطلق القنصلان معا إلى **ميديولانوم (ميلانو) حيث سحقا جيش العدو واستوليا على المدينة. وبعد ذلك سلم الإنسوبريس بغير قيد أو شرط بل وتنازلوا** للرومان كذلك عن مساحة كبيرة من الأرض سيقيمون عليها بعد وقت قصير مستوطنة "كريمونا".

وواصل قناصل عامي ٢٢١ و ٢٢٠ ق.م. فتح وإخضاع بقية مناطق الغالة القريبة بعد أن أصبح الطريق ممهدا لذلك بفضل جهود القناصل السابقين حتى أصبحت تلك الحدود الشمالية تحت السيطرة الرومانية وقابلة لتسرب الحضارة والثقافة الرومانية. وحين تولى جايوس فلامينيوس - قنصل عام ٢٢٣ ق.م. منصب الكنسور (الرقيب) عام ٢٢٠ - **أقام الطريق الكبير إلى شمال إيطاليا الذي عرف بـ "طريق فلامينيوس"**. وبعد ذلك بعامين اثنين عام ٢١٨ أقيمت اثنتان من المستوطنات اللاتينية في الشمال في **"بلاكنتينا" و "كريمونا" وتم توطين ستة آلاف مستوطن** فيهما. ولكن لم يكد السلام يستقر في تلك المنطقة حتى أطل خطر القائد القرطاجي هانيبعل بن هاميلكار من وراء جبل الألب مثل كابوس أطبق

علـى أنفـاس الرومان لفترة من الزمن وانضوت منطقة الغالة القريبة تحت لوائه نكاية في الرومان وانتقاما منهم.

الفصل التاسع

الحرب البونية الثانية

٢١٨ – ٢٠٢ ق. م.

رأينا فى الفصل السابق كيف كان حصار هانيبعل لمدينة ساجونتوم - حليفة روما فى شرق أسبانيا - وإسقاطها عام ٢١٩ . ق.م. بعد حصار مرير سببا مباشراً فى إشعال فتيل الحرب من جديد بين روما وقرطاجة . كما رأينا كيف كان **هانيبعل يستبق الزمن وهو يتحرق شوقاً لقتال الرومان**[١٦] ليوفى بوعده لأبيه ويبر بقسمه وهو طفل لم يجاوز التاسعة بأن يكرس حياته للإنتقام من روما التى أهانت أباه فى الحرب البونية الأولى وما تلاها .

ولما أصبحت الحرب أمراً محتوماً وقضاءً مقضياً فقد كان على كل من الطرفين أن يعد العدة الملائمة لها ويضع من الخطط ما يحقق مآربه وأغراضه . وإذا ما تأملنا خطة الرومان لوجدنا أنهم كانوا يهدفون إلى استغلال تفوقهم البحرى ليفرضوا مسرح الحرب وساحة القتال على القرطاجيين ليكون فى أسبانيا وفى أفريقيا، أى فى عقر دار القرطاجيين، فى قرطاجة القديمة والجديدة . فأرسلوا أحد قنصلى عام ٢١٨ ق.م. وهو بوبليوس كورنيليوس سكبيو ومعه ٢٤,٠٠٠ مقاتل وستين سفينة لشن الحرب على القرطاجيين فى أسبانيا ، كما أرسلوا القنصل الآخر تيبريوس سمبرونيوس لونجوس ومعه ٢٦,٠٠٠ مقاتل ومائة وستين سفينة إلى صقلية تمهيداً للعبور إلى أفريقيا . وعلى الجانب الآخر فإن هانيبعل كان يتحاشى خوض حرب بحرية ضد الرومان واستفاد من التجربة المؤلمة للحرب البونية الأولى وموقعة جزر إيجاتيس فقرر أن يخوض حرباً برية ضد الرومان وأن تكون إيطاليا ذاتها هى مسرح الحرب . وربما توقع الرومان ذلك ودار بخلدهم ولذا أرسلوا جيش سكبيو ليلتقى جيش هانيبعل ويحبط تقدمه إما فى شمال أسبانيا أو فى جنوب بلاد الغالة قرب ماسيليا على أقصى تقدير ، إذ لم يخطر ببال

الرومان أن يتخذ طريقاً آخر. واعتقد الرومان أن اللقاء فى أحد هذين الموقعين سيجعل مهمة الرومان سهلة نسبياً وهم يقاتلون بالقرب من حليفتهم ماسيليا ومن قاعدتهم فى " بيزا" فى شمال غرب إيطاليا.

ولكن الرومان تغافلوا عن ذكاء وعبقرية هانيبعل ولم يقدروها حق قدرها، إذ كان هانيبعل يتسم بذكاء حاد لم يجربه الرومان من قبل ولم يعهدوه لأنهم لم يسبق أن تعاملوا معه. وكان أهم عناصر ذكاء ودهاء هذا القائد العبقرى أنه كان يقرأ دائماً ما يدور فى ذهن عدوه من سيناريوهات للحرب ويختار أصعبها وأبعدها مما لا يخطر فى بال العدو، ويبتعد عن المألوف والمتوقع بحيث يفاجىء العدو مفاجأة صاعقة : كما كان يعتمدعلى السرية الشديدة التى يفرضها على تحركاته وخططه وتكتيكاته بحيث يحقق عنصر المفاجأة بكفاءة واقتدار. وكان كذلك يمتلك زمام المبادرة بحيث يفرض على عدوه مكان وزمان المعركة ويكون هو صاحب الفعل لا رد الفعل ويضع عدوه دوماً فى خانة الدفاع، بل فى كثير من الأحيان الدفاع المرتبك من هول المفاجأة. إذا ما وضعنا فى الإعتبار هذه العناصر فى تكوين شخصية هانيبعل - فضلاً عن إرادته الفولاذية وحماسه المنقطع النظير وكراهيته الشديدة للرومان ورغبته فى الثأر منهم والقضاء عليهم - لسهل علينا تتبع أحداث الحرب البونية الثانية والمآزق التى وضع فيها هانيبعل الرومان.

لنقترب شيئاً فشيئاً من فكر هانيبعل العملى فى مواجهة الرومان. - بعدما تعرفنا على ملامح شخصيته الفذة كما أوردها المؤرخون الرومان- لنرى أنه عوّل على الثقة فى قدرته على قهر الصعاب والقوات الرومانية الكبيرة التى تحرس إيطاليا براً وبحراً. وبالإضافة إلى ثقته فى قدراته فإن هانيبعل كان يأمل فى تقويض دعائم وأركان التحالف الإيطالى الذى يدعم روما على كره منه - فى ظن هانيبعل - ويتعطش

إلى الحرية والتخلص من ربقة الرومان ، كما كان من بين حساباته المرارة والضغينة التى يضمرها الغالة للرومان وثقته فى انهم سينضوون تحت لوائه إذا ما سنحت لهم الفرصة . وأمام هذه المعطيات انطلق لجيش قوامه ما يقرب من خمسين (٥٠,٠٠٠) ألفاً من المشاة ونحو ٩,٠٠٠ (تسعة آلاف) من الفرسان من الإيبريين والليبيين والنوميديين و ٣٧ من الأفيال الحربية .

وفى أواخر أبريل من عام ٢١٨ انطلق بهذا الجيش من قرطاجة الجديدة (قرطاجنة) شمالا وعبر نهر الإيبرو فى أوائل يونيو ثم أخضع المنطقة الواقعة بين نهر الإيبرو وجبال البرانس . وظل هناك حتى شهر سبتمبر ربما فى انتظار ملاقاة جيش كورنيليوس سكبيو والقضاء عليه هناك ثم يكمل بعد ذلك مسيرته ليهبط بجيوشه فى شمال إيطاليا ، أو لعله أراد أن يخدع الرومان من خلال بطء تحركاته حتى لا يدفعهم إلى سرعة التجمع فى شمال إيطاليا لملاقاته فى وقت لم يحدده هو ، ولعله بذلك يربك خططهم بين الحدس والتخمين . ومن الممكن أن يكون هانيبعل قد لقى مقاومة أشد وأعنف من جانب قبائل الطريق الذى مرّ به والذين لم يكونوا يعرفون وجهته فظنوا أنه قادم لمحاربتهم .

نعود الآن إلى القنصل بوبليوس كورنيليوس سكبيو الذى توجه بقواته من شمال غرب إيطاليا ووصل إلى مصب نهر الرون فى حوالى منتصف أغسطس ، وأرسل سرية استطلاع من الفرسان لمحاولة التعرف على تحركات ونوايا هانيبعل . وكان هانيبعل قد قام بمناورة خداعية كلف بها قائده هانو لكى يوحى لقوات الاستطلاع الرومانية أنه قد عبر نهر الرون فى حين أنه فعلياً توجه إلى أعالى النهر صوب جبال الألب ليتفادى اللقاء بسكبيو وقواته على ساحل الغالة الجنوبى . وبناء على المعلومات المضللة التى استقاها سكبيو من قوات استطلاعه توجه صوب

تلك البقعة من نهر الرون التى أشارت إليها معلومات الاستطلاع فوجدها مهجورة وعلم أن هانيبعل وقواته قد عبروا النهر صوب جبال الألب ولم يسلك الطريق الساحلى السهل وآثر ركوب الصعب الذى يبدو محالاً . وكانت تلك مفاجأة أربكت خطط سكبيو الذى اتخذ قراراً فورياً بعدم تعقب قوات هانيبعل فى مسيرتها الوعرة الشاقة عبر الألب ، بل بإرسال جيشه الذى أتى معه - تحت قيادة أخيه جنايوس سكبيو - إلى أسبانيا ليضيق الخناق على من تبقى هناك من القوات القرطاجية تحت قيادة هاسدرو بعل الشقيق الأصغر لهانيبعل بعد أن رافقت أفضل القوات هانيبعل . وعاد كورنيليوس سكبيو إلى شمال إيطاليا بطريق البحر ليتولى قيادة فرقتين كان قد تركهما هناك تحسباً لأى تمرد من القبائل الغالية هناك - وهو ما حاوله الغالة من قبل - ويتاهب هناك لمواجهة هانيبعل وقواته لحال وصولهم .

هانيبعل فى شمال إيطاليا - موقعة تريبيا ٢١٨ ق.م. :

كانت مسيرة هانيبعل صعوداً فى نهر الرون ثم من فوق جبال الأب فى غاية الوعورة والمشقة ولم تكن تفاصيل محطات تلك الرحلة واضحة بل اكتنفها قدر من الشك وعدم اليقين رغم الوصف النابض بالحيوية الذى أورده بوليبيوس عن هذه المسيرة ، ويضفى وصف ليفيوس المزيد من التعقيدات على محطات الرحلة . لقد أثارت هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر من جانب هانيبعل خيال الكتاب والمؤرخين عبر العصور. وتتمثل الصعوبات التى تكتنف عملية عبور جبال الألب إلى شمال إيطاليا فى العداء الشديد الذى واجهته قوات هانيبعل من القبائل التى تقطن تلك الجبال ، وأن منحدرات تلك الجبال كانت شديدة الوعورة

والانحدار بصورة لم يكن يتوقعها هانيبعل وهو ما جعل أمر عبورها فى غاية الخطورة لاسيما مع تكاثر الجليد والثلوج مع قدوم الخريف .

لقد كان عبور الألب من قبل هانيبعل فى ذلك التوقيت وفى تلك الظروف القاسية مغامرة محفوفة بكل أنواع المخاطر ، ويمثل هذا العبور فى حد ذاته إعجازاً عسكرياً وانتصارا لإرادة هانيبعل وحسن تنظيمه وتغلبه على كافة الصعوبات . لكن ثمن هذا النجاح كان فادحاً إذ لم يصل إلى سهول شمال إيطاليا من قواته سوى ٢٦,٠٠٠ (ست وعشرين ألف) محارب ، أى أنه فقد فى تلك المغامرة ما يزيد على نصف قواته من جراء الطقس السيء والمقاومة الضارية من سكان الجبال ووعورة تضاريس تلك الجبال فضلاً عن الأمراض وغيرها . وحين وصل هانيبعل إلى شمال إيطاليا واجتاح المدينة الرئيسية للتاورينى (تورينو) ذهل وهو يرى القنصل ب. كورنيلوس سكبيو على رأس فرقه الرومانية رغم أنه قطع ما يقرب من ألف ميل فى نحو شهر . وقد عبر سكبيو نهر " بو " قرب بلاكنتيا على أمل مداهمة هانيبعل والإنقضاض عليه قبل أن يستريح من وعثاء السفر الطويل وخسائره الفادحة . واتجه سكبيو بمحاذاة الضفة الشمالية لنهر " بو " وعسكر على الضفة الغربية لأحد روافده الشمالية وهو فرع " تيكينوس " واشتبك فرسان سكبيو بمقدمة جيش هانيبعل ولكنهم هزموا وردُّوا على أعقابهم وكاد سكبيو نفسه أن يلقى حتفه فى تلك الواقعة لولا أن أنقذه ابنه الشاب الذى يحمل نفس الإسم والذى سيصبح - مستقبلاً - بطل روما وقاهر هانيبعل .

وبعد واقعة " تيكينوس " هذه حدثت سلسلة من المناورات من الجانبين أدت فى النهاية إلى موقعة " تريبيا " . فقد انسحب سكبيو مرة أخرى إلى الضفة الجنوبية من نهر " بو " وتقدم نحو الغرب وعسكر عند " ستراديللا " . وتعقبت قوات هانيبعل قوات سكبيو وأراد هانيبعل أن

يلتحم فى معركة مباشرة مع الرومان،ولكن سكبيو أحجم عن ذلك بعد أن تخلى عنه حلفاؤه الغالة، وتراجع سكبيو بقواته إلى "تريبيا" إلى الجنوب مباشرة من "بلاكنتيا" فى إنتظار وصول زميله سمبرونيوس لونجوس، واستولى هانيبعل على موقع رومانى فى "كلاستيديوم" وعسكر قبالة المعسكر الرومانى على الضفة المقابلة من فرع "تريبيا". وقد لحق سمبرونيوس لونجوس وقواته بزميله فى "تربيا" فى أواخر نوفمبر عام ٢١٨ بعد إلغاء الحملة الرومانية على أفريقيا على أثر سماع أنباء مسيرة هانيبعل عبر الألب إلى شمال إيطاليا واستدعاء سمبرونيوس للاتجاه إلى هناك لدعم موقف زميله سكبيو. ورغم نصيحة سكبيو لزميله بألا يتعجل الصدام مع هانيبعل إلا أن سمبرونيوس كان عازماً على سرعة إنجاز ذلك، ومما شجعه على ذلك قيام الخيالة الرومان بمناورة ناجحة رغم أنها كانت فى واقع الأمر خدعة بارعة من القرطاجيين تظاهروا فيها بالفرار من أمام الفرسان الرومان، ولكن هانيبعل كان فى ذلك الموقف وغيره، هو صاحب زمام المبادرة الهجومية ولم يدعها تفلت من يده مستخدماً فى ذلك ذكاءه البارع ومناوراته السديدة، ففى يوم قارس البرودة من أيام ديسمبر كان هانيبعل قد أعد خطة بارعة ضمنت له نصراً مؤزراً.

فى هذا اليوم أعد هانيبعل قواته المواجهة للقوات الرومانية على الضفة الأخرى إعداداً جيداً وأيقظ جنده عند الفجر وجعلهم يتناولون طعام الإفطار ويتأهبون، وكلف بعضاً من قواته بمهمة خاصة مباغتة ضد المعسكر الرومانى على الضفة المقابلة من رافد "تريبيا". ولكى يعبروا ذلك المجرى المائى المتجمد فى ذلك الوقت من العام جعلهم يدهنون أجسادهم بالزيت لكى يكون طبقة عازلة تحول دون شلل البرودة القارسة التى تشل أجسادهم أثناء عملية العبور. أما عن المهمة ذاتها فقد كلفهم - بعد عبور ذلك المجرى - أن يهاجموا المعسكر الرومانى بينما القوات

الرومانية تغط فى سبات عميق وأن يُحدثوا أكبر قدر من الجلبة والصياح بحيث يوهموا الرومان أن القوة القرطاجية عن بكرة أبيها تهاجم معسكرهم فتوقع فى نفوسهم الهلع والذعر وتجعل رد فعلهم طائشاً وغير مدروس .

وحدث ما خطط له هانيبعل بالضبط : إذ استيقظ الرومان من نومهم وقد تملكهم الذعر من الصيحات المدوية وصدرت لهم الأوامر الفورية بتعقب القوة القرطاجية والالتحام معها فوراً ، هكذا دون استعداد نفسى أو بدنى ودون إفطار وأكملت تلك السرية القرطاجية بقية مهمتها باقتدار إذ قفلت عائدة إلى الضفة الأخرى من النهر حيث المعسكر القرطاجى وعبرت القوات الرومانية وراءهم وهى فى حالة مذرية من عدم الاستعداد كما أوضحنا. فى الوقت ذاته كانت القوات القرطاجية على أهبة الإستعداد وفى كامل عدتها وقد ضعت خطة تحسم المعركة لصالحهم بلا أدنى ريب . تمثلت ملامح هذه الخطة فى جعل قلب الجيش القرطاجى يتخذ الموقف الدفاعى للتصدى للقوات الرومانية المندفعة فى حين يقوم الجناحان بتطويق جيش العدو والإلتفاف من حوله وإلحاق الهزيمة به وأن يقوم " ماجو " - الشقيق الأصغر لهانيبعل ورفيقه فى حملته - بعمل كمين فى إخدود تغطيه شجيرات كثيفة ليظهر فى الوقت المناسب ويجهز على من يحاول الفرار . ونجحت خطة هانيبعل نجاحاً منقطع النظير وهلك فى هذه الملحمة ما يقرب من ثلثى القوات الرومانية المحاربة فى هزيمةمدوية لم يتوقعها الرومان ، ولم يتمكن سوى عشرة آلاف من الجيش الرومانى من الإفلات من هذا المصير المأساوى ووصلوا إلى " بلاكنتيا " وحملوا للرومان أنباء الهزيمة المدوية .

وبقدر ما مثلت هذه الهزيمة أمراً مفجعاً بالنسبة للرومان فقد كان لانتصار هانيبعل والقرطاجيين فعل السحر فى نفوسهم وأعطتهم

دفعة معنوية هائلة لاستكمال الإنتصارات بغية الثأر من روما والقضاء عليها وإذا قتها من نفس الكاس الذى تجرعته قرطاجة فى الحرب البونية الأولى. وفضلاً عن الاثر النفسى والمعنوى الهائل الذى تحقق لهانيبعل وجنده فإن المكاسب المادية على الارض كانت لا تقل شأناً. وتمثلت هذه المكاسب فى انضواء الغالة - الذين يضمرون كراهية بالغة للرومان - تحت لواء هانيبعل نكاية فى الرومان ورغبة فى الإنتقام منهم. وهكذا أصبحت منطقة " الغالة القريبة " فى شمال إيطاليا تحت سيطرة هانيبعل كقاعدة إمداد قريبة تمده بالمؤن والغذاء والسلاح والرجال وتجعل طريق الإمدادات من قاعدته البعيدة فى أسبانيا ميسوراً نسبياً لا يعوقه عائق ، رغم وجود جنايوس سكبيو بقواته قرب " ماسيليا " وفى مناطق من شمال أسبانيا للمناوشة ومحاولة الإعاقة .

- موقعة ترازمين وتوابعها ٢١٧ق.م.

رغم الهزيمة القاسية التى تكبدها الرومان فى " تريبيا" وما أثارته من مرارة فى نفوس الرومان إلا أننا اعتدنا أن نجد الرومان وقت المحن والشدائد أشد عزيمة وأصلب عوداً . إذ سرعان ما أعدوا للمواجهة المقبلة فى العام التالى إحدى عشرة فرقة يبلغ قوامها نحو مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) مقاتل . من هذه الفرق الإحدى عشرة بقيت خمس فرق لحماية روما وصقلية وساردينيا ، وأسندت فرقتان للقائد كورنيليوس سكبيو ليلحق باخيه فى أسبانيا لإلحاق أكبر قدر من الضرر ضد قاعدة القرطاجيين الاساسية هناك، وأرسلت الفرق الأربعة الباقية إلى شمال إيطاليا لمجابهة هانيبعل. وتم انتخاب القنصلين الجديدين " جنايوس سيرفيليوس " والقائد والزعيم الشعبى " جايوس فلامينيوس " القنصل السابق عام ٢٢٣ ق.م. صاحب الإنتصارات على الغالة ومقدم مشروع توزيع الأرض العامة

فى شمال شرق إيطاليا وهو تربيون عام ٢٣٢ ق.م. الذى كان مناوئاً لرجال السناتو وانتقدوا انتخابه للقنصلية.

وقد ركز الرومان جهودهم على حماية قلب ووسط إيطاليا بعد أن فقدوا الأمل فى الشمال بعدهزيمة " تريبيا" وانضمام الغالة لهانيبعل . وقد توقع الرومان - بطبيعة الحال - أن يكمل القائد المنتصر هانيبعل مسيرته نحون الجنوب صوب روما. ووضع الرومان تصوراً لخط سيره نحو الجنوب بعد أن تقدم بقواته نحو بونونيا (بولونيا) وتوقعوا أنه إماأن يتحرك صوب الجنوب الغربى فيعبر أحد الممرات الجبلية العديدة للأبنين ويهبط على إترוريا وإما أن يتجه إلى الجنوب الشرقى نحو أريمنيوم (ريمينى) ثم يسير بطول طريق فلامينيوس . وبناءً على هذه الحسابات الواقعية أرسل السناتو القنصل فلامينيوس ليرابط عند " أريتيوم " (أرييذو Arezzo) لحماية الجانب الغربى المحتمل بينما بعثوا بالقنصل سيرفيليوس إلى أريمينيوم - وهى موقع استراتيجى حصين يقع عندالتقاء جبال الأبنين بالبحر الأدرياتيكى وتنتهى عنده السهول الشمالية - لسد الطريق على هانيبعل إذا هبط من جهة الشرق ، وعند المواجهة يمكن أن يطبق عليه الجيشان .

ولكن لم يرد بخاطر الرومان مطلقاً أن يسير هانيبعل فوق جبال الأبنين ذاتها، ولكن هذاهو ما فعله بالضبط خلافاً لكل حسابات وتوقعات العدو. فقد غادر قاعدته فى الشمال وألهب حماس جنوده وهو يمنيهم بنصر وفتح قريب وعبر الأبنين من ممر " كوليتا" وواجه مصاعب جمة فى أثناء سيره هو وجنوده فوق تلك الجبال خصوصاً عند المستنقعات التى نجمت عن فيضان نهر الأرنو عند منبعه فى تلك الجبال وكذلك ذوبان الجليد. وامتطى ظهر الفيل الوحيد الذى تبقى من قطيع الأفيال رغم معاناته الشديدة من الرمد وفقدان إحدى عينيه، ولكن رغم هذه

المصاعب الجمة عبر منطقة الأحراش والمستنقعات بجيشه فى أربعة أيام وتكبد قدراً من الخسائر. وبعدقسط من الراحة واصل سيره جنوبا وقد شحذ همم رجاله لتحقيق إنجازات مستقبلية وكان يقوم بتخريب ونهب المناطق التى يمر بها؛ ويُروى إن فيلامينيوس كان قدأصبح على علم بخط سير " هانيبعل " ولم يستجب لنصح بعض ضباطه بالتريث والإنتظار فى موقعه فى أريتيوم ثم الانضمام لجيش سرفيليوس والإطباق على هانيبعل بين الجيشين القنصليين من جهة والقوات المرابطة فى روما . وبدلا من ذلك قام فلامينيوس بتعقب خطى هانيبعل دون الالتحام معه أو تغيير الخطة خوفاً من مفاجآت هانيبعل وفكره غيرالتقليدى . لقدأرادأن يعرف محطة توقف هانيبعل ومكان معسكره ، وعلى هذا الاساس يتصرف ويضع الخطة بالتنسيق مع زميله.

وقد انتقدت تصرفات فلامينيوس فى هذا الموقف على أساس أنه بتتبعه اللصيق هذا لخط سير هانيبعل -رغم ضآلة قواته والتفوق الواضح لقوات فرسان هانيبعل - سيشكل خطراً داهماً عليه بل ولن يمكنه من تحقيق مهمة الاستطلاع والتجسس بصورة ملائمة . كما أن هانيبعل نصب للرومان شركا آخر حين جنح بجيشه فجأة عن الطريق المؤدى لروما واتجه صوب الشرق فى اتجاه بيروجيا لمحاذاة الساحل الشمالى لبحيرة " ترازمين " إلى أن وصل إلى ممر ضيق تحيط به بعض التلال باتجاه البحيرة باستثناء سهل صغير يبلغ طوله نحو ثلاثة أميال . وقدشكل هذا الممر الضيق والمحاط بالتلال ومدخله من السهل الصغير شكل حدوة حصان أوحت لهانيبعل بفكرة عبقرية ساعدت الظروف الجوية آنذاك على تحقيقها وجعلت التوفيق حليف هانيبعل . ففى ذلك التوقيت ساد المنطقة ضباب كثيف ساعد القائد القرطاجى على إخفاء تحركات قواته بدرجة عالية من السرية فوق التلال المحيطة ، إذ أخفى هناك قواته من رماة السهام والمشاة الخفاف والفرسان والغالة حتى تصدر

إليهـم الأوامـر بالهجوم فى الوقت المناسب. ووضع هانيبعل قواته من المشاة الثقيلة فـى مقدمـة السهل المؤدى إلى الممر الضيق على مرأى من القنصل فلامينيوس الـذى كـان يراقب قوات هانيبعل عن كثب . وهنا اندفع فلامينيوس فـى ذلـك الصباح الـذى أخفـى فيـه الضباب الـرؤية وكـان اندفـاع الطـابور الـرومانى حماسـياً مـتهوراً لم يـتدبر العواقـب وتظاهـر المشاة القـرطاجيون بـالتراجع أمـام اندفاعهم . ولكنها كانت خطة ذكية وتـراجعاً تكـتيكياً مقصـود بـه إيقـاع الطـابور الرومانى الضخم فى الشرك المنصوب وبلع الرومان الطعم ودخلوا بأرجلهم إلى مصيرهم المحتوم وهنا أعطـى هانيـبعل لقواتـه فـوق الـتلال الإشارة بـالهجوم وإذا بهـم يهجمون علـى الـرومان مـن كـل إتجاه وفـى نفـس الـتوقيت حيـث هـبطوا مـن مخابـئهم فـوق الـتلال. وسـقط القنصـل فلامـيـنيوس صـريعاً بعـد كفاح مريـر وأحـاط القـرطاجيون بمقدمـة الجيـش الـرومانى المؤلفـة مـن ٦,٠٠٠ (سـتة آلاف) (مقـاتل) وأفـنوهم تمامـاً ، واكتمـلت الكارثـة حـين مـزق القـرطاجيون إرباً الفرقـتين التابعـتين للقنصـل سرفيليوس اللتين كانتا قـد انضـمتا لـبقية القـوات . ولم يحـاول الـرومان الـتخفيف مـن وطـأة الهزيمة الساحقة إذا أعلن أحد البراترة عن الهزيمة باقتضاب قائلاً :

" لقد هزمنا فى معركة كبيرة " .

وأكمـل هانيـبعل انتصـاره حـين أرسـل قـائد فرسـانه "مهـربال" ليتعقب مقدمة جيش القنصل سرفيليوس المؤلفة من ٤,٠٠٠(أربعة آلاف) فارس كانوا فى طريقهم نحو طريق فلامينيوس فأخذهم مهربال على غـرة وقضـى عـليهم . ولكـن مـا أدهش هانيبعل وفاجأه بشدة أن حلفاء رومـا فـى أومبريا وإتروريا - الذين الذين ظنّ أنهم سيرحبون به كمحرر لهـم مـن ربقـة الـرومان - أوصـدوا بوابـات مدنهـم دونـه ولم يرحـبوا بـه. ورغـم أن الطـريق نحـو رومـا كـان مفتوحاً أمامه بعد " ترازمين" إلا أنه

ادرك عبنية محاولة اقتحام روما نظرا لمناعة اسوارها وتحصينها وافتقاده لأسلحة حصار المدن لذلك اتجه صوب جبال " الأبنين " مرة اخرى ومنها إلى " بيلينوم" فى الشرق حيث نال هو وجنده وخيوله قسطاً من الراحة وبعدها اتجه غازيا وفاتحاً لسهول أبوليا فى الجنوب وقام بنهب وتخريب حدود مدن لوكريا وأربى ، ولكن تلك المدن حالت بينه وبين دخولها .

إن فاجعة ترازمين قد هزت الرومان بعنف وجعلتهم يلجأون إلى الإجراء الإستثنائى المألوف فى تلك الظروف القاسية والمتمثل فى تعيين ديكتاتور . فقد لقى أحد القنصلين حتفه وهو القنصل فلامينيوس ولم يتح للقنصل الآخر (سيرفيليوس) بعد الوصول إلى روما، وأحيل أمر اختيار الدكتاتور إلى الجمعية المئوية فاختارت رجلاً واسع الخبرة ويتسم بالحيطة والحذر وهو **كوينتوس فابيوس** ، كما قامت الجمعية المئوية هذه المرة - وليس الديكاتور نفسه كما جرى العرف - بتعيين مساعد الديكتاتور " قائد الفرسان " وهو فى هذه المناسبة ماركوس مينوكيوس روفوس . ولا ندرى سبب الخروج على المألوف فى هذه المناسبة من حيث الجهة التى تقوم بتعيين الديكتاتور (مجلس السناتوس) أو التى تقوم باختيار مساعد الديكتاتور (الديكتاتور نفسه). على أية حال فإن أول ما فعله فابيوس هو محاولة استعادة معنويات الرومان من خلال بعض الطقوس والشعائر الدينية ثم أعلن عن سياسته فى مجابهة الموقف العصيب : أن يتعقب خطى هانيبعل ويتفادى المعارك النظامية ما أمكنه إلى ذلك سبيلاً ، بمعنى اتباع سياسة حرب العصابات والكر والفر والاستنزاف ضد قوات هانيبعل وإرهاقه حتى تحقيق الفرصة السانحة لمجابهته . ومن هنا تولى فابيوس قيادة الجيش الرومانى واتجه نحو أبوليا وعسكر فى Aecae بالقرب من معسكر القرطاجيين فى Vibinum ، ولكنه تفادى الإلتحام معهم فى أية معركة

كبيرة . ولما لم يفلح هانيبعل فى الوصول إلى نتيجة حاسمة مع الرومان غير الراغبين فى الحسم أو غير القادرين عليه فى هذا الظرف اقتحم سامنيوم ومنها إلى بنيفنتوم إلى كامبانيا أحد أغنى أقاليم إيطاليا .

وفى ظل هذه الظروف العصيبة اتبع فابيوس سياسته المعلنة وهى تعقب ومراقبة تحركات هانيبعل وإعاقتها قدر الإمكان والحيلولة دون توجه هانيبعل صوب روما، وهى سياسة أثارت حنق الرومان -الذين كانوا يتحرقون شوقاً لنصر حاسم على عدوهم يعيد لهم هيبتهم - ولم تحظ بأى تفهم أو تعاطف فى تلك الظروف . وبعد فترة قضاها هانيبعل فى كامبانيا قام خلالها بأعمال عنف واستولى على غنائم . وحين اقترب الشتاء أراد أن يعود إلى أبوليا لقضاء الشتاء هناك . وهنا كانت الفرصة متاحة أمام الرومان لخوض معركة كبيرة ناجحة ضد هانيبعل لولا فرط تردد وتحفظ الديكتاتور فابيوس . فقد كان فابيوس قد استولى على الممر الذى يربط بين أبوليا وكامبانيا عبر الأبنين الذى استخدمه هانيبعل وكان ينوى العودة من كامبانيا عن طريقه، وهو ممر كاليكولا Callicula. وهذه كانت فرصة سانحة لإجبار هانيبعل على خوض معركة فى ظروف غير مواتية للفرسان القرطاجيين ولكنها مواتية تماماً للفرق الرومانية. وفى هذا الظرف لجأ هانيبعل إلى خدعة شهيرة حين أطلق فى جنح الليل ما يقرب من ألفين (٢,٠٠٠) من الثيران - وقد ربط فى قرونها حزماً مشتعلة من الحطب - فى إتجاه معسكر فابيوس فوق المرتفعات فانشغل حراس الممر بذلك المشهد وحاولوا تحرى الأمر وهم فى حالة من الدهشة والارتباك . وفى ظل هذه الحالة التى انتابت الرومان من جراء تلك الخدعة تمكن هانيبعل وقواته من التسلل إلى أبوليا - فى غفلة من الرومان - عبر جبال الأبنين وذلك للمرة الرابعة ذلك العام . وفى أبوليا استولى هانيبعل على بلدة "

جيرونيوم Gerunium " قرب لوكريا بعد أن عاد محملاً بالغنائم من كامبانيا دون أن تثور عليه أية مدينة هناك .

وعلى مدى تلك الفترة خلال ديكتاتورية فابيوس تنامت المعارضة فى روما لأسلوبه فى مواجهة هانيبعل ، ولكنه كان مؤمناً بصواب ما يفعل وأصم أذنيه عن انتقادات المعترضين . كما كان قائد فرسان فابيوس ومساعده مينوكيوس روفوس مختلفاً معه فى أسلوب مواجهة هانيبعل وكان يتوق لمعركة حاسمة . وحين استدعى فابيوس إلى روما لاجراء انتخابات القنصلية بالتنسيق مع مجلس السناتوس لاختيار قنصل بديل مؤقت اصر العامة الساخطون على أسلوب فابيوس على أن يشارك مينوكيوس روفوس فى القيادة كشريك لفابيوس فى الديكتاتورية. وانتهز روفوس الفرصة ليطبق رؤيته فى التصدى لهانيبعل بعد هذا الإنشقاق فى الرؤية بين القائدين الرومانيين . وقد استغل هانيبعل هذا الإنشقاق واستدرج القائد المتحمس روفوس - فى غياب فابيوس - إلى معركة كادت تؤدى إلى كارثة أخرى فى صفوف الرومان لولا أن وصل فابيوس فى الوقت المناسب وقدم العون لزميله وساعده على تفادى المواجهة المهلكة .

على أى حال سرعان ما انقضت فترة ديكتاتورية فابيوس وزميله ومساعده روفوس غير مأسوف عليها من جانب الرومان الذين كانوا يتوقون لنصر حاسم على عدوهم يشبع رغبتهم فى الثار ، ولما لم يتحقق شىء من هذا كله على يد الديكتاتور صاحب السلطات الاستثنائية الهائلة - فلم يكن من الرومان إلا أن أطلقوا على فابيوس لقب " المعطل Cunctator " . -على سبيل السخرية - لان كل ما أنجزه هو أنه أعاق هانيبعل بعض الشىء عن الوصو ل إلى روما وتحرش به

بعيداً عن حدودها. لكن الأيام سوف تثبت - بعدحين - صواب رؤية فابيوس وسوف يدرك الرومان بعد قليل حكمة فابيوس وبعد نظره .

- موقعة كاناى ٢١٦ ق.م.

مثل عام ٢١٧ كابوساً ضاغطاً على أنفاس الرومان وأعصابهم بعد هزيمة " ترازمين "الشهيرة وإخفاق الديكتاتور فابيوس " المعطل " فى تلبية آمال الرومان فى الثار من القائد القرطاجى الغازى. لكن بعد نهاية ديكتاتورية فابيوس المخيبة للآمال لم يلن عزم الرومان ولم تهن إرادتهم بل صاروا أكثر إصراراً على تعويض ما فاتهم . وأجريت انتخابات القنصلية عن عام ٢١٦ ق.م وأسفرت عن فوز القنصلين لوكيوس أيميليوس باولوس (أرستقراطى من الأشراف) وجايوس ترينتيوس فارو (" رجل جديد" من العامة) الذى كان يُنظر إليه من جانب الأشراف على أنه معارض للسناتو وأنه ابن جزار ، رغم تمتعه بصفات وخصائص متميزة .

وبعد الانتخابات وصلت إلى روما أنباء مفاجئة تفيد باستيلاء هانيبعل على موقع كاناى على الضفة اليمنى من نهر أوفيدوس فى أبوليا. وقد قرر القنصلان الجديدان خوض معركة حاسمة ضد هانيبعل فى ذ لك الموقع فسارا بجيشيهما القنصلين إلى كاناى بعد أن أعدا للأمر عدته بحيث فاقت قوات المشاة الرومانية نظيرتها القرطاجية ربما بمقدار الضعف (٨٠,٠٠٠ رومان أمام نحو ٤٠,٠٠٠ من القرطاجيين وحلفائهم فى حين فاقت أعداد الفرسان القرطاجيين نظيرتها الرومانية (١٠,٠٠٠ قرطاجيون مقابل ٦,٠٠٠ رومان) . وصلت القوات الرومانية إلى نهر أوفيدوس على الضفة اليسرى حيث عسكروا هناك على مقربة من كاناى ، ثم انتقل الرومان بعد ذلك إلى الضفة اليمنى فى أوائل شهر

أغسطس لملاقاة هانيبعل . واعتمد الرومان فى المقام الأول على قوتهم الضخمة من المشاة وجعلوا فرسانهم على الجناحين . ونظموا مشاتهم فى صورة طوابير ضخمة هائلة من المشاة ظنوا أنها بكثافتها وضخامتها وهجومها الساحق سوف تشق صفوف العدو وتقضى عليه. أما هانيبعل فإنه اعتمد - فى مواجهة هذا الحشد الهائل - على ثقته فى حسن تصرف قواته ومقدرتها على المناورة البارعة ومرونتها ونظم صفوفه فى شكل هلال . ورتب قواته على النحو التالى: الغالة والأسبان عندالقلب ، وجعل قواته من الأفارقة والقرطاجيين من خلفهم والخيالة الفرسان على الجناحين ، واعتمد على حد كبير على براعة وتفوق فرسانه : إذ قام الجناح الأيسر من الخيالة القرطاجيين بهزيمة الجناح الأيمن الرومانى المقابل لهم وبدأوا فى تطويق خلفية الجيش الرومانى من المشاة ، وأرسلت تعزيزات من الفرسان القرطاجيين لإكمال هزيمة الجناح الأيسر من الجيش الرومانى فى الوقت ذاته كان الطابور الرومانى الضخم الطويل من فيالق المشاة يضغط بشدة على قلب الجيش القرطاجى ويجبره على التراجع إلى الوراء ، ولو كان قلب الجيش القرطاجى قد انكسر وانهزم قبل أن يهاجم فرسان الجيش القرطاجى مؤخرة المشاة الرومان لخسر هانيبعل المعركة وربما الحرب كلها. ولكن تراجع قلب الجيش القرطاجى من الغالة والأسبان كان تراجعاً محسوباً وربما تكتيكياً يغرض استدراج معظم الجش الرومانى إلى الفخ - مثلما حدث فى ترازمين إلى حد ما - وصمد القرطاجيون حتى تحقق لهم ما أرادوا . فقد تحول هذا الهلال من قوات هانيبعل إلى تجويف أقرب إلى دائرة بدأت تحيط بالقوات الرومانية . واكتمل هذا الحصار والتطويق حين هاجم فرسان الجيش القرطاجى مؤخرة الجيش الرومانى. وهنا أطبق القرطاجيون على الرومان من كل جانب وأربكوهم تماماً ولم يعد لدى الرومان أية حرية فى الحركة. ومزقهم القرطاجيون إرباً وسقط عدد

كبير جداً من الجيش الرومانى كقطيع من الأغنام فى مجزرة هائلة لم يشهد لها تاريخ الحروب القديمة مثيلاً .

ويصور المؤرخ ليفيوس (49 –22.48) حجم الخسائر الرومانية فى هذه المعركة بأن حصيلة القتلى بلغت ٤٥,٥٠٠ قتيل من المشاة ونحو ٢٧٠٠ من الفرسان (نصف هذه الأعداد تقريباً من الرومان ونصفهم من الحلفاء) وكان من بين القتلى القنصل باولوس وعدد كبير من كبار القادة الرومان ومن القناصل والبراترة السابقين ونحو ثمانين من أعضاء السيناتو أو من شاغلى المناصب المؤهلة لهذا الشرف . هذا فضلاً عن أعداد الاسرى التى بلغت ثلاثة آلاف من المشاة وألف وخمسمائة من الفرسان ، وفرّ عشرات الآلاف من ميدان المعركة طلباً للنجاة فى أماكن عديدة فى أبوليا اختبأوا فيها .

وبعد هذه الهزيمة المروعة إلى أبعد الحدود بالنسبة للرومان كانت الأحوال فى روما قد بلغت حداً من الذعر والاضطراب يصعب وصفه بالكلمات على حد وصف ليفيوس الذى نقتبس كلماته ها هنا (22.54) على النحو الآتى :

" لم تكن قد وصلت إلى روما أنباء عن ناجين من المعركة من هؤلاء الذين تبقوا من المواطنين أو من الحلفاء، وكان لايزال يظن أن كلاً من القنصلين قد لقيا حتفهما مع كافة قواتهما وأن القوة العسكرية (الرومانية) بأسرها قد مُزقت إرباً. ولم يكن هناك مثيل للذعر والفوضى السائدة فى المدينة رغم أن العدو لم يكن داخل أسوار المدينة وبواباتها. إن الكتابة عن هذا الموقف أمر يفوق طاقتى ولذلك لن أحاول أن أصف ما تعجز كل ألفاظى أن تصل به إلى درجة الحقيقة. ففى العام الأسبق هلك قنصل وجيشه فى ترازمين ، أما الآن فقد تواترت

الأنباء لا لتنبئنا عن ضربة أخرى مماثلة، بل عن كارثة مضاعفة — عن سحق جيشين قنصليين ومقتل القنصلين وترك روما بلا قوة ميدانية وبغير قائد وبلا جندى واحد، ولتنبئنا بأن هانيبعل قد استولى على أبوليا وسامنيوم وعن اجتياح كل إيطاليا تقريباً . ليست هناك أمة فى العالم بأسره يمكن أن تبتلى بهذه السلسلة من الكوارث المروعة ولا تسحق ويتصدع بنيانها . إن ما حدث ليس له مثيل فى التاريخ: فالهزيمة البحرية عند جزر أيجاتيس التى أجبرت القرطاجيين على التخلى عن صقلية وساردينيا وأن يعانوا من دفع ضرائب وتعويضات لروما، وكذلك الهزيمة التى ستلحق بهانيبعل فى أفريقيا بعد ذلك، لا تقارن أى منهما بما كان على روما أن تواجهه فى هذا الموقف إلا فى أمر واحد وهو أنهم لم يحتملوا هذه الهزائم بمثل هذا القدر الفائق من الشجاعة " .

هكذا بدا الأمر فى روما بعد كارثة " كاناى " وكأنه النهاية المحتومة لروما التى لن تقوم لها قائمة بعد ذلك بحسابات المنطق المجرد ، ولكن الدرس المستفاد هو أن الأمم تنكسر يوم تنكسر (إرادتها) ، ولكن "إرادة " روما لم تنكسر بعد رغم الخطوب الماضية والقادمة ! حقاً " ضيقى أزمة تنفرجى " ، وصدقاً : " إن أشد ساعات الليل ظلمة" هى التى تسبق انبلاج الفجر" لننظر ماذا حدث من أمر روما بعد " كاناى " .

روما بعد كاناى .

رأينا وقع الصدمة المروعة لكارثة أو زلزال كاناى فى روما، ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل أن توابع هذا الزلزال ستكون أكثر مرارة وألما فى نفوس هؤلاء الرومان . فبعد أن وقعت الواقعة وجدنا مدن جنوب ايطاليا وقد قلبت ظهر المجن لروما وانقلبت عليها وأصبحت -

باستثناء المستوطنات اللاتينية هناك - حليفة لهانيبعل . فبعد هزيمة كاناى نجد كابوا وقد استولى الحزب المناوىء للرومان فيها على السلطة. وأصبحت المدينة من أهم حلفاء هانيبعل ، كما انضم إلى هانيبعل منطقتى لوكانيا وبروتيوم. ثم وصلت أنباء عن تمزيق فرقتين رومانيتين إرباً فى الغالة القريبة فى الشمال -= تحت قيادة بوستوميوس - بعد تعرضهم لهجوم مباغت ، وأن جمجمة القائد الرومانى استخدمت فى طقوس يؤديها كهنة قبائل البويي ، كما وردت أخبار عن قلاقل فى إتروريا . ودخل المعادلة المعقدة أصلاً عنصر خارجى كان حانقاً على روما ويتحين الفرصة للثار منها لتدخلها فى شئون بلاد اليونان إبان حملتيها على الليريا : إنه فيليب الخامس المقدونى. فقد استغل هذا الملك المقدونى الشاب ما حل بروما من كوارث على يد هانيبعل وحاول أن يطرد الحامية الرومانية المرابطة على الساحل الشرقى للأدرياتيك ويحل محلها قوة مقدونية ، ولكن فشلت حملة له لهذ الغرض عام ٢١٦ ق.م. ، وفى عام٢١٥ أبرم معاهدة مع هانيبعل لكى يوحد القائدان الكبيران جهودهما للقضاء على روما، ولو قدر لهذا التحالف أن يؤتى ثماره لهلكت روما لامحالة. كما انقلبت سيراكيوز فى صقلية على روما وتحالفت مع هانيبعل عام ٢١٤ ، وتلتها فى ذلك تارنتوم عام ٢١٢ ق.م .

وهكذا ادلهمت الخطوب حول روما وبدا كما لو أن النهاية قد دنت وأن النفق المظلم لايبشر بنهاية آمنة أو بقعة ضوء . لكن وسط هذا الظلام الحالك الذى فرضه هانيبعل على أعدائه بعد أن جرعهم مرارة الكاس من خلال أقسى الهزائم فى تاريخهم إذا بالإرادة الرومانية تخلق - وبهمة فولاذية - ضوءاً فى نهاية النفق وتلوح معه بشائر الصباح. إن موقف هانيبعل - رغم قوته وتفوقه الساحق - إنتابه نقطة ضعف وثغرة خطيرة. تتمثل هذه الثغرة الخطيرة فى أن المدن والمناطق العديدة فى جنوب إيطاليا التى تحالفت مع هانيبعل وتخلت عن روما قد طلبت

من هانيبعل أن يحميها من بطش روما وانتقامها وأن يزودها بحاميات وقوات تدافع عنها وهو ما استجاب له هانيبعل وأدى إلى بعثرة وتقسيم جيشه الذى كان من قبل كتلة واحدة متراصة - هذا فضلاً عما منى به من خسائر نسبية فى حروبه الشرسة ضد الرومان رغم انتصاراته المذهلة- ووضعه فى خندق الدفاع بعد أن كان يمتلك زمام المبادرة بالهجوم. ومن الجدير بالذكر أن هانيبعل كان يمكن أن يتوجه إلى روما مباشرة ويحاصرها ويحاول إسقاطها بعد كارثة " كاناى " ولكنه أحجم عن ذلك رغم تحريض قادته اياه على ذلك ، ربما لأنه كان يدرك عدم إمكانيته تحقيق ذلك عمليا لافتقاره لأدوات وأسلحة حصار المدن المنيعة مثل روما ودك أسوارها . لذلك كانت استراتيجيته تعتمد على أنه بعد اسقاط كافة حلفاء روما وتضييق الخناق من حولها فلا بد أن تسلم وتسقط من تلقاء ذاتها كالثمرة الناضجة. ويروى فى هذا الصدد أن " مهرا بعل " قائد فرسان هانيبعل فى بدايات الحرب البونية الثانية قد حث هانيبعل - فى رواية تنسب إلى كاتو الأكبر " الرقيب " - بعد هزيمة الرومان المدوية فى" كاناى " على فتح روما قائلاً :

" ابعث بى مع سلاح الفرسان (إلى روما) وفى اليوم الخامس ستتناول عشاءك مطهواً فوق الكابيتول " ، وقد ورد عند ليفيوس (22.51.4) انه حين أحجم هانيبعل عن ذلك وأعرض بصورة ملموسة فما كان من مهرابعل إلا أن قال : " إنك تعلم يا هانيبعل كيف تحرز انتصارا ولكنك لا تعرف كيف تستغله " .

بالإضافة إلى الموقف الدفاعى نسبياً وتفرق قوات هانيبعل بين مدن ومناطق جنوب إيطاليا استوعب الرومان من معاركهم المتلاحقة مع هانيبعل درساً بليغاً اعتزموا الاستفادة به. تمثل هذا الدرس فى عدم التهور والاندفاع وتعجل تحقيق النصر لأن ذلك عاد عليهم بعواقب

وخيمة وثمار مرة، لابد من التأنى والصبر ومواجهة تكتيكات هانيبعل الماكرة. لقد أدرك الرومان أنهم - رغم تفوق قوتهم وعتادهم - فإن مفاتيح قوة هانيبعل وكلمة السر فى انتصاراته كانت تكمن فى تفوق تكتيكاته وخططه القتالية البارعة، وحسن استخدامه لسلاح الفرسان، والمرونة الفائقة لتحركاته القتالية والتعاون بين عناصر جيشه ، وبراعته فى الإستغلال الأمثل لميدان المعركة والإستفادة من ظروف المكان. وفكر السناتو حرمانه من هذه المواهب والقدرات الفذة، ولكن كيف ؟ ببساطة من خلال حرمانه من الإلتحام بالرومان فى معركة نظامية واللجوء إلى استراتيجية بديلة تعتمد على النفس الطويل بالكر والفر وهو ما يؤدى إلى إرهاق هذا الخصم العنيد واستنزافه . ببساطة لقد اقتنع الرومان بأن تفكير الديكتاتور فابيوس " المعطل " عام ٢١٧ بعد موقعة ترازمين كان هو عين الصواب وأن استهجانهم له من قبل كان خطئاً فادحاً وأنه الأسلوب الأمثل الذى ينبغى اتباعه مع عدو ماكر مراوغ زادته الإنتصارات ثقة ورفعت معنوياته إلى عنان السماء .

وكان من أولويات روما فى ظل سياستها الجديدة أن تحبط **الأخطار الخارجية** التى قد تنجم عن أية تحالفات خارجية مع هانيبعل تزيد الطين بلة على روما أو من أى دعم خارجى يقوى مركزه، وهنا سنجد ثلاث جبهات : من الشرق حيث فيليب الخامس المقدونى؛ ومن الغرب حيث قاعدة القرطاجيين فى أسبانيا وحيث أخوه هاسدروبعل.. ومن الجنوب فى قرطاجة التى لابد وأنها ستتعاون وتتعاطف مع أبنها هانيبعل، لاسيما بعد انتصاراته المدوية على روما .

بالنسبة **لفيليب الخامس المقدونى** فإن تحالفه والمعاهدة التى أبرمها مع هانيبعل عام ٢١٥ ق.م. قد حددت إطار عمل كل من الطرفين وما يخصه من مصالح وكيفية التنسيق بينهما . لكن روما قاومت هذا

التحالف وخططت لإبعاد فيليب الخامس عن مسرح العمليات فى إيطاليا بجهود عسكرية ودبلوماسية. هذه الجهود العسكرية والدبلوماسية كان على رأسها ماركوس و فاليريوس لايفينوس Laevinus (براتيور للمرة الثانية عام ٢١٥ ثم قنصل عام ٢١٠). إذ تولى لايفينوس قيادة الحملة التى أعدتها روما ضد فيليب الخامس فى بداية ما يطلق عليه " **الحرب المقدونية الأولى** "[١٧] (٢١٤ –٢٠٥ق.م) وتمكن من طرد فيليب من البحر الأدرياتيكى كمرحلة أولى ، ثم تمكن بعد ذلك - بحكم معرفة روما الوثيقة بتكتلات وأحلاف العالم اليونانى إبان حملتيها على الليريا - من توريط فيليب فى تلك الحرب مع أطراف يونانية مناوئة حتى يشغله بالصراعات فى بلاد اليونان عن مؤازة هانيبعل والتدخل فى الشأن الإيطالى (الرومانى) . وسعت روما إلىإبرام تحالف مع أحد الأحلاف اليونانية هو الحلف الأيتولى المناوىء لمقدونيا وذلك عام ٢١٢ ق.م . وهو ما قلص من مميزات فيليب الخامس وحيَّده، كما انضم إلى هذا التحالف الرومانى-الأيتولى ملك مملكة برجامون فى آسيا الصغرى أتالوس الأول. هذا التحالف جعل فيليب يتدخل للدفاع عن مصالح حلفائه فى بلاد اليونان ضد هؤلاء الحلفاء الجدد كما تدخل للدفاع عن أعضاء الحلف الآخى ضد اسبرطه. وبذلك نجحت روما فى توريط فيليب فى الشئون اليونانية الداخلية التى انغمس فيها فيما سُمى بـ " الحرب المقدونية الأولى" وقد ظلت أحداث هذه النزاعات الداخلية اليونانية تتفاعل - مع انغماس فيليب فيها - حتى عام٢٠٦ ق.م. حين أملى شروطه على الأيتوليين، وفى عام ٢٠٥ ابرم صلحاً مؤقتا مع روما يعرف بـ " صلح فوينيكى " (وهى على الأرجح المدينة المعروفة بهذا الاسم على ساحل إبيروس غرب اليونان (فى الشمال من جزيرة كوريكيرا) .

وبهذا التحرك أتقت روما شر تحالف فيليب الخامس مع هانيبعل خلال الفترة العصيبة من حربها ضد هانيبعل ، وإن لم تغفر له هذا الموقف الخطير الذى ستحاسبه عليه في وقت لاحق .

أما عن **قاعدة القرطاجيين فى أسبانيا** فقدسبق أن رأينا كيف ترك القنصل بوبليوس كورنيليوس سكبيو عام ٢١٨ق. م فى بداية الحرب — بعد مسيرته بجيشه على ساحل الغالة وعلمه بصعود هانيبعل لجبال الألب - جيشا بقيادة أخيه جنايوس سكبيو للإغارة على قاعدة القرطاجيين فى أسبانيا وتعويق وصول الإمدادات منها إلى هانيبعل فى إيطاليا . وفى العام التالى ٢١٧ وبعد هزيمة "تريبيا "فى العام السابق لحق كورنيليوس بأخيه جنايوس فى أسبانيا، ولم يكن هدف الأخوين يقتصر على مجرد منع وصول الإمدادات من أسبانيا إلى هانيبعل فى إيطاليا وعدم توسع القرطاجيين فى أسبانيا إلى الشمال من نهر الإيبرو بل طمحا إلى تحطيم قوة الأعداء فى قاعدتهم الأسبانية .

وقد نجح جنايوس سكبيو منذ البداية فى إحراز بعض النجاحات الأولية فى أسبانيا واستولى على قاعدة القرطاجيين فى Cissa فى شمال اسبانيا من القائد القرطاجى " هانو" بعد هزيمته ، ورد " هاسدروبعل" إلى قاعدته وعاصمته فى " قرطاجنة " حين وصل - بعد فوات الأوان - لمساعدة " هانو " ، وبعدها شرع جنايوس فى غزو المنطقة الواقعة شمال نهر الأيبرو . وفى العام التالى ٢١٧ تمكن جنايوس سكبيو - بمساعدة ودعم من ماسيليا - من تحقيق انتصار بحرى على القرطاجيين على الساحل الشمالى الشرقى من أسبانيا عند مصب نهر الإيبرو. وكان من نتائج هذا الانتصار البحرى أنه أتاح للرومان فى شمال أسبانيا عبور نهر الإيبرو بأمان وقطع طريق وصول الإمدادات إلى هانيبعل فى إيطاليا بطريق البحر .

وبعد هذه المعركة البحرية وفى عام ٢١٧ أيضاً انضم بوبليوس سكبيو إلى أخيه جنايوس فى شمال أسبانيا وعزز القوات الرومانية هناك بـ ٨,٠٠٠ (ثمانية آلاف) محارب وعشرين سفينة حربية. وقد عزز الأخوان وجودهما فى شمال نهر إيبرو على مدى ما يزيد عن عام لم تحدث فيه مواجهات بين الطرفين وهو عام ٢١٦ كان خلاله هاسدرو بعل يقمع تمرداً فى الجنوب الأسبانى. وفى عام ٢١٥ تلقى هاسدروبعل إمدادات من قرطاجة فاتجه صوب الشمال لمجابهة الرومان قرب " إيبيرا " على نهر إيبرو. وحاول هاسدروبعل فى هذه المعركة أن يطبق أسلوب أخيه هانيبعل فى موقعة كاناى بأن يجعل قلب جيشه يتراجع تراجعاً تكتيكيا محسوباً فى الوقت الذى تقوم فيه سرايا وأجنحة الفرسان بتطويق الجيش الرومانى ، والإطباق عليه من كل إتجاه . ولكن قلب الجيش القرطاجى من المشاة الأسبان كان ضعيفاً هذه المرة وانكمش أمام الهجوم الرومانى قبل أن يتمكن الخيالة القرطاجيون من تطويق الجيش الرومانى . وعليه وقعت الواقعة وكان الانتصار الرومانى ساحقاً وفقد هاسدروبعل خيرة قواته من الأفارقة . وقد حفظت نتيجة هذه المعركة جزءاً من هيبة الرومان التى تبعثرت إثر موقعة كاناى وبددت بعضاً من الظلام الحالك الذى خيم على الحكومة المركزية هناك نتيجة لها.

لكن القرطاجيين سرعان ما تماسكوا ثانية وتمكنوا عام ٢١٢ من إعداد ثلاثة جيوش لهم فى أسبانيا تحت قيادة ماجو وهاسدروبعل أبناء هاملكار برقة وقائد قرطاجى آخر هو هاسدروبعل بن جيسجو أحد النبلاء القرطاجيين . ولكن فى ذلك العام ذاته تمكن الأخوان سكبيو من التقدم التدريجى نحو الجنوب وكلل مجهودهم بالسيطرة على مدينة ساجونتوم " - السبب المباشر فى اندلاع الحرب البونية الثانية - وصارت قاعدة ومقراً لحكمهما. وقد شجعهما هذا الإنجاز على تبنى سياسة هجومية فى العام التالى وقسما جيشهما إلى جيشين يقود كل واحد من

الأخوين أحدهما وتقدما جنوباً باتجاه عدوهما اعتماداً على دعم بعض حلفائهم من القبائل الأسبانية . ولكن هذا التقسيم للقوات الرومانية عام ٢١١ أضر أكبر الضرر بالقوة القتالية للجيش الرومانى وجعل كلاً من الجيشين على حدة أضعف من أن يقاوم الجيوش القرطاجية المتماسكة. وحين حاول جنايوس التراجع - بعد ان أدرك هذا الواقع - ضيق الفرسان القرطاجيون الخناق عليه إلى أن وصلت قوات المشاة ومزقت جيشه فى إيلوركى Ilorci فى منطقة سهلية تحيط بها الجبال فى المنطقة الخلفية الواقعية وراء قرطاجنة . وفى الوقت ذاته حاول أخوه بوبليوس اختراق مرتفعات Baetis ولكنه هلك هو وجيشه عند محاولته اختراق الحصار الذى ضرب عليه. وهكذا سقط الأخوان سكبيو قتيلين عام ٢١١ ق.م. ولم يتبق إلا جزء صغير من الجيش الرومانى عادوا إلى منطقة الإيبرو فى الشمال بعد الهزيمة الكبيرة التى مُنى بها الجيش الرومانى .

ولكن رغم هذه الهزيمة ومقتل القائدين الرومانيين الأخوين من آل سكبيو إلا أن محصلة ما قاما بها كانت لا بأس بها بالنسبة للجبهة الأسبانية. فقد ألحقا هزيمتين كبيرتين بالقرطاجيين: إحداهما هزيمة بحرية عند مصب الإيبرو عام ٢١٧ ، والأخرى برية أنجزها الأخوان فى " إيبيرا " عام ٢١٥ ق.م . ومن إنجازات الرومان كذلك السيطرة على " ساجونتوم" عام ٢١٢ والتقدم التدريجى نحو الجنوب . وفوق هذا كله فقد أعاق الرومان فى شمال اسبانيا وصول تعزيزات - بالبر أوالبحر - إلى هانيبعل فى إيطاليا .

ولكن رغم انتصار القرطاجيين على الأخوين سكبيو عام ٢١١ إلا أنهم لم يستغلوا هذا الإنتصار بصورة أفضل لمصلحة وطنهم، بل أن كلاً من القادة الثلاثة أراد أن يستغل هذا النصر لأغراضه الشخصية وهو ما أنقذ روما .

هذه هى أبرز الأخطار الخارجية التى واجهتها روما على مدى السنوات الخمس اللاحقة لموقعة كاناى عام ٢١٦ق.م. ولكن يمكن أن نضيف إليها محاولات القرطاجيين إرسال قوات إلى ساردينيا عام ٢١٣ بغية استرداد تلك الجزيرة التى احتلها الرومان عقب الحرب البونية الأولى. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ولم تجد شيئاً . وفى نفس ذلك العام ٢١٣ ق.م أرسلت قرطاجة قوة مؤلفة من ٢٨,٠٠٠ (ثمانية وعشرين ألف) مقاتل وعدداً من الأفيال الحربية إلى صقلية لدعم سيراكيوز التى انقلبت على الرومان، ولكن هذا الدعم القرطاجى لم ينجح فى منع القائد الرومانى ماركوس كلاوديوس ماركيللوس من إعادة الإستيلاء على المدينة والمملكة المتمردة فى سيراكيوز عام ٢١١ ق.م. كما سنرى بعد قليل.

نعود الآن إلى الأساليب التى اتبعتها **روما فى مواجهتها المباشرة مع هانيبعل** فى الداخل (فى إيطاليا وصقلية المجاورة) . رأينا الوضع اليائس للرومان بعد كاناى من هزيمة مروعة قاسية إلى تخلى الكثير من أقرب حلفاء روما عنها إلى حصار مضروب عليها من كل إتجاه. ولكن هذا الوضع خلق فى المقابل إصراراً وتحدياً رومانياً استفاد من بعض الثغرات الحالية والتجارب السابقة : فمن الثغرات الحالية تفرق قوات هانيبعل وتوزيعها على المدن التى تحالفت مع القرطاجيين ، ومن التجارب السابقة إدراك عدم جدوى الدخول فى معارك نظامية يستخدم فيها هانيبعل ذكاءه وعبقريته، والاستعانة باسلوب فابيوس فى حرب العصابات " وضرب العدو فى المكان الذى لا يوجد به " أى استغلال نقاط ضعفه والتركيز عليها واصطياده منها . لكن هذه السياسة الجديدة كانت تحتاج إلى يقظة وحرص ، كما تحتاج إلى صبر وجلد، ونفس طويل ، كما أن كلفتها المالية كانت باهظة من أجل إعداد وتعبئة قوات كبيرة تقوم بتنفيذ تلك المهام لاستنزاف هانيبعل وقواته . وقد

تحمل الرومان هذا المجهود الحربى بصبر وجلد ففى عام ٢١٥ق.م. تضاعفت قيمة ضريبة الأملاك tributum التى يدفعها الرومان، ولكن ذلك أدى إلى زيادة أعداد الفرق المقاتلة الرومانية حتى أصبح خمساً وعشرين فرقة عام ٢١٢ ق.م تحارب فى جبهات القتال داخل إيطاليا وخارجها. وهكذا كان قدر روما حتى يظهر فى صفوف الرومان قائد عبقرى يكون نداً لهانيبعل ويحرز نصراً نهائياً عليه.

لنتابع الآن واقع الحال وتطور سير الأحداث فى إيطاليا بعد كاناى: استولى هانيبعل على معظم إقليم كامبانيا باستثناء مدنها الساحلية ومدينة " نولا " الداخلية التى حافظ عليها القائد ماركيللوس وحماها من السقوط فى قبضة هانيبعل لأن ماركيللوس كان قد سيطر على موقع منيع يقع ما بين كابوا ونولا. وفى الوقت ذاته (عام ٢١٥) قام جراكوس على حماية ساحل كامبانيا قرب كوماى فى حين قام فابيوس بسد الطريق الموصل إلى روما عند" كاليس " فى كامبانيا.

وهكذا كان يحيط بمعسكر هانيبعل فى كابوا قوات رومانية من ثلاث جهات: كاليس إلى الشمال وكوماى إلى الغرب ونولا إلى الجنوب. لذلك نقل هانيبعل معسكره ومقر قيادته إلى مقر آخر هو جبل تيفاتا Mt. Tifata المجاور المشرف على كل الطرق والوديان الهامة. وقد حاول أن يوجه من مقره الجديد ضربات للرومان: لجراكوس فى كوماى وماركيللوس فى نولا لكنها لم تسفر عن نتائج حاسمة وصدها الرومان. لكن فى الوقت ذاته أحرزت قوات هانيبعل نتائج طيبة فى الجنوب وأكملت سيطرتها على بروتيوم كلها باستثناء ريجيوم. وأكدت روما ثقتها فى قادتها الميدانين فاختارت كلاً من فابيوس وماركيللوس قنصلين عن عام ٢١٤ ق.م.

وبعد أن أمضى هانيبعل الشتاء فى أبوليا عاد إلى جبل "تيفاتا"، واستدعى إليه "هانو" من جنوب إيطاليا ولكن جراكوس سد الطريق عليه وهزمه قرب نهر "كالور"قرب بنيفنتوم " مما اضطره للعودة إلى " بروتيوم" . وهاجم هانيبعل - بلا جدوى - كلاً من بوتيولى ونولا فكف عن عملياته الهجومية فى كامبانيا. وحاول هانيبعل مباغتة هيراكليا وتارنتوم فى الجنوب الشرقى ولكن هذه المحاولة أحبطت لوجود أسطول رومانى فى " برنديزيوم " أسرع لنجدتهما. بل أن الرومان بقيادة ماركيللوس تقدموا فى أبوليا جنوباً من " لوكريا" إلى هيردونيا، وهكذا ضاق الخناق تدريجيا على هانيبعل ليعتصم هو وجل قواته بمناطق الجنوب الإيطالى . ولكن رغم هذا التراجع القرطاجى من كامبانيا والتقدم الرومانى فى أبوليا إلا أن متغيراً آخر صب فى مصلحة هانيبعل فى صقلية وهو وفاة ملكها العجوز هيرون الثانى (ملك سيراكيوز) وانقلبت سيراكيوز على روما وأصبحت موالية لهانيبعل فارسلت روما إلى هناك القنصل ماركيللوس المشهور بكفاءته وبطولته للتعامل مع هذا الموقف العصيب كما حذا حذو سيراكيوز تارنتوم وعدد من المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا عام ٢١٢ ق.م .

وفى ذلك العام تغيرت الوجوه الحاكمة التقليدية فى روما بعد أن بدأ الملل والضجر يتسرب إلى نفوس الرومان من حرب الاستنزاف التى تولاها فابيوس (قنصل عامى ٢١٥ و ٢١٤) وابنه (قنصل عام٢١٣) ، وتغيرت القيادات العسكرية لإضفاء الحيوية على خطط الرومان والتعرف على رؤى جديدة . وانتخب لقنصلية ذلك العام القنصلان فولفيوس فلاكوس وأبيوس كلاوديوس بولكير (أى الجميل) ، ووصل عدد الفرق الرومانية فى ذلك العام — كما أسلفنا- إلى حده الأقصى وهو ٢٥ (خمس وعشرون) فرقة .

وفى ذلك العام بدأ أهل كامبانيا من حلفاء هانيبعل يتوجسون خيفة من نوايا روما فى مهاجمتهم ويطلبون من هانيبعل تزويدهم ببعض الإمدادات . وعليه أصدر هانيبعل أوامره لقائده هانو بإمداد الكمبانين بدعم من منطقة لوكانيا ، ولكن القنصل فلاكوس تصدى لهانو وأحبط وصول هذا المدد قرب " بنيفنتوم " . وكان هذا المدد فى طريقه إلى كابوا التى استشعرت الخطر . وبعد ذلك توجه هانيبعل بنفسه إلى كامبانيا ولكنه لم يستطع أن ينجز الكثير بسبب قلة الإمدادات من جهة وفرض الرومان حصاراً على كابوا وإحكامه بثلاثة جيوش رومانية وإحاطتها بصف من المتاريس المزدوجة. واستمر الحصار الرومانى مضروبا حول كابوا للعام التالى ٢١١ ق.م. وظل على راس القيادة هناك فلاكوس وأبيوس كلاوديوس وكلاوديوس نيرون. وقام هانىبعل بمحاولة أخيرة لإنقاذ كابوا حين هبط عليها فجاة بقوات منتقاة ، ولكن الإستحكامات الرومانية المنيعة حالت دون ذلك.

أما الورقة الأخيرة التى لجأ إليها لتخفيف الضغط عن كابوا فكانت الخطوة التى سبق له تفاديها من قبل وهى السير نحو روما نفسها لإجبار الرومان على سحب بعض جيوشهم من حول كابو للدفاع عن عاصمتهم وعلى هذا تقدم هانيبعل بقواته عبر سامنيوم إلى أقصى الشمال منها ثم جنح فجاة نحو الجنوب الغربى وعبر نهر الأنيو حيث أقام معسكره على بعد أربعة أميال إلى الشرق من روما وامتطى صهوة جواده نحو " بوابة كوللين " فى روما . وكانت لحظة فزع ورعب إذا لم يقترب غاز أجنبى إلى هذه المسافة من روما منذ نحو قرنين إبان غزو الغالة لروما . لكن الرومان استعدوا جيداً للدفاع عن مدينتهم وحصنوا أسوارها المنيعة وحشدوا العتاد والرجال . وتوقع هانيبعل أن يسحب الرومان جزءاً من قواتهم المرابطة حول كابوا - وهو هدفه الرئيسى من حصار روما ولكن خاب ظنه إذ ظلت الجيوش الرومانية تطوق كابوا من كافة

الإتجاهات. لذلك اتجه هانيبعل إلى أبوليا وترك كابوا تواجه مصيرها المحتوم بمفردها ، ولم يطل الأمر كثيرا إذ سرعان ما استسلم أهل كابوا بعد هذا الحصار الطويل من جانب الرومان. وبعد سقوط المدينة واستسلامها للرومان أعدم الرومان بعضاً من نبلاء المدينة ممن تحالفوا مع هانيبعل وأبقوا على لحياة بقية السكان ولم يدمروا المدينة وإن صادروا أرضها. كما جردوها من امتيازات الحكم الذاتى الذى كانت تتمتع به واصبح يديرها والى praefectus تعينه روما سنويا.

كان سقوط كابوا فى أيدى الرومان عام ٢١١ نقطة تحول كبيرة إذ أعقبه فى ذلك العام سقوط سيراكيوز فى صقلية فى أيدى الرومان. إذ سبق أن رأينا أنه عقب وفاة هيرون الثانى - حليف الرومان منذ بدايات الحرب البونية الأولى عام ٢٦٣ق.م - عام ٢١٥ انقلب خليفته هيرونيموس على الرومان واخذ صف هانيبعل عام ٢١٤ وعلى ذلك أرسل الرومان قائداً كبيراً هو **ماركوس كلاوديوس ماركيللوس إلى صقلية حيث فرض حصاراً قوياً على سيراكيوز**(٨) ٢١٣ - ٢١١ حتى اسقطها ودمرها تدميراً انتقامياً وإن أشبع ميله للثقافة اليونانية بأن حمل معه إلى روما عدداً كبيراً من الأعمال الفنية اليونانية من سيراكيوز . ومن الجدير بالذكر أن العالم الرياضى والمخترع الشهير أرخميدس(أرشميدس)من أبناء سيراكيوز قدلعب دوراً كبيرا ومشهوراً فى إطالة أمدالصمودضدالحصار الرومانى لوطنه وذلك باختراعاته الدفاعية العبقرية ضد الرومان، ويذكر أن الرومان لم يفلحوا فى اقتحام سيراكيوز واسقاطها إلا بعد أن قتلوا أرخميدس .

بعد هذه الإنجازات عام ٢١١ مرّ عام ٢١٠ دون أن تقع فيه أحداث مؤثرة من معارك كبيرة أو سقوط مدن أو خلافه باستثناء سقوط أحد قنصلى ذلك العام وهو جنايوس فولفيوس فى شرك نصبه له

القرطاجيون فى أبوليا ومقتله وقنع زميله المتحمس ماركيللوس - الذى أسقط سيراكيوز - بالعمليات الحذرة قرب بلدة فينوسيا. ولكن العام التالى ٢٠٩ شهد حدثا مهماً للرومان فى إيطاليا وهو سقوط "تارنتوم" فى أيدى الرومان بعد أن انقلبت عليهم عام ٢١٢ هى وعدد من المدن اليونانية فى جنوب إيطاليا . ففى ذلك العام ٢٠٩ تولى كوينتوس فابيوس (المعطل)القنصلية للمرة الخامسة (وكان رئيس مجلس السناتو فى الوقت ذاته) وتقدم بحذر نحو تارنتوم يؤازره أسطول بحرى وشنت بعض قواته هجوماً على كاولونيا فى الوقت الذى قام فيه ماركيللوس بمناورات ناجحة ضد هانيبعل . كل ذلك لتشتيت وصرف انتباه هانيبعل وهو ما أدى إلى سقوط تارنتوم فى أيدى الرومان بالغدر والخديعة قبل وصول هانيبعل لنجدتها .

وبعد سقوط تارنتوم انتقم الرومان منها ودمروها تدميراً ونهبوها بصورة كاملة مما أدى لتدميرها واضمحلالها لفترة من الزمن .

وهكذا بدأت روما تستعيد زمام المبادرة فى حربها ضد هانيبعل بعد أن تعرضت فى بداية الحرب لهزائم ساحقة كادت تودى بها . فها هم حلفاء هانيبعل وقد بدأوا يتساقطون واحداً وراء الآخر - بالقوة أو بالخديعة - أمام الجيوش الرومانية، وها هو هانيبعل يفقد أرضاً ويتراجع أمامهم إلى أقصى جنوب إيطاليا (لوكانيا وبروتيوم) وإن لم يُهزم فى أية معركة مشهودة .

لكن رغم تماسك الإرادة الرومانية أمام جبروت وعبقرية هانيبعل إلا أن الرومان كانوا يتطلعون إلى - وينقبون عن - شخصية قيادية يمكن أن تقف فى وجه هانيبعل إذ " لا يفل الحديد إلا الحديد" ويبدو فى الصفحات التالية أن سعيهم وراء هذا الهدف المنشود والأمل المرتقب قد بدأ يؤتى أكله .

- بوبليوس كورنيليوس سكبيو[19] (الإفريقى)

ينتزع النصر للرومان

لم يكن هذا المنقذ الذى توسم فيه الرومان خيراً وعقدوا عليه الآمال لتحقيق تلك الغاية الطموحة والهدف المروم سوى ذلك الشاب الذى أنقذ أباه القنصل بوبليوس كورنيليوس سكبيو قنصل عام ٢١٨ق.م. من القتل على يد القرطاجيين فى موقعة " تيكينوس " وهو الشاب ذو السبعة عشر ربيعاً الذى يحمل نفس اسم أبيه : " بوبليوس كورنيليوس سكبيو " . يبدو أن الأعين الرومانية المدربة الخبيرة قد التقطت هذه الموهبة والكفاءة النادرة منذ تلك اللحظة وظلت تتابع مسيرتها. ومن مآثره ومفاخره كذلك أنه استطاع بعد كارثة " كاناى " ، وهو شاب لم يبلغ العشرين بعد أن يلم شعث الناجين من القوات الرومانية من تلك المذبحة المروعة وأن يستجمع قواهم ويحشدهم . وكان من بين مؤهلاته التى لفتت الأنظار كذلك أنه يتمتع بمواهب وملكات وخصال أخرى. فضلاً عن الشجاعة والإقدام - كالثقة بالنفس والحكمة والإعتدال الذى اكتسبه من تعليمه اليونانى وحسه الرومانى، وهى صفات توهله للزعامة وتزرع الثقة فى نفوس جنده ومحاربيه. كما أن هناك عنصراً آخر مؤثراً فى هذا المقام وهو أن هذا الشاب قد اكتسب منذ عام ٢١٨ ق.م - منذ بداية الحرب البونية الثانية خبرة قتالية عالية فى الحرب ضد هانيبعل وأساليب القتال القرطاجية التى صارت مألوفة لديه ويستطيع ان يفكر فى كيفية التصدى لها وإبطال مفعولها . وفى عام ٢١١ ق.م. أضيف إلى هذه العناصر المرجحة للتركيز على هذا الشاب المقدام عنصر آخر سيعزز من فرص اختياره للمهمة التاريخية. ففى ذلك العام - كما رأينا - لقى أبوه وعمه حتفهما فى أسبانيا على يد هاسدروبعل

وقواته هناك بعد أن أبليا بلاءً حسناً في ساحة القتال خلال الفترة من ٢١٨ إلى ٢١١ ق.م. وهكذا فإن حماسة هذا الشاب لقتال القرطاجيين لابد أنها تضاعفت : فلن يثأر لروما - وطنه الحبيب - فقط بل سيثأر لأبيه وعمه كذلك .

لهذه الاسباب مجتمعة تحمس عامة الرومان لتعيين ذلك الشاب لقيادة القوات الرومانية التي ستواصل مهمة تضييق الخناق على قاعدة القرطاجيين في اسبانيا ومنع وصول الإمدادات منها إلى هانيبعل في إيطاليا وإسقاط تلك القاعدة إن أمكن . لكن المشكلة التي تحول دون تحقيق هذه الرغبة الشعبية العارمة هي صغر سن بوبليوس سكبيو (٢٥ عاماً) وعدم تولية أية مناصب عليا تؤهله لقيادة جيش روماني والتمتع بسلطان الإمبريوم الذي يلزم لحامله أن يكون قد اعتلى منصب القنصل أو البرايتور على أقل تقدير ، فلم يكن بوبليوس في ذلك الحين قد شغل سوى وظيفة الإيديل عام ٢١٣ ق.م.

ولكن أمام الحماس الشعبي والرغبة الجارفة من جانب العامة في إسناد هذا الشرف إليه أذعن مجلس السناتو وخرج عن القواعد المرعية والعرف المألوف في سابقة هي الأولى من نوعها ، وتغاضى عن المؤهلات الوظيفية المطلوبة للقيادة ما دام قد عثر على ضالته المنشودة التي قد لا تتكرر بسهولة . فقد عامله السناتو معاملة خاصة واعتبره مواطناً من طراز فريد وخاص privatus ، ومن هنا أنعم عليه بسلطان " الإمبريوم " الذي يمنح للقناصل السابقين عام ٢١٠ ق.م. وفوضه قيادة الحملة الرومانية إلى أسبانيا وكان مجموع قواته من الرومان وحلفائهم يربو على ٣٠,٠٠٠ شخص وأبحر سكبيو بقواته إلى أسبانيا في أواخر عام ٢١٠ ق.م.

وامضى سكبيو الشتاء فى تنظيم جيشه والتخطيط لواحدة من اكثر العمليات جسارة فى تاريخ الرومان، وكان الصيد ثمينا ويستحق العناء. لقد اعتزم سكبيو أن يوجه ضربة إلى قلب العدو وأن ينقض على قاعدتهم فى اسبانيا " قرطاجنة " ويستولى عليها. ولا شك أن استيلاء سكبيو على قرطاجنة - إن حدث - سيكون مغنماً هائلاً لايقدر بثمن: ففضلاً عن كونها قاعدة القرطاجيين ورمز دولتهم فى أسبانيا فإنها تضم كذلك الخزانة القرطاجية وعدة الحرب ورهائن من كافة أرجاء أسبانيا، وتعد من أفضل الموانىء فى غرب المتوسط، وستكون قاعدة انطلاق لسكبيو يخضع منها بقية الجنوب الأسبانى. وقد ساعدته الظروف على تحقيق هذا الهدف الكبير لأن القادة القرطاجيين الثلاثة الذين سبق لهم الإنتصار على أبيه وعمه وقتلهما عام ٢١١ لم يكونوا آنذاك (أوائل ٢٠٩) على وفاق وكان كل منهم يرابط بقواته بمنأى عن الآخر. فهاسدروبعل ابن هاملكار كان فى وسط أسبانيا، وهاسدرو بعل بن جيسجو كان قرب مصب نهر تاجوس غرباً، فى حين كان ماجو فى الجنوب قرب مضيق جبل طارق الحالى. وهكذا كان منهم على مسيرة نحو نحو عشرة أيام من قرطاجنة مما يتيح الفرصة لسكبيو فى انقضاض مفاجىء على المدينة قبل أن يأتيها المدد. وهكذا استيقظت حامية المدينة ذات صباح فى أوائل عام ٢٠٩ لتجد المدينة محاصرة ومطوقة براً وبحراً: إذا انطلق سكبيو بجيشه بسرعة كبيرة من الشمال إلى الجنوب حتى وصل حدود المدينة فى ذات الوقت الذى وصل فيه الأسطول الرومانى بقيادة لايليوس وطوق المدينة من الشرق والجنوب حيث كانت المدينة تقع على شبه جزيرة. وهكذا أطبق الجيش الرومانى على المدينة من ثلاث جهات حتى سقطت فى أيدى الرومان.

وهكذا فاز سكبيو بموقع محورى واستراتيجى فى أسبانيا. فبالإضافة إلى الكميات الهائلة من الغنائم والأموال والذخائر سيطر

الرومان على مناجم الفضة الغنية واقتطعوا جزءاً كبيراً من عوائد القرطاجيين واستطاع سكبيو بحسن معاملته للأسرى والرهائن الأسبان اكتساب ولاء الكثير من الأسبان للجانب الرومانى . وأمضى سكبيو بقية العام فى إعداد جيش نموذجى جديد وتدريبه على استخدام أسلحة جديدة كالسيوف الأسبانية والرماح الطويلة pilum التى ساعدت الرومان فيما بعد على إخضاع بقية العالم المتحضر . وعلى مدى ذلك العام انسحبت الجيوش القرطاجية الثلاثة بغير قتال من الساحل الشرقى الأسبانى واعتصمت بالمناطق الداخلية والجنوبية .

ولما كانت قرطاجنة تقع على الساحل الشرقى الأسبانى نحو الجنوب كان بإمكان سكبيو أن يشن هجوماً على القرطاجيين فى " باتيكا " إلى الغرب ، وسار إلى هناك فى أوائل عام ٢٠٨ ق.م. وكان هاسدروبعل بن هاملكار مرابطاً قرب " كاستولو" وتقدم نحو موقع منيع يقع جنوب شرق " بايكولا -Baecula، وكان يأمل أن يعوضه هذا الموقع الحين عن التفوق العددى للرومان . واحتل سكبيو التلال المقابلة وأسرع بمواجهة هاسدروبعل فى الموقع الذى اختاره الأخير خشية وصول جيش قرطاجي آخر لمؤازرة هاسدروبعل إن هو تباطأ ، وأسرع سكبيو بإرسال قواته ذات التسليح الخفيف لتطويق جيش خصمه ، ورغم أنها لم تنجز ذلك على الوجه الأكمل كما فعل هانيبعل فى كاناى إلا أنها حطمت جزءًا كبيراً من جناحى الجيش القرطاجي . و حين استشعر هاسدروبعل أن اليوم لم يكن يومه قام بتنفيذ انسحاب بارع من ميدان المعركة ومعه ما يزيد على نصف أو ثلثى جيشه . بعد ذلك تراجع هاسدروبعل ببقية جيشه إلى قلب أسبانيا ثم إلى الشمال وعبروا نهر الإيبرو ثم دلف بجيشه عبر الممرات الغربية لجبال البرانس فى طريقه إلى إيطاليا ليلحق بأخيه هانيبعل ليشد من أزره ويقوى ساعده لألحاق الهزيمة النهائية بروما .

ورغم أن انتصار سكبيو فى " بايكولا" لم يكن حاسماً لأنه لم ينجح فى تطويق جيش خصمه بالكامل وتحقيق انتصار ساحق عليه كما كان يفعل هانيبعل مع الرومان فى معاركه المشهورة المبكرة - بل سمح له بالإفلات من هذا الحصار ومعه معظم جيشه الذين انطلقوا نحو إيطاليا - إلا انه كان انتصاراً تكتيكياً موفقاً أعاد الثقة للرومان فى أمكانية تطوير أساليبهم القتالية وإضفاء قدر كبير من المرونة وعنصر المبادرة عليها .

وبعد توجه هاسدروبعل بجيشه إلى إيطاليا أرسلت تعزيزات من قرطاجة إلى أسبانيا تحت قيادة " هانو " الذى انضم إلى " ماجو " لمحاولة تعبئة وحشد مزيد من القوات فى " كلتيبريا Celtiberia فى شمال أسبانيا جنوب الإيبرو . لكن سيلانوس - زميل سكبيو فى قيادة الحملة والذى كان ينعم بالإمبريوم بصفته برايتور سابق وكان مرابطاً بتلك المنطقة - تصدى لهما وأوقع " هانو" فى الأسر ولكن " ماجو " أفلت وانضم إلى " هاسدروبعل جيسجو " قرب " قادس Gades " فى الجنوب عام ٢٠٧ . وتقدم سكبيو بقواته نحو الجنوب للإلتحام مع هذه القوات القرطاجية لكن هاسدروبعل جيسجو لم يعطه هذه الفرصة لمعركة حاسمة . ولجأ إلى اتباع نفس السياسة التى اتبعها فابيوس المعطل مع هانيبعل وهى سياسة الاستنزاف وحرب العصابات وتوزيع قواته على بلدان ومدن الجنوب الأسبانى. لكن هذا الموقف تغير عام ٢٠٦ وكان لابد من حسم الموقف خاصة بعد أن سمع " هاسدروبعل جيسجو " بهزيمة ومقتل " هاسدروبعل برقة " فى موقعة ميتاوروس " جنوب أريمنيوم شمال شرق إيطاليا فى العام السابق ٢٠٧ . ولذلك أقدم " هاسدروبعل جيسجو " و " ماجو " على خوض معركة حاسمة ضد قوات سكبيو فى " إيليا Ilipa " (قرب اشبيلية) . وفى هذه المعركة استفاد سكبيو من بعض أخطائه فى معركة " بايكولا" واستطاع هذه المرة تطويق جيش خصمه

بالكامل حين جعل جناحى جيشه من القوات الرومانية وقلب جيشه من الأسبان - عكس ما اعتاد أن يفعله من قبل - وتمكن من تحقيق انتصار ساحق ومزق خصومه إربا رغم إفلات القائدين " ماجو" و " هاسدرو بعل جيسجو " من هذا المصير .

كانت هذه هى المعركة الأخيرة الحاسمة ضد الجيوش القرطاجية فى أسبانيا . وبذلك دانت السيادة على أسبانيا للرومان وأمضى سكبيو بقية ذلك العام ٢٠٦ فى أجراء ترتيبات دبلوماسية مع البعض وفرض أجراءات عقابية على بعض الآخر فى تلك البلاد ليتأكد من إخضاع أسبانيا والقضاء على أى وجود قرطاجى بها وقد اتصل سكبيو وهو فى أسبانيا فى ذلك العام بأميرين من أمراء نوميديا المجاورة لقرطاجة وهما سيفاكس الذى كان حليفاً للرومان وسبب متاعب جمة لقرطاجة وبأمير نوميدى آخر هو ماسينيسا .

وهكذا أثبت بوبليوس كورنيليوس سكبيو أنه كان عند حسن ظن الرومان به وأنه كان جديراً بأن يخرق الرومان القواعد الدستورية المستقرة من أجل قيادته للحملة الأسبانية وهو شاب فى الخامسة والعشرين لم يتقلد سوى وظيفة " إيديل" لكنهم اعتبروه " حالة خاصة تستحق سلطان الأمبريوم البروقنصلى "privatus cum imperio"

نعود الآن إلى ما كان يجرى على أرض إيطاليا بين الرومان وهانيبعل فى فترة وجود سكبيو فى أسبانيا . رأينا كيف سقطت تارنتوم فى يد الرومان عام ٢٠٩ وبالغدر والخديعة حين نجح الرومان بقيادة "

فابيوس المعطّل" فى صرف وتشتيت جهود هانيبعل بمناورته على أكثر من جبهة . فى العام التالى ٢٠٨ انتخب لتولى منصب القنصلية كل من ماركيللوس - القائد المنتصر على سيراكيوز وقنصل عام ٢١٠ ق.م.و ت. كوينكتيوس كريسبينوس الذى

كـان مسـاعداً لماركيللـوس فـى اخضـاع سـيراكيوز ،. وأقـام القنصـلان معسكرهما قريبا من مقرقيادة هانيبعل فى الجنوب الإيطالى وربما كانا يعـتزمان - ولا سيما ماركيللوس - خـوض غمار معـركة حاسمة معه تتسـم بقـدر مـن المغامـرة. وبيـنما كـان القنصـلان يقومـان بعمـليات استطلاع للتعرف على وضع الخصم سقطا فى كمين أعده القرطاجيون فقتل ماركيللوس مـن فـوره وأصيب كريسبينوس بجراح خطيرة . وتوالت أنباء بعد ذلك عن هزيمة تعرض لها القائد الرومانى فى تارنتوم وقيام هانيبعل بطرد قوة رومانية كانت تحاصر " لوكرى " .

ولكـن الإنجـاز الرئيسى للرومان فى ذلك العـام كـان فـى أسبانيا حين تغلب " سكبيو" على هاسدروبعل برقة فى موقعة " بايكولا ".

وقـد سـبق أن رأينا كيف جمع هاسدرو بعل ما تبقى من قواته - حوالى نصف أو ثلثى جيشه - واتجه بها إلى شمال أسبانيا بغية الانضمام إلى أخيـه هانيـبعل فـى إيطاليـا وبـذل مـا فـى وسـعهما لإخضـاع رومـا . وسرعان ما وصلت الأنباء إلى روما عن مغادرة هاسدروبعل لأسبانيا وأنه يقضى الشتاء فـى بلاد الغال ومعه قرابة ٢٠,٠٠٠ (عشرون ألف) مقاتل . وفكر الرومان فـى أنـه مـن الصعب تعقب هاسدروبعل فى وادى الرون أو فـى سهول شمـال إيطاليـا، ورأوا أن من الأنسب الاستعداد والتأهب لملاقاته فى وسط إيطاليا . والحيلولة - باى ثمن - دون وصوله إلى أخيه فى جنوب إيطاليـا . وانـتخب لمناصب قنصلية عـام ٢٠٧ فـى رومـا للقيام بهذه المهمة القنصـلان كلاوديـوس نـيرون - الـذى حـارب فـى كـابوا وفـى أسـبانيا- وليفيـوس سالينا تور - الذى غزا الليريا عام ٢١٩ ق.م. وتحت قيادتهما ثلاثة وعشرون فرقة . وقد كلف نيرون بإعاقة هانيبعل حتى لا يتحرك شمالاً لملاقـاة أخيـه ، فـى حـين تـولى سالنياتور أمـر التصـدى لهاسـدربعل عـند وصوله .

وقد هبط هاسدروبعل فى مايو من عام ٢٠٧ على وادى نهر "بو" بعد عبوره الألب وجند نحو عشرة آلاف من الغالة . وبعد ذلك اتجه صوب الساحل الشرقى على بحر الأدرياتيك ومضى جنوباً حيث كان ساليناتور قد جعل فى مقدمة الجيش أربعة فرق على رأسهم اثنان من البراترة ، وتأخر هو وبقية قواته خلفهم إلى الجنوب لتقديم العون لهم عند الضرورة . والتقت الفرق الرومانية الأربعة بهاسدروبعل وقواته عند نهر " ميتاوروس " إلى الجنوب من أريمنيوم. وكانت الظروف قد خدمت الرومان كثيراً حين سقط فى أيديهم مبعوث هاسدروبعل الذين أرسله لأخيه هانيبعل لإخباره بخط السير ومكان لقاء الأخوين . وعلم الرومان من هؤلاء الاسرى المبعوثين أن الأخوين كانا يعتزمان اللقاء فى أومبريا . وهنا قرر كلاوديوس نيرون أن يلحق بزميله ساليناتور فى الشمال - دون أن يدرى هانيبعل — ليعزز القوات الرومانية التى ستواجه هاسدروبعل ، وأن يترك أربعة فرق فى الجنوب لتعيق تحرك هانيبعل نحو الشمال .

وفى غضون ستة أيام كان كلاوديوس نيرون قد وصل ولحق بزميله ساليناتور وأغلق الجيشان القنصليان الطريق الساحلى أمام هاسدروبعل وقواته . وبينما كان هاسدرو بعل وقواته فى وادى نهر ميتاوروس وقبل أن يعبر النهر إلى الجنوب باغتته الجيوش الرومانية وأرغمته على القتال بعد أن طوقت جيشه والحقت به هزيمة كبرى عند نهر ميتاوروس سقط فيها قتيلاً .

وهكذا انتصرت روما فى معركة نظامية مفتوحة ضد القرطاجيين لأول مرة منذ بداية الحرب واحتفل الرومان بهذا النصر احتفالا ضخما وساد شعور هائل بالارتياح وبأن روما قد بدأت تستعيد هيبتها فى إيطاليا ، وعمت روما فرحة طاغية . وعاد كلاوديوس نيرون إلى الجنوب ومعه رأس هاسدرو بعل التى ألقاها فى معسكر أخيه هانيبعل

فى لارينوم Larinum قرب الساحل الشرقى مقابل سامنيوم . وحين علم هانيبعل بهذه الأنباء المفجعة اضطر للأنسحاب جنوباً فى بروتيوم وحيداً بغير سند .

- المرحلة الأخيرة من الحرب : من بعد ميتياوروس ٢٠٧ حتى زاما ٢٠٢ ق.م.

سكبيو الأفريقى :

بعد ميتياوروس هدأت المعارك فى إيطاليا وبدأ التركيز ينصب على قرطاجة فى افريقيا التى أزمع الرومان بقيادة سكبيو غزوها. وعلى مدى عام ٢٠٦ لم يجرؤ الرومان على مهاجمة هانيبعل فى معقله الأخير فى بروتيوم رغم وجود ١٣ فرقة رومانية فى إيطاليا. ولكن فى العام التالى ٢٠٥ — خلال استعدادات سكبيو لحملته الأفريقية — تمكن سكبيو من انتزاع لوكرى فى بروتيوم من براثن هانيبعل . وقد حاولت الحكومة القرطاجية أن تبذل محاولة أخيرة لتقديم العون إلى هانيبعل حتى لا يجرؤ سكبيو على مهاجمة قرطاجة فى عقر دارها. وتمثلت هذه المحاولة فى أن كلفت ماجو - الذى غادر أسبانيا إلى جزر البليار بعد موقعة Ilipa عام ٢٠٦ - أن يبحر من جزر البليار إلى شمال إيطاليا بدعم من قرطاجة حيث استولى على جنوة وحاول ان يقوم بتعبئة قوات من الغالة والزحف جنوباً نحو روما. لكن هذه المحاولة لم يُكتب لها النجاح إذ لم يتحمس الغال لمؤازرته بعدما علموا بمصير هاسدروبعل وضعف موقف هانيبعل ، كما أن الرومان سدوا الطريق عليه نحو الجنوب عند أريمينيوم وأريتيوم. وبعد هذه المحاولات اليائسة من جانب ماجو تقدم بقواته من جنوة - وكان قد حشد بعض القبائل من ليجوريا وبلغ عدد مقاتليه نحواً من ٣٠,٠٠٠ رجل - إلى وادى نهر بو. وأرسل الرومان فرقة إلى جنوة وفرقتين

ضد قبائل البويي الغالية وتقدمت أربع فرق رومانية لملاقاته منطلقة من أريمينيوم. وبعد التحام قوى انسحب ماجو نحو الساحل وهو يلعق جراحه ، وصدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطاجة لكنه توفى فى طريق العودة. هذه الأحداث الأخيرة وقعت عام ٢٠٣ ق. م.

أما هانيبعل فقد سُدت السبل أمامه اعتباراً من عام ٢٠٥ ولم يعد يتلقى أى دعم - خصوصاً أن وطنه الأصلى قرطاجة قد أصبح عرضة للهجوم من الرومان - وبدأت المدن والبلدات الجنوبية التى كان يسيطر عليها ينفرط عقدها وتتساقط أمام الرومان. وهكذا تحولت آمال هانيبعل فى إسقاط روما وإخضاع إيطاليا إلى سراب لا يمت للحقيقة على الأرض بصلة. وأخيراً صدرت إليه الأوامر فى خريف عام ٢٠٣ بالعودة إلى وطنه قرطاجة للدفاع عنها أمام البطل الرومانى الصاعد سكبيو. وعاد هانيبعل أخيراً إلى قرطاجة بعد أن أمضى فى إيطاليا خمسة عشر عاماً أسقط خلالها عشرات المدن وألحق بالرومان هزائم مريرة وصرع العشرات من قادتهم المغاوير ولم يتعرض لهزيمة واحدة حقيقية فى ميدان المعركة. وخلال هذه الفترة كان تحت إمرته جيش يدين له بالولاء عاد معه إلى أفريقيا لخوض معركة الحسم الأخيرة . نهاية مؤسفة فى إيطاليا لبطل مغوار أذاق روما الأمرّين.

نعود الآن إلى بوبليوس كورنيليوس سكبيو بعد أن سيطر على أسبانيا وطرد القرطاجيين منها وأخضعها للنفوذ الرومانى بعد المعارك الكبيرة التى رأيناها هناك من ٢٠٩ إلى ٢٠٦ وما أعقبها من ترتيبات دبلوماسية وإجراءات عقابية. وعقب عودة سكبيو من أسبانيا إلى روما استقبل من قبل الجموع الفرحة استقبال الأبطال وانتخب قنصلاً عن عام ٢٠٥ وإن لم يمنح "موكب نصر" بصفته لم يكن قنصلاً رسمياً أثناء الحملة وإنما كان يحمل سلطان الإمبريوم بصفة استثنائية خاصة "Privatus cum imperio" .

وكان من الواضح أن سكبيو يريد استكمال ما بدأه ضد القرطاجيين بنقل الحرب إلى افريقيا[٢٠] . وحين نوقش هذا الأمر فى مجلس السناتو اعترض عليه "فابيوس" اعتراضاً شديداً ، ولكن تم الوصول إلى حل وسط تمثل فى السماح لأحد قنصلى عام ٢٠٥ بتولى القيادة فى صقلية مع الحق فى الإبحار إلى افريقيا إن رأى ذلك ملائماً . ولما كان زميل سكبيو فى القنصلية - ب. ليكينيوس كراسوس - كان الكاهن الأعظم ولا يجوز له مغادرة روما كان طبيعياً أن يؤول الأمر إلى سكبيو ، ولكن قصور الإمكانيات تحت يديه كان أحد العوائق فى وجه هذه الحملة: إذ سمح له فقط بقيادة فرقتين فقط فى صقلية من الفارين من كارثة "كاناى" عام ٢١٦ وتم تجريسهم وعقابهم بقضاء بقية خدمتهم فى صقلية. لكن سكبيو نجح - رغم ذلك - فى تعبئة سبعة آلاف من المتطوعين وأمده الحلفاء الإيطاليون بالمؤن والحبوب اللازمة لنحو ثلاثين سفينة ، هكذا أقدم سكبيو على مشروعه الطموح بتلك البداية المتواضعة، وكان إصرار سكبيو على ذلك المشروع نابعاً من اقتناعه - على النقيض من فابيوس - بضرورة أن تصبح روما قوة متوسطية كبرى لا تقتصر على إيطاليا ، وأن روما لن تكون آمنة إلا بعد إذلال قرطاجة وتقليم أظافرها.

واستمر سكبيو فى إعداد وتدريب وزيادة أعداد جيشه فى صقلية على مدى عام ٢٠٥ ، ولقى سكبيو دعماً وتأييداً من أهل صقلية - ذوى الأصول الإغريقية فى معظمهم - نظراً لميوله وثقافته اليونانية ومسلكه المتحضر ذى النزعة الإغريقية. وبعد هذا الإعداد المكثف انطلق سكبيو بقواته التى وصلت إلى نحو ٣٠,٠٠٠ (ثلاثين ألف) محارب على متن سفنه فى حماس هائل فى طريقهم لمجابهة الدولة القرطاجية فى أفريقيا فى ربيع عام ٢٠٤.

وهبط سكبيو بقواته قرب أوتيكا وكان يأمل أن تصبح قاعدة له وسرعان ما انضم إليه الأمير النوميدى ماسينيسا الذى سبق له أن تفاوض معه وهو فى أسبانيا، أما الأمير الآخر سيفاكس فقد تحالف مع القرطاجيين بعد أن تزوج من "سوفونيسبا" الجميلة ابنة القائد القرطاجى هاسدروبعل ابن جيسجو. وتقدم سكبيو نحو أوتيكا وأقام معسكره على أحد التلال خلف المدينة، واستعدت قرطاجة لمقاومة الحصار وطلبت العون - وهى منزعجة من تداعيات الأحداث - من سيفاكس وهاسدروبعل. وبعد تحقيق سكبيو وماسينيسا لنصر جزئى على هانو ابن هاسدروبعل واصلا حصارهما لأوتيكا والضغط عليها ولكنها ظلت صامدة تقاوم حتى الشتاء، مما اضطر الرومان وحلفاءهم إلى التراجع خصوصاً بعد أن هددهم هاسدروبعل وسيفاكس.

وجرت بعد ذلك مفاوضات بين الطرفين حول تحقيق السلام بين الجانبين على أساس انسحاب القرطاجيين من إيطاليا فى مقابل انسحاب الرومان من حدود قرطاجة. لكن هذه المفاوضات كانت خدعة تكتيكية أراد سكبيو أن يطيل أمدها حتى يتعرف مبعوثوه على تفاصيل مواقع القرطاجيين ليستفيد منها فى مواصلة حربه. لذلك قطع سكبيو المفاوضات فى ربيع عام ٢٠٣، وشن هو وماسينيسا هجوماً مباغتاً على معسكرى سيفاكس والقرطاجيين وأشعلوا الحرائق فيها وحقق الرومان - بمؤازرة ماسينيسا - نصراً مشهوداً ألقى الفزع فى نفوس القرطاجيين بعد الهزيمة التى مُنوا بها رغم نجاح سيفاكس وهاسدروبعل فى الإفلات من مصير محتوم. لقد كانت ليلة مرعبة للقرطاجيين حسب وصف بوليبيوس وكان الانتصار الرومانى ساحقاً وأعطاهم زمام المبادرة الهجومية.

وبعد هذه الهزيمة ساد الفزع والذعر قرطاجة حيث عاود سكبيو حصاره لأوتيكا. ورغم ذلك فإن الجناح المتشدد فى قرطاجة الداعى لمواصلة الحرب كانت له اليد العليا وشرعوا فى تعبئة جيش جديد بعيداً عن أعين سكبيو ، وافلحوا فى إعداد ما يزيد عن عشرين ألفاً فى السهول العظمى (قرب سوق الكريميس) فى أعالى الباجراداس على بعد خمس وسبعين ميلاً من أوتيكا. وبينما هم يستعدون فى هدوء على هذا النحو داهمهم سكبيو بجزء من قواته يصل عددهم نحو إثنا عشر ألفاً وترك بقية جيشه لمواصلة حصار أوتيكا.

ورغم تفوق القرطاجيين فى أعدادهم إلا أن سكبيو لجأ إلى تكتيك بارع فى تنظيم وتوظيف قواته استطاع من خلاله تطويق القوات القرطاجية وأحرز عليها نصراً تكتيكياً كبيراً أثبت به مدى مرونة تحركات قواته من الفرسان وقدرات فرقه من المشاه ، كما أثبت استيعابه وفهمه لأساليب هانيبعل القتالية وخصوصاً ما فعله الأخير فى كاناى.

بعد هذا النصر استولى سكبيو على تونس على بعد خمس عشر ميلاً من قرطاجة وسيطر على خطوط اتصالات القرطاجيين البرية. فى الوقت ذاته تولى لايليوس زميل سكبيو فى القيادة وماسينيسا ملاحقة سيفاكس حتى حدود بلاده نوميديا والحقوا به هزيمة قرب كيرتا (قسنطينة شرق الجزائر) واستولوا عليها ووقع سيفاكس أسيراً فى قبضتهم وتجرعت زوجته سوفونيسبا الجميلة السم وانتحرت. وهنا تحرج الموقف فى قرطاجة لدرجة كبيرة ولم يكن هناك مفر من استدعاء هانيبعل من جنوب إيطاليا للدفاع عن وطنه. لكن الكلمة العليا كانت - فى هذا الوقت اليائس - لأنصار السلام القرطاجيين من التجار وملاك الأرض وسعوا إلى التوصل إلى اتفاق سلام مع الرومان. وفى هذه

الظـروف كـانت الفرصـة سـانحة أمـام سـكبيو لإمـلاء شـروطه عـلى القرطاجيين والتى تمثلت فيما يلى :

- ضـرورة إخـلاء القرطاجيين لجنوب إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا والتنازل عن أملاكهم هناك.

- تسليم أسطولهم الحربى للرومان باستثناء عشرين سفينة .

- دفع تعويض قدره خمسة آلاف (٥٠٠٠) تالنت.

- الاعتراف بسلطان ماسينيسا فى نوميديا (الغرب) وبالحكم الذاتى للقبائل المحلية فى ليبيا وموريتانية إلى الشرق.

وقد قبلت قرطاجة هذه الشروط التعجيزية القاسية التى كبلتها وقيـدت تجارتها وجعلت منها - فى واقع الأمر - دولة عملية للرومان. وتم التوصـل إلى هدنـة صـدّق عـليها مجلس السـناتوس بعـد بعـض التسـويف وذلك فـى شتاء عام ٢٠٣ - ٢٠٢ ق.م. وبدا كما لو كانت الحرب قد بدأت تضع أوزارها ، لكن عـودة هانيـبعل إلى وطنه قلبت الموازين ورفعت وتيرة حماس القرطاجيين الذين عادوا مرة أخرى إلى التشدد.

– موقعة " زاما " ٢٠٢ ق.م. ونهاية الحرب البونية الثانية لصالح الرومان

بينما كان مجلس السناتو الرومانى يناقش شروط السلام القاسية التى فرضها سكبيو على القرطاجيين كان هانيبعل قد هبط بقواته فى حضـروميتوم Hadrumetum عـلى السـاحل الشـرقى لقـرطاجة ومعـه جيشـه الـذى خـاض معـه المعارك الكثيرة وكان يدين له بالولاء . وكذلك جيـش أخيـه مـاجو بعـد أن لقـى الأخـير حـتفه . وعلى أثر عودة هانيبعل وجـنده ارتفعـت معـنويات القـرطاجيين وبـدأوا ينقضـون شـروط الهدنـة

المهينة وجددوا أعمالهم العدائية ضد الرومان فى ذات الوقت الذى صدق فيه السناتو على تلك الاتفاقية.

وقد كان رد فعل سكبيو على تلك الانتهاكات غاضباً وعنيفاً إذ إجتاح وادى الباجرادس ليعزل قرطاجة عن قاعدتها الاقتصادية. وطلب من ماسينيسا - الذى كان يشن حرباً ضد خصومه فى غرب نوميديا - بسرعة الإنضمام إليه ، فقد كان سكبيو فى حاجة ماسة لفرسان نوميديا. ومن ثم فإن هانيبعل تقدم بقواته من " حضروميتوم" إلى " زاما " فى الداخل إلى الغرب وكله أمل فى أن يقطع سبل الاتصال بينه وبين فرسان نوميديا القادمين إليه من الغرب عبر الصحراء. ولكن القوات الرومانية التقت القوات النوميدية عند "ناراجارا Naraggara " (سيدى يوسف). وبعد ذلك تقدمت تلك القوات المتحالفة وتقابل الجمعان (الرومان وحلفاؤهم النوميديون من جهة والقرطاجيون بزعامة هانيبعل من جهة أخرى) فى مواجهة حاسمة قرب "زاما" . وكان عدد المحاربين فى كل فريق يتراوح ما بين ٣٥ إلى ٤٠ ألف محارب مع رجحان كفة القرطاجيين إلى حد ما على وجه العموم وإن كانوا أضعف من الرومان فى سلاح الفرسان.

وقد نظم كل من الفريقين المتحاربين صفوفه على هيئة ثلاثة صفوف. فعلى الجانب القرطاجى وضع هانيبعل فى الصف الأول قواته من المرتزقة الأجانب فى الصف الأول مع ساتر من القوات الخفيفة والأفيال فى المقدمة ، وفى الصف الثانى جعل الجند المحليين الأقل خبرة من الليبيين والقرطاجيين ، أما الصف الثالث والذى كان يبعد عن الصفين الأول والثانى بمسافة فكان يتألف من الحرس القديم من المحاربين القدماء الذين شاركوا هانيبعل معاركه فى إيطاليا وقدموا معه ، وعلى الجناحين من هذه القوات من المشاه كان هناك الفرسان. أما الرومان فقد اصطفوا -

كما هى عادتهم - فى ثلاثة طوابير طولية وليست عرضية وعلى الجانبين من قوات المشاة تلك اصطفت أجنحة الفرسان الرومان والنوميديين المتفوقين على سلاح الخيالة القرطاجى. وكان سكبيو يعوّل على تفوق سلاح فرسانه الذى يمكنه التغلب على أجنحة الجيش القرطاجى من الفرسان ومن ثم يقوم بتطويق المشاة القرطاجيين وهو ذات الأسلوب الناجح الذى طبقه من قبل فى " بايكولا" و "إليبا" و " السهول العظمى Campi Magni " قرب وادى باجراداس - نقلاً عن أساليب هانيبعل فى ترازمين وكاناى . أما هانيبعل فكان يعلم ضعف سلاح فرسانه وربما أمرهم بالتظاهر بالفرار من المعركة حتى يسحبوا وراءهم الفرسان الرومان والنوميديين الذين سينشغلون بتعقبهم ويتركوا ساحة المعركة . وكان تفكيره يتجه - فى حالة نجاح هذه الخدعة - فى أن يلقى بكل ثقله من قوات المشاة - فى موجات متعاقبة - ضد سكبيو وقواته من المشاة الأقل عدداً ، وأن يحبط محاولة تطويق قواته من خلال ما ذكرناه من جعل حرسه القديم من محاربيه على مسافة إلى الوراء من صفوفه الأمامية بحيث لا يمكن تطويقها وبحيث يمكنها التدخل السريع فى حالة محاولة الرومان تطويق صفوفه الأمامية.

وقد بدأت المعركة الفعلية بهجوم تقدمته قوات الأفيال القرطاجية التابعة لهانيبعل ولكنه أُجهض ؛ إذ ارتدت بعض الفيلة مذعورة وانقلبت على أصحابها من القرطاجيين واندفعت فيلة أخرى فى الممرات الفاصلة بين الصفوف الرومانية الطولية وأُجبر بعضها على الإندفاع إلى الأجناب. وبعد ذلك اندفع الفرسان الرومان وطردوا أجنحة الفرسان القرطاجيين من ميدان المعركة وتعقبوهم ، وهكذا بقى المشاة القرطاجيون فى ساحة المعركة بغير أجنحة من الفرسان . لكن سكبيو أدرك أن الصف الثالث من صفوف مشاة هانيبعل (من المحاربين القدماء) ثابت فى مكانه على البعد ومن هنا أيقن استحالة القيام بعملية تطويق

لمشاة هانيبعل . وقد شنت قوات رماة الرماح (hastati) هجوماً ضاغطاً وشديداً على الصف الأول من المرتزقة القرطاجيين دفعهم إلى الأجناب لأن مقاتلى الصف الثانى من القرطاجيين والليبيين لم يتقبلوهم بينهم ، ثم اخترقت تلك القوات الرومانية الصف الثانى من صفوف المشاة القرطاجيين ، وبعدها التقط الطرفان انفاسهما لبعض الوقت ريثما يعيدان تنظيم صفوفهما . وقد جعل سكبيو جبهته الأمامية ومقدمة جيشه أكثر طولاً وامتداداً بأن جعل الصفين الرومانيين الواقعين فى المؤخرة يتقدمان للأمام وينضمان إلى جانبى قوات الـ hastate فى المقدمة. ولكى يحارب هانيبعل تلك الجبهة الرومانية العريضة صفَّ الناجين من قواته / الصفين الأول والثانى (المرتزقة والقرطاجيين والليبيين) على جانبى الصف الثالث المؤلف من محاربيه القدماء. هذا التنظيم الجديد للقوات القرطاجية لابد انه استغرق وقتاً طويلاً نسبياً ، ولابد ان سكبيو قد اتاح لهانيبعل هذه الفرصة املاً فى أن تعود قواته من الفرسان من مطاردة الفرسان القرطاجيين الفارين وتنضم إليه وتقوم بتطويق القرطاجيين من الخلف. وحين اخذ الجانبان أهبتهما للقتال التحما فى قتال حامى الوطيس ، وفى اثناء هذه المعركة الضارية كان الفرسان (الخيالة) الرومان قد عادوا وانقضوا على مؤخرة الجيش القرطاجى من الخلف. وكان لوصول هؤلاء الخيالة الرومان فى ذلك التوقيت اثر حاسم فى حسم المعركة لصالح الرومان وهو ما غيَّر وجه التاريخ لصالح الرومان وعلى حساب هانيبعل. لقد تفوق التلميذ " سكبيو " على الأستاذ " هانيبعل " فى نهاية المطاف.

لقد تحطم جيش هانيبعل فى " زاما " رغم انه هو استطاع الإفلات من هذا المصير وفرَّ إلى " حضروميتوم" . وقد ادرك هانيبعل - بعد كل ما حقق من انتصارات مدوية فى بداية الحرب - أن الدوائر قد دارت عليه وانه لا جدوى من مواصلة المقاومة التى قد تفضى إلى تدمير قرطاجة. كما ان سكبيو كان جاهزاً - هو الآخر - للتوصل إلى سلام مع

القرطاجيين من موقع القوة بعد كل ما أحرز من انتصارات ثار بها لشرف روما . فقد كان يعلم أن حصار قرطاجة يستلزم منه ومن روما جهداً طائلاً فى وقت أصبح فيه الرومان فى أمس الحاجة للراحة بعد هذا الصراع الدامى الطويل . كما أن سكبيو كان يهدف إلى تقليم أظافر قرطاجة ونزع سلاحها لا إلى تدميرها.

وعلى هذا تم التوصل إلى هدنة بين الطرفين مدتها ثلاثة أشهر بشرط أن تقدم قرطاجة تعويضات للرومان إذا ما انتهكت الهدنة وأن تقدم رهائن للتدليل على حسن النية وأن تمد الرومان باحتياجاتهم من الحبوب والرواتب خلال فترة الهدنة. وبعد ذلك تم التوصل إلى اتفاقية سلام بين الطرفين ذات شروط قاسية ومهينة للطرف المهزوم على النحو التالى :

- أن تحتفظ قرطاجة باستقلالها (الشكلى) وبحدودها داخل إطار " الخنادق الفينيقية " (وهو ما يساوى حدود دولة تونس الحالية حتى خليج قابس جنوباً) ، كما تحتفظ بسيطرتها على أسواقها التجارية.

- أن تعيد قرطاجة إلى ماسينيسا كافة أرضه وأملاك أسلافه .

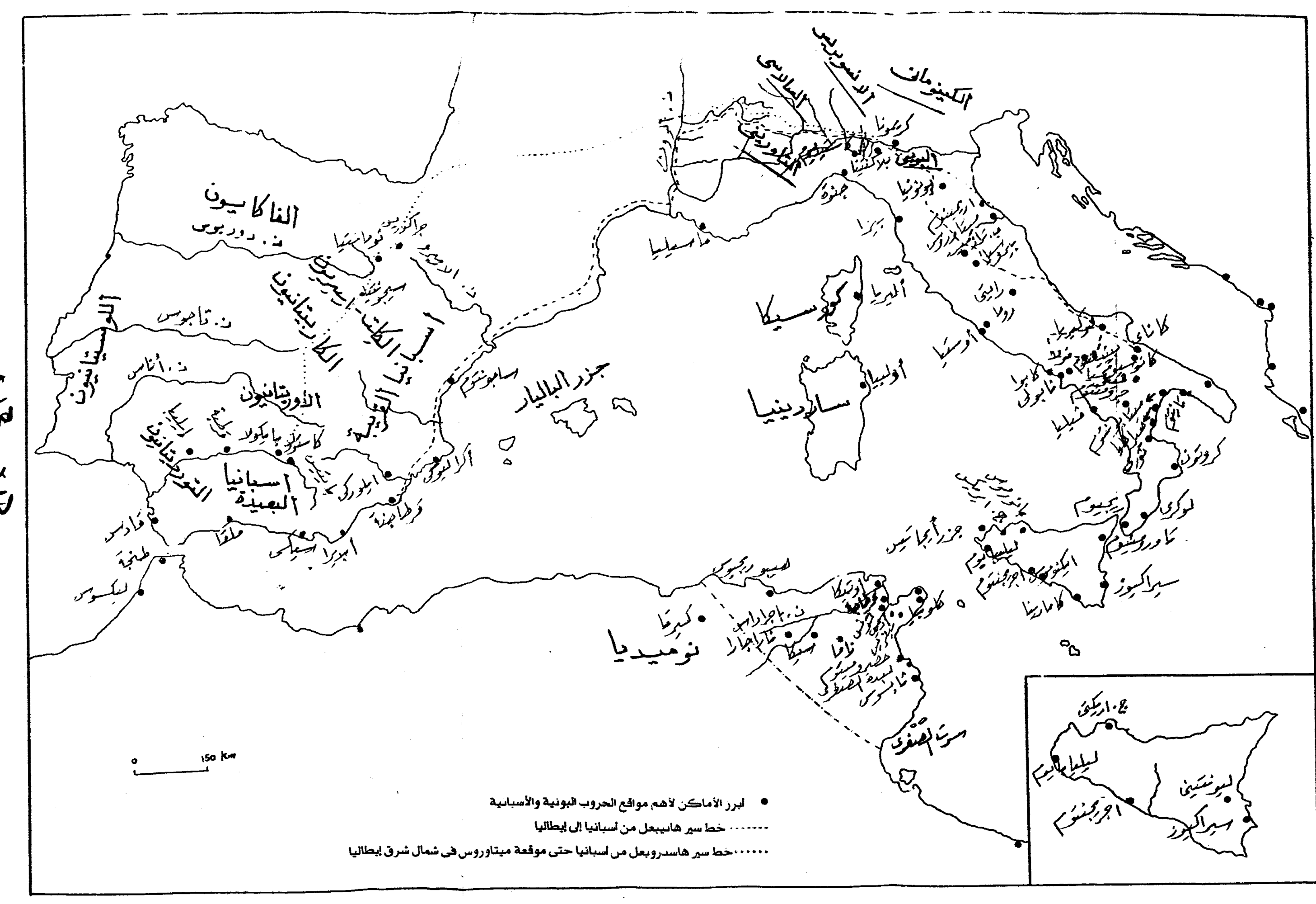
- ألا تشن قرطاجة حرباً خارجية على أى طرف خارج حدودها فى أفريقيا وألا تشن حرباً داخل حدودها إلا بإذن صريح من روما (كما لو كانت إحدى القوى الحليفة التابعة للرومان ، وهو قمة الإذلال لقرطاجة).

- أن تسلم قرطاجة للرومان كل ما لديها من أفيال حربية وكذلك معظم أسطولها من السفن الحربية وكذلك أسرى الحرب من الرومان .

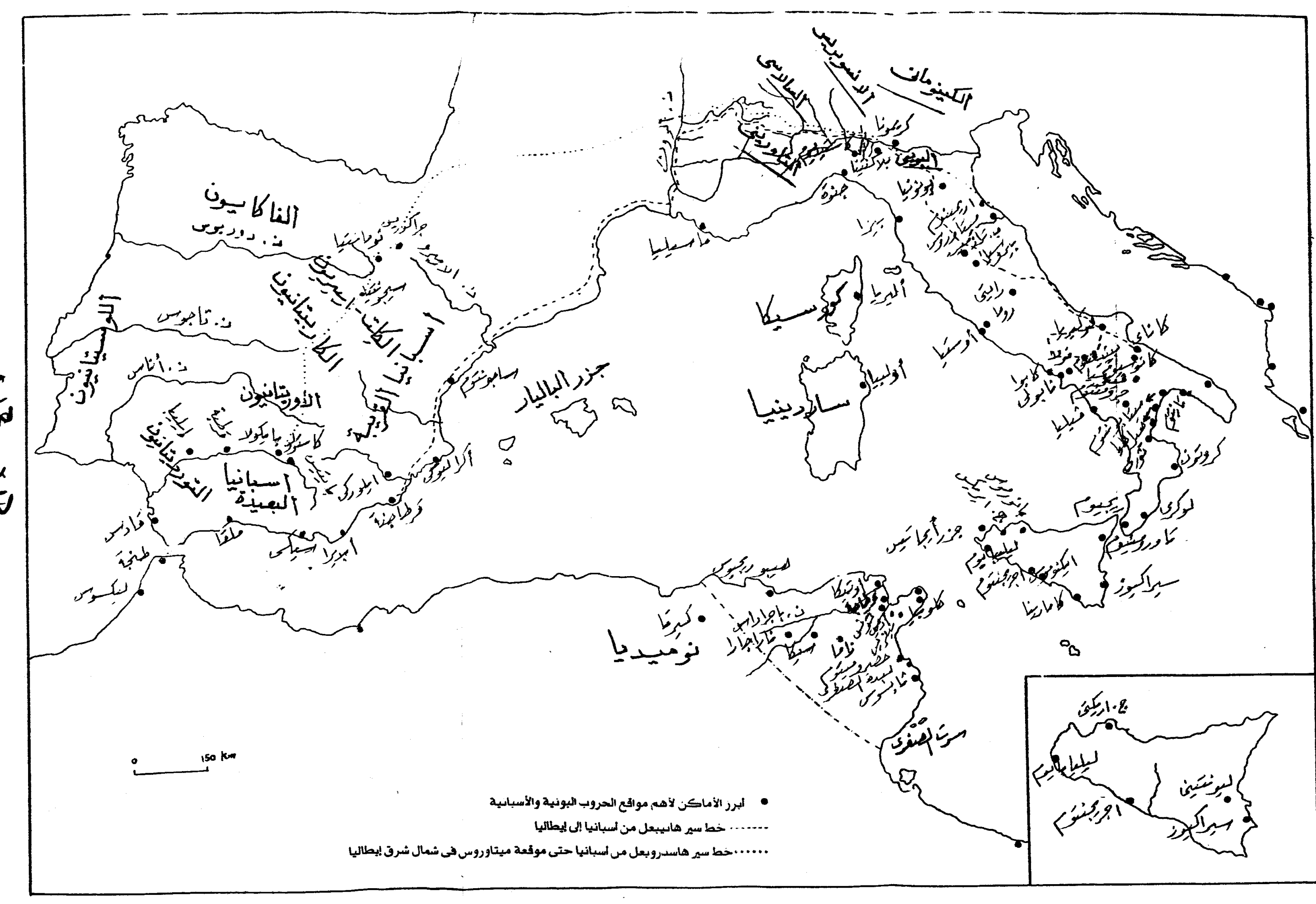
- أن تدفع قرطاجة إلى روما تعويضات حرب مقدارها عشرة آلاف تالنت من الفضة على خمسين قسطاً سنوياً على مدى خمسين عاماً وهو ما يجعلها ضعيفة وتابعة لروما على مدى هذه الفترة الطويلة. وقد حاولت قرطاجة عام ١٩١ ق.م. أن تسدد لروما بقية أقساط التعويضات دفعة واحدة لكن الرومان رفضوا المطلب القرطاجي!

وهكذا حسم الصراع في غرب البحر المتوسط بين القوتين الكبيرتين روما وقرطاجة لصالح روما بلا بلا أدنى منازع عقب موقعة " زاما " عام ٢٠٢ وأصبحت رومات سيدة غرب المتوسط ، وسنرى في الفصل التالي مصير القسم الشرقي من البحر المتوسط على مدى القرن الثاني ق. م.

أما في روما - وبعد انتصار زاما المشهود وبعد إبرام هذه الاتفاقية التي تضمن لروما كل شيء ولا تبقى لقرطاجة إلا شكليات هزيلة من السيادة المحلية - فقد صدق مجلس السناتوس على تلك الاتفاقية التي أملاها سكبيو . وعاد سكبيو إلى روما منتصراً مظفراً ومنح لقب "الأفريقي " نسبة إلى أفريقيا (قرطاجة) التي قهرها وانتصر عليها.



الفاكايون
ن. دوريوس
اللوسيتانيون
ن. تاجوس
ن. أناس
الأوريتانيون
أسبانيا القريبة
أسبانيا البعيدة
جزر البالبار
كورسيكا
ساردينيا
نوميديا
كرتا
جنوة
ماسيليا
روما
قادس
طنجة
جزر أيجاتيس
سيراكوز
اجريجنتوم
ليليبايوم
150 Km
● ابرز الأماكن لأهم مواقع الحروب البونية والأسبانية
------ خط سير هانيبعل من اسبانيا إلى إيطاليا
...... خط سير هاسدروبعل من اسبانيا حتى موقعة ميتاوروس فى شمال شرق ايطاليا



الفاكايون
ن. دوريوس
اللوسيتانيون
ن. تاجوس
ن. أناس
الكارپيتانيون
الأوريتانيون
أسبانيا القريبة
أسبانيا البعيدة
التوردیتانيون
جزر البالبار
كورسيكا
ساردينيا
نوميديا
كرتا
ألبا
أوستيا
روما
كاناى
كروتون
لوكرى
تاورومنيوم
سيراكوز
جزر أيجاتيس
سرت الصغرى
الكينومان
الانسوبريس
جنوة
ماسيليا
ساجونتوم
أكرا ليوكى
قرطاجنة
مالقا
طنجة
قادس
ليكسوس
150 Km
0
أبرز الأماكن لأهم مواقع الحروب البونية والأسبانية
خط سير هانيبعل من أسبانيا إلى إيطاليا
خط سير هاسدروبعل من أسبانيا حتى موقعة ميتاوروس فى شمال شرق إيطاليا
أجريجنتوم

THE PUNIC WARS

1	Mont Genèvre	6	Herdonia 212,210
2	Col du Clapier	7	Drepana 249
3	Mont Cenis	8	Segesta
4	Mons Tifata	9	Tyndaris 254
5	Messana	10	Mylae 260

NUMIDIA Regional name
Emporia Area name
AUSETANI Tribal name
Mountain
Pass
Mining area
Carthaginian city or ally outside North Africa in Sardinia and Sicily [illegible] before outbreak of First Punic War or Spain before outbreak of Second Punic War
Member of Roman confederacy [illegible] by Hannibal
Roman or Latin colony outside Peninsular Italy, with foundation date
Roman ally or base outside Italy
Other place
Battle: Roman defeat, with date
Battle: Roman victory, with date
217 Date of a major Roman gain or capture
(210) Date of a major Carthaginian gain or capture
Hannibal's route to Italy, 218 [illegible]
Hasdrubal's route to Italy, 208 [illegible]
Approximate line of Phoenician [illegible]

Sicily in the Second Punic War

C.E. Schultze

THE PUNIC WARS

1 Mont Genèvre
2 Col du Clapier
3 Mont Cenis
4 Mons Tifata
5 Messana
6 Herdonia 212,210
7 Drepana 249
8 Segesta
9 Tyndaris 254
10 Mylae 260

HISPANIA ULTERIOR
HISPANIA CITERIOR
VACCAEI
CELTIBERI
CARPETANI
ORETANI
TURDETANI
EDETANI
ILERGETES
AUSETANI
VOLCAE
ARVERNI
CAVARES
ALLOBROGES
TRICORII
TAURINI
SALASSI
INSUBRES
CENOMANI
BOII
CORSICA
SARDINIA
NUMIDIA
Emporia

Gades 206
Carteia 171
Ilipa 206
Italica 206
Corduba 168 or 152
Baecula 208
Castulo
Ilorci 212
Carthago Nova
Saguntum (219),214
Tarraco
Numantia
Gracchurris 179
Cremona 218
Placentia 218
Lacus Trasimenus 217
Metaurus 207
Cannae 216
Capua (216),211
Tarentum (212),209
Croton (215),203
Locri (215),205
Aleria 259
Agrigentum 262
Eryx 249 (244)
Thermae 252
Zama Regia 202
Campi Magni 203
Utica
Carthago 255
Tunis 256
Adys 256
Nepheris 147
Clupea 256 (255)

NUMIDIA — Regional name
Emporia — Area name
AUSETANI — Tribal name
Mountain
Pass
Mining area
Carthaginian city or ally outside North Africa [illegible]
Member of Roman confederacy [illegible] Hannibal
Roman or Latin colony outside Peninsular Italy, with foundation date
Roman ally or base outside Italy
Other place
Battle: Roman defeat, with date
Battle: Roman victory, with date
217 — Date of a major Roman [illegible]
(216) — Date of a major Carthaginian [illegible]
[illegible]

Sicily in the Second Punic War

C.E. Schultze

مراجـــع الفصول السابع والثامن والتاسع

(١) عن الفينيقيين وفينيقيا راجع :

Rivista di Studi Fenici; S Moscati, I Fenici, 1988*; M. Gras, P. Rouillard, and J. Texidor, L'Univers phenicien,* 1989*; C. Baurain and C. Bonnet, Les pheniciens,* 1992.

(٢) عن تاريخ قرطاجة راجع :

G. Picard, Carthage, 1956*; G. and C. Picard, La Vie quotidienne a Carthage,* 2 *ed.,* 1982 *(English translation of* 1[st] *ed.* 1961*); B.H. Warmington, Carthage,* 1960*; W. Huss, Geschichte der Karthager,* 1985*; Die Karthager,* 1990*; S.Laneel, Carthage: A History,* 1995.

(3) *Timaeus, F. Gr. H.* 566*, fr.* 60

(4) *H. H. Scullard, op. cit., p.* 157.

(5) *Ibid., p.* 158.

(٦) عن الوجود اليونانى فى صقلية والصراع بين الإغريق والفينيقيين هناك راجع :

- *W. G. Dunbabin, The Western Greeks,* 1948*; A. G. Woodhead, Greeks in the West,* 1962*; J. Boardman, The Greeks Overseas,* 1980*; L. – M. Hans, Karthago und Sizilien.* 1983

(٧) عن تفاصيل الحرب البونية الأولى : أسبابها ومقدماتها ونتائجها راجع:

- *B. M. Caven, The Punic Wars,* 1980; *J. F. Lazenby, The First punic War,* 1996; *CAH* 7 $^{2/2}$ (1989), *ch.* 11 (*H. H. Scullard*).

- وعن أهم مصادر الموضوع أنظر :

- *Polybius, I,* 5–88; *III,* 10; *Livius, Epit., XVI – XX*; 16–20; *Dio Cassius XI; Diodorus Siculus XXII – XXIV.*

(٨) عن الملك هيرون الثانى ملك سيراكيوز فى صقلية ، أنظر :

- *H. Berve, Die Tyrannis bei den Griechen,* 1967, *SS.* 462 – 71; *Konig Hieron II,* 1956; *J. Briscoe, CAH* 8^2, 1989, *ch.*3.

(٩) عن تاريخ البحرية الرومانية خلال العصر الجمهورى وبداياتها راجع:

- *J- H. Thiel, Studies on the History of Roman sea-power in Republican Times,* 1946; *and A History of Roman Sea – Power before the Second punic war,* 1954.

(١٠) عن صقلية تحت حكم الرومان راجع :

- *G. Salmeri, La Sicilia romana: aspetti e problemi,* 1992.

(١١) عن المرتزقة فى العصر الهللينيستى أنظر:

- *G. T. Griffith, Mercenaries of the Hellenistic World,* 1935.

(١٢) عن ساردينيا تحت حكم الرومان ، أنظر :

P. Meloni, La Sardegna romana, 1975; M.S. Balmuth and R. J. Rowland, Jr. (eds.), Studies in Sardinian Archaeology 1, 1982; M.S. Balmuth, (ed.) Studies in Sardinian Archaeology 2, 1986.

(١٣) عن نشاط القرطاجيين وتوسعهم فى أسبانيا راجع المصادر الآتية

- *Polybius II.* 1; 13; 36; *III.* 10–15; 17; 20– 30; 33. *Livius XXI.* 1–3 ; *Appianus, Iber.* 1–2 ; *Dio Cassius, XII.* 48; *Diodorus Siculus, XXV.* 9.

(١٤) عن حملات الرومان عن الليريا أنظر :

- *N. G. L. Hammond, JRS,* 1968, 1 *ff. (Roman Campaigns to* 168 *B.c.); J. Wilkes, The Illyrians,* 1992.

- وفى المصادر راجع :

- *Polybius II.* 2–12; *III.* 16; 18, 19; *Livius, Epit. XX; Appianus, Illyr.* 2, 7–8; *Dio Cassius, XII.* 49; 53.

(١٥) عن المحاولات الرومانية المتلاحقة لصبغ الغالة القريبة (حوض نهر "بو") بالصبغة الرومانية والحملات العسكرية الرومانية ضد الغالة . أنظر :

- *C. Peyre La Cisalpine gauloise de III^e au I^er siecle av. J. C.,* 1979; *R. Chevallier, La Romanisation de la celtique du Po,* 1983.

- وفى المصادر راجع :

- *Polyb. II.* 17–35; *Liv., Epit., XX; Dio Cass. XII.* 50.

(١٦) عن معارك هانيبعل وحربه المتواصلة ضد الرومان خلال الحرب البونية الثانية (٢١٨- ٢٠٢ ق.م.) أنظر:

- *J. F. Lazenby, Hannibal's War,* 1978*; J. Seibert, Hannibal,* 1993.

ومن المصادر حول الموضوع راجع:

- *Polyb. III.* 33–94; 100–118*; VII.*1*; VIII.* 26– 36*; IX.* 3–8; 22–26; 44*; X.* 1, 32; 33*; XI.* 1–3*; Liv, XXI.* 1–59; 61; 62*; XXII.* 1–18; 23–61*; XXIII.* 1–25; 30–39; 42–49*; XXIV.* 1–3; 7–20; 43–49*; XXV.* 1–22; 40*; XXVI.* 1–16; 21–24; 26–40*; XXVII.* 1–16; 20–29; 33–50*; XXVIII.* 9 – 12; 38 – 46*; XXIX.* 5 – 11 ; 13 – 23; 36 –38*; XXX.* 1– 2; 18 – 24 ; 26 – 28 ; 38– 45*; Appian., Hann. I-IX.* 61*; Dio Cass. XIII – XVII; Eutrop., III.* 7–23*; Flor., I.* 22*; C. Nepos- Hann.; Orosius IV.* 15*ff.*

(١٧) عن أحداث الحرب المقدونية الأولى فى المصادر راجع :

- *Polyb. VII.* 2–8*; VIII.* 5-9*;* 37*; IX.* 10*;* 27*; Liv. XXIV.* 40*; XXVI.* 24-26*; XXVII.* 29-33*; XXVIII.* 5-8*; XXIX.* 12*; Zon. IX.*3.

(١٨) عن حرب ماركيللوس فى صقلية لاستعادة سيراكيوز راجع :

- *Polyb. VII.* 2-8*; VIII,* 5-9*;* 37*; IX.* 10*;* 27*; Liv. XXIV.* 4-7*;* 21-39*; XXV.* 23-31*;* 40*; XXVI.* 40*; Appian., Sic.* 111*-V; Zon. IX.*3.

د.. حـ. سحـ. . بوبليوس كورنيليوس سكبيو (الأفريقى) وعبقريته العسكرية ورؤيته السياسية انطر

- *H. H. Scullard, Scipio Africanus, Soldier and Politican,* 1970.

- وعن النشاط العسكرى الرومانى فى أسبانيا وانتزاعها من القرطاجيين راجع المصادر الآتية :

- *Polyb. III.* 76; 95; 96; *IX.* 11; *X.* 2; 20; 34 - 40; *XI.* 20-23; *Liv. XXI.* 60; 61; *XXII.* 19 - 22; *XXIII.* 26-29; *XXIV.* 41-42; *XXV.* 32-39; *XXVI.* 17-20; 41-51; *XXVII.* 17-20; *XXVIII.* 1-4; 12-38; *XXIX.* 1-2; *Appian. Iber.,* 3-7; *Dio Cass. XVI; Eutrop.. III.* 15; *Zon., IX.*4; 7-10.

(٢٠) عن غزو سكبيو الأفريقى لقرطاجة وحسمه للصراع مع القرطاجيين فى موقعة زاما فى نهاية المطاف راجع :

- *Polyb. XIV.* 1-10; *XV.* 1-19; *Liv. XXIX.* 3; 4; 23-36; *XXX.* 3-17; 24; 29-38; *Appian., Lib, II.* 7-*IX.* 66; *Dio Cass., XVII; Eutrop., III* 20-23; *Zon. IX.* 12-14.

القسم الثانى

من ٢٠٢ – ١٣٣ ق.م.

الفصل العاشر

توسعات وفتوح روما فى شرق المتوسط

روما والممالك الهللينستية

هاهى روما قد أصبحت - غداة الحرب البونية الثانية التى خرجت منها منتصرة ظافرة بعد موقعة زاما - القوة الأولى بلا منازع فى عالم غرب البحر المتوسط وحطمت غريمتها القوية قرطاجة واستولت على أملاكها وتركتها على حالتها القديمة قبل التوسعات وقد ترنحت وصارت عزيز قوم ذل . هكذا تحققت المرحلة الأولى من حلم روما فى التحول إلى حلم الدولة الإمبراطورية صاحبة الحول والطول فى مقدرات العالم المسكون حول شواطئ البحر المتوسط الذى قامت على شواطئه أعرق حضارات العالم القديم. وفى ظل هذه الدفعة المعنوية الهائلة ونشوة انتصارات الرومان وجدت عقيدة التوسع الرومانية الراسخة تربة خصبة ومناخاً ملائماً للتمدد جهة الشرق هذه المرة.

سبق أن رأينا - فى حديثنا عن جغرافية **إيطاليا** - كيف أن شبه الجزيرة الإيطالية تكاد تشطر حوض البحر المتوسط إلى قسميه الغربى والشرقى .. كما رأينا أن الموقع والمناخ والثروة الطبيعية والتعاريج وكل العوامل الطبيعية تدفع بإيطاليا - التى صارت روما سيدتها ومالكه زمام أمرها - إلى جعل القسم الغربى من المتوسط على رأس قائمة أولويات سياساتها ومعاملاتها الخارجية، وهو ما تحقق عملياً على مدى الحربين البونيتين الأولى والثانية. ولكن على رغم انشغال روما بتحقيق مصالحها ومآربها فى غرب المتوسط على مدى معظم القرن الثالث إلا **أن الظروف قد فرضت عليها أن تتعامل مع أقرب الجيران لها من جهة الشرق وهم الإغريق.** صحيح أن هذا التعامل مع الإغريق كان فى ظروف قليلة وطارئة - مثلما حدث فى حروب **بيروس** ضد روما لمؤازرة تارنتوم ، وحملتى روما على **إلليريا** ونتائجها، ووقفة **فيليب الخامس** مع هانيبعل

ضد روما فى أوائل الحرب البونية الثانية - إلا أن هذه المواقف أثبتت للرومان مدى ما يمثله الخطر الكامن لبعض القوى اليونانية على مصالح روما - لاسيما فى أوقات المحن والطوارئ - وضرورة التصدى لهذه المخاطر فى أقرب فرصة.

كان من إيجابيات الحملتين الرومانيتين على إلليريا عامى ٢٢٩ صم ٢١٩ ق.م. أنهما فتحتا أمام روما بابا واسعاً للتعرف على آفاق مجهولة عن العالم اليونانى بتكتلاته وأحلافه والقوى المؤثرة فيه ومد بعض الجسور الدبلوماسية بين روما وتلك القوى. وكانت أولى ثمار هذه الاتصالات قد تجلت حين تمكنت روما من توريط الملك فيليب الخامس المقدونى فى "الحرب المقدونية الأولى" حين أزمع هذا الأخير التدخل ضد روما مع هانيبعل فى أعقاب هزيمة الرومان النكراء فى "كاناى" وتعريضهم لأحلك لحظات تاريخهم . وبتوريط فيليب الخامس بتلك الحرب مع بعض القوى اليونانية (٢١٥ - ٢٠٦ق.م) استطاعت روما أن تتفادى كارثة محققة إذا نجح التحالف بين فيليب وهانيبعل. وإذا كانت روما قد تمكنت بوسائلها وعلاقاتها الدبلوماسية من إحباط محاولة فيليب الخامس التدخل فى الشئون الرومانية مما جعلها تتفرغ لمحاربة هانيبعل والانتصار عليه فى نهاية المطاف بعد مخاض عسير للغاية، إلا أن روما لم تنس هذا الموقف العدائى من فيليب وأضمرت أن تصفى حساباتها المؤجلة معه حين تسنح الفرصة المواتية، وهاهى قد سنحت بعد "زاما".

وإذا كانت روما قد اعتزمت تصفية حساباتها مع مملكة مقدونيا - أكبر القوى اليونانية آنذاك- فينبغى التنويه إلى أن مقدونيا كانت آنذاك إحدى الممالك الكبرى **فى العالم الهللينيستى**[1] . والمقصود بالعالم الهللينيستى هو تلك الإمبراطورية الواسعة التى تمخضت عن فتوحات

الإسكندر الأكبر فى الشرق من حدود بلاد اليونان حتى الهند شرقاً (٣٣٤-٣٢٣ق.م.) وامتزجت فيها عناصر الحضارة الإغريقية (الهيللينية) بحضارات ذلك العالم القديم الذى بدأ يكتسب تلك الصبغة أو القشرة الهيللنية ، ومن هنا جاء مسمى الهيللينيستى أى "المتاغرق" . وبعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م. فى "بابل" بحمى الملاريا وهو شاب لم يتجاوز الثالثة والثلاثين آلت تلك الإمبراطورية الضخمة إلى قادة الإسكندر من المقدونيين الذين رافقوه فى حملته الكبرى إلى الشرق وأسهموا فى إسقاط الإمبراطورية الفارسية "الأخمينية" الضخمة ليحل "الاسكندر الأكبر" المقدونى فى حكمها محل الملك الفارسى الذى كان يلقب بـ "الشاهنشاه" أى "ملك الملوك". هؤلاء القادة من رفاق الإسكندر وخلفائه بعد وفاته حكموا ولايات هذه الإمبراطورية الكبيرة كـ "ولاة" تابعين لسلطة مركزية يشرف عليها احد القادة من خلصاء الإسكندر ويُدعى "برديكاس" فى أول الأمر ، ثم انشقوا بعد ذلك على السلطة المركزية واستقلوا بولاياتهم وحولوها إلى ممالك مستقلة عام ٣٠٥ ق.م. وأسس كل منهم أسرة حاكمة ملكية وراثية فى مملكته.

ودخلت هذه الممالك التى اقامها خلفاء diadochoi الإسكندر فى سلسلة من الصراعات فيما بينها بسبب تباين المصالح والمطامع ، واستمرت هذه الصراعات نحواً من ثلاثة عقود. وهكذا وبحلول عام ٢٧٥ ق.م. تقريباً برز على ساحة العالم الهللينيستى ثلاث ممالك كبرى تحمل كل منها اسم ذلك القائد المؤسس من قادة الإسكندر الذى أقام بنيانها. هذه الممالك الثلاث هى **مملكة البطالمة** - نسبة لمؤسسها الأول القائد بطلميوس بن لاجوس - وكانت تضم كلاً من مصر وقورينائية وجنوب سوريا (بما فيها الأردن وفلسطين والساحل الفينيقى) وبعض المناطق الساحلية فى آسيا الصغرى والجزر المتاخمة لها. والملكة الثانية هى **مملكة السليوقيين** - نسبة لمؤسسها القائد سليوقوس - وكانت عاصمتها أنطاكية فى شمال

سوريا . وتوسعت هذه المملكة فى ارجاء اسيا من سواحل اسيا الصغرى حتى حدود الهند (حدود الإمبراطورية الفارسية القديمة تقريباً قبل إسقاطها على يد الإسكندر).

اما المملكة الثالثة فهى **مملكة الأنتيجونيين** - نسبة إلى القائد أنتيجونوس(*) - فى مقدونيا والتى كانت تهيمن على مقدرات معظم دويلات المدن فى بلاد اليونان دون الحاجة إلى غزوها عسكرياً. وفى مرحلة لاحقة من القرن الثالث ق.م. برزت أسرة حاكمة ومملكة رابعة

(*) أنتيجونوس مؤسس الأسرة الأنتيجونية فى مقدونيا المقصود هنا هو أنتيجونوس الثانى جوناتاس (عاش فى الفترة من ٣٢٠ – ٢٣٩ ق.م. وحكم مقدونيا من ٢٧٧ إلى ٢٣٩ ق.م.) هو ابن ديمتريوس "قاهر المدن" وحفيد أنتيجونوس الأول (الأعور) أحد قادة الإسكندر الأكبر ووالى "فريجيا الكبرى" فى آسيا الصغرى عقب وفاة الإسكندر وكان يطمح إلى حكم الإمبراطورية الكبرى للإسكندر بالكامل لولا هزيمته ومقتله فى موقعة إبسوس الفاصلة عام ٣٠١ ق.م. وقد اكتسب أنتيجونوس الثانى جوناتاس شهرة ذائعة حين تمكن من الانتصار على القبائل الكلتية الغالية (الجالاتيين) الذين اجتاحوا شمال بلاد اليونان وآسيا الصغرى، وكان هذا النصر الذى أحرزه جوناتاس على الجالاتيين فى موقعة ليسيماخيا عام ٢٧٦ ق.م. ، ولما كان هؤلاء الجالاتيون قد هزموا وقتلوا قبل ذلك "بطليموس الصاعقة" الذى اغتصب حكم مقدونيا فقد آل إليه (جوناتاس) حكم مقدونيا من ذلك التاريخ وأسس الأسرة الحاكمة الأنتيجونية هناك. هذه الأسرة الأنتيجونية سيطرت جزئياً على مقدرات الأمور فى بلاد اليونان حتى عام ١٦٨ ق.م. وكان مؤسسها أنتيجونوس جوناتاس حاكماً قوياً وناجحاً وتصدى لمناوئيه من القادة والملوك الهللينيستيين الطامعين فى السيطرة على بعض مناطق بلاد اليونان. وفضلاً عن نجاحه السياسى تميز أنتيجونوس جوناتاس بشغفه بالشعر والفلسفة والتاريخ واجتذب إلى بلاطه عدداً من رجالات الفكر والأدب.

هى **مملكة الأتاليين** - نسبة إلى أتالوس الأول(**) أحد أفراد الأسرة الحاكمة التى كانت تحكم برجامون فى آسيا الصغرى لحساب السيليوقيين حتى عام ٢٤١ ق.م. ، وكانت عاصمة هذه المملكة هى مدينة برجامون التى كانت من أعظم وأجمل المدن اليونانية فى غرب آسيا الصغرى .

وعلى مدى القرن الثالث ق.م. استمرت الصراعات بين هذه الممالك الهللينيستية مما بدّل أحوالها قوة وضعفاً وصعوداً وهبوطاً ، كما نشبت صراعات وخلافات داخلية فى هذه الممالك وبين أعضاء الأسر الحاكمة من أجل الوصول إلى العرش مما أدى إلى تدهور أوضاع بعضها مع أواخر القرن الثالث قبيل اندلاع الحرب البونية الثانية بين روما وقرطاجة. ففى عام ٢٢١ ق.م. شهدت الممالك الهللينيستية الثلاث الشهيرة (**الأنتيجونية** فى مقدونيا - السليوقية فى سوريا وبابل - البطلمية فى مصر وبرقة وجوف سوريا) صعود ملوك ثلاثة من الشباب اعتلوا عروش تلك الممالك. ففى

(**) بعد وفاة الإسكندر الأكبر أسند خلفاؤه حكم برجامون فى آسيا الصغرى إلى فيليتايروس مع الإحتفاظ بالسيادة والهيمنة على تلك المنطقة للقائد سليوقوس الأول، وقد خلف فيليتايروس فى حكم برجامون ابن أخيه يومينيس الأول الذى حكم بصفة مستقلة عن السليوقيين لكنه توفى عام ٢٤٩ ق.م. وقد خلفه فى الحكم ابن عمه وابنه بالتبنى أتالوس الأول (٢٤١- ١٩٧ ق.م.) الذى صدّ هجوم بعض قبائل الجالاتيين فى آسيا الصغرى وحصر نفوذهم فى منطقة فريجيا بعد أن رفض أن يؤدى لهم بعض المبالغ التى اعتاد أسلافه تقديمها لهم. وقد أكسبه هذا النصر على الجالاتيين شهرة ومجداً وجعله أول من يتخذ لقب "ملك" من بين حكام برجامون وبذلك يعتبر – رغم كونه ثالث حكام برجامون بعد وفاة الإسكندر – مؤسس الأسرة الحاكمة الأتالية هناك. وبعد ذلك قويت شوكته وتمكن من الإستيلاء على مناطق كثيرة فى آسيا الصغرى كانت تحت الحكم السليوقى. لكن هذا الوضع كان مؤقتاً ولم يستمر كثيراً ، ففى عهد أنطيوخوس الثالث (الأكبر) السليوقى (٢٢٣ – ١٨٧) تمكن السليوقيون من استرداد معظم هذه الأملاك إن لم يكن كلها.

مقدونيا اعتلى العرش ملك شاب فى السابعة عشرة من عمره هو **فيليب الخامس (حكم من ٢٢١ إلى ١٧٩ ق.م.)** الذى أشرنا إليه فى سياق الحديث عن الحرب البونية الثانية وكذلك قبل صفحات قليلة ، وقد كان شاباً طموحاً يتسم بالحيوية وجلب على نفسه عداء وحنق الرومان كما أسلفنا. وقبل ذلك بعامين تقريباً ٢٢٣ ق.م. كان قد اعتلى العرش السليوقى كذلك شاب طموح آخر هو **انطيوخوس الثالث الأكبر** (حكم **من ٢٢٣ إلى ١٨٧ ق.م.**) وكان يناهز الثامنة عشرة ولكنه أثبت جدارة وقوة وقمع تمرد حكام بعض المقاطعات الشرقية فى مملكته وواصل توسعات المملكة واسترد كثيراً من أملاكها القديمة حتى وصل إلى حدود الهند كالإسكندر (لذلك اكتسب لقب "الأكبر" تشبهاً به) ووصل غرباً إلى السواحل الغربية لآسيا الصغرى بل وعبر بحر إيجه بقواته إلى بلاد اليونان وهو ما أفزع الرومان وجعلهم يتأهبون للتصدى له ودحره بعد أن تجاوز الخطوط الحمراء. وفى عام ٢٢١ ق.م. كذلك أرتقى عرش مصر (مملكة البطالمة) شاب ثالث هو **بطليموس الرابع فيلوباتور (المحب لأبيه)**. ولكن على عكس الشابين الطموحين اللذين ارتقيا عروش المملكتين المقدونية والسليوقية كان هذا الملك يمثل بداية الضعف فى حكم البطالمة وكان خاملاً وسكيراً ومنصرفاً إلى ملذاته ولذلك طمع الملكان الآخران فى الانقضاض على أملاك البطالمة.

وعلى مدى الفترة من ٢٢١ وحتى نهاية القرن الثالث ق.م. كانت روما غارقة حتى أذنيها فى أمر جلل كاد يودى بها وهو حربها الضروس ضد هانيبعل والقرطاجيين فى إيطاليا وأسبانيا وأفريقيا ، ولذلك لم يكن لديها الوقت ولا الجهد لكى تشغل نفسها بأمور العالم الهللينيستى إلا ما اتصل منها مباشرة بروما مثل توريط فيليب الخامس فى "الحرب المقدونية الأولى" لإبعاده عن إقحام نفسه فى ساحة الحرب فى إيطاليا نصيراً لهانيبعل . أما وقد انقشعت الغمة وانفرجت الأزمة وخرجت روما

من الحرب البونية الثانية ظافرة مهيمنة على مقادير غرب المتوسط كله بعد "زاما" سنة ٢٠٢ ق.م. دون منازع فلا بأس الآن من تسوية حساباتها مع فيليب الخامس ومن التعرف على أوضاع الشرق الهللينيستى فى منطقة شرق المتوسط لتحديد استراتيجيتها المقبلة وهى تيمم وجهها شطر الشرق. وسرعان ما علمت روما من خلال مبعوثيها وسفاراتها ومصادرها حقيقة الأوضاع وطبيعة العلاقات بين الممالك الهللينستية فى أواخر القرن الثالث ق.م. لا سيما بعد وفاة بطليموس الرابع ملك مصر وتكالب كلّ من انطيوخوس الثالث السليوقى وفيليب الخامس المقدونى على ما تبقى من أملاك البطالمة فى بحر إيجة وجوف سوريا فى ظل ارتقاء ملك طفل (بطليموس الخامس) عرش البطالمة منذ عام ٢٠٥ ق.م. ووجود أوصياء على العرش ضعاف فاسدين.

وبناء على هذه المعلومات بدأت روما ترتب خططها للتدخل فى ساحة شرق البحر المتوسط. ووضح من تتبع خطوط السياسة الرومانية آنذك أن روما كانت **مرحبة بالخلافات والصراعات بين تلك القوى** الهيللينيستية ولا سيما بين الملكين القويين **ولكن دون أن تسمح لأى منهما بأن يقوى بالدرجة التى يشكل بها خطراً على المصالح الرومانية** القادمة فى تلك المنطقة . وهذا يعنى أن روما سمحت لهما بإضعاف بعضهما دون أن يكون ذلك لحساب قوة أى منهما أو على حساب الأخرى أو على حساب روما ومصالحها. وإذا تجاوز أى من الطرفين هذا الخط كان ذلك بمثابة الفرصة السانحة لروما للتدخل وممارسة لعبة تكسير العظام ضد هذه الممالك تمهيداً لبسط نفوذها فى المنطقة. وكانت حجة روما جاهزة للتدخل وهى الدفاع عن مصالح حلفائها من المدن أو الجزر أو الممالك ذات العلاقة الطيبة مع الرومان أو التى تطلب حمايتهم بصورة أو بأخرى كما سنرى.

(أ) الحرب المقدونية الثانية (٢٠٠ - ١٩٦ ق.م)

بعد أن انتهت الحرب المقدونية الأولى التى ورطت فيها روما فيليب الخامس المقدونى بصلح "فوينيكى" المؤقت عام ٢٠٥ بين الطرفين اتجه فيليب إلى **الاستيلاء على بعض الأملاك البطلمية** التابعة للملك الطفل بطليموس الخامس فى **بحر إيجة وآسيا الصغرى** وذلك بالتواطؤ والتعاون بينه وبين أنطيوخوس الثالث، وإن كان هناك جدل بين الباحثين حول طبيعة ومدى هذا التواطؤ. هذا المد التوسعى لفيليب[٢] وما أحرزه قواده من إنجازات فى بلاد اليونان أثار انزعاج الكثيرين لاسيما فى برجامون ورودس. وازداد الأمر سوءاً عام ٢٠١ حين ضم فيليب جزر الكيكلاديس فى بحر إيجة وكذلك جزيرة ساموس فى الجانب الشرقى من ذلك البحر. ويبدو أن فيليب كان قد تكبد خسائر كبيرة قرب جزيرة خيوس فى اشتباك بحرى وبعدها **هاجم برجامون** وقام بإنتهاك وتخريب مناطقها الحدودية ، **ثم ألحق الهزيمة بأسطول رودس عند جزيرة لادى** قرب ميليتوس على ساحل آسيا الصغرى، **وفى خريف عام ٢٠١ أرسل أتالوس الأول ملك برجامون وكذلك حكام رودس سفراء إلى روما يطلبون منها العون ضد فيليب** الذى ارتكب فظائع ضد مدن مسالمة بلا مبرر.

وكان وصول سفراء برجامون ورودس إلى روما فى توقيت ملائم تماماً للرومان حيث كانوا قد انتصروا على غريمتهم العتيدة قرطاجة وكانوا يضمرون كرهاً وعداءاً لفيليب منذ أن أبرم إتفاقية تعاون مع هانيبعل عام ٢١٥ ق.م. فى أحلك لحظات روما . **لذلك أعلنت روما الحرب على فيليب** وأعلنت أن حربها عليه تهدف إلى حماية الإغريق من عدوان فيليب وضمان حريتهم ، وصدّق كثير من الإغريق هذه الدعاية الرومانية. وكان أول القادة الرومان فى تلك الحرب هو القنصل **سولبكيوس جالبا قنصل عام ٢٠٠ ق.م.** (وسبق اختياره من قبل قنصلاً

للمرة الأولى عام ٢١١ حيث شارك فى الحرب المقدونية الأولى ضد فيليب الخامس ولم يحرز نتائج حاسمة). وقد وصل جالبا إلى بلاد اليونان فى اكتوبر عام ٢٠٠ وأمضى الشتاء فى أبوللونيا . وفى عام ١٩٩ حاول جالبا غزو مقدونيا من جهة الغرب ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بفيليب وشق طريقه إلى قلب مقدونيا ولكن نفدت إمداداته مما اضطره إلى التراجع إلى الساحل. ورغم ذلك فإن الحملة نجحت فى إقناع الحلف الأيتولى - الذى سبق أن أرسل إليه سولبكيوس سفارة فى الشتاء السابق - بالإنضمام مجدداً إلى روما. **وفى عام ١٩٨ ق.م. انتخب تيتوس كوينكتيوس فلامينيوس قنصلاً** وكلف بمواصلة الحرب ضد فيليب بجيش جديد وسياسة جديدة. وقد تمكن من طرد فيليب من المنطقة الفاصلة بين ابيروس ومقدونيا **وتحرك نحو قلب بلاد اليونان رغم المقاومة الضارية** وارغم الحلف الآخى على التحالف معه كما اكتسب بعض الحلفاء الجدد . والتقى فلامينيوس بفيليب فى ذلك العام **وطلب منه سحب قواته من كافة ارجاء بلاد اليونان وهو ما لم يتقبله فيليب** فى ذلك الحين.

وفى ربيع عام ١٩٧ تحالفت معظم بلاد اليونان مع فلامينيوس فتمكن من ان **يلحق هزيمة حاسمة بفيليب** باستخدام تكتيكات قتالية متطورة وذلك فى **موقعة "كينوسكيفالاى" (أى رؤوس الكلاب)** فى إقليم تساليا. وفى تلك المعركة كان القائد القنصل السابق سولبكيوس جالبا قائداً لإحدى الفرق تحت قيادة فلامينيوس. وبعد انتصار الرومان فى تلك المعركة توصل الجانبان إلى **إتفاقية سلام بشروط الطرف الرومانى المنتصر** وهى إلزام فيليب الخامس بألا يمتد نفوذه خارج حدود مقدونياً، وان يدفع للرومان تعويضاً مقداره الف تالنت ، وأن يسلم معظم اسطوله ، وأن يقدم للرومان رهائن للتعبير عن حسن نيته وان يكون من بين الرهائن ابنه الأصغر ديمتريوس . وبعد ذلك **أصبح فيليب الخامس حليفاً للرومان وتعاون معهم وقدم لهم الخدمات والمساعدات** فى حروبهم

ومعاركهم ضد بعض القوى المناوئة لهم فى بلاد اليونان وكذلك ضد انطيوخوس الثالث وحلفائه من الإغريق (١٩٢ - ١٨٩ ق.م).

ومما هو جدير بالذكر ان **القنصل فلامينيوس** قد اعلن فى احتفال مهيب فى **الاحتفالات الإيسثمية فى برزخ كورنثة عام ١٩٦ تمتع الإغريق فى بلادهم بحرية كاملة غير منقوصة** وأقنع لجنة من السناتو كانت برفقته أن يوضع هذا التعهد الرومانى موضع التنفيذ طالما حافظ الإغريق على عهدهم مع الرومان فى مواجهة انطيوخوس الثالث الذى كان آنذاك على وشك العبور بقواته إلى بلاد اليونان (فى أوروبا) عبر بحر إيجه. كما تضمنت التسوية النهائية مع الإغريق شن حرب صعبة ضد **نابيس ملك إسبرطة** وقتذاك عام ١٩٥ بصفته زعيماً لحلف هيللينى كبير ولو من الناحية الإسمية. وبعد أن شنت روما الحرب عليه بقيادة فلامينيوس توصلت معه إلى إتفاق مماثل لإتفاقها مع فيليب الخامس ، إذ تركت له حكم اسبرطة وأملت عليه ان يقيم توازناً فى القوى بين حلفاء روما من الآخيين وبينه ، وبناء على ذلك **سحبت روما كل قواتها من بلاد اليونان عام ١٩٤.** وبعد ذلك انهالت **آيات التكريم على كونتوس فلامينيوس** من أرجاء اليونان ، وأصدر عملة تذكارية ذهبية تحمل صورته ثم غادر بلاد اليونان إلى روما ليحتفل باحتفال نصر لم يسبق له مثيل على مدى ثلاثة أيام (ليفيوس : الكتاب ٣٤ فقرة ٥٢). كما أقيم له فى روما تمثال من البرونز عليه نقش باليونانية أقامه له اتباعه وخلصاؤه من الإغريق (بلوتارخ : تيتوس / الفصل الأول / الفقرة الأولى).

(ب) حرب روما ضد أنطيوخوس الثالث[٣] (الأكبر) السليوقى (١٩٣ – ١٨٨ ق.م.)

قبل أن يعتلى أنطيوخوس الثالث العرش السليوقى عام ٢٢٣ ق.م. كانت الدولة السليوقية قد مرت بمراحل ضعف وتفكك وانفصلت واستقلت عنها كثير من ولاياتها فى آسيا الصغرى والشرق ، كما عانى البيت السليوقى الحاكم من صراعات على العرش ، وقد وصل هذا الملك الشاب إلى العرش وهو دون العشرين بعد أن اغتيل أخوه الأكبر سليوقوس الثالث. وفى بداية حكم أنطيوخوس واجهته عدة مشاكل وثورات فى أرجاء مملكته تمكن من التغلب عليها **واستعاد أملاك السليوقيين** على مدى ما يقرب من ربع قرن حتى **امتدت أملاك السليوقيين فى عهده - من جديد - من آسيا الصغرى إلى حدود الهند**. ورغم أن هذا الملك السليوقى القوى قد تعرض للهزيمة فى بدايات حكمه عام ٢١٧ ق.م. من القوات المصرية المحاربة تحت لواء الملك بطليموس الرابع فى موقعة "رفح" فى أثناء محاولته استرداد جوف سوريا من البطالمة إلا أنه تمكن من تحقيق هذا الهدف لاحقاً حين الحق الهزيمة بالقوات البطلمية فى موقعة "بانيون" بشمال فلسطين عام ٢٠٠ ق.م. ونظراً **للفتوحات والإنجازات الهائلة** التى احرزها هذا الملك للدولة السليوقية فقد اكتسب **لقب أنطيوخوس (الأكبر Megas** - تشبهاً بالاسكندر الأكبر المقدونى)، وكان ذلك اعتباراً من عام ٢٠٢ ق.م.

نعود الآن إلى المواجهة بين هذا الملك وبين الدولة الرومانية ، فى الوقت الذى كبح فيه الرومان جماح فيليب الخامس المقدونى والزمته بالطاعة والولاء للرومان بعد موقعة "كنيوسكيفالاى" عام ١٩٧ وفعلت نفس الشىء مع نابيس ملك اسبرطة عام ١٩٥ بدأت تلوح نذر الخطر على

المصالح الرومانية من طرف آخر هو الملك انطيوخوس الثالث فى بلاد اليونان بعد آسيا الصغرى. رأينا كيف استعاد ذلك الملك املاك أسلافه من آسيا الصغرى حتى حدود الهند، ثم بدأ يعد العدة بعد ٢٠٢ لاستعادة جوف سوريا (سوريا الجنوبية والساحل الفينيقى وفلسطين وشرق الأردن) من قبضة البطالمة الذين سيطروا على هذه المناطق ما يزيد على قرن من الزمان بل وازمع غزو مملكة البطالمة نفسها فى مصر بعد ذلك . لكن روما استشعرت ذلك **الخطر الداهم من جانبه لا سيما فى ظل اعتلاء طفل صغير هو بطليموس الخامس العرش البطلمى** بعد وفاة أبيه بطليموس الرابع فليوباتور عام ٢٠٥ ق.م. وهنا حذرت روما الملك السليوقى انطيوخوس الثالث من مغبة غزو مصر وأرسلت إليه وفداً من أعضاء السناتو يحملون هذا التحذير ويخبرونه بان الملك البطلمى الراحل **بطليموس الرابع قد طلب - قبل وفاته - من مجلس السناتو الرومانى الوصاية على ابنه الطفل بطليموس الخامس بعد وفاته (الأب)**. وعلى ذلك أرسل مجلس السناتو الكاهن الأعظم (الذى سيتولى القنصلية بعد ذلك مرتين عامى ١٨٧ و ١٧٥ ق.م.) **ماركوس ايميليوس ليبيدوس** إلى الاسكندرية للوصاية على الملك الطفل. وهناك جدل دائر بين العلماء حول **مدى مصداقية هذه الوصية** وهذا الطلب للرومان من جانب بطليموس الرابع. وأياً كانت درجة صدق الرومان حول هذاالموضوع فيبدو أن هذا التحذير الرومانى قد أتى ثماره إذ **اكتفى انطيوخوس بانتزاع جوف سوريا من أيدى البطالمة عام ٢٠٠ ق.م.** بعد موقعة بانيون **دون أن يجرؤ على غزو مصر** التى يحكمها آنذاك الملك الطفل بطليموس الخامس .

لكنه قام بعد ذلك **بشن هجمات عام ١٩٨ ق.م. على أملاك البطالمة فى آسيا الصغرى فى ليكيا وكاريا** واستولى عليها وأحدث ذعراً واضطراباً بين سكان تلك المناطق. وبعد ذلك ١٩٧ / ١٩٦ ق.م. **بدأ يتحرك بقواته غرباً نحو ثراكيا (طراقيا) فى شمال شرق بلاد اليونان** الأصلية بعدما عبر

مضايق البوسفور والدردنيل. وكانت **حملة أنطيوخوس على طراقيا** - التى كان السليوقيون يزعمون دوماً انها من املاكهم - **سبباً فى صدامه مع روما** التى شعرت بان طموحاتها التوسعية قد باتت مهددة بعد عبور قوات سليوقوس إلى الجانب الغربى (الأوروبى) من المضايق. وجرت **مفاوضات دبلوماسية مطولة بين الطرفين (١٩٦ - ١٩٣ ق.م.)** لإقناع أنطيوخوس **بسحب قواته من أوروبا والتخلى عن المدن اليونانية فى آسيا الصغرى فى مقابل السماح له ببسط سيطرته على آسيا الصغرى**. وقد لعب القائد والقنصل السابق كوينتوس فلامينيوس - قاهر فيليب الخامس ونابيس-دوراً محورياً وسرياً فى بعض الأحيان فى هذه المفاوضات التى لم تسفر عن نتائج إيجابية. لقد تقاطعت أغراض ومصالح الطرفين ولذا **أخفقت المفاوضات وقام أنطيوخوس بغزو بلاد اليونان**.

وننوه فى هذا المقام إلى أن **بعض القوى الحليفة لروما فى بلاد اليونان كانت قد بدأت تنقم على سياسة روما فى بلاد اليونان** وتتذمر من مواقف الرومان . على رأس هذه القوى **الحلف الأيتولى** الذى وقف إلى جانب روما فى حربها المقدونية الثانية (٢٠٠ - ١٩٦) ضد فيليب الخامس. فبعد انتصار روما فى تلك الحرب على فيليب طالب الحلف روما بالقضاء على فيليب ومقدونيا ونفوذها تماما ، ثم طلبوا أن تدمج تساليا كلياً فى الحلف الأيتولى. لكن روما لم تستجب لهذه المطالب والطموحات من جانبهم وأبرمت مع فيليب صلحاً يلبى مصالحها دون سواها مما أثار استياء أعضاء الحلف وشكوكهم فى نوايا روما لا سيما وأن مكافاتهم على مساندتهم لروما كانت متواضعة إذ مُنحوا قسما صغيرا من تساليا.

وكرد فعل على هذه المواقف الرومانية المتخاذلة تجاه مطالبهم **انضم الأيتوليون إلى صف أنطيوخوس وانقلبوا على الرومان** حين أرسل أنطيوخوس مبعوثا إليهم فى مارس عام ١٩٢ ق.م. يخبرهم استعداده

للانضمام إليهم من اجل تحرير بلاد اليونان من النفوذ الرومانى . وعلى اثر ذلك دعا **الأيتوليون انطيوخوس إلى أن ينزل بقواته فى ديمترياس** (شرق تساليا) التى استولوا عليها ، واستجاب الملك لتلك المبادرة دون استعداد كاف من جانبه ثم **تقدم بقواته بعد ذلك جنوبا إلى "لاميا" فى جنوب تساليا** قرب مضيق ثيرموبيلاى. لكن قوات أنطيوخوس لم تزد عن عشرة آلاف جندى ولم يقدم له الأيتوليون سوى أربعة آلاف آخرين واعلنوه قائدا عاما. وعلى الجانب الأخر **وقف فيليب الخامس** بوضوح فى صف الرومان كما كان فى جانبهم **رودس وبرجامون بأساطيلهما** التى حالت دون وصول إمدادات كافية لأنطيوخوس. وفى هذه الظروف **ارسل الرومان جيشا مرة أخرى اقتحم بلاد الإغريق** دون أن يلقى مقاومة تذكر **والحق بجيش انطيوخوس هزيمة قاسية** فى أواخر عام ١٩١ ق.م. عند ممر "ثيرموبيلاى" الشهير مما **دفع انطيوخوس إلى ترك بلاد اليونان والعودة إلى آسيا الصغرى**. وبعد ذلك بدأت روما تصفى حساباتها مع الايتوليين جراء ما فعلوا، ولكن تواصل الحرب ضد أنطيوخوس - وعوامل اخرى - حال دون عقاب صارم للأيتوليين.

وبعد ثيرموبيلاى عرض الرومان على انطيوخوس شروط صلح رفضها انطيوخوس مما جعلهم يصممون على **غزو مناطق نفوذه فى آسيا الصغرى عبر بحر إيجة عام ١٩٠ ق.م.** وفكر الرومان فى أمر قيادة الحملة ضد انطيوخوس ، وكان من المرجح أن يتولاها بطل روما المغوار وقاهر هانيبعل **سكيبيو الإفريقى** لاسيما وانه اشار على مجلس السناتو بان السلام لن يتحقق فى هذه المسألة إلا بهزيمة أنطيوخوس فى عقر داره. **ولكن الشهرة الطاغية والسمعة الفائقة التى صار يحظى بها سكيبيو** والتى جعلت منه أسطورة فى روما بعد ما فعله ضد القرطاجيين وهانيبعل - حتى لقد اشيع أنه ابن جوبيتر - **اثارت ضده الحسد والغيرة من خصومه** السياسيين **وعلى راسهم ماركوس بوركيوس كاتو** الذى سيقف لعائلة

سكبيو (انصار الثقافة الإغريقية) بالمرصاد حين يتولى منصب الرقيب بعد ذلك. ولذلك لم يعين سكبيو على راس هذه الحملة بحجة أنه لم يكن قد استوفى بعد مدة السنوات العشر التى تفصل بين قنصلية واخرى لأنه تولى القنصلية عام ١٩٤ ق.م. ومع ذلك **فقد اختير أخوه الأصغر لوكيوس سكبيو قنصلا عام ١٩٠ ق.م. وكلف بقيادة الحملة ضد أنطيوخوس** ، وتطوع أخوه الأكبر بوبليوس (سكبيو الإفريقى) بمرافقته فى هذه الحملة وتولى قيادة إحدى الفرق. ومن الجدير بالذكر أن لوكيوس سكبيو أحد القادة المرافقين للقنصل **مانيوس أكيليوس جالابريو قائد معركة ثيرموبيلاى ضد أنطيوخوس** فى العام السابق ، ويروى ليفيوس أن جالابريو أرسله إلى روما ليزف اخبار النصر للرومان.

وقبل أن يتجه لوكيوس سكبيو بحملته ضد أنطيوخوس فى أسيا الصغرى أبرم **هدنة مع الايتوليين** ثم **أرسل الرومان أسطولهم إلى بحر إيجة بمساعدة رودس وبرجامون** وأرسلوا فى الوقت ذاته **جيشا بريا عبر بلاد اليونان بسرعة نحو الشرق** وتلقى مؤنا ومساعدات ومرشدين من جانب **فيليب الخامس**. وبهذا التعاون الذى أبداه حلفاء روما وصلت **الجيوش الرومانية** إلى **أسيا الصغرى والحقت بانطيوخوس هزيمة كبرى فى ماجنسيا فى ليديا** غرب ساردیس بآسيا الصغرى **فى ديسمبر ١٩٠ أو يناير ١٨٩ ق.م.** ، ولعب **يومينيس الثانى** ملك برجامون دورا بارزا فى مؤازرة الجيش الرومانى. وبعد هذا النصر عاد لوكيوس إلى روما واحتفل بانتصاره على انطيوخوس بعد **إبرام اتفاق السلام المشروط** معه **فى "اباميا" عام ١٨٨ ق.م.** وحصل لوكيوس سكبيو على لقب " الأسيوى Asiagenes" لانتصاره على انطيوخوس فى أسيا الصغرى.

ومن أهم **بنود معاهدة "اباميا"** التى أبرمها القنصل ج.مانليوس **فولو** وبعثة من السناتو كان من بين اعضائها سكبيوا الإفريقى أن يتنازل

انطيوخوس عن جميع ممتلكاته شمال وغرب جبال طوروس، وأن يدفع للرومان تعويضا مقداره ١٥,٠٠٠ تالنت، وأن يسلم البطل القرطاجي هانيبعل الذى كان لاجئا لديه (لكن انطيوخوس دبر له وسيلة للهرب إلى بيثينيا واللجوء لبلاط ملكها بروسياس)، و الا يشن أية حروب فى بحر إيجة أو أوروبا، وتسليم أسطوله وأفياله الحربية للرومان باستثناء عشر سفن لا يسمح لها بالإبحار غرب رأس ساربيدونيوم فى كيليكيا جنوب أسيا الصغرى.

وقد **كافأت روما حلفائها فى تلك الحرب** بأن حررت المدن اليونانية على الساحل الغربى لأسيا الصغرى من سيطرة ذلك الملك. كما **قسمت أملاكه فى أسيا الصغرى بين رودس وبرجامون**: فقد حصلت رودس على ليكيا وكاريا جنوب نهر المايندر فى حين حصلت برجامون على كل الممتلكات السليوقية السابقة شمال ذلك النهر. كما أن روما **وقفت فى صف برجامون حين شن عليها بروسياس ملك بيثينيا** عام ١٨٦ حربا وعين هانيبعل القرطاجى اللاجئ إلى بلاطه كاحد قادتها. وفى هذا الموقف أرغمت روما بروسياس على عقد الصلح وأصرت على أن يسلمها هانيبعل الذى لم يجد مفرا من الانتحار عام ١٨٢ ق.م. حين شعر بقرب وقوعه فى يد الرومان. كما **كافأ الرومان فيليب الخامس** على التسهيلات التى قدمها للقوات الرومانية وموقفه المساند للرومان بأن تنازلوا عن بقية مبلغ التعويض الذى فرضوه عليه بعد هزيمته فى "كينوسكيفالاى" وأعادوا إليه إبنه ديمتريوس الذى كان رهينة لديهم بعد أن أمنوا جانب أبيه فيليب الخامس.

جـ- الحرب المقدونية الثالثة[٤] (١٧٢-١٦٨ ق.م)

رأينا كيف انصاع فيليب الخامس المقدونى لإرادة ورغبة الرومان بعد هزيمته التى لقيها منهم فى موقعة "كينوسكيفالاى" والتى حسمت

الحرب المقدونية الثانية لصالح الرومان وما تلاها من صلح مهين معهم مما جعله طوع أمرهم ومنفذا لرغباتهم كما أسلفنا قبل قليل. ولما شعر برضاء الرومان عنه **شرع فى تدعيم بنيان مملكته التى تعرضت لتصدع عقب غزو الرومان وانتصارهم عليه عام ١٩٧؛** إذ أعاد تنظيم مالية الدولة وأعاد توطين السكان وواصل العمل فى التعدين والمناجم وأصدر عملات مركزية ومحلية. ولكن جيرانه وعلى رأسهم يومينيس الثانى ملك برجامون - ظلوا يوجهون الاتهامات إليه مما جعل روما التى لا تامن لأحد تواصل تدخلها باستمرار. **وفى عام ١٨٥ ق.م. أصدر مجلس السناتو قرارات مناوئة لفيليب** وهو ما أقنعه بأن روما قد بيتت النية على تدمير مملكته وهو ما جعله يسرع بخطى حثيثة نحو توسيع نفوذه فى منطقة البلقان بالسبل الدبلوماسية و العسكرية معا. ويبدو أن روما بدأت تستشعر أن أيام فيليب إلى زوال **وبدأت تعد العدة لكى يخلفه على العرش ابنه ديمتريوس الذى عاش فى كنف الرومان** كرهينة لعدة سنوات تبناه خلالها القائد المنتصر تيتوس كوينكتيوس فلامينيوس وغيره من الرومان الذين أغروه بالآمال فى وراثة العرش رغم وجود أخيه الأكبر بيرسيوس الوريث الرسمى للعرش بعد أبيه، وبالطبع كان ديمتريوس مواليأ للرومان والسياسة الرومانية . وقد أدى هذا الموقف إلى **نشوب صراع بين ولى العهد الأمير بيرسيوس وأخيه ديمتريوس** مما جعل فيليب الخامس يقرر - رغما عنه - **إعدام ولده ديمتريوس عام ١٨٠ق.م. بتهمة الخيانة** .. ولم يتعاف فيليب من هذا الموقف الصعب على نفسه فتوفى فى العام التالى ١٧٩ **وتولى الحكم من بعده ابنه بيرسيوس الذى كان مناهضاً للرومان** على عكس أخيه ديمتريوس .

وعقب تولى بيرسيوس عرش مقدونيا جدد المعاهدة التى سبق أن أبرمها أبوه مع روما ، ودعم شعبيته بأن أصدر عفواً ملكياً **ووسع من نطاق نفوذه وعلاقاته مع العالم اليونانى بصفة عامة** . ففى بدايات حكمه تزوج

لاوديكى ابنة سليوقوس الرابع، وزوّج أخته لبروسياس الثانى ملك بيثينيا ، واقام علاقات طيبة مع جزيرة رودس ، واستعاد مكانة مقدونيا فى الحلف الامفيكتيونى فى معبد ووحى ابوللو فى ديلفى. وفى حوالى منتصف السبعينيات من القرن الثانى ق.م. أصبح بيرسيوس يتدخل فى الصراعات الدائرة فى أيتوليا وتساليا وقام باستعراض للقوة فى وسط بلاد اليونان، وهى تصرفات أثارت قدراً كبيراً من الشك والريبة فى نفوس الرومان من نوايا بيرسيوس الذى لم يكونوا يستريحون إليه أصلا. وكان قدر كبير من **توسعات بيرسيوس وازدياد نفوذه على حساب يومينيس الثانى ملك برجامون** الذى كان يُنظر إليه على نطاق واسع - وبحق - على أنه نصير روما ورجلها. لذلك **كال يومينييس الاتهامات بحق بيرسيوس امام الرومان باستفاضة عام ١٧٢** وساق حججا وذرائع عديدة لتبرير شن الحرب على مقدونيا ، ومن ثم **أعلنت روما الحرب على مقدونيا وبيرسيوس عام ١٧١ ق.م.** وهى الحرب المقدونية الثالثة وكانت حجة إعلان الحرب من جانب روما هى أن بيرسيوس هاجم حلفاء روما وكان يخطط لشن الحرب ضد روما نفسها.

وبعد هذا الاعلان للحرب من جانب روما نزل القنصل بوبليوس **ليكينيوس كراسوس** بقواته على الساحل الإلليرى قرب أبوللونيا ومعه قرابة **٣٧ الفا مقاتل من المجندين الجدد** - فى معظمهم - ممن يفتقرون إلى الخبرة القتالية الكبيرة على عكس الجيل السابق ممن مارسوا القتال ضد قرطاجة وهانيبعل. أما **بيرسيوس فقد استعد للقتال وجهز جيشاً من ٤٣ الف مقاتل يمثلون صلب الجيش المقدونى** وكانوا يتسمون بحسن التسليح والتنظيم والطاعة لمليكهم وخاضوا معه بعض المعارك الحدودية من قبل . ولكن موارد بيرسيوس لم تكن لتصمد فى حرب طويلة الأجل على العكس من روما ؛ إذا كان يفتقر إلى تأييد عدد من القوى اليونانية التى اشتكت لروما من عدوان بيرسيوس عليها وتعهدت بعضها بمؤازرة

روما فى حربها ضده وتردد البعض الآخر ، كما ان بيرسيوس كان يفتقر إلى قوة بحرية .

وفى تخطيطه للحرب آثر بيرسيوس أن يدافع عن مملكته مقدونيا من جهة الجنوب على الحدود مع تساليا حيث سلسلة جبل الأولمب وامتدادها عبر ممر تيمبى. إذ رأى أن السيطرة على الممرات الجبلية هناك من وإلى مقدونيا تتيح له وضعاً دفاعياً أفضل وتمكنه من شن الهجمات على الرومان فى سهول تساليا حين تسنح الفرصة. كما قام بتحصين قلاعه فى الوديان الواقعة غرب مقدونيا رغم اقتناعه بصعوبة أن يشن الرومان هجوما عليه من هناك انطلاقاً من ساحل الأدرياتيك ومروراً بالوديان الجبلية الصعبة هناك . وفى ضوء ما تقدم انطلق بيرسيوس بقواته نحو ممر تيمبى فى تساليا جنوباً والتقى الرومان عند تل يُدعى "كاليكنوس" وانتصر عليهم فى التحام حامى الوطيس بين قوات الفرسان من الجانبين. وبعدها عرض بيرسيوس التفاوض على الرومان لكنهم رفضوا أى عرض من جانبه بخلاف الاستسلام بغير قيد أو شرط. وفى اشتباك آخر تغلب الرومان على بيرسيوس مما أدى إلى إنسحابه مؤقتاً فى شتاء ذلك العام ١٧١ من تساليا وإن ترك حاميات فى أماكن مهمة ، كما انسحب ليكينيوس كراسوس بقواته إلى بؤوتيا جنوباً. ومر عام ١٧٠ دون أحداث كبيرة تذكر إذ أخفق قائد الحملة الرومانية فى ذلك العام فى اقتحام ممرات جبال الأولمب وانسحب من لاريسا إلى فارسالوس ليكبح جماح قواته التى كانت تغير على سكان تلك المناطق من حلفاء الرومان . وفى العام الثالث من الحملة ١٦٩ تمكن قائد الحملة القنصل كوينتوس ماركيوس فيليبوس - بمناورة خداعية تكتيكية - من الوصول إلى الساحل المقدونى عند هيراكليوم. وفى الوقت ذاته قام برسيوس بحشد معظم قواته التى كانت موزعة على الممرات الجبلية الجنوبية عند " بيدنا " إلى الشمال على الساحل. ولكن الرومان لم يستغلوا

هذه الفرصة واضطروا - **أمام نقص الإمدادات إلى التراجع جنوباً** على الساحل إلى منطقة وادى تيمبى ، **وهكذا تحرج مركز الرومان** مرة أخرى لأنه لم يعد تحت أيديهم سوى شريط ساحلى ضيق وكان يسد الطريق عليهم نحو الشمال (فى المنطقة من ديوم إلى بيدنا على الساحل) قوات بيرسيوس الكثيفة المتحصنة.

هذه **النتائج المتواضعة للحملة الرومانية ضد بيرسيوس** على مدى **ثلاث سنوات** أثارت الاستياء بين **حلفاء روما وهزت ثقتهم فيها** وولاءهم لها ، **وحدثت اتصالات سرية وعلنية** بين بعض حلفاء روما ومن يحسبون عليها - مثل أطراف فى **رودس وبرجامون** - وبين **بيرسيوس** . كما أحجم القنصل فيليبوس عن قبول دعم مباشر من الحلف الآخى بعدم ثقته بهم . كما أن بيرسيوس اشترى بالمال ولاء **الزعيم الإلليرى جنثيوس** الذى كان يحكم من عاصمته " سكودرا" كما أجرى بيرسيوس اتصالات ومراسلات مع الملك السليوقى **أنطيوخوس الرابع**.

أمام هذا الوضع المتردى **قرر الرومان** الا ينظروا إلى أمر بيرسيوس باستخفاف وأن **يأخذوه بجدية بالغة** وطالب الجميع بعمل حاسم ينهى هذه المسالة تماماً . ولذلك عينوا لقيادة الحملة هذه المرة قائداً كفئاً هو - **قنصل عام ١٦٨ لوكيوس أيميليوس باوليوس** - ابن القنصل باولوس الذى لقى حتفه فى معركة " كاناى" ضد هانيبعل عام ٢١٦ق.م. وتم إعداد وتجهيز الفرق الرومانية المحاربة بأقصى درجات الاستعداد. وفى الوقت ذاته **أسند إلى برايتور ذلك العام** ويدعى **" انيكيوس "** القيام **بعمليات حربية فى اللبريا** للتصدى لزعيمهم جنثيوس الذى تحالف مع بيرسيوس وحشد قوات برية وبحرية عند ميناء ليسوس على الساحل الإلليرى . وقام انيكيوس بالهجوم على هذه القوات الإلليرية واجتاح مدينتهم الرئيسية سكودرا واعتقل الملك وأخذه أسيراً وقام باستعراض

للقوة الرومانية فى إقليم ايبيروس ، **وأنهى الحرب الإلليرية الثالثة** فى غضون **ثلاثين يوماً** . وعلى الجانب الآخر مضى **القنصل باولوس** إلى مهمته الأكثر صعوبة **ضد بيرسيوس فى الشرق على الساحل المقدونى** وكله عزم وتصميم على حسم الموقف . **ولجأ باولوس إلى المناورة الخداعية للإيقاع بغريمه** : إذ تظاهر وكانه يقوم بتحركات وإعداد قوة عند هيراكليوم على الساحل الشرقى فى حين سرّب قوة مؤلفة من ٨,٠٠٠ مقاتل بقيادة سكبيو ناسيكا وجعلها تتراجع إلى وادى تيمبى فى شمال تساليا حول سلسلة الأولمب ثم تتقدم نحو احد الممرات الجنوبية لمقدونيا (ممر بيثيون - بيترا) وتشتبك مع مؤخرة جيش بيرسيوس هناك . **وهنا سحب الملك بيرسيوس قواته من هذا الممر إلى نقطة أضعف تقع إلى الجنوب من سهل بيدنا** . وانضم باولوس بقواته إلى ناسيكا وتقدموا باتجاه العدو . وفى **الثانى والعشرين من يونيو عام ١٦٨ق.م.** دارت **معركة حامية الوطيس** بين الفرق الرومانية بقيادة أيميليوس باولوس وقوات الملك بيرسيوس أبلت فيها الفرق الرومانية بلاءً حسناً وأظهرت مرونة فائقة ومهارة بارعة فى المناورة. وهكذا **حسمت هذه المعركة لصالح الرومان الذين أحرزوا نصراً باهراً** وتكبد المقدونيون خسائر فادحة **وفرّ الملك بيرسيوس إلى عاصمة ملكه " بيلا"** ومنها إلى ساموثراكيا حيث **خانه أنصاره وسلموه أسيراً للرومان** حيث توفى فى روما بعد عامين . **وبسحق الجيش المقدونى فى "بيدنا"** كانت **نهاية مملكة الأنتيجونيين فى مقدونيا** عام ١٦٨ ق.م.

أما عن **القائد المنتصر لوكيوس أيميليوس باولوس** فيروى عنه أنه **لم يحتفظ لنفسه من غنائم الحرب** المظفرة ضد الملك بيرسيوس بأى شىء سوى **مكتبة الملك الأسير**. ويؤثر عنه انه كان **مغرما وشغوفاً بالثقافة والحضارة اليونانية** وانه علم أولاده تعليماً إغريقيا جنباً إلى جنب مع التعليم الرومانى التقليدى ، وانه قام بجولة سياحية زار فيها

الآثار اليونانية بعد انتهاء حربه ضد بيرسيوس. **ورغم كل ذلك فإنه نفذ طواعية أوامر السناتو إليه باجتياح وتدمير ابيروس** وامّن على بعض من **الفظائع التى ارتكبتها القوات الرومانية**.. ربما جاز لى القول أن الثقافة لا تغير فى عقلية المحارب سوى القشور والرتوش، ويظل يرى الأمور فى النهاية بعين المحارب الذى يؤثر المصلحة العليا لوطنه أو لنفسه على ما عداها من افكار مثالية وإنسانية !! . ولكن يبدو أن هذا القائد المظفر قد **حلت به لعنة بعد انتصاره الكبير** إذ توفى اثنان من أولاده الشباب بعد هذ النصر وهو الأمر الذى أفسد عليه بهجة النصر . كما أنه **توفى هو نفسه عام ١٦٠ ق.م.** دون ثروة تذكر وقامت بعده عائلات روما الكبيرة مثل **عائلة فابيوس وعائلة سكبيو بتبنى ولديه الكبيرين** اللذين سيصبحان من ذوى الشان فيما بعد ، ولكن هذه العائلات الكبيرة التى منحت للشابين أسمها احتفظت لهما كذلك فى نهاية الإسم باسم ابيهما ايميليوس باولوس : فاحدهما هو **كوينتوس فابيوس ماكسيموس ايميليانوس** (أى ابن أيميليوس) والثانى هو **بوبليوس كورنيليوس سكبيو أيميليانوس** (وهو سكبيوا الإفريقى الأصغر Minor الذى سيدمر قرطاجة فى نهاية الحرب البونية الثالثة عام ١٤٦ ق.م. كما سنرى فى هذا القسم لاحقاً). وكان كلا الشابين قد حاربا إلى جوار ابيهما القنصل ايميليوس باولوس فى حربه ضد الملك بيرسيوس عام ١٦٨ واديا دوراً متميزاً فى هذه الحملة المظفرة التى اختتمت بانتصار " بيدنا " الساحق .

د- سياسة روما بعد موقعة بيدنا :-

نعود الآن إلى موقف روما من مقدونيا وبلاد اليونان عامة بعد أن قضت قضاءً مبرماً على غريمها اللدود بيرسيوس آخر ملوك الأسرة الحاكمة الأنتيجونية فى مقدونيا . لقد استوعب الرومان درس مقدونيا

تماماً وصمموا على ألا تقوم قائمة لأية قوة بارزة يمكن أن يلتف حولها احد من الإغريق . وكانت البداية الحاسمة في هذه السياسة هي تمزيق مقدونيا أخطر قوة في بلاد الإغريق : **إذ قسمها الرومان إلى أربع جمهوريات مستقلة عن بعضها البعض** وتتمتع كل منها بحكم ذاتي على ألا تكون هناك اتصالات وعلاقات بين هذه الجمهوريات ، إذ حرّم على سكان هذه الجمهوريات حق التزاوج Conubium وحق التبادل التجاري commercium بينهم .. مرة أخرى .. فرق تسد ! كما فرض الرومان على كل جمهورية منها دفع جزية سنوية مقدارها مائة تالنت يعادل نصف ما كانوا يدفعونه للملك، كما منعوا استغلال المناجم وأملاك التاج المقدوني .

وبعد حسم هذه الأولوية **اتجه الرومان لتصفية حساباتهم مع بقية القوى اليونانية بالمكافأة أو العقاب** حسب موقف كل منهم من روما خلال الحرب المقدونية الثالثة . ولنبدأ **بالمواقف العقابية** أو بالأحرى **الانتقامية التي اتخذتها روما ضد مناوئيها** : أول هذه المواقف ضد **إمارة جنثيوس في الليريا** التي اجتاحها الرومان قبيل معركة " بيدنا" الحاسمة وأسروا مليكهم على يد البرايتور أنيكيوس إذ قام الرومان بتقسيم إمارة جنثيوس. مثلما فعلوا مع مقدونيا إلى ثلاث جمهوريات منفصلة- كما ألزموا هذه التقسيمات بدفع جزية سنوية للرومان تعادل نصف الضرائب التي كانت تدفع لجنثيوس . كما **استولى الرومان على معظم ساحل دلماتيا حتى نهر نارنتا** وبذلك سيطروا على معظم سواحل بحر الأدرياتيك . أما عن **بقية المدن اليونانية المناوئة** فقد حسمت روما أمرها وعزمت على تلقين كل منها درساً قاسيا وذلك من خلال **تطهيرها من كل خصوم الرومان**. وقد تعرف الرومان على هؤلاء الخصوم ومواقفهم بعد أن استولت على كل أوراق وملفات الملك الاسير بيرسيوس ولاحقتهم بأحكام الإعدام والنفي والبيع في أسواق الرقيق .

وكان **السناتو** قد أرسل **بعثة من أعضائه** لتشترك مع القنصل المنتصر إيميليوس باولوس في **تنظيم الأمور وضبط الأحوال** في بلاد اليونان وأعطاها حرية مطلقة في هذا الصدد. وقام هؤلاء **بإسناد الأمور إلى المتعاونين مع روما والموالين لها من بين الإغريق** الذين سيطروا على مقاليد الأمور **وانتقموا بصورة لا أخلاقية** من خصومهم المعارضين للرومان. وترتب على هذا الوضع **حقبة من الإرهاب والتنكيل بالخصوم** على يد الرومان ومن والاهم من الإغريق من ذيول الرومان إذ أعدم نحو خمسمائة من المواطنين في أيتوليا بعد محاكمات صورية ونفى كثيرون غيرهم وصودرت أملاكهم. ووضعت قوائم سوداء تضم أسماء العديد من أبرز المواطنين في بؤوتيا وأكارنانيا وأبيبروس وسيقوا إلى روما لمحاكمتهم فيها. بل أن **مأساة ابيروس** تجاوزت هذا الحد بكثير حين أصدر مجلس السناتو أوامره **بسلب ونهب ممتلكات مواطنى ابيبروس من غير الموالين للرومان** وهو ما نفذه باولوس عام ١٦٧ حين اجتاح الإقليم وعاث فيه سلباً ونهباً وقبض على آلاف مؤلفة من سكانه وأرسل بهم إلى روما ليباعوا في أسواق النخاسة . كما قام الرومان بفرض حظر على نشاط الأحلاف اليونانية المعروفة ، كالحلف الأيتولى والحلف الآخى رغم أن الآخيين لم يظهروا عداءً سافراً للرومان أثناء الحرب ضد بيرسيوس ولكن الرومان كانوا متوجسين منهم . ومما زاد من درجة هذا التوجس والقلق أن زعيم ذلك الحلف ويدعى **كاليكراتيس** آنذاك أقنع بعثة السناتو أن **كثيرين من مواطنيه يضمرون الشر والسوء للرومان** . وإزاء هذه الهواجس والشكوك في الآخيين وغيرهم من الإغريق **قامت البعثة بنقل ألف من الشخصيات الإغريقية المرموقة إلى روما كرهائن لضمان حسن نوايا الأغريق والحلف الآخى** في قادم الأيام. وكان من بين هؤلاء الرهائن كما أسلفنا عند الحديث عن مصادر التاريخ الروماني- المؤرخ الشهير بوليبيوس الذى استضافته أسرة سكبيو الشهيرة بحبها للثقافة

اليونانية وانفتاحها على حضارة الإغريق وهو ما هيا له الفرصة ليكتب عن تاريخ الرومان ويبدى إعجابه بنظامهم ودستورهم ونظامهم . لكن إذا كان بوليبيوس أوفر حظاً ومصيره أكثر أمنا فإن سبعمائة من رفاقه لقوا حتفهم وهم فى الأسر، ولم يعد من تبقوا منهم إلى أوطانهم الإغريقية إلا بعد ستة عشر عاماً .

وهكذا فإن **الصورة الوردية والمثالية** التى رسمها القنصل **فلامينيوس** فى الإحتفالات الإسثمية عند برزخ كورنثة عن حرية الإغريق وعدم خضوعهم لفيليب الخامس المقدونى أو غيره **سرعان ما ثبت زيفها ولم تكن أكثر من فخ نصب للإغريق الذين ابتلعوا الطعم أول الأمر** . لكن ها هى الأيام تكر سريعاً لتثبت أن مقدونيا فى تعاملها مع بقية الإغريق - كانت أفضل بكثير من الاستعمار الرومانى وذيوله وأزلامه الذين أذاقوا الإغريق كل صنوف المذلة والهوان .

كان هذا هو وضع بلاد الإغريق الأصلية بعد موقعة "بيدنا" نتجه الآن إلى موقف روما من حليفتيها رودس وبرجامون فى آسيا الصغرى . سبق أن رأينا المواقف المؤيدة والمناصرة لروما من جانب **جزيرة رودس**(٥) **ومملكة برجامون** فى حروبها ضد فيليب الخامس فى الحرب المقدونية الثانية ثم ضد أنطيوخوس الثالث الأكبر مما جعل روما تكافئهما بعد انتصارها على هذا الأخير وتوزع المناطق التى انسحب منها فى آسيا الصغرى على حليفتيها . لكن **بعض التصرفات والاتصالات السرية بين بيرسيوس وكل من رودس وبرجامون** قبل وأثناء حربه مع روما **أثارت شكوك روما وهواجسها نحو نوايا هذين الحليفين المتقلبين**. وتذكر المصادر أن كليهما قد توسطتا لإنهاء الحرب بين بيرسيوس وروما، **ولكن هذا التوسط** لم يحدث عندنا كانت قوات الرومان عاجزة عن حسم الموقف ضد بيرسيوس بل **عندما كانت روما على وشك**

تحقيق نصر ساحق حتى أن سفراء رودس لهذا الغرض وصلوا إلى روما مع وصول أنباء انتصار روما فى " بيدنا" ! .

وبناءً على ما سبق **اتخذت روما موقفاً مغايراً لمعاقبة هذه الأطراف** على ما اقترفت بحق روما كل حسب مقدار الجرم فى تقدير روما. لقد كانت **لروما علاقات طيبة برودس قبل الحرب مع بيرسيوس** - كما رأينا - لكنها حين رأت **نكوص رودس عن ولائها** وتفهمها لمصالح الرومان **قررت معاقبتها بوسائل عدة** . فقد حرمتها من الأراضى التى انسحب منها أنطيوخوس الرابع بعد معاهدة " أباميا" ١٨٨ والواقعة فى كاريا وليكيا فى آسيا الصغرى والتى كانت قد مُنحت لرودس من جانب روما، وبذلك جردت روما رودس من نفوذها الخارجى . والوسيلة الثانية- وكانت أبلغ أثراً فى الإضرار بمصالح رودس - هى أن روما **قد أعلنت ديلوس** - إحدى الجزر الصغيرة من جزر الكيكلاديس فى بحر إيجه قرب سواحل اليونان الجنوبية الشرقية - **ميناءً تجارياً حراً عام ١٦٧ق.م.** وخطورة هذه الخطوة تتمثل فى أن **رخاء وازدهار رودس** كان مصدره الأساسى **دورها التجارى البارز فى تجارة الترانزيت** (الوسيطة) فى القسم الشرقى من البحر المتوسط بين شماله وجنوبه ، وبين شرقه وغربه. لقد كانت السفن المارة فى هذه الإتجاهات فى شرق المتوسط محملة بالسلع والبضائع تمر فى أغلب الأحيان برودس التى كانت تفرض عليها مكوساً وضرائب كانت تنعش خزانة تلك الجزيرة الجمهورية النظام وجعلتها تبنى أسطولاً قوياً تحمى به جمهوريتها المستقلة. وعليه وجد الرومان أن **أنجع السبل وأقصرها** وأيسرها لخنق رودس وإضعافها هو **شن حرب تجارية عليها وخلق منافس لها** يسحب البساط من تحت قدميها.

وقد تجلى دهاء الرومان فى اختيار هذا المنافس وهو جزيرة ديلوس، إذ كانت هذه الجزيرة الصغيرة تحظى بمكانة مرموقة بين

الإغريق جميعاً من ناحية العقيدة الدينية فهى فى العقيدة الإغريقية مهد ميلاد الإله أبوللو وأخته التوأم الربة أرتميس . لذلك كان الرومان واثقين من أن إعلانهم عن ديلوس كمنطقة تجارة حرة سيلقى هوى فى نفوس كافة الإغريق الذين سيرحبون بالذهاب إلى هذا المكان المقدس.. وليكن الأمر زيارة وتجارة معاً . كما أوعز الرومان إلى كبار رجال الأعمال الرومان من أصحاب الوكالات التجارية عبر البحار وهم من طبقة الفرسان الرومانية فى الأغلب - بأن ينقلوا مقرهم من رودس إلى ديلوس فى شرق المتوسط . وربما كان الأرجح أن هؤلاء التجار ورجال الأعمال الرومان فى رودس هم من حرضوا الحكومة الرومانية على اتخاذ هذا الموقف تجاه رودس التى ربما عرقلت أنشطتهم التجارية أو فرضت عليهم مكوساً باهظة ، ووجدت السلطات فى روما ذلك ذريعة إضافية لسجل رودس ورصيدها المتدهور عند ساسة روما ورأت أن الحرب التجارية على رودس هى الحل الأمثل . ومن خلال هذا السلاح الخطير أدرك الرومان أنهم فى سبيلهم إلى القضاء على سيطرة وسيادة رودس على تجارة الترانزيت فى البحر المتوسط ، وبالتالى القضاء على أهم مقومات ازدهارها . وأدركت رودس خطورة هذا الموقف من جانب روما وأنها (رودس) ليس بوسعها أن تناطح جبروت الرومان فآثرت السلامة ودخلت منذ عام ١٦٤ ق.م. فى تحالف غير متكافىء مع روما أنهى بصورة فعالة استقلال رودس السياسى ودورها كقوة من القوى الكبرى فى عالم البحر المتوسط وتضاءل دورها شيئاً فشيئاً .

أما عن **تعامل روما مع الملك يومينيس الثانى ملك برجامون**(٦) (١٩٧ - ١٥٨ ق.م.) - حليف روما فى حربها ضد أنطيوخوس الثالث التى توجت بانتصار ماجنيسيا عام ١٨٩ ق.م. ومحرّض روما على شن الحرب المقدونية الثالثة ضد بيرسيوس - فإنه **تغير من النقيض إلى النقيض حين شعرت** روما بنوع من الغزل السرى بينه وبين بيرسيوس حين كان الأخير

متماسكاً قبل موقعة " بيدنا". ولما ادركت روما بوادر تقلب حليفها بدأت تجرعه كاس الهوان وتقلب له ظهر المجن . فقد المحت روما **لأتالوس الثانى** شقيق يومينيس بضوء اخضر فى **التطلع إلى عرش برجامون** ، وحين **طلب يومينيس زيارة روما للدفاع عن موقفه** قرر السناتو **عدم استقباله** ، واعلنت عن حرية " الجالاتيين " الذين سبق ليومينيس الانتصار عليهم عام ١٨٤ق.م. مما أكسبه لقب " سوتير" (المنقذ) فى ذلك الحين ، وتوفى هذا الملك عام ١٥٩ ق.م.

ونواصل الحديث عن علاقة برجامون بالرومان بعد يومينس الثانى. فبعد وفاة هذا الملك **اعتلى العرش منفرداً اخوه أتالوس الثانى** الذى كانت روما قد المحت إلى رضاها عن توليه العرش عقب استياءها من موقف يومينيس بعد " بيدنا" . لكن هذا الأخ ظل وفياً لأخيه وان شاركه العرش فى عامه الأخير ١٦٠ /١٥٩ ق.م. وكان يحمل لقب "فيلادلفوس " اى " المحب لأخيه" حين اعتلى العرش بمفرده فى ذلك العام. وقد تزوج من " ستراتونيكى " أرملة أخيه يومينيس وتبنى ولدها منه " اتالوس الثالث " **وقد ظل " اتالوس الثانى " على علاقة طيبة بالرومان طيلة فترة حكمه (١٥٩- ١٣٨ق.م)** وساعدهم على بقاء الأوضاع القائمة فى آسيا الصغرى على ما هى عليه دون أن تضطر روما إلى التدخل المسلح هناك .

وبعد وفاة اتالوس الثانى عام ١٣٨ق.م. تولى عرش برجامون من بعده **" اتالوس الثالث " (المحب لأمه / فيلوميتور) ابن الملك بالتبنى** (١٣٨-١٣٣ق.م) . ومما يُروى عن هذا الملك أنه لم يكن يحظى بشعبية بين رعاياه وانه كان قاسيا ومنصرفاً عن الشئون العامة إلى الإهتمام بهواياته الشخصية فى البحث العلمى لاسيما فى علم النبات وعلم الصيدلة. اما **فى الشأن العام فكان ملبياً لرغبات الرومان ويسير على**

نهجهم تماماً حتى منحوه لقب " حليف وصديق الشعب الرومانى" socius et amicus populi Romani. ولما كان أتالوس الثالث عقيماً بلا ذرية فقد **كتب وصية مفادها أن تؤول مملكته بعد وفاته لأملاك الشعب الرومانى، ربما ليكبح جماح المعارضين له.**

وتوفى أتالوس الثالث عام ١٣٣ق.م. فى سن صغيرة وهو دون الأربعين (١٧٠ - ١٣٣ق.م) واستعدت روما لتنفيذ وصيته بضم مملكة برجامون إلى ولايتها ، ولكن جرت الرياح بما لا تشتهى السفن. فقد **ظهر بعد وفاة أتالوس الثالث أحد المطالبين بعرش برجامون** ويُدعى **"اريستونيكوس"** الذى زعم انه **ابن غير شرعى ليومينيس الثانى** ملك برجامون الأسبق وقاد **تمرداً واسع النطاق ضد الرومان هناك** (١٣٣-١٢٩ ق.م.) وأصدر عملة ملكية باسمه وحث قادة الأسطول البرجامى على الوقوف فى صفه وأحرز بعض النجاحات مع بعض المدن اليونانية على ساحل آسيا الصغرى إلى أن هزمته مدينة إيفسوس . ويُروى أنه حاول **تعبئة الطبقات الدنيا من المجتمع فى صفوف جيشه** المتمرد مثل العبيد وغير الإغريق وأسماهم " أبناء الشمس " "Heliopolitae" ، ربما بعد اخفاقه فى استمالة المدن اليونانية الكبرى هناك. وتمكن " أريستونيكوس " من الاستيلاء على بعض المدن فى آسيا الصغرى بقواته هذه من " أبناء الشمس " ، بل وصل الأمر إلى درجة **أحرازه بعض الانتصارات على القوات الرومانية التى وصلت هناك لتدارك الموقف** عام ١٣١ وقتل قائدها القنصل بوبليوس ليكينيوس كراسوس ، **ولكن قنصل العام التالى ١٣٠ ماركوس بيربرنا تمكن من إلحاق الهزيمة به وأسره وبعث به إلى روما حيث نفذ فيه حكم الإعدام بعد ذلك** . وفى عام ١٢٩ ق.م. أعلن الرومان تحويل مملكة برجامون السابقة **إلى أول ولاية رومانية رسمية فى قارة آسيا** باسم **" ولاية آسيا** Provincia Asia " .

ونعود بعد ذلك ثانية لمتابعة زلزال " بيدنا" وتلك المعركة الحاسمة فى مصير علاقة روما بالشرق الهيللينيسستى - وتوابع ذلك الزلزال الرهيب الذى كان بداية التحول الحاسم فى نظرة الرومان إلى علاقاتهم بالممالك والقوى الهيللينيستية : من القوة الواثقة إلى القوة المتعجرفة التى لا تقيم وزناً لأحد وتتبنى منهج الردع المفرط لمناوئيها عند ابسط ذريعة . عرفنا كيف قلمت روما اظافر **الملك السليوقى القوى انطيوخوس الثالث الأكبر** بعد موقعة " ماجنيسيا" ومعاهدة أباميا" عامى ١٨٩ و ١٨٨ ق.م. **وسارت العلاقة بين الطرفين بعد ذلك على أساس احترام السليوقيين لالتزاماتهم تجاه روما** وتلبية رغباتها وعدم الإخلال بتوازن القوى فى شرق البحر المتوسط . ولكن يبدو أن الملك السليوقى التالى **انطيوخوس الرابع**[٧] **(١٧٥ - ١٦٤ ق.م.)** وكان قد ارتقى العرش بعد سليوقوس الرابع الذى حكم بعد وفاة أنطيوخوس الثالث(١٨٧ - ١٧٥ق.م.) **قد بدأ ينسى هذه المبادىء العامة التى تحكم علاقة السليوقيين بروما**. إذ استغل هذا الملك فرصة انشغال روما بحربها المقدونية الثالثة (١٧٢-١٦٨) ضد بيرسيوس **وتدخل فى شئون مملكة البطالمة فى مصر** وتنازع الملكين الأخوين بطلميوس السادس (فيلوميتور) وأخيه الأصغر بطلميوس الثامن (يو إرجيتيس الثانى) وسلب البطالمة إحدى ممتلكاتهم وهى جزيرة قبرص ثم **اتجه إلى مصر وحاصر الاسكندرية عاصمة البطالمة** .

وما ان فرغت روما من أمر بيرسيوس فى "بيدنا" عام ١٦٨ حتى **ردت على تجاوز أنطيوخوس الرابع رداً صاعقاً لتجعله عبرة لمن يعتبر.** ولعل فى الواقعة التالية التى يرويها المؤرخ بوليبيوس ما يوجز ويصل للهدف من اقرب طريق : إذ يخبرنا بوليبيوس أن السناتو الرومانى بعث بأحد سفرائه إلى أنطيوخوس الرابع وهو يحاصر الاسكندرية عام ١٦٨. **وقد كلف هذا المبعوث الرومانى بإبلاغ الملك برسالة خاسمة مفادها أن يسحب قواته فوراً من مصر وقبرص وألا يعاود هذا التجاوز لأملاك**

البطالة. ولما أبلغ الملك برسالة مجلس السناتو التى حملها **المبعوث جايوس بوبليوس لايناس** طلب من المبعوث الرومانى **أن يمهله حتى يتدبر الأمر مع مستشاريه** وقواده . ولكن الرسول الرومانى ضرب بكل قواعد اللياقة والبروتوكول والدبلوماسية عرض الحائط وتصرف بصورة تجسد مدى صلف روما وجبروتها وسطوتها وتغنى عن اى تعليق . **لقد رسم لايناس بعصا كانت فى يده دائرة على الأرض حول الملك وأمره أن يوافيه برده قبل أن يخرج من تلك الدائرة** ! وبُهت الملك وتردد للحظات قبل أن يعلن **موافقته على شروط روما وسحب قواته على الفور** .

نعود مرة أخرى إلى الأوضاع فى بلاد اليونان بعد أن استشرى النفوذ الرومانى بصورة مستفزة فى كافة أرجاء بلاد اليونان[8] بعد موقعة "بيدنا" وما تلاها من تجميد الأحلاف وسوق الرهائن من صفوة الإغريق إلى روما، وإعدام الآلاف من المناوئين ونفى غيرهم، وإسناد الأمور إلى ازلام وذيول روما فى بلاد اليونان مما نجم عنه جو من الرعب والإرهاب على نحو ما رأينا .

اثبتت تجربة **تقسيم مقدونيا** - أو بالأحرى تمزيقها - نجاحاً لبعض الوقت ، **وأعاد السناتو فتح المناجم الملكية المقدونية عام ١٥٨ق.م. وسمح للجمهوريات المقدونية بإصدار عملة خاصة بها** . لكن روما واجهت خطراً واضطراباً شديداً من **مغامر ادعى أنه له حق فى العرش المقدونى وزعم أنه ابن الملك بيرسيوس الذى مات فى الأسر فى روما بعد هزيمته فى "بيدنا"**. هذا المدعى المغامر اسمه **"أندريسكوس"** لم يجد دعماً فى اول الأمر فى مقدونيا أو سوريا **ولكنه وجد دعماً من طراقيا وارتقى عرش مقدونيا بعد أن انتصر فى موقعتين عام ١٤٩ ق.م**. وسرعان ما قوى مركزه حتى أنه الحق الهزيمة بقوة رومانية صغيرة أرسلتها روما لتاديبه . **ولكن فى عام ١٤٨ ق.م. وصل القائد كايكليوس ميتيللوس على**

راس فرقتين رومانيتين وسرعان ما أنهى موضوع هذا المغامر اندريسكوس. ولكى لاتتكرر هذه التجربة المزعجة لروما فى بلاد اليونان تخلت روما عن نهجها القديم الداعى إلى حرية بلاد اليونان **وأعلنت مقدونيا ولاية رومانية يديرها والى رومانى** ويضاف إلى سلطاته الإدارية كل من **الليريكوم وايبيروس** ، مع إزالة الحواجز والقيود التى كانت تفصل بين الجمهوريات المقدونية التى ألغيت فى الوضع الجديد. ومدت روما طريقاً بطول يبلغ نحو ٥٣٥ ميلاً من الغرب إلى الشرق فى شمال بلاد اليونان من ايبيدامنوس على بحر الأدرياتيك غرباً إلى كيبيلا قرب مضيق الهيلليسبونت (الدردنيل) شرقاً تعرف باسم " طريق ايجناتيوس Via Egnatia" استكمله الرومان فى تاريخ سابق على وفاة المؤرخ بوليبيوس ، وهكذا استسلمت مقدونيا لمصيرها وفقدت استقلالها السياسى .

اما فى بقية أرجاء اليونان فقد رأينا التغيرات الكبيرة التى تبرز بوضوح السياسة الاستعمارية الرومانية التوسعية هناك . ومن هذه الاجراءات والمتغيرات - كما أسلفنا - احتجاز الرومان لألف من الرهائن من صفوة الإغريق فى روما ورفض مجلس السناتو إطلاق سراحهم وأعادتهم لبلادهم . وهى خطوة تجرعها الحلف الآخى كالدواء المر، ولم تطلق روما سراح من تبقى منهم على قيد الحياة أو بعد مضى ستة عشر عاماً على احتجازهم أى حوالى عام ١٥١/١٥٠ق.م. **كما حرمت روما هذا الحلف من خيرة كوادره ذوى الخبرة والتجربة وتركوه تحت رحمة احد أزلام** الرومان المدعو " **كاليكراتيس** " الملقب بـ " **الخائن** " ولما توفى هذا الخائن كاليكراتيس عام ١٥٠ ق.م. **انطلقت شرارة غضب الحزب المناوىء للرومان فى الحلف الآخى من عقالها** واشتعلت فى صورة تمرد غاضب وظن خصوم روما أن الفرصة مواتية للأنتقام والثار لاسيما وأن الجيوش الرومانية كانت مشغولة فى ذلك الحين بمعارك فى أسبانيا وأفريقيا ومقدونيا. ومما أشعل وقود الثورة على الرومان بين الآخيين **أن الحلف**

الآخى حاول أن يجبر اسبرطة التى انشقت عليه على **العودة إلى الحلف بالقوة** . وحين اشتكت اسبرطة لروما من هذا الموقف **أصدرت روما أوامرها للآخيين بأن يتركوا اسبرطة تنعم بالاستقلال التام** ، كما وجهت نفس هذه الأوامر إلى كل من **كورنثة وأرجوس** اللتين لم تكونا ترغبان فى استقلال أسبرطة . وقد حدث ذلك فى عام ١٤٨ق.م. ، وفى **كورنثة كانت المشاعر المناوئة للرومان والمستاءة من صلفهم على أشدها ولذلك تعرض أعضاء السناتو** الذين كانوا يحملون قرار السناتو فى هذا الصدد إلى كورنثة **لهجوم من الغوغاء فى كورنثة** دون أن يتعرضوا لأدنى عقاب من جانب حكومتهم. كما تسببت رسالة تصالحية أخرى من السناتو فى **مظاهرة ثانية معادية للرومان فى كورنثة**. ثم أعلنت آخيا الحرب على اسبرطة ، وأن كانت رسالة الحرب موجهة فى الواقع نحو روما. ولذا فإن **جيشاً رومانيا بقيادة ميتيللوس هبط من مقدونيا واجتاح جيش الآخيين عام ١٤٦ عند هيراكليا**، ولكن جيشاً آخر من الآخيين بقيادة ديايوس Diaeus - أحد الزعماء المتشددين حاول أن يكبح جماح ميتيللوس عند كورنثة ، ولكن دون جدوى . ومن بعد ميتيللوس أكمل خليفته فى القيادة **لوكيوس " موميوس "** المهمة حين وصل **على رأس أربعة فرق** وقضى **على أعدائه قضاءً مبرماً عند برزخ كورنثة** ثم دخل بعد ذلك إلى كورنثة نفسها .

وبعد هذا الانتصار الساحق **قررت روما أن تلقن كورنثة درساً فى غاية القسوة وتجعلها عبرة لمن يعتبر** من جراء موقفها المعادى لروما وسفرائها اللذين أهينوا فى كورنثة. وعليه أصدر موميوس أوامره بأن **يباع من بقى على قيد الحياة من الكورنثيين فى أسواق النخاسة وأن تسوى المدينة بالأرض** ، وأن **تشحن كنوزها الفنية إلى روما**. وقامت روما **بحل الحلف الآخى وكل الأحلاف المناوئة للرومان** فى بلاد الأغريق التى صارت ولاية رومانية باسم " ولاية أخايا" . أما المدن التى ظلت موالية للرومان

فقد اعفيت من الضرائب وتمتعت بنوع من الحكم الذاتى الصورى، والغيت انظمة الحكم الديمقراطية فى هذه المدن وحلت محلها انظمة حكم قائمة على اساس مقدار الثروة " تيموقراطية ".

وهكذا اقتلعت روما مدينة يونانية مزدهرة من على وجه الأرض فى انتقام بشع لمجرد تعرض سفرائها للإهانة من اهل كورنثة. ولكن هناك رأياً آخر يفترض أن هذا لم يكن سوى سبباً واهياً وذريعة شكلية لتدمير كورنثة تخفى وراءها اسباباً حقيقية اكثر اقناعاً . ومن اهم هذه الأسباب ان كورنثة بثراءها وموقعها التجارى الاستراتيجى المتميز[٩] وسط بلاد اليونان وتحكمها فى خليج وبرزخ كورنثة الذى يربط شمال بلاد اليونان بجنوبها وشرقها عند بحر إيجة بغربها على البحر الأيونى كان يمثل عقبة كئوداً تحول دون تحقيق طموحات واطماع رجال الأعمال الرومان النهمين الذين كانوا يودون السيطرة على مجال المال والأعمال والتجارة فى بلاد اليونان دون منافس . لذلك ربما او عز هؤلاء إلى حكومتهم فى روما بهذا الخطر وبالغوا فى إبراز صلف كورنثة وتحديها لروما بما يوغر صدور الساسة هناك إلى هذا الحد الانتقامى .

وبذلك ضربت المراكز التجارية المناوئة لروما فى بلاد اليونان : رودس وكورنثة ، وإن كانت ضربة كورنثة قاصمة وقاتلة ! .

الفصل الحادى عشر

روما واستكمال تسوية الأوضاع فى غرب المتوسط

روما واستكمال تسوية الأوضاع فى غرب المتوسط :

رأينا كيف تمكنت روما من السيطرة التامة على المشهد السياسى فى شرق البحر المتوسط بقواتها الضخمة وجنرالاتها الأقوياء، وكذلك بأساليب أخرى مثل دبلوماسية القوة المتغطرسة كما رأينا فى تعامل روما مع يومينيس الثانى ملك برجامون وأنطيوخوس الرابع السليوقى عند حصاره للإسكندرية عام ١٦٨ ق.م. ، وأيضاً باللجوء إلى الحرب الاقتصادية والتجارية كما فعلت مع رودس ، وفى الوقت ذاته على مدى الفترة الممتدة من بدايات القرن الثانى حتى عام ١٣٣ ق.م. لم تغفل روما مصالحها فى غرب البحر المتوسط بعد أن انتصرت على قرطاجة وقلمت أظافرها وحلت محلها فى مناطق نفوذها الخارجية لاسيما فى أسبانيا. فعلت روما ذلك لكى تحكم قبضتها وسيطرتها على كافة أرجاء البحر المتوسط لكى تصبح لها وحدها السيادة دون منازع. ولنقدم الآن فكرة عن الحملات الرومانية فى أسبانيا ثم الحرب البونية الثالثة التى انتهت بتدمير قرطاجة نهائياً عام ١٤٦ ق.م. وبذلك ضمنت روما السيطرة النهائية على غرب المتوسط وأزالت أشواكاً كانت فى جانبها فى أسبانيا وهواجس كانت تؤرقها مخافة ظهور بطل قرطاجى آخر مثل هانيبعل يقض مضاجعها ويعكر صفو الأحلام الإمبراطورية لروما.

(أ) الرومان فى أسبانيا[١٠] :

بعد أن طرد سكبيو الأفريقى القرطاجيين من أسبانيا وبدأ يضع حجر الأساس للنفوذ الرومانى فى أسبانيا عام ٢٠٦ ق.م. كان الرومان قد وضعوا أيديهم على جزء صغير من شبه جزيرة أيبيريا وإن كان هذا الجزء هو أقيم وأغنى مناطق شبه الجزيرة قاطبة : فقد استولوا على وادى الإيبرو الأدنى فى الشمال وكذلك على الساحل الشرقى ووادى بايتيس.

وهكذا ظلت مناطق القبائل الداخلية القصية إلى الغرب - لفترة - بعيدة عن أيدى الرومان ، كما لم تخضع للنفوذ القرطاجى من قبل باستثناء بعض المناوشات البسيطة من جانب هانيبعل. **لكن روما شنت بعد هذا الفتح المبدئى عام ٢٠٦ سلسلة طويلة من الحروب التى تواصلت حتى عام ١٣٣ ق.م. فى أسبانيا لكى تؤمن حدود المناطق التى أخضعتها وكذلك لتستغل ثراء هذه المناطق الداخلية وثرواتها التى سال لها لعاب الرومان.** هذه الحروب أثارت غضب واستياء القبائل الأسبانية ودفعتها إلى خوض صراع شرس ضد الرومان تجلت فيه كل نوازع القسوة والغدر - إلى جانب لشجاعة - من جانب الرومان.

حين طرد سكبيو الإفريقى القرطاجيين من أسبانيا فعل ذلك وهو يتمتع بسلطان "الإمبريوم" الاستثنائى بصفته مواطناً خاصا Privatus عُقدت عليه آمال الأمة، وقد حققها. وسارت روما على نفس هذا المنهج الاستثنائى فى تعيين من يتولى أمر أسبانيا فى الفترة من ٢٠٥ إلى ١٩٨ ق.م. واعتباراً من ١٩٧ زاد عدد من يشغلون وظيفة "البرايتور" من أربعة إلى ستة سنوياً ، إذ أصبح اثنان من هؤلاء الستة يتوليان حكم أسبانيا التى قسمت إلى ولايتين (أسبانيا القريبة وأسبانيا البعيدة) بعد انتهاء عام البرايتورية فى روما. ولكن البراترة الذين كان يسند إليهم **حكم ولايتى أسبانيا** كانوا يتمتعون **بامتياز إضافى** وهو **تمتعهم بوضع القناصل السابقين والإمبريوم البروقنصلى** وكان يرافق الواحد منهم إثنا عشر حارساً Lictores بدلاً من الستة الذين كانوا يرفقون البراترة فى العادة. وكانت ولاية **أسبانيا القريبة Hispania Citerior** تضم وادى الإيبرو والساحل الشرقى حتى جنوب قرطاجة، أما **أسبانيا القصية أو البعيدة** Hispania Ulterior فكانت تتألف من وادى بايتيس الغنى بموارده والذى كان سكانه قد إلفوا الحكم الأجنبى من أيام القرطاجيين ، على العكس

من سكان القسم الشمالى من أسبانيا الذين لم يعتادوا الخضوع للحكم الأجنبى.

لقد **رحب الأسبان فى البداية بالرومان** الذين تظاهروا بأن هدفهم حماية هؤلاء الأسبان وتخليصهم من الحكم القرطاجى ، لكن سرعان ما استيقظ الأسبان على حقيقة مريرة وهى أنهم استبدلوا مستعمراً بآخر، وأن الرومان لا يفضلون القرطاجيين فى شىء، بل لعل **القرطاجيين كانوا أهون وأرحم من الرومان**. إذ قام الرومان بتجنيد وتعبئة **قوات حليفة من الأسبان** auxilia **وفرضوا جزية على الأسبان** فى شكل **ضريبة ثابتة محددة** Stipendium تدفع فى الأغلب فى صورة نقدية من سبائك الفضة والنحاس ثم بعد ذلك فى صورة **عملة فضية ونحاسية بالمعايير الرومانية**، وكان جزء من هذه الضريبة يُدفع عيناً فى صورة حبوب محلية. **وبالغ الولاة الرومان فى عمليات ابتزاز الأسبان ونهب ثرواتهم بجشع شديد** يفوق كثيراً مبالغ الضرائب المقررة وهو ما أثار المرارة والضغينة فى نفوس الأسبان تجاه الرومان وفتح الباب أمام صفحة مخزية من تاريخ استغلال الرومان البشع لولاياتهم الجديدة.

وسرعان ما انعكس رد فعل الأسبان تجاه هذه السياسة الرومانية المتجاوزة **إذ اجتاح أسبانيا تمرد هائل احتجاجاً على سياسات الرومان وذلك عام** ١٩٧ وبدأ هذا التمرد فى المدن الفينيقية فى الجنوب - بل وبعض حلفاء روما مثل قادس - وامتد شمالاً إلى المرتفعات الوسطى واستمر على مدى العام التالى ١٩٦ حيث كانت روما منشغلة بحروبها فى بلاد اليونان. وفى عام ١٩٥ ق.م. تقرر زيادة الفرق الرومانية فى أسبانيا إلى أربعة من خلال إرسال **كاتو الأكبر** بجيش قنصلى إلى هناك. وقد تمكن كاتو من إحراز **نصر على أعدائه فى الشمال** لكنه حين زحف نحو الجنوب إلى قبائل Turdetani كانت تلك القبائل قد لقيت دعماً من المرتزقة من

القبائل الكلتية -الإيبرية Celtiberi - مما جعل كاتو يتراجع مرة أخرى إلى الشمال **لشن هجمات غير ناجحة على بعض المدن الكلتية الأيبيرية** مثل "سيجونتيا" و "نومانتيا" رغم انه لم يكن فى حالة حرب صريحة مع القبائل الكلتية - الأيبيرية. **هذه الحملة من جانب كاتو فتحت باب العداء صريحاً على مصراعيه مع تلك القبائل** واطاحت بكل امل فى تحقيق السلام معها وتواصلت حروب الرومان ضدهم حتى عام ١٣٣ ق.م. وبعد ذلك عاد كاتو أدراجه إلى **وادى الإيبرو ونشر السلام فى ربوع القبائل الجبلية المشاغبة فى كاتالونيا ووضع نظاماً للعمل فى المناجم** وعاد إلى روما ليقيم احتفالاً بانتصاره ولكن حملة كاتو لم تقمع روح التمرد والثورة فى الأسبان وإن كانت قد أنعشت الخزانة الرومانية.

وبعد ان يمم كاتو شطر روما تواصلت حروب الرومان فى شبه الجزيرة الأيبيرية واتسع نطاقها حتى **مناطق اللوسيتانى** (بجنوب البرتغال حالياً) اللذين **هزموا على يد سكبيو ناسيكا" قرب "إيليبا" عام ١٩٤**. ولكن هؤلاء عادو **فانتصروا على ايميليوس باولوس عام ١٩٠** ولكنه استرد زمام الموقف فى العام التالى ١٨٩. **وانزل الرومان هزيمة اخرى بـ "اللوسيتانى"** - الذين كانت تؤازرهم قوات من القبائل الكلتية الأيبيرية - **عام ١٨٥ ق.م.** بعد أن زاد الرومان قوتهم الضاربة فى أسبانيا فى الفترة من ١٨٦ إلى ١٧٩ إلى اربعة فرق تضم من اربعين إلى خمسين ألف مقاتل.

ومن ابرز القادة الذين حاربوا فى أسبانيا فى تلك الفترة البرايتور تيبريوس **سمبر ونيوس جراكوس (١٨٠- ١٧٨ ق.م.)** الذى احرز **نصراً حاسماً على القبائل الكلتية - الأيبيرية قرب "كونتربيا Contrebia"** واقام معهم **معاهدة** وابرم **تحالفاً** مع قبائل الـ "اريفاكى Arevaci" المحاربة (إحدى القبائل الأيبيرية النائية). ويحسب لجزاكوس أنه سار على نفس نهج سكبيو الإفريقى ومن قبله هاسدروبعل القرطاجى فى

سعيه **لاكتساب مودة وصداقة القبائل الأسبانية بدلاً من التعامل العنيف معهم** والذى كان نهجاً وخيم العواقب لبقية القادة الرومان، ولطالما حظى اسم سمبرونيوس جراكوس **بالتكريم والاحترام من جانب الأسبان** نظير عدله وحكمته واعتداله معهم. وقد بذل جراكوس محاولات لصبغ المناطق الأسبانية الخاضعة للرومان **بالصبغة الرومانية** من خلال إقامة بعض المدن والمستوطنات الرومانية مثل **جراكورس Graccuris** فى وادى الإيبرو الأعلى ، **وقرطبة Corduba فى جنوب أسبانيا** التى أقيمت بعد ذلك بمدة (١٦٨ أو ١٥١ ق.م.) تقليداً لسابقتها كمركز للحضارة الرومانية هناك .

وهكذا أسفرت **"الحرب الرومانية الأولى"** ضد القبائل الكلتية الأيبيرية (١٨١ - ١٧٩) عن إخضاع القبائل الأسبانية الجنوبية والتحالف مع القبائل الشمالية. وبعدها ساد العلاقات بين الرومان والأسبان **سلام نسبى استمر ما يقرب من ربع قرن**. ومن الجدير بالذكر أن البرايتور سمبرونيوس جراكوس صاحب هذا الفضل قد كوفئ عند عودته إلى روما بإقامة احتفال نصر له وانتخب قنصلاً فى العام التالى١٧٧ ق.م.

لكن **حالة السلام النسبى** بين الرومان من ناحية وكل من اللوسيتانيين (القبائل البرتغالية) والقبائل الكلت - ايبيرية **لم تستمر** بسبب ممارسات الرومان السيئة - ونهبهم المستمر. لذلك فقد اندلعت ضدهم **الثورات فى أسبانيا والبرتغال** : إذا اشتعلت نيران الحرب والثورة ضد الحكم الرومانى من جانب **قبائل اللوسيتانيين من ١٥٤ إلى ١٣٨ ق.م.** ولم يتمكن الرومان من إخمادها إلا **بالغدر والخديعة** ، وفى نفس التوقيت تقريباً انتقلت **عدوى الثورة** من اللوسيتانيين إلى **القبائل الكلت - ايبيرية** واستمرت الحرب بين الرومان وبينهم مشتعلة زهاء **عشرين عاماً من ١٥٣ إلى ١٣٣ ق.م.**

اما عن الحرب بين الرومان واللوسيتانيين (الحرب الثانية من ١٥٤ إلى ١٣٨ ق.م.) فقد اندلعت عام ١٥٤ حين اغار اللوسيتانيون على الحدود الرومانية فى أسبانيا والحقوا الهزيمة باثنين من البرااترة، كما تمكنوا فى العام التالى ١٥٣ من إلحاق الهزيمة بـ "مومميوس" -الذى دمّر كورنته عام ١٤٦ ق.م. كما رأينا - وبعثوا بالأعلام الرومانية التى وقعت فى أيديهم إلى القبائل الكلت - إيبيرية لحثها على الثورة ضد الرومان ، وأغاروا على بايتكا وربما عبر البعض منهم إلى شمال أفريقيا. ودخلوا بعد ذلك فى معاهدة مع الرومان (مومميوس وخليفته سولبكيوس جالبا) عام ١٥٢ ثم نقضوها فى العام التالى **وأحرزوا نصراً كبيراً على جالبا عام ١٥١ ق.م.** ولكن سرعان ما وصلت تعزيزات إلى جالبا من الشمال بوصول القائد لوكولوس، ولكنه وجد ان **الخديعة والغدر** ستيسر مهمته بصورة أفضل. فاغرى اللوسيتانيين **بالصلح والخضوع** ثم **جردهم من السلاح وفصل وفرّق** بينهم ثم أعمل فيهم **مجزرة كبرى عام ١٥٠** بصورة لطخت وشوهت اسم وسمعة روما التى حرصت فى السابق على ترويج دعاية الخصم الشريف الذى لا يطعن خصومه من الخلف. **كما اتبع زميله لوكولوس** نفس النهج مع قبائل الـ Vaccaei فى شمال غرب أسبانيا فى العام السابق ، وإن كان هؤلاء لم يحصلوا على تعهدات رسمية من روما عكس اللوسيتانيين ، لقد **سقطت روما - من الناحية الأخلاقية** - عن عرشها القديم، وتشهد على ذلك أطلال كورنثة - كما رأينا - وأطلال قرطاجة ونومانتيا كما سنرى بعد قليل.

ولكن كان **من الناجين من مجزرة سولبكيوس جالبا** راعى اسمه **"فيرياثوس** Viriathus " استطاع إقناع نحو **عشرة آلاف من اللوسيتانيين** الناجين **بالعمل تحت قيادته لانتزاع حريتهم السليبة من الرومان** الغاصبين. وظل فيرياثوس ورجاله صامدين يتحدون آلة الحرب الرومانية الباطشة **ثمان سنوات أحرزوا خلالها الكثير.** فقد شن هؤلاء **حرب عصابات**

منظمة ضد الرومان وكالوا لهم الضربات الموجعة فى كل مكان دون ان تكون لهم - فى أول الأمر - قاعدة ثابتة أو معروفة يمكن للرومان اصطياد قياداتهم فيها .

وفى الفترة التالية من كفاحه ضد الرومان استقر فى موقع حصين فى منطقة **"كاربيتانيا"** على مقربة من موطنه (كانت هذه المنطقة تقع إلى الشمال الغربى من طليطلة Toletum) ، ومن هناك **وسع مناطق نفوذه إلى كل المنطقة المحيطة** واستولى على عدد من المدن المحيطة بتلك المنطقة مثل "سيجوفيا" و "سيجوبريجا" ، وأخيراً استولى على عدد من المدن المحيطة بقرطبة فى الجنوب (حدث ذلك فى الفترة من ١٤٦ إلى ١٤١). وعلى مدى هذه الفترة **لقى الرومان عدداً من الهزائم فى** حربهم ضد فيرياثوس **حتى بعد أن وصلتهم تعزيزات من روما تقدر بفرقتين من الجيوش** القنصلية اعتباراً من عام ١٤٥ ق.م. بل لقد حدث **عام ١٤١ / ١٤٠ ق.م.** أن حوصر القائد الرومانى فابيوس ماكسيموس سيرفيليانوس على أيدى قوات فيرياثوس ، ولكن فجأة وعلى عكس المتوقع أبرم فيرياثوس اتفاقية معه تسمح لسيرفيليانوس وقواته بالإنسحاب، وتم التصديق على هذه الاتفاقية فى روما.

ولكن القائد الذى تلا سيرفيليانوس فى قيادة الجيش الرومانى وهو **سيرفيليوس كايبيو** Caepio أخذ على عاتقه تأجيج نيران الحرب ضد فيرياثوس من جديد. وبدأت المرحلة الأخيرة من الحرب وفيها أجبر فيرياثوس على **التراجع والتزم النهج الدفاعى هذه المرة** ، وتقدم كايبيو من الجنوب إلى لوسيتانيا. وبعد أن **لقى كايبيو هزيمة أمام فيرياثوس** تمكن من شراء **ذمم ثلاثة من أصدقاء فيرياثوس وأوعز إليهم بذبح قائدهم وصديقهم** وهو يغط فى سبات عميق فى خيمته متشحاً بكامل عدته وسلاحه، وكان ذلك عام ١٣٩ ق.م. وهكذا - بهذه الطريقة

الخسيسة - وضعت الحرب ضد اللوسيتانيين وزعيمهم فيرياثوس أوزارها رغم توغل القائد الرومانى **جونيوس بروتوس** - الذى خلف كايبيو - فى لوسيتانيا إلى الشمال واخضع البرتغال باكملها تقريباً. **وعامل بروتوس سكان لوسيتانيا بقدر كبير من الاعتدال على عكس الكثير من سابقيه.**

وهكذا **سقط البطل اللوسيتانى فيرياثوس غدراً وغيلة** بعد أن أبلى بلاءً حسناً ضد الرومان واظهر من آيات الشجاعة والتفوق فى حرب العصابات وكان ذا شخصية مُلهمة وجذابة تحظى بالإحترام وتفرضه. لكنه لم ينجح فى تنظيم رجاله بشكل ملائم وفى الحصول على معاونة القبائل الكلت - ايبيرية وفى دمج القبائل المختلفة فى أمة واحدة.

- *قمع روما لثورات الكلت - ايبيريين ونومانتيا (١٥٣- ١٣٣ ق.م.)*

سبق ان ذكرنا ان اللوسيتانيين قد اندلعت ثورتهم الثانية ضد الرومان عام ١٥٤ ق.م. ، وانهم فى العام التالى دحروا القائد موميوس وبعثوا بالأعلام الرومانية التى استولوا عليها من جيش موميوس المهزوم إلى القبائل **الكلت - ايبيرية لحثها على الثورة.** وقد **أتت هذه الدعوة التحريضية اكلها** إذ قامت قبائل الـ Belli بتحصين بلدتهم **"سيجيدا"** ورفضوا أن يكفوا عن ذلك ، بل وحرضوا جيرانهم من القبائل فى منطقة كلت - ايبيريا القريبة على الثورة. وعلى أثر ذلك بعث السناتو بالقنصل **كوينتوس فولفيوس نوبيليور** على رأس أربع فرق رومانية للتعامل مع تمرد القبائل الكلت - ايبيرية ؛ ولكن قبائل الـ Belli هجروا "سيجيدا" **واعتصموا بقبائل الـ** Arevaci فى منطقة كلت - ايبيريا القصية **وبذلك مدوا نطاق الثورة إلى هناك.** وتقدم نوبيليور بقواته من قاعدته التى اقامها فى **اوكيليس** نحو الشمال الشرقى، وبينما هو يعبر بقواته من أحد الوديان الضيقة **المؤدية إلى نومانتيا** - حيث معسكره الصيفى فى المازان إلى

الجنوب منها - هاجمته قبائل الـ Arevaci وقتلت نحو ستة آلاف من رجاله فى ٢٣ أغسطس عام ١٥٣ ق.م. وعسكر نوبيليور بعد ذلك على مقربة من نومانتيا التى اعتصمت بها قوات القبائل وحاول اجتياحها ولكنه لم يفلح رغم استعانته بالأفيال الحربية، هذه الظروف أجبرت نوبيليور وقواته على البقاء فى معسكرهم الشتوى (١٥٣ - ١٥٢ ق.م.) فى برد قارس ومصاعب جمة دون أن ينجزوا شيئاً يذكر.

وفى العام التالى ١٥٢ حلَّ ماركوس كلاوديوس ماركيللوس فى القيادة محل نوبيليور فاستولى على أوكيليس ووادى نهر جالون الثائر معقل قبائل الـ Belli. وعرض ماركيللوس على كافة القبائل بمن فيها الـ Arevaci شروط صلح كريمة وملائمة ، وهو ما شجع هذه القبائل على إرسال وفود منها إلى روما للتفاوض بشأن حريتهم واستقلالهم. لكن روما كانت قد وصلت فى ذلك الحين إلى مرحلة غطرسة القوة وشربت من كأس الانتصارات العسكرية فى الشرق وخضوع القادة والحكام هناك لها حتى الثمالة ، ولم تكن مستعدة سوى لسماع ما يرضى غرورها فقط فانهارت المفاوضات.

وعقب انهيار المفاوضات عسكر ماركيللوس وقواته على أحد التلال شمال نومانتيا وتوصل إلى سلام مع النومانتيين فى مقابل دفعهم مبلغاً كبيراً من المال مثلما فعل جراكوس من قبل مع الأسبان عام ١٧٩ ق.م. لكن القنصل الجديد الذى حل محل ماركيللوس عام ١٥١ ق.م. وهو ليكينيوس لوكولوس - الذى سبقت الإشارة إليه - استغل فرصة استقرار السلام فى تلك الأنحاء وهاجم بضراوة ووحشية بالغة قبائل "الفاكاى Vaccaei " المسالمة واستولى على إحدى المدن بالغدر والخديعة، ولكن ذلك زاد من ضرورة المقاومة واستبسال الأهالى فى مدن أخرى ضد قواته. ولما لم يحقق مآربه وأصابه الخذلان انسحب إلى " أسبانيا القصية Hispania

Ulterior" ليقدم العون لزميله "جالبا" فى حربه ضد اللوسيتانيين . وبعد ذلك **ساد السلام بين القبائل الكلت - ايبيرية زهاء سبع سنوات.**

وبعد مُضى هذه الفترة من الهدوء النسبى فإن النجاحات **والانتصارات المبدئية التى احرزها فيرياثوس زعيم اللوسيتانيين** ضد الرومان منذ بدأ كفاحه المشهود ضدهم عام ١٤٧ ق.م. **شجعت القبائل الكلت - ايبيرية على معاودة الثورة ضد الرومان عام ١٤٣ ق.م.** وفى بداية أعمال الثورة كانت نومانتيا لا تزال منيعة لذلك لم يهاجمها القائد الرومانى فى ذلك العام **ل. كايكليوس ميتيللوس** وغزا قبائل وادى نهر جالون فى منطقة كلت - ايبيريا القريبة كما تقدم نحو قبائل الـ Vaccaei فى الشمال الغربى ليقطع الإمدادات عن نومانتيا ، وكان ذلك على مدى **عامىْ ١٤٣ و ١٤٢ ق.م.** وخلف ميتيللوس فى مهمته **قائد رومانى فاشل هو كوينتوس بومبيوس** اخفق فى اجتياح نومانتيا التى عسكر على مقربة منها رغم قيادته لثلاثين الف مقاتل رومانى فى حين لم يتجاوز عدد المدافعين عنْ نومانتيا الثمانية آلاف مقاتل ، وذلك على مدى **عامى ١٤١ ، ١٤٠ ق.م.** وعانت قواته من البرد القارس ومرض الدوسنتاريا. وحاول التوصل إلى سلام مع النومانتيين ثم نقض بعهده وحوكم محاكمة عسكرية فى روما لاحقاً لابتزازه أموالاً كانت مخصصة لترتيب تلك المعاهدة ولكنه أفلت من العقاب. ثم توالى بعد ذلك على قيادة تلك الحملة قادة آخرون مثل **بوبيليوس لايناس Popillius Laenas (١٣٩-١٣٨ ق.م.) الذى أحبط هجومه على نومانتيا** ولم يسفر عن شىء. وأتى بعده قائد آخر هو **مانكينوس Mancinus عام ١٣٧ ق.م.** وهو العام الذى شهد **كارثة وعاراً على روما، إذ حوصر هذا القائد وقواته** فى أحد الممرات وهو يحاول الإنسحاب من نومانتيا إلى نهر الإيبرو **واضطر إلى الاستسلام مع عشرين ألفاً من قواته** وتكفل الشاب تيبريوس جراكوس - إكراماً لأبيه القنصل الأسبق سمبرونيوس جراكوس ذى السمعة الطيبة فى أسبانيا -

بتحمل المسئولية عن تنفيذ بنود إتفاقية الاستسلام. لكن مجلس **السناتو رفض شروط الإتفاقية بصورة مشينة** وجعل من القائد **مانكينوس كبش فداء** لهذا الرفض إذ أرسله السناتو - **عارياً ومقيد اليدين إلى ظهره** - إلى نومانتيا ليفعل به النومانتيون ما يشاءون. ولكن اهل نومانتيا ابدوا **كرماً ابياً** ورفضوا هذا العرض رغم انه يحقق لهم نصراً رائعاً مشهوداً، ، ولكنهم رفضوا هذا النصر المجلل بالخسة والغدر.

وهكذا لطخت أيدى الرومان فى أسبانيا فى حربهم ضد الكلت - ايبرين واللوسيتانيين بأفعال مشينة فاضحة من نقض للعهود والمواثيق ثم إعمال المجازر بين الأبرياء مثلما فعل لوكولوس وجالبا ، أو ابتزازا الأموال ونقض العهود والفشل العسكرى كما فعل كونيتوس بومبيوس ، أو الاستسلام المشين ونقض المعهود مثلما فعل مانيكينوس ومجلس السناتو.

وهكذا **توالت أحداث هذه الحرب ضد نومانتيا المنيعة قلعة الكلت - ايبريين حتى وصلنا إلى عام ١٣٥ ق.م**. فى ذلك العام انتخب الرومان **بوبليوس كورنيليوس سكبيو ايمليانوس** (الإفريقى الأصغر / الذى سنتحدث عنه تفصيلياً عند الحديث عن تدمير قرطاجة فى الحرب البونية الثالثة بعد قليل) **قنصلاً رغم أنه لم يرشح نفسه للقنصلية** لكن أجمعت عليه إرادة الرومان لمواقفه البطولية السابقة. ومن الجدير بالذكر أن سكبيو أيميليانوس كان عام ١٣٦ ق.م. من بين أعضاء السناتو الذين رفضوا التصديق على معاهدة الاستسلام التى ابرمها القنصل هوستيليوس مانكينوس مع الكلت - ايبريين - برعاية وترتيب صهر ايميليانوس وشقيق زوجته تيبريوس جراكوس، وهو ما أثار ضيق وحنق تيبريوس رغم أن أيميليانوس أنقذه من أن يلحق به أى عار شخصى. وبعد **أن تقلد سكبيو أيميليانوس القنصلية كلف بقيادة الحملة على نومانتيا** لتعويض الإخفاقات الرومانية السابقة. وبدلاً من أن يصطحب أيميليانوس معه إلى

أسبانيا القوات الرومانية التقليدية من جنود الفرق **اتخذ جيشاً من المتطوعين من مريديه وأتباعه** وسرية مؤلفة من خمسمائة من أصدقائه وتابعيه **كحرس شخصيين له** ليتولوا حمايته وهو يعيد تنظيم جيشه ، وكانت هذه الجماعة أقرب ما تكون إلى النموذج الأول والرائد لقوات " الحرس البريتورى" التى قامت على حراسة الأباطرة فى العصر الإمبراطورى فيما بعد. وكان من أولى مهام سكبيو أيميليانوس فى أسبانيا **إستعادة الكفاءة والهمة والحيوية إلى القوات الرومانية المرابطة هناك** والتى نخر سوس الإنحلال والترهل فى عظامها : فأمر بتسريح وطرد خدم المعسكرات المرافقين للجند وكذلك النساء والعرافين، **وجعل الجند يحيون حياة الجندية الخشنة** ويستعملون **الفاس فى الزراعة** كما يستخدمون **السلاح فى القتال**. ولكن رغم أن روح النظام والجدية الحقة قد دبت فى أوصال هذا الجيش إلا أنه **لم يكن بوسعه أن يجتاح نومانتيا المنيعة** ، ولذلك اعتزم أن **يحكم الحصار عليها حتى تهلك جوعاً** . لذلك انطلق بقواته إلى شمال نهر الايبرو ثم **اتجه غرباً نحو قبائل الفاكايين وأخضع بعض مدنهم ثم اقترب من نومانتيا من جهة الغرب** بمحاذاة نهر الـ "دورو Douro" **فى خريف عام ١٣٤ ق.م.**

وتمثلت **خطة أيميليانوس فى حصار نومانتيا** فى أن أقام - خلف السياج الدفاعى للمدينة - **سبعة معسكرات تحيط بالمدينة من كل جانب وربط بينها بسور منيع أقام فوقه أبراجاً** ، وبذلك أحكم الحصار وضيق الخناق تماماً على المدينة. وكان المعسكران الأساسيان يقعان إلى الشمال وإلى الجنوب من نومانتيا وكان كل منهما تضم فرقة رومانية ، وكان **مقر قيادة سكبيو أيميليانوس فى المعسكر الشمالى**. أما المعسكرات الخمسة الباقية فقد كان جنودها وقواتها من حلفاء روما من الإيطاليين والأيبريين حيث كان معه ما يناهز عشرين ألفاً من الإيطاليين وأربعين ألفاً من الأيبريين. **ورغم أن عدد المقاتلين المحاصرين من أهل نومانتيا لم**

يـزد عـن **أربعـة آلاف مقـاتل** إلا انهـم **صـمدوا صـموداً بطولياً ومأساوياً لمدة ثمانية أشهر** ، ووصلت المجاعة بينهم إلى درجة أكل لحوم البشر. وواصل سكبيو ايميليانوس حصاره العنيف للمدينة ورفض تماماً قبول أى عرض مـن جانـب النومانتـيين أقـل مـن **الاستسلام دون قيد أو شرط**. ولما وصلت المجاعـة بالنومانتـيين إلى أقصى مداها لم يكـن هـناك بـدّ مـن الاستسلام. ودون أن يستشير ايميـليـانوس مجلس السـناتو قـام **بإحراق المدينة وسواها بالأرض** - كمـا فعـل مـع قـرطاجة مـن قـبل عـام ١٤٦ ق.م. - حـتى لقـد غطت المديـنة طبقة ذات لون أحمر من المحروقات تصرخ من هول الكارثة - كان ذلك فى شهر أغسطس من عام ١٣٣ ق.م.

وقد شهد الدخان المتصاعد وألسنة اللهب المستعرة إلى عنان السماء عدد كبير من المشاهير من الرومان وحلفائهم لعل من أبرزهم **جايوس** جراكوس صهر ايميليانوس أخو زوجته وكان آنذاك ضابطاً شاباً فى سلاح الفرسان ، **وجايوس ماريوس والشاعر لوكيليوس** والأمير النوميدى الشاب **يوجورثا والمؤرخ بوليبيوس** الصديق الصدوق لأيميليانوس ، وكلهم مشاهير سيشار إليهم بالبنان فيما بعد.

وبسقوط نومانتيا استقرت السيادة الرومانية فى أسبانيا ولم يعد هناك ما يعكر صفوها.

روما وقرطاجة ... مرة أخيرة الحرب البونية الثالثة [11]

رأينا كيف فرضت روما شروط صلح قاسية على القرطاجيين بعد انتصار الرومان فى موقعة "زاما" عام ٢٠٢ ق.م. ولعل أقسى هذه الشروط البند الخاص بمنع قرطاجة من شن أى حرب دفاعية أو هجومية ضد أى من حلفاء روما إلا بإذن صريح من مجلس السناتو فى روما ... وهو ما يُعد نوعاً من **الوصاية على قرطاجة** وفقداناً لاستقلالها فى واقع الأمر. كما كانت قرطاجة مطالبة بدفع تعويضات حرب باهظة للرومان مقدارها عشرة آلاف تالنت من الفضة على أقساط سنوية لمدة خمسين عاماً. ولما كان يحكم قرطاجة **حكومة أقلية فاسدة** تسعى وراء مصالحها الذاتية فقد وقع عبء دفع هذه التعويضات على المواطنين من الطبقات الدنيا لأن الخزانة القرطاجية كانت خاوية على عروشها. وإزاء هذا الوضع المتردى **استقر رأى مواطنى قرطاجة على انتخاب هانيبعل** كأحد شاغلى المنصبين الرئيسيين (سوفيتيس) عن عام ١٩٦ **ليطهر الجهاز الإدارى فى الدولة من الفساد**.

وعلى الفور قام **هانيبعل** بتوجيه ضربة إلى قوى الأقلية الحاكمة، وكان يلجأ إلى **الجمعية الشعبية** لتدلى بدلوها فى الأمور التى يختلف فيها مع مجلس الشيوخ القرطاجى وكانت **الجمعية الشعبية تؤازره فى مواقفه**، وشن هانيبعل فى الجمعية الشعبية **هجوماً قوياً على هيئة القضاة القرطاجية** المكونة من ١٠٤ عضواً واستصدر من الجمعية قانوناً بأن تكون عضوية هذه الهيئة بالانتخاب سنوياً وألا يتولى أحد هذا المنصب عامين متعاقبين. وأكمل هانيبعل انتصاراته على الطغمة الحاكمة الفاسدة حين أعاد باقتدار **تنظيم عوائد الدولة وشجع التجارة والزراعة**. ومن الواضح أن إصلاحاته قد **أتت أكلها** على مدى فترة قصيرة حتى أن **قرطاجة عرضت على روما عام ١٩١ ق.م. أن تسدد بقية مبلغ التعويضات**

للرومان كاملاً ولكن الرومان رفضوا حتى تظل قرطاجة مدينة لهم وهو ما يدل بجلاء على **رخاء ويسر قرطاجة** فى حين أن روما رفضت عام ١٩٩ أن تتسلم من قرطاجة قسط التعويضات عن ذلك العام لأن العملة المقدمة من القرطاجيين كانت مغشوشة ومقدار الفضة فيها ضئيل.

هذا **النجاح الباهر الذى أحرزه هانيبعل** فى إدارة الدولة القرطاجية أثار حفيظة **وحقد مناوئيه من الساسة القرطاجيين** من الحرس القديم الفاسد الذين تكتلوا للإطاحة به بأى ثمن ، وعرفوا أن خير سبيل لذلك هو إثارة غضب روما - التى لم تنس ثأرها منه بعد - عليه ، فابلغ هؤلاء روما وشاية مفادها أن **هانيبعل يحيك المؤامرات ضد روما بالتعاون مع انطيوخوس الثالث** ملك السليوقيين. وأثار هذا لغطاً وجدلاً سياسياً واسعاً فى روما عام ١٩٥ وانقسمت الآراء بشأنه إلى فريقين: كاتو الأكبر الذى كان قدتولى القنصلية لتوه فى ذلك العام وكان خصماً سياسياً لدوداً لآل سكبيو المنفتحين على الثقافة الهيللينية. وقد اعتبر **كاتو أن سكبيو الإفريقى** كان **كريماً ومتسامحاً** أكثر من اللازم فى بنود السلام التى ابرمها مع القرطاجيين بعد "زاما" ، وأنه بذلك التسامح قد **منح الفرصة لهانيبعل للعودة إلى الحلبة السياسية** مرة أخرى والإطاحة بنبلاء قرطاجة واعتلاء سدة الحكم **والتآمر مع خصوم روما** فى شرق المتوسط. اما الفريق الآخر فكان على رأسه **سكبيو الأفريقى** - قاهر هانيبعل فى زاما - وكان يرى انه **لا يليق بكرامة الرومان أن يدسوا أنفهم فى أمور السياسة الحزبية القرطاجية ومناوراتها** ، وانه **لا ينبغى** التعامل مع هانيبعل على **أنه مجرم بناء على اتهامات من خصوم سياسيين له لم تثبت صحتها**. ولكن كانت **الغلبة** فى هذا الجدل الحامى الوطيس **لكاتو وتياره** ضد صوت العقل الذى يمثله سكبيو، وأرسلوا ثلاثة مبعوثين إلى قرطاجة بحجة تسوية مسائل حدودية مع ماسينيسا أما الهدف الفعلى فكان الاحتجاج لدى مجلس الشيوخ القرطاجى - المناوئ لهانيبعل - على

تآمر هانيبعل مع أنطيوخوس وبالتالى إلقاء القبض عليه وحمله إلى روما. وأدرك هانيبعل الغرض الحقيقى للمبعوثين وفرّ من قرطاجة فى جنح الظلام ولجأ فى نهاية المطاف إلى بلاط الملك السليوقى.

وبعد فرار هانيبعل من قرطاجة ضعف الحزب المناوئ لروما فى قرطاجة بدرجة كبيرة ، وبدأت وتيرة الهوان القرطاجى فى التعامل مع روما تتسارع وأصبحت قرطاجة تبعث بكميات كبيرة من الحبوب إلى روما لدعم الجيوش الرومانية المحاربة فى اليونان والشرق ، بل وتقدم لها العون العسكرى والبحرى وقت الحاجة. وهكذا سادت حالة من السلام والهدوء علاقة روما وقرطاجة على مدى النصف الأول من القرن الثانى ق.م. لكن رغم هذا الهدوء الظاهرى النسبى فى علاقة روما وقرطاجة إلا أن روما كانت قد زرعت شوكة فى جنب قرطاجة متمثلة فى ملك نوميديا حليف الرومان منذ ما قبل زاما ماسينيسا الذى أقامه الرومان على عرش نوميديا خلفاً لسيفاكس عام ٢٠٣ ق.م. ومنحته جزءاً من أملاك قرطاجة بعد زاما.

كان ماسينيسا ملكاً طموحاً قوياً وظل يحكم نوميديا حتى توفى عام ١٤٩ ق.م. وقد ناهز التسعين ، وظل طيلة عمره المديد قوياً يقود جيوشه فى المعارك ويمتطى صهوة جواده بغير سرج ودون معونة من أحد ، وكان يتسم بالشجاعة الفائقة دون تردد ولا وجل. وقد طوّر الزراعة والتجارة فى بلاده ، وأراد أن يتوسع فى شمال أفريقيا على حساب قرطاجة وتجاوزت سمعته وشهرته شمال أفريقيا إلى بلاد اليونان، وهناك ثلاثة تماثيل أقيمت على شرفه فى ديلوس. ورغم كل ذلك فقد ظل الحليف المخلص والصديق الصدوق لروما وعينها المفتوحة على قرطاجة والأرق الذى يُسهد جفونها ليل نهار.

ولما كانت قرطاجة مكبلة بشروط معاهدتها مع روما بعد زاما فقد كان محظوراً عليها شن أى حرب ضد اى من حلفاء روما. وانتهز ماسينيسا هذه الفرصة السانحة **وكان دائم التحرش بقرطاجة والإعتداء على حرمة حدودها** ومستوطناتهم. وكان **المألوف والمشهد المتكرر** حين يتحرش ماسينيسا بالقرطاجيين او يستفزهم بإنتهاك حدودهم ان يلجأ **القرطاجيون** إلى **تقديم شكوى لمجلس السناتو الرومانى** يشرحون فيها ملابسات الموقف. وكان **رد فعل الرومان المتوقع** هو ان يرسلوا **بعثات** حدودية تتحرى الأوضاع **وتكتب تقريراً تنحاز فيه إلى صف حليفها ماسينيسا** أو تترك الأمر معلقاً (كما فى الأعوام ١٩٣ ، ١٨٢ ، ١٧٤ ، ١٧٢ ق. م. على سبيل المثال). وفى مناسبة إحدى الخلافات الكثيرة بين قرطاجة وماسينيسا عام ١٥٣ ق.م. **ترأس كاتو الأكبر (الرقيب) بعثة التحقيق** الرومانية **وأفزعه الثراء والرفاهية الواضحة لقرطاجة** وخشى من صحوة مجددة لغريم وخصم روما القديم قرطاجة ، وهو ما قد يهدد امن روما وسلامتها ويقض مضاجعها كما حدث فى الحرب البونية الثانية. لذلك ومن بعد هذه الزيارة **أطلق "كاتو الأكبر" صيحته الشهيرة** التى تحمل كل هذا الكم من الهواجس والشكوك المتراكمة فى نفسه تجاه قرطاجة وهى **"لابد من تدمير قرطاجة Carthago delenda est"**.

هذا الرأى المتصلب المتشدد الانتقامى تجاه قرطاجة ظل كاتو يرّوج له بغير انقطاع **وكان يختتم كل خطاب له فى السناتو** - أياً كانت مناسبته - بهذه العبارة حتى **أنه أصبح يمثل تياراً من أعضاء السناتو يتبنون هذا الاتجاه** ، لاسيما وأن قرطاجة قد انتهت عام ١٥١ ق.م. من دفع القسط الأخير من تعويضات الحرب البونية الثانية ولم تعد مرتبطة بصورة قوية بزوما. ولكن **أمام هذا التيار المتصلب** المتشدد كان هناك **تيار عقلانى يتسم برحابة الأفق** وشمولية الرؤية يمثله احد أفراد عائلة سكبيو هوسكبيو ناسيكا Nasica عضو السناتو الأرستقراطى الذى سبق

له تولى القنصلية مرتين. إذ ترأس هذا السياسى بعثة تحقيق إلى قرطاجة فى العام التالى لزيارة كاتو عام ١٥٢ وأجبر ماسينيا على التراجع قليلاً عن حدود قرطاجة. وكانت **وجهة نظر ناسيكا انه لا يضير روما وجود منافس سياسى قوى على مقربة منها** لأن ذلك يجعلها فى حالة **يقظة وحيوية** . بل أن العكس هو الصحيح لأن عدم وجود منافس سيجعل روما تركن إلى التراخى ويجعل الخمول يدب فى أوصالها مما يفقدها حيويتها.

- الحرب البونية الثالثة (١٤٩ - ١٤٦ ق.م.):-

وإزاء هذا **الموقف الجدلى فى روما** حول التصرف الأمثل تجاه قرطاجة التى استعادت عافيتها وازدهارها **انتصر تيار التشدد** من جديد **وسقط تيار العقلانية، وساعدت الظروف** على الوصول إلى هذه النتيجة. ففى **عامى ١٥١ - ١٥٠ ق.م. حدث خلاف سياسى داخلى فى قرطاجة** بين جزئين : **إذ نجح الحزب الشعبى فى نفى زعماء الحزب الموالى لماسينيسا** فى قرطاجة الذين يرغبون فى التوصل إلى إتفاق معه. واصر **الملك النوميدى على عودة هؤلاء المنفيين** فى تدخل صارخ فى **الشئون الداخلية** لقرطاجة مما جعل صبر القرطاجيين ينفد **ويعلنون الحرب على ماسينيسا** غير عابئين ببنود وقيود اتفاقية السلام مع روما بعد زاما. وحدث التحام عنيف أسفر عن **نصر متواضع لصالح النوميديين** كان من نتيجته أن وافق القرطاجيون على التفاوض ، لكن المفاوضات انهارت ونجح ماسينيسا فى قطع المؤن والإمدادات عن خصومه . وهكذا أدت المجاعة وتفشى المرض إلى استسلام القرطاجيين وموافقتهم على إخلاء الحدود المتنازع عليها ودفع تعويض مالى مقداره خمسة آلاف تالنت تسدد على خمسين عاماً. ولكن فى أثناء انسحاب القرطاجيين انقض عليهم جولوسا ابن ماسينيسا وقضى على معظمهم وفرت قلة منهم إلى قرطاجة. وهكذا أسفر الموقف عن توسع جديد لماسينيسا وهو الأمر الذى كانت روما تحاول تحجيمه

حتى لا يخل بميزان القوى فى شمال أفريقيا مما يهدد المصالح الرومانية رغم تحالف ماسينيسا مع روما. كما أن هذا الموقف ضاعف من شكوك روما تجاه قرطاجة التى بدأت - مبكراً - فى التكشير عن أنيابها وعدم احترام مواثيقها مع روما ، رغم أن قرطاجة كانت تدافع عن نفسها أمام استفزاز كبير. لكن **هذه المبررات كلها لم تشفع لقرطاجة أمام شيوخ روما ولا سيما الحزب المتحفز لها من صقور روما بزعامة كاتو** الذين رفعوا **شعار "لابد من تدمير قرطاجة"** ، لقد أهداهم هذا الموقف- على طبق من ذهب - " ذريعة عادلة Justa Causa" لتنفيذ شعارهم وشن حرب مدمرة على قرطاجة !

وفى هذا الموقف **أفصحت تصرفات الرومان** عن درجة فائقة من **غرور القوة وطبائع الغدر والخداع واستغلال مسالمة الخصم أسوأ استغلال.** فقد بدأ الرومان فى تعبئة قواتهم فى إيطاليا تمهيداً لشن الحرب على قرطاجة. وحين أدركت قرطاجة صدق عزم الرومان على شن الحرب عليهم **سارع القرطاجيون بإدانة قادتهم العسكريين** الذين تسببوا فى خرق المعاهدة مع الرومان والاشتباك مع ماسينيسا **وحكموا عليهم بالإعدام.** كما أرسلوا بعثة إلى روما **تشكو من عدوان ماسينيسا** وتلقى **باللام على القادة الذين أعدموا** فى فقدان القرطاجيين لأعصابهم والاشتباك معه. وهنا سأل أحد أعضاء السناتو المبعوثين القرطاجيين : لماذا لم تدينوا هؤلاء القادة قبل بدء الحرب؟ وحين سأله المبعوثون القرطاجيون بذلة ومسكنة عن **السبيل للتكفير عن خطيئتهم** كان رد الرومان أنه **لابد من إرضاء الشعب الرومانى** دون أن يحددوا كيفية ذلك. وفى خلال ذلك الاستعطاف الذليل والإملاء المتجبر المهين كانت روما قد أتمت استعداداتها للغزو المدبر والذى لن تحول دونه أعذار أو مبررات.

واعلنت روما الحرب على قرطاجة واعدت **جيشاً قوامه ثمانين الف رجل** عبروا البحر إلى مدينة **اوتيكا على الساحل الأفريقى والتى تخلت عن قرطاجة** وهجرتها وسلمت امورها للرومان دون قيد أو شرط فى بدايات عام ١٤٩ ق.م. وكان على راس الحملة الرومانية القنصلان ماركوس **مانيليوس** قائد القوات البرية ولوكيوس ماركيوس كينسورينوس قائد الأسطول . وكان بوبليوس **كورنيليوس** سكبيو ايميليانوس - الذى سيدمر قرطاجة بعد ثلاث سنوات - أحد الترابنة العسكريين فى هذه الحملة. وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الحملة العسكرية تمخر عباب البحر باتجاه الساحل الأفريقى وصلت إلى روما **بعثة قرطاجية من خمسة سفراء** لتعلن أن القرطاجيين قد استقر قرارهم على **الاستسلام غير المشروط deditio للرومان** باعتباره الأمل الوحيد فى نجاتهم ، ولكن سبق السيف العذل فالحرب قد أعلنت والقناصل قد أبحروا على راس جيشهم. ولكن رغم ذلك فإن اعضاء **السناتو** أخبروا البعثة القرطاجية أنه **بوسع القرطاجيين ان يحتفظوا بحريتهم وقوانينهم وحدودهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بشرط ان يسلموا ثلاثمائة من رجال الأرستقراطية القرطاجية للرومان** كرهائن ضماناً لحسن النية وأن **"يطيعوا الأوامر التى ستفرض عليهم (القرطاجيين) من قبل القناصل"**. وكان من اللافت - كما ألح احد اعضاء الوفد - أنه لم يرد ذكر فى حديث أعضاء السناتو عن المدينة (قرطاجة) ، ولكن لم يعد هناك مجال للتراجع وتم تسليم الرهائن المطلوبين.

أما عن **قادة الحملة** من القناصل الرومان فقد **فرضوا تعتيماً** على **الغرض الحقيقى** من حملتهم ولكنهم طالبوا القرطاجيين **بتسليم كافة ماالديهم من أسلحة** : ٢٠٠,٠٠٠ من الدروع الواقية والفين من الراجمات (المجانيق) ، وقد **قام القرطاجيون بتسليمها دون مناقشة**. ثم صدرت **الأوامر لثلاثين من صفوة مواطنى قرطاجة بالتوجه إلى روما لتلقى**

الأوامر الأخيرة من السناتو وبعد كل ذلك **أعلن القناصل قرار السناتو** وهو أنه **لابد لسكان قرطاجة ان يقوموا بإخلائها لأن الرومان سيقومون بتدميرها وأنه بوسع السكان أن يستقروا فى أى مكان يشاءون شريطة ان يبعد عن البحر مسافة عشرة أميال !!** منتهى الصلف والعجرفة وجنون العظمة !!! عند هذا الحد بلغ السيل الزبى ووصلت القلوب الحناجر **ونفضت قرطاجة عن نفسها ثوب الخوف والتخاذل** وانتفضت أبية مصممة على **عدم الخضوع والتسليم** للمعتدى الآمر الناهى. فعندما رفض القناصل بصورة فظة حديث استرحام بليغ ألقاه " بانو Banno " احد زعماء القرطاجيين تفجرت بين القرطاجيين كل كوامن الكراهية والخوف والياس وانطلقت من عقالها كالبركان، **واتخذ الجميع قرار المقاومة والصمود بكل ما أوتوا من قوة.**

وعلى الفور تم إغلاق بوابات المدينة وحراسة أسوارها حراسة مشددة ، وأعتق العبيد وتم انتخاب اثنين من القادة هما : **هاسدروبعل** - القائد الذى فر من قرطاجة عقب خرق المعاهدة مع الرومان والإلتحام مع ماسينيسا عام ١٥٠ وإعدام بقية زملائه لإرضاء الرومان وجمع حوله ما يزيد عن عشرين ألفاً من أنصاره من المنشقين على الحكومة القرطاجية - الذى استدعى من الريف القرطاجى وطلب منه نسيان الماضى وفتح صفحة جديدة، **وهاسدروبعل آخر هو حفيد لماسينيسا!** وقدم القرطاجيون طلباً رفضه الرومان بإبرام هدنة لمدة شهر. وعلى أثر ذلك **انقلبت قرطاجة إلى خلية نحل تعج بالنشاط** على مدى الأربع والعشرين ساعة كل يوم **وتحولت حتى المعابد إلى مصانع وورش لصنع الأسلحة والذخائر من جديد.** وقام القرطاجيون **بتقوية أسوار المدينة** وقام القائد هاسدروبعل - الذى يسيطر أنصاره على ريف قرطاجة - **بإمداد المدينة بما تحتاج إليه من مؤن** ، وفى حين انقلبت معظم المدن الساحلية على

قرطاجة مثل اوتيكا إلا أن بقية رعاياها من الليبيين ظلوا على ولاءهم لها وانتظر القناصل الرومان لبعض الوقت ريثما تستسلم المدينة العزلاء.

وبعد الصبر والإنتظار تحرك القنصلان مانيليوس وكينسورينوس فى صيف عام ١٤٩ ق.م. بقواتهما البرية والبحرية ضد قرطاجة، ولكنهم وجدوا أن **أمر اقتحام المدينة أصعب كثيراً** من تصوراتهم : لقد كانت **أسوار المدينة منيعة** تستعصى على الاقتحام وكان **موقعها الطبيعى فى غاية القوة.** وقد أقام القائد مانيليوس معسكره فى موقع يقع إلى الشمال من البرزخ الذى يربط قرطاجة بريفها ليمنع وصول الإمدادات إليها فى حين رابط زميله كينسورينوس باسطوله قبالة الشاطئ الجنوبى للمدينة عند بحيرة تونس. **وبعد محاولة هجوم فاشلة قرر القنصلان فرض حصار على المدينة** ، ولكن الظروف الصحية غير الملائمة حيث المياه الراكدة لبحيرة تونس أجبرت كينسورينوس على الابتعاد عن شاطئ المدينة إلى عرض البحر وقام القرطاجيون **بتخريب أسطوله.** وحين ذهب إلى روما لتنظيم وإجراء انتخابات القنصلية للعام التالى **هاجم القرطاجيون معسكر زميله مانيليوس** ، ولكن تم تدارك **الموقف من خلال مهارة الضابط سكيبو ايميليانوس** الذى أظهر تميزه وقدراته فى عدد من المواقف خلال فصل الشتاء رغم أن جهود القنصل مانيليوس إجمالاً لم تكلل بالنجاح.

وفى عام ١٤٨ ق.م. انتخب للقنصلية القنصل لوكيوس **كالبورينوس بيسو** الذى كلف بمواصلة الحرب ضد قرطاجة ووصل إلى هناك وبرفقته القائد البحرى ل. **هوستيليوس مالكينوس** لقيادة الأسطول. ولكن الاثنين تخوفا من التجارب الفاشلة لسابقيهما ولم يهاجما قرطاجة بل هاجما حلفاء قرطاجة والمدن التى ظلت على ولائها لها ، ومع ذلك **لم يحرزا إلا تقدما محدوداً.** وترتب على ذلك **اكتساب القرطاجيين**

لمزيد من الثقة وأقاموا اتصالات مع الـ Mauri سكان موريتانيا (المغرب الحالية) ومع اندريسكوس مدعى خلافة العرش المقدونى . كما أن ابناء ماسينيس - الذى توفى عام ١٤٩ ق.م. وخلفه أبناؤه الثلاثة - لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بتقديم العون لروما. كما ان مانكينوس - القائد البحرى - ارتكب بعض الأخطاء فى عملياته العسكرية أدت إلى حصاره فى ضاحية شمال قرطاجة تدعى ميجارا وكان فى موقف حرج للغاية لولا ان وصلته مساعدات من أوتيكا وكذلك لولا ان انقذه سكبيو أيميليانوس الذى كان قد وصل لتوه من روما.

كان سكبيو أيميليانوس قد ذهب إلى روما ١٤٨ ليرشح نفسه لمنصب الإيديل وكان واثقاً من فوزه بعد أن ابلى بلاءً حسناً فى الحملة على قرطاجة خلال عامى ١٤٩ و ١٤٨ ق.م. ولكن العامة فى روما - الذين أبدوا إعجابهم ببسالته وكانوا مستائين فى الوقت ذاته من القدرات المحدودة لبقية قادة الحملة والتى لم تحسم الموقف فى قرطاجة على مدى عامين - رشحوه للقنصلية بل وانتخبوه كاحد قنصلى عام ١٤٧ ق.م. وكلفوه بقيادة الحملة ضد قرطاجة بعد أن ضربوا بالقانون عرض الحائط فى هذا الموقف الاستثنائى وأمام هذا البطل الذى شعروا بتفرده وتميزه ، تماماً كما حدث مع جده بالتبنى سكبيو الإفريقى الكبير قاهر هانيبعل فى الحرب البونية الثانية. إذ لم يكن سكبيو بلغ السن القانونية للترشيح للقنصلية (٤٣ عاماً) ولم يكن قد شغل المناصب المؤهلة لها من ايديل ثم برايتور ، لكن الإجماع الشعبى عليه أعطى القانون إجازة لبعض الوقت .

وبمجرد وصول سكبيو أيميليانوس إلى افريقيا كقائد للحملة قرر أن يحكم حصاره على المدينة تماماً ولا يترك لها ثغرة فى الاتصال بالعالم الخارجى حتى تجثو على ركبتيها وتطلب التسليم. وبينما كان

سكيبو إيميليانوس منهمك في إعادة الجيش والانضباط للقوات الرومانية المتراخية كان القائد القرطاجي هاسدروبعل يتحصن في موقع قوي على طرف البرزخ المقابل للسور الغربي من المدينة، وعسكر سكيبو قبالته ولكي يسيطر على هذا البرزخ ويعزل مدينة قرطاجة عن بقية أرض قرطاجة إلى الغرب شن سكيبو هجوما ليليا على الجانب الشمالي الغربي من أسوار قرطاجة وتوغل بنحو أربعة آلاف مقاتل إلى ضاحية ميجارا وقد أحدث هذا الهجوم ذعرا وفزعا في صفوف القرطاجيين مما دفع هاسدروبعل إلى الإسراع إلى هناك تاركا موقعه الأمامي الحصين في ربيع عام ١٤٧ ق.م. وبذلك حقق سكيبو هدفه المباشر وسحب رجاله من تلك الضاحية القرطاجية وقام بإنشاء خط مزدوج من المتاريس الترابية عبر البرزخ على مقربة من سور المدينة. وكان رد هاسدروبعل على ذلك هو ان قام بتشويه الأسرى الرومان وألقى بهم من فوق الأسوار. وهكذا انقطعت الإمدادات عن قرطاجة كلية عن طريق البر من الغرب.

ولكي يكمل سكيبو تطويقه للمدينة من الجهة الشرقية البحرية جعل أسطوله وعليه عددا كبيرا من جنوده يرابطون أمام الخليج الواقع جنوب شرق المدينة، وانطلاقا من هذا الموقع بدأ في إقامة سد حاجز يمتد في البحر عبر مدخل الميناء القرطاجي. وحين رأى القرطاجيون العمل في هذا المشروع يسير بخطى حثيثة شرعوا في بناء خمسين سفينة حربية وشقوا قناة جديدة من داخل الميناء نحو الشرق باتجاه البحر وذهل الرومان وهم يرون هذا الأسطول الجديد وقد اتخذ مكانه في البحر. وبعد ذلك وقع التحام بين السفن الرومانية والقرطاجية خارج الميناء كانت الغلبة فيه للرومان، أما السفن القرطاجية فقد حاول بعضها ان يعاود الدخول من المدخل الضيق للميناء عبر القناة الجديدة واصطدم بعضها بالأرصفة ودمر. وبعد معركة يائسة من جانب القرطاجيين نجح سكيبو في السيطرة على أرصفة الميناء وأقام موقعا حصينا يشرف

عدم وضوح من الأصل

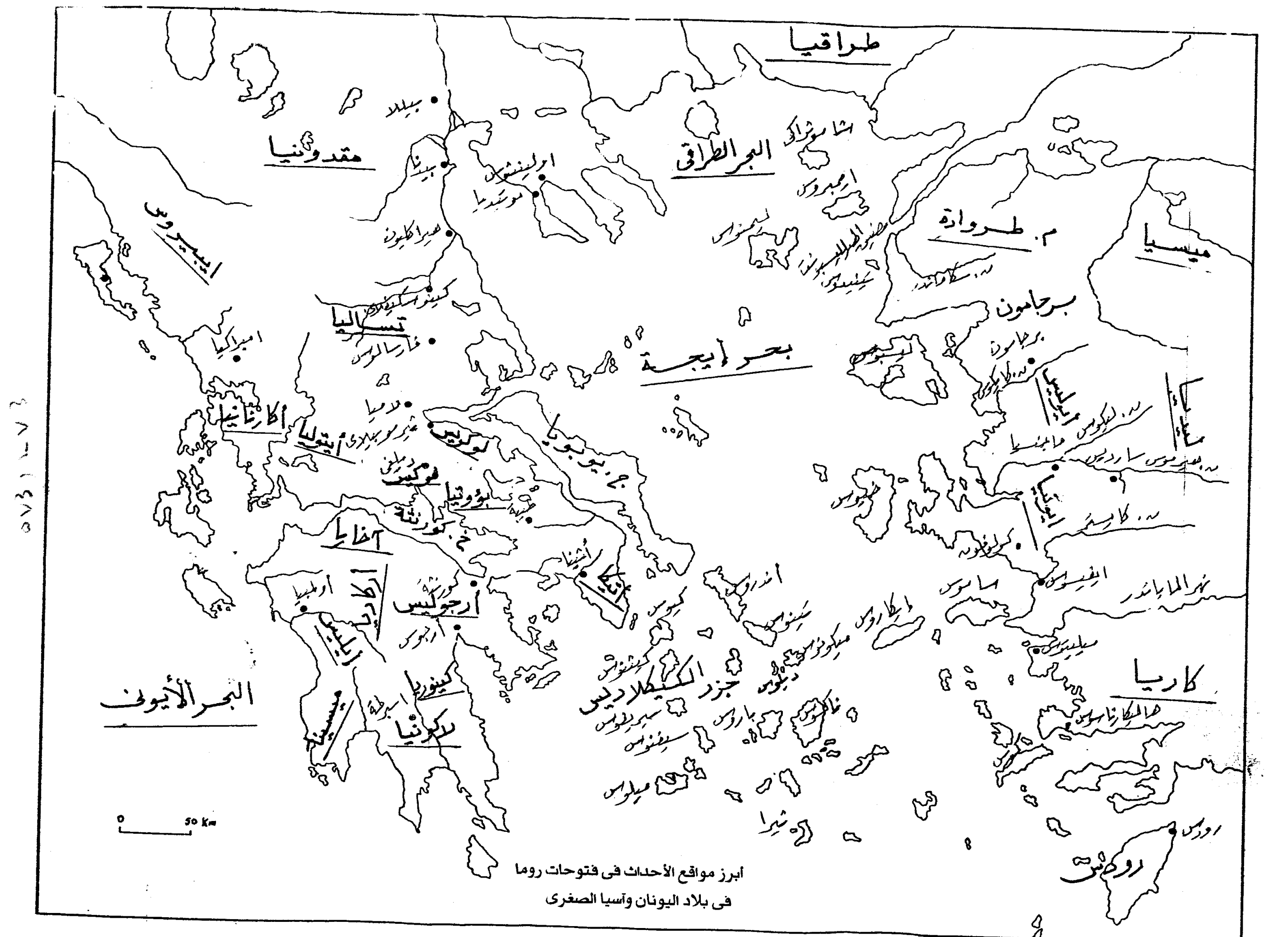
على الميناء بأكمله [illegible] قرطاجة [illegible] الرومان [illegible]
كما سارعت [illegible] كانت [illegible] قرطاجة [illegible]
[illegible]

وفي ربيع عام ١٤٦ ق م أصدر سكيبيو أيميليانوس أوامره بالهجوم النهائي على المدينة" وبينما أشعل هاسدروبعل النيران [illegible] الجنوبي من الميناء حيث توقع أن يهاجم الرومان من هناك كان لايليوس قد نجح في فتح ثغرة في سور المدينة إلى الشمال عند الجزء المواجه للبحر من الميناء الداخلي ومن هذه الثغرة تقدم لايليوس والجند الرومان إلى سوق المدينة حيث فر المدافعون إلى تل بيرسا Byrsa **وتواصل قتال الرومان ضد القرطاجيين على مدى ستة ايام بلياليها** وظلوا يتقدمون رويداً تجاه التل المرتفع وسط البيوت **التى أشعلوا فيها النيران ودمروها واحداً وراء الآخر** وفي اليوم السابع **استسلمت قلعة المدينة** وسيق نحو **خمسين ألفاً من الرجال والنساء** إلى **أسواق الرقيق** وصاروا عبيداً وكان المشهد الأخير عند **معبد بعل حاسمون** الذى اشتعلت فيه النيران **وهلكت بين اطلاله زوجة هاسدروبعل** التى انفت من تسليم نفسها وآثرت أن تلقى حتفها **وظلت النيران مشتعلة في أطلال** قرطاجة بعد ذلك **لمدة عشرة أيام** وسويت خرائبها بالأرض وحتى لا تقوم لها قائمة من بعد ذلك **حُرثت أرضها بالمحراث وألقى الرومان بالملح في اخاديدها** . وتليت تعاويذ بأن تحل اللعنة بمن يحاول بعث الحياة فيها من جديد

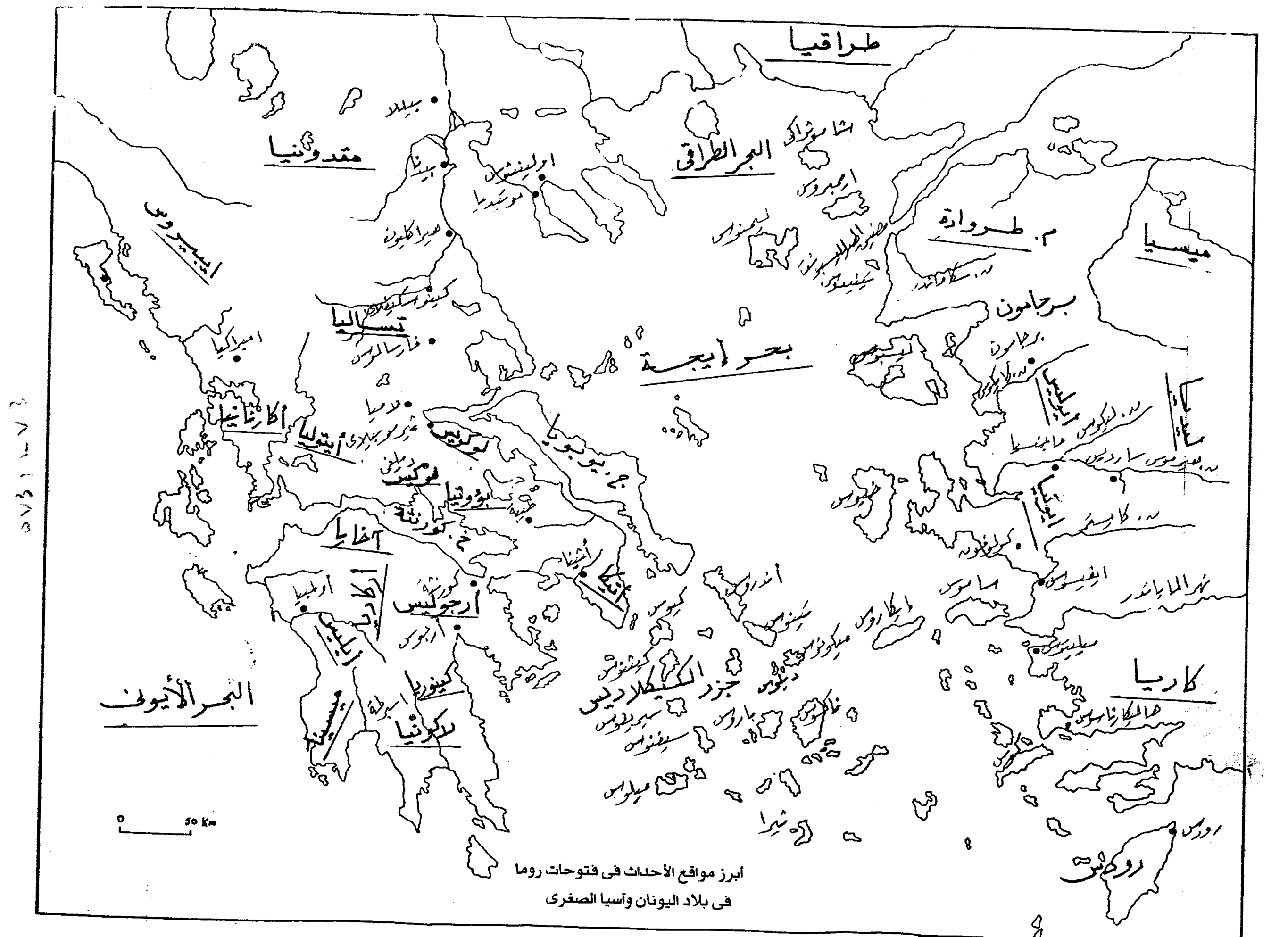
وهكذا رأينا الرومان وهم ينطلقون في أرجاء البحر المتوسط على مدى القرن الثانى غرباً وشرقاً وقد راقت لهم **نزعة التوسع والعدوان بغير ضابط ولا رابط وبغير أى وازع اخلاقى مما كانوا يفاخرون به في** فتوحاتهم المبكرة في العصر الجمهورى المبكر لقد أصابهم سعار الإمبراطورية الكبرى التى تريد أن **يختفى جميع المنافسين من الساحة**

لتصبح **القطب الأوحد** خارج المنافسة وفى سبيل تحقيق هذا الهدف استخدم الرومان **القوة الباطشة** مع خصومهم ، وإذا لم تنجح وحدها فلا بأس من اللجوء إلى **وسائل أخرى مثل نقض العهود والمواثيق والتنكيل بالخصوم واللجوء إلى الغدر والخديعة والقسوة المفرطة**

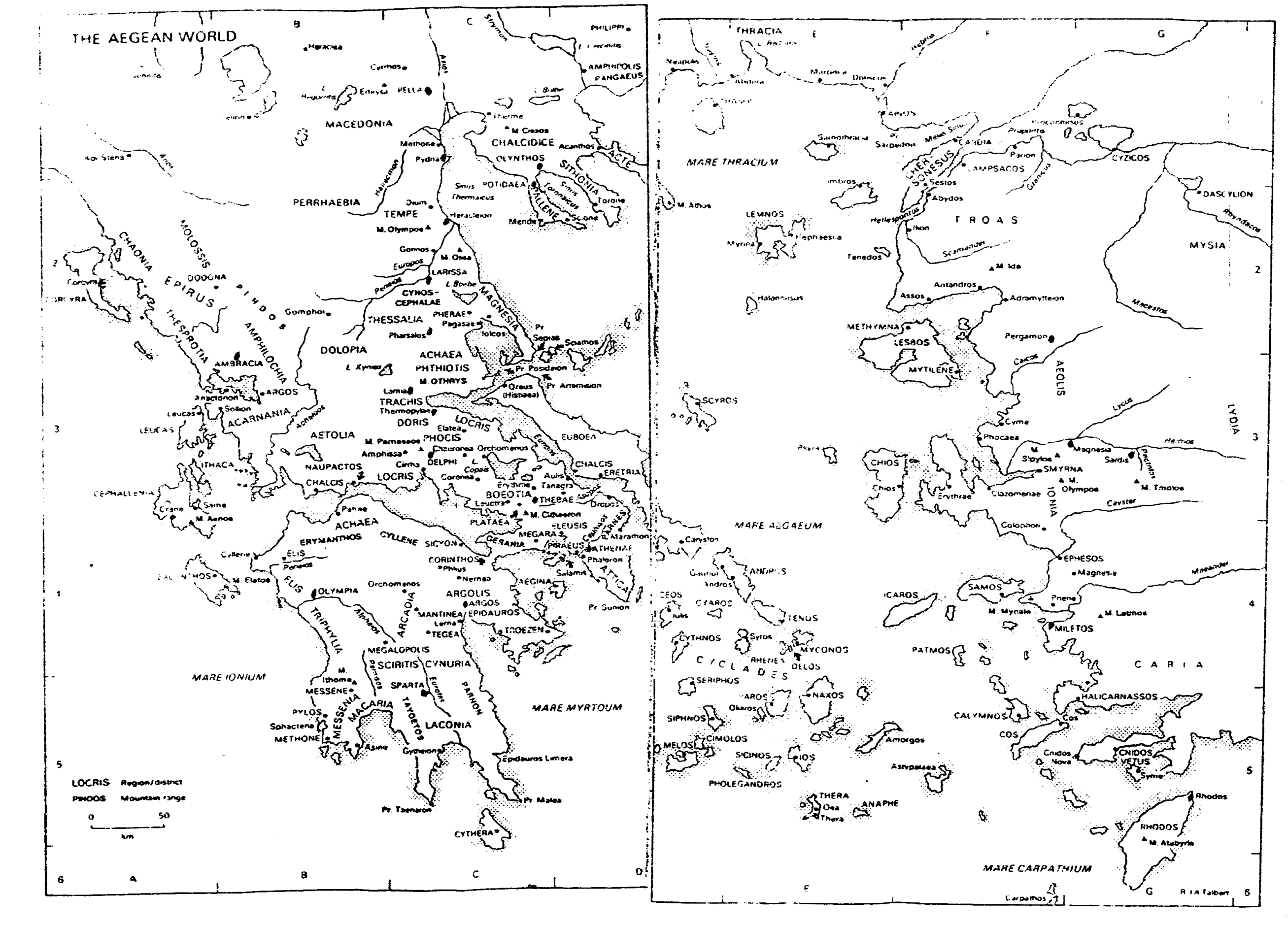
لقد طبق الرومان منذ وقت مبكر جدا مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" الذى ربما توصل إليه ميكيافيللى - الإيطالى - بعد استقراء متأنى لصفحات التاريخ الرومانى!

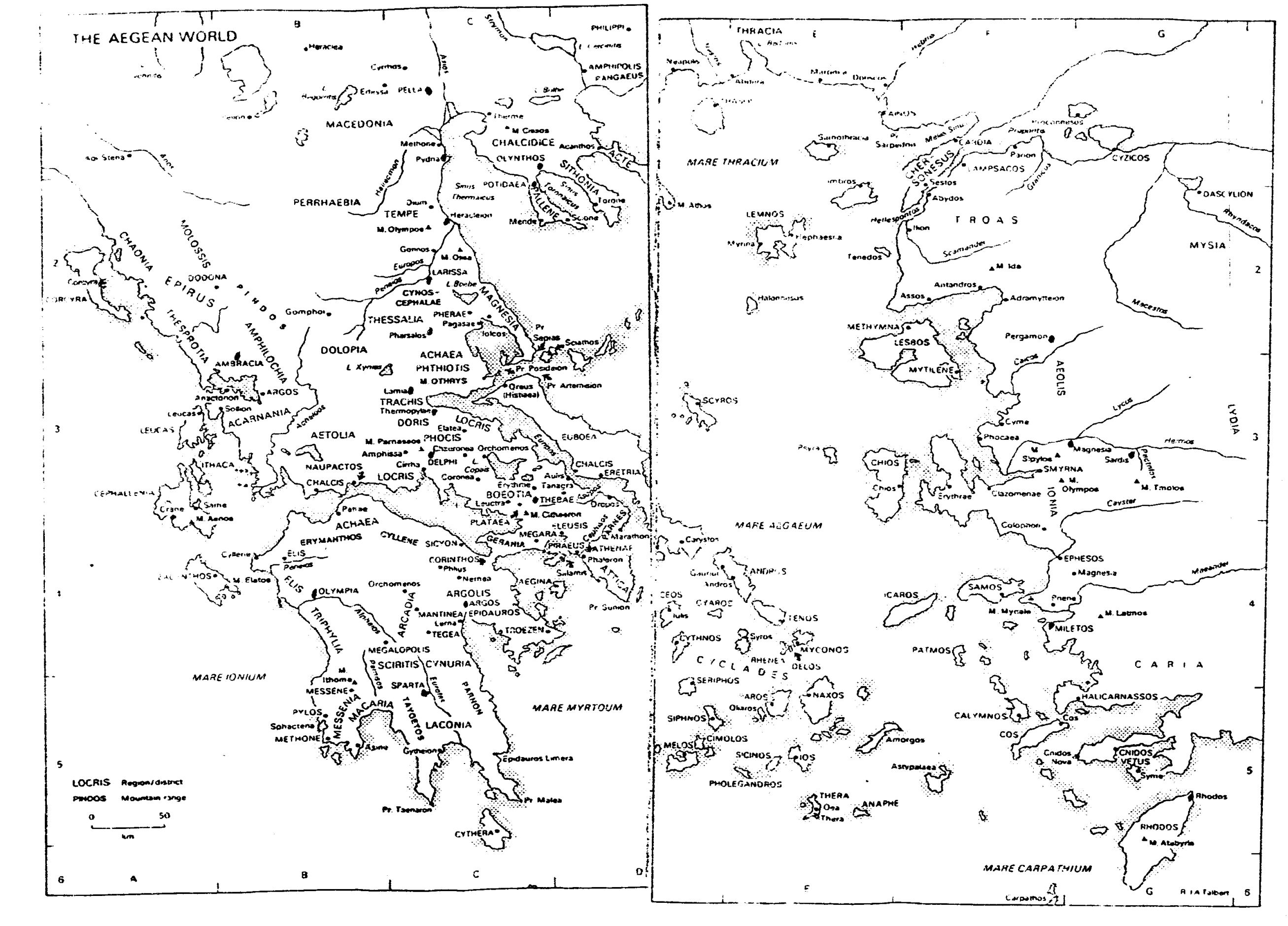


ابرز مواقع الأحداث فى فتوحات روما
فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى



ابرز مواقع الأحداث فى فتوحات روما
فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى


THE AEGEAN WORLD
MACEDONIA
CHALCIDICE
OLYNTHOS
SITHONIA
PALLENE
POTIDAEA
PELLA
PERRHAEBIA
TEMPE
M. Olympos
CHAONIA
EPIRUS
MOLOSSIS
PINDOS
THESPROTIA
AMPHILOCHIA
AMBRACIA
ARGOS
ACARNANIA
LEUCAS
ITHACA
CEPHALLENIA
DOLOPIA
THESSALIA
LARISSA
CYNOS-CEPHALAE
PHERAE
MAGNESIA
ACHAEA PHTHIOTIS
M. OTHRYS
TRACHIS
DORIS
LOCRIS
AETOLIA
PHOCIS
DELPHI
NAUPACTOS
CHALCIS
BOEOTIA
THEBAE
PLATAEA
EUBOEA
ERETRIA
MEGARA
ATHENAE
ATTICA
PARNES
ACHAEA
ERYMANTHOS
CYLLENE
SICYON
CORINTHOS
ELIS
OLYMPIA
TRIPHYLIA
ARCADIA
ARGOLIS
ARGOS
MANTINEA
EPIDAUROS
TEGEA
TROEZEN
AEGINA
MEGALOPOLIS
SCIRITIS
CYNURIA
SPARTA
MESSENE
MESSENIA
MACARIA
TAYGETOS
LACONIA
PARNON
PYLOS
METHONE
CYTHERA
MARE IONIUM
MARE MYRTOUM
LOCRIS Region/district
PINDOS Mountain range
0 50
km
THRACIA
MARE THRACIUM
LEMNOS
CHERSONESUS
LAMPSACOS
CYZICOS
DASCYLION
MYSIA
TROAS
M. Ida
Assos
Antandros
Adramytteion
Pergamon
AEOLIS
METHYMNA
LESBOS
MYTILENE
LYDIA
SCYROS
Cyme
Phocaea
Magnesia
Sardis
SMYRNA
CHIOS
Erythrae
Clazomenae
IONIA
Colophon
EPHESOS
MARE AEGAEUM
ANDROS
CEOS
CYTHNOS
TENOS
MYCONOS
DELOS
CYCLADES
SERIPHOS
PAROS
NAXOS
SIPHNOS
MELOS
CIMOLOS
SICINOS
IOS
PHOLEGANDROS
THERA
ANAPHE
Amorgos
Astypalaea
ICAROS
SAMOS
M. Mycale
MILETOS
PATMOS
CARIA
CALYMNOS
COS
HALICARNASSOS
CNIDOS
Rhodos
RHODOS
M. Atabyris
MARE CARPATHIUM
R. J. A. Talbert


THE AEGEAN WORLD
MACEDONIA
PELLA
CHALCIDICE
OLYNTHOS
POTIDAEA
SITHONIA
PALLENE
ACTE
AMPHIPOLIS
PANGAEUS
PHILIPPI
PERRHAEBIA
TEMPE
M. Olympos
MOLOSSIS
CHAONIA
EPIRUS
DODONA
PINDOS
THESPROTIA
AMPHILOCHIA
AMBRACIA
ARGOS
ACARNANIA
LEUCAS
ITHACA
CEPHALLENIA
DOLOPIA
THESSALIA
LARISSA
CYNOS-
CEPHALAE
PHERAE
MAGNESIA
ACHAEA
PHTHIOTIS
M. OTHRYS
TRACHIS
Thermopylae
DORIS
LOCRIS
AETOLIA
PHOCIS
DELPHI
NAUPACTOS
CHALCIS
EUBOEA
ERETRIA
BOEOTIA
THEBAE
PLATAEA
M. Cithaeron
MEGARA
ELEUSIS
PARNES
ATHENAE
ATTICA
Pr. Sunion
ACHAEA
ERYMANTHOS
CYLLENE
SICYON
CORINTHOS
AEGINA
ELIS
OLYMPIA
ARGOLIS
ARGOS
EPIDAUROS
MANTINEA
TEGEA
TROEZEN
ARCADIA
TRIPHYLIA
MEGALOPOLIS
SCIRITIS
CYNURIA
PARNON
SPARTA
TAYGETOS
LACONIA
MESSENE
MESSENIA
MACARIA
PYLOS
METHONE
Pr. Taenaron
Pr. Malea
CYTHERA
MARE IONIUM
MARE MYRTOUM
LOCRIS Region/district
PINDOS Mountain range
0 50
km
THRACIA
MARE THRACIUM
LEMNOS
Imbros
Samothracia
CHERSONESUS
Sestos
Abydos
Hellespontus
LAMPSACOS
CYZICOS
DASCYLION
MYSIA
TROAS
Ilion
Tenedos
M. Ida
Assos
Antandros
Adramytteion
METHYMNA
LESBOS
MYTILENE
Pergamon
AEOLIS
SCYROS
Cyme
Phocaea
Magnesia
Sardis
LYDIA
SMYRNA
CHIOS
Erythrae
Clazomenae
IONIA
M. Tmolos
Colophon
MARE AEGAEUM
ANDROS
TENOS
EPHESOS
SAMOS
M. Mycale
ICAROS
Priene
MILETOS
M. Latmos
CEOS
GYAROS
CYTHNOS
Syros
MYCONOS
DELOS
CYCLADES
SERIPHOS
PAROS
NAXOS
SIPHNOS
MELOS
CIMOLOS
SICINOS
IOS
PHOLEGANDROS
Amorgos
Astypalaea
THERA
ANAPHE
PATMOS
CARIA
HALICARNASSOS
CALYMNOS
COS
Cnidos
CNIDOS VETUS
Syme
Rhodos
RHODOS
M. Atabyris
MARE CARPATHIUM
Carpathos
R.I.A. Talbert

مراجــع الفصلين العاشر والحادى عشر

(١) عن العالم الهيللينيستى واوضاعه انظر المراجع الآتية :

- *F. Walbank, The Hellenistic World*, 2nd, 1993; *C. Preaux, Le Monde hellenistique*, 1978; *R. K. Sherk, Rome and the Greek East to the death of Augustus (A source book edited and translated by R. K. Sherk)*, 1984.

وكذلك المصادر الآتية عن أوضاع العالم الهيللينيستى والحرب المقدونية الثانية :-

- *Polyb*; *XV*, 20- 25; *XVI*, 1-12; 24–35; *XVIII*, 1–12; 18–39; 42–48; *Liv.*, *XXXI*, 1–9; 14–18; 22–47; *XXXII*, 1–25; 28; 32–40; *XXXIII*, 1–21; 27–35; *XXXIV*, 22–41; 48–52; *Appian., Maced., IV-Ix*; *Dio Cassius XVIII*, 57–60; *Plutarch, Flamminius.*

(٢) عن تاريخ مقدونيا والمد التوسعى لملوكها بمن فيهم فيليب الخامس أنظر :

- *F.W. Walbank, Philip V of Macedon*, 1940; *R. Errington, History of Macedonia (1986; trans. 1990)*; *R. Billows, Kings and Colonists; Aspects of Macedonian Imperialism*, 1995.

(٣) عن أنطيوخوس الثالث (الأكبر) وعصره وحروبه أنظر :

- *H.H. Schmitt, Untersuchungen zur Geschichte Antiochos' des Grossen und seiner Zeit* 1964; *E. Will, Histoire politique du monde hellenistique* 2, 2nd *edn.*, 1982.

وفى المصادر راجع عن حرب روما مع أنطيوخوس فى بلاد اليونان:

- *Polyb., XVIII,* 49–52; *XX,* 3; 7–11; *XXI,* 1–4; *Liv., XXXIII,* 38–41; *XXXIV,* 57; *XXXV,* 12; 13; 15–19; 25–39; 42–51; *XXXVI,* 1–35; *Appian., Syr., I,* 1 – *IV,* 21; *Flor., I,* 24; *Plut, Cato,* 13–14; *Zon., IX,* 18–19.

وعن الحرب ضده فى آسيا الصغرى راجع :

- *Polyb., XXI,* 6–48; *Liv., XXXVI,* 41–45; *XXXVII,* 1-45; 52–57; 60; *XXXVIII,* 1–41; *Appian., Syr., V,* 22- *VII,* 44; *Flor., I,* 27; *Zon., IX,* 20; 21.

(٤) عن الحرب المقدونية الثالثة ودور الملك بيرسيوس فى المواجهة مع روما انظر :

- *P.Meloni, Perseo e la fine della monarchia macedone,* 1953; *E. S. Gruen, The Hellenistic World and the Coming of Rome,* 1984, *PP.* 505*ff.*; *P.s. Derow, CAH* 8^2, 1989, *PP.* 303 *ff.*

وراجع المصادر الآتية :

- *Polyb., XXII,* 1–4; 6–15; 18; 19; *XXIII,* 1–18; *XXIV,* 1–3; 6–13; *XXV,* 2; *XXVII,* 1–11; 14–16; *XXVIII,*

3–15; *XXIX*, 1–11; 13–21; *XXX*, 6–15; 22; 29; 32; *Liv.*, *XXXIX*, 23-29; 33–37; 46–53; *XL*, 2–16; 20–24; 54–58; *XLI*, 22–25; *XLII*, 5; 6; 25–67; *XLIII*, 7–12; 17–23; *XLIV*, 1–13; 16; 18; 20–46; *XLV*, 4; 6–9; 17; 18; 26–34; *Appian.*, *Maced.*, *XI-XIX*; *Illyr.*, *II*, 9; 10; *Dio Cass.*, *XX*; *Flor.*, *I*, 25; *Plut.*, *Aem. Paullus*; *Zon.*, *IX*, 22–24.

(٥) عن تاريخ رودس القديم وعلاقاتها بالرومان راجع :

- *H. van Gelder*, *Geschichte der alten Rhodier*, 1900; *P.M. Fraser and G.E.Bean*, *The Rhodean Peraea and Islands*, 1954; *H.H. Schmitt*, *Rom und Rhodos*, 1957.

(٦) عن تاريخ عائلة الأتاليين الحاكمة فى برجامون وتطور علاقاتها بالرومان انظر :

- *E. Hansen*, *The Attalids of Pergamon*, 1971; *R. Allen*, *The Attalid Kingdom*, 1983; *W.Radt*, *Pergamon. Geschichte und Bauten*, 1988.

(٧) عن انطيوخوس الرابع وسيرته انظر :

- *O. MØrkhØlm*, *Antiochus IV of Syria*, 1966.

(٨) عن تعامل روما مع العالم اليونانى بعد القضاء على مملكة مقدونيا بعد موقعة "بيدنا" انظر المصادر الآتية :

- *Polyb.*, *XXII*, 5; 16; 17; *XXIV*, 1; 5; 14; 15; *XXV*, 1; 4–6; *XXVI*, 1; *XXVII*, 3; 4; 7; 17–20; *XXVIII*, 1; 2; 16–23; *XIX*, 2; 22–27; *XXX*,

1–5; 16–21; 23–28; 30; 31; *XXXI,* 1–20; 30–33; *XXXII,* 1–12; 15; 16; *XXXIII,* 1–7; 11–19; *XXXV*6; *XXXVI,* 14; 15, *XXXIX,* 7; *Liv., XLI,* 20; *XLII,* 11–17; 45; *XLIII,* 6; *XLIV,* 14; 15; 19; *XLV,* 3; 10–13; 19–26; 44; *Epit.. XLVI - LIII.*

(٩) عن ثراء كورنثة الذى ربما كان سبباً قوياً فى حقد الرومان عليها وتدميرها بإيعاذ من رجال الأعمال الرومان من طبقة الفرسان أنظر :

- *J.B. Salmon, Wealthy Corinth,* 1984.

وعن موقعها المتميز فى بلاد اليونان أنظر:

- *J. Wiseman, Land of the Ancient Corinthians,* 1978.

(١٠) راجع المصادر الآتية عن الحملات الرومانية فى أسبانيا وسياسة الرومان هناك على مدى القرن الثانى ق.م. :

- *Polyb., XXXV,* 1–5; *Liv., XXXIII,* 21; *XXXIV,* 8–21; *XXXV,* 1; 2; 22; *XXXIX,* 20; 21; 30; 31; *XL,* 16; 30–33; 35; 36; 39; 40; 47–50; *XLI,* 26; *Appian., Iber., VIII,* 39- *XVI,* 39; 98; *Dio Cass. XXII- XXIII: Flor., I,* 33; 34; *Plut.. Cato,* 10; *Zon.. IX,* 17.

(١١) عن تداعى الأحداث بين روما وقرطاجة من بعد موقعة "زاما" عام ٢٠٢ وصولاً إلى الحرب البونية الثالثة وتدمير قرطاجة راجع المصادر الآتية :

- *Polyb. XXXI,* 21; *XXXVI,* 1–9; 16; *XXXVIII,* 7; 8; 19–22; *Liv., XXXI,* 11; 19; *XXXIII,* 45–49;

XXXIV, 60–62; *XXXVIII*, 7; 8; 19–22; *Liv.*; *XXXI*, 11; 19; *XXIII*, 45–49; *XXXIV*, 60–62; *XXXV*, 14; *XXXIX*, 51; *XL*, 17; *XLII*. 23; 24; *XLV*. 13; 14; *Epit.*, *XLVIII- LIII*: *Appian.*, *Lib* .. *X*, 67-*XX*, 136; *Flor.*, *I*, 31; *Zon. IX*, 18; 26; 27; 29; 30.